الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

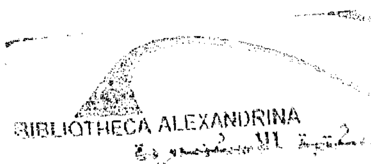
مارس - ابريل ١٩٦٩

الجزء الثاني



مطبعة دار الكتب
١٩٧١

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - ابريل ١٩٦٩

الجزء الثاني



مطبعة دار الكتب
١٩٧١

اهداءات ٢٠٠١

ا.د/ هنري أمين عوض

القاهرة

أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي

د. سعاد ماهر

أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة
على فن القاهرة في العصر الفاطمي

د. سعاد ماهر

قام الفن التشكيلي فى العصر الإسلامى على أسس من فنون البلاد التى خضعت للدولة الإسلامية المترامية الأطراف التى امتدت من المحيط الهندى شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا . فقد جمع الفن الإسلامى عناصره من تلك الفنون جميعها واستبعد منها ما ينهى عنه الدين أو ما لايوافق مزاجه العربى ، ثم مزج الباقى فى بوتقة وأخرج منها فنا متجانسا متسقا . وقد استغرقت هذه العملية من جمع واستبعاد ومزج ثلاثة قرون تقريبا أصبح للفن الإسلامى بعدها مميزاته الخاصة التى لا تخطئها العين .

وهكذا نستطيع القول إن الفن الإسلامى أخذ قوامه الروحى من شبه الجزيرة العربية أما قوامه المادى فقد تم صوغه فى أماكن أخرى كان للفن فيها قوة وحياة .

هذا هو شأن الفن الإسلامى فى إجماله ، أما عن تفصيله فمما لاشك فيه أنه كان لكل من أقاليم الدولة الإسلامية مميزات محلية خاصة، وإن لم تختلف فى الجوهر والإطار العام . أما عن جوهر الفنون الإسلامية فهو الخط العربى الذى انفرد الفن الإسلامى دون غيره من فنون العالم القديم والحديث باستعماله بل هو أهم عناصره ، إذ كانت الدولة تحتم وجوده على بعض المواد

كالطراز على اعتبار أنه شارة من شارات الخلافة. أما الإطار العام فهو حصر الزخارف التى اقتصرت على العناصر النباتية والهندسية تقـريبا فى أشرطة عرضية حتى توائم الأشرطة الكتابية التى يستحيل وضعها فى شريط رأسى .

وإذا أردنا أن نتحرى الدقة فيجب أن نضيف أن الفن الإسلامى كان عليه مسحة بيزنطية واضحة عندما كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية أما فى العصر العباسى فقد تأثر بالفن الساسانى عندما انتقل مركز الخلافة إلى العراق موطن الفرس القدماء .

ولمـا كانت مصر ولاية إسلامية تتبع دمشق فى العصر الأموى وتخضع للخليفة فى بغـداد فى العصر العباسى فقـد كان من الطبيعى أن تسير فنونها فى فلك فنون عاصمة الخلافة وتنهج نهجها ، واستمرت الحال على ذلك حتى منتصف القرن الرابع الهجرى عندما استطاعت الدولة الفاطمية أن تقضى على نفوذ الدولة العباسية فى مصر وتؤسس دولة مستقلة : وهكذا دخلت مصر مرحلة جديدة من مراحل حياتها فى العصر الإسلامى ، فقد كان تكوين خلافة منافسة للخلافة العباسـية فى بغداد نقطة تحـول فى تاريخ مصر السـياسى والاقتصادى والاجتماعى . وكان لكل عامل من هذه العوامل الثلاثة أثره المباشر أو غير المباشر على فنون مصر عامة والتشكيلية بصفة خاصة .

والعامل السياسى من غير شك أكثرها تأثيرا فى حياة الشعوب وتاريخ الدول ، إلا أن تأثير السياسة وفعاليتها لا تأخذ شكلا ظاهرا أو مباشرا فى التأثير على الفنون ، بل تنعكس عليها بطريق غير مباشر عن طريق القوانين والأحكام التى تصدرها الدولة أو نظم الحكم ومذهبها الدينى الذى تدين به . فالدولة الفاطمية مثـلا كانت تدين بالمذهب الشيعى ، بينما خلفاء الدولة العباسـية سنيو المذهب ، ولمـا كان الناس على دين ملوكهم ، فقـد كانت مصر ،

بطبيعة الحال ، فى عهد العباسيين تدين بالمذهب السنى . ومن غير المعقول أن يسمح الخليفة الفاطمى لشعبه أن يدين بمذهب آخر غير مذهبه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كيف يطمئن إلى شعب سبق أن أعطى عهدا وذمة إلى خليفة يدين هذا الشعب بمذهبه . لذلك رأى خلفاء الدولة الفاطمية بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أنه ليس من الحكمة أو سداد الرأى الاعتماد على مسلمى مصر ، بل الأسلم هو التعاون مع أهل الذمة من المصريين وخاصة الأقباط ، ومن ثم فقد اتخذوا منهم الوزراء وكبار رجال الدولة ، كما أسندوا إليهم شئون البلاد الإدارية والمـــالية . فقد أسند المعز لدين الله الفاطمى إلى يعقوب بن كلس ، اليهودى الأصل ، بعض دواوين دولته ، فتحيز إلى طائفته الدينية ، وأخذ يعقوب يرتقى فى مناصب الدولة حتى أصبح وزيرا للعزيز بن المعز . كذلك اتسم عهد العزيز بالله بالتسامح مع الأقباط خاصة بعد أن تزوج من مسيحية كان لها أكبر الأثر فى انتهاج سياسة التسامح مع المسيحيين وإعادة بناء بعض الكنائس . ورغبة فى تقوية الروابط الروحية والمشاركة الوجدانية بين خلفاء الفاطميين وبين الأقباط جعـــل الاحتفال بأعياد المسيحيين ومواسمهم الدينية احتفالات رسمية . ولم يقتصر الأمر على مصر فحسب بل شمل كذلك باقى أجزاء الدولة الفاطمية فقـــد عين العزيز بالله منشا بن إبراهيم الفرار اليهودى واليا على بلاد الشام. أما مصر فقد تولى شئون الدواوين والكتابة فيها عيسى بن نسطورس القبطى .

كان فى اتباع هذه السياسة حيال أقباط مصر إيذانا ، بطريق غير مباشر ، بإحياء عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم .

ولو أضفنا إلى هذا أن الفن القبطى لم يكن قد اختفى أو قضى عليه بدخول العرب مصر بل ظل هو الأساس الذى قام عليه الفن الإسلامى فى مصر ، وذلك جريا على السياسة الحميدة التى اتخذها العرب إزاء البلاد التى فتحوها ،

فقد تركوا لأهلها حرية ممارسة فنونهم وصناعاتهم وإدارة أعمالهم وزراعاتهم على أن يكون للفاتح العربي مجرد الإشراف وإدارة شئون الدولة العليا وقيادة الجيــوش .

ومن الأحداث السياسية التي كان لها شأن يذكر في تاريخ الفن القبطي بطريق غير مباشر ، اشتراك عرب مصر في النزاع الذي قام به الأمين والمــأمون في العصر العباسي ، فقد تحزبوا للأمين ضد المــأمون ، فلما انتصر المأمون ، وتولى الخــلافة حضر بنفسه إلى مصر وقضى على الثائرين عليه بها ، وتأديبــا لغيرهم قطــع عنهم الأرزاق من ديوان العطاء فأصبحوا بدون عائل أو مورد رزق ، فاضطروا إلى النزول إلى ميدان الأعمال من زراعة وفلاحة وصناعة ، ومن هنا اندمج العرب بأهــل مصر وتصاهروا معهم وتقــلدوا بتقاليدهم وعاداتهم وفنونهم بطبيعة الحال .

ويعتبر النسيج في مصر من أحسن الأمثــلة التي تثبت إحياء الفن القبطي ، سواء أكان ذلك من حيث الأسلوب الصناعي أو الأنوال التي تصنع عليهــا ، أو من حيث المــواد الخام ، وهي الكتان غالبا في شمال الدلتا ويزخرفه الحرير أو الكتان الملون ، والصوف في صعيد مصر . بل هناك ماهو أكثر من ذلك ، فقد ظل العرب حتى القرن الخامس والسادس الهجري يطلقون على نسيج مصر اسم « القباطي » فقد جاء في المقريزي وأبي المحاسن ، « أن الخليفة الحــاكم بأمر الله كسى الكعبة في السنة العــاشرة من حكمه بالقباطي » أما من حيث الزخرفة فقد وجد في مصر أسلوبان من الزخارف ، أحدهما يعتــبر استمرارا للزخارف القبطية وذلك في منتجات المناطق المنعزلة في الصحاري والصعيد وكلها من الصوف تقريبا . أما الأسلوب الثاني فيشبه أسلوب الخلافة الحاكمة ، أي الأسلوب الأموي في عصر الدولة الأموية ، والعباسي في عهد الخــلافة

العباسية ، وهو عبارة عن زخارف نباتية وهندسية قريبة من الطبيعة بعض الشيء فى العصر الأموى ومحررة ورمزية فى العباسى . وكان يلازم الأساليب شريط من الكتابة العربيـــة وهو الطراز ، على اعتبار أنه شارة من شارات الخـــلافة .

أما فى العصر الفاطمى فكان هناك أسلوب زخرفى واحد ، وإن اختلف أسلوب الأداء . فإنتاج مصانع الطـــراز التى تشرف عليها الدولة كان أسلوبها الزخرفى بطبيعة الحال أكثر دقة وإتقانا ، كما كانت المواد الخام ممتازة ، ممـــا أدى بدوره إلى إنتاج زخارف منسقة ومنتظمة (شكل ١ ، ٢ ، ٣) وأسلوبها الزخرفى قبطى .

أما إنتاج المصانع الأهلية فى الصعيد فلم يتغـــير بطبيعة الحال ، إذ إنه استمرار للأسلوب الزخرفى القبطى ، وكانت أهم مراكز إنتاجه الفيـــوم والبهنسا وقيس وأخميم وأسيوط . وقد اشتهر نوع منها « أطلق عليه علماء الآثار طراز الفيوم » وذلك لوجود شريط من الكتابة على قطعة مماثلة جاء فيه « مما صنع فى طراز مطمور كورة الفيوم » شكل (٤ ، ٥) .

وقد ظل إنتاج الطراز فى مصر حتى نهاية العصر الفاطمى يتبع الاسلوب القبطى من حيث الزخرفة والأداء وإن اختلفت المواد الخام ، فقد بدأ استعمال الحرير على نطاق واسع حتى أصبح النسيج لحمته وسداته من الحرير الخالص المتعدد الألوان. أما العناصر الزخرفية التى استعملت فى نسيج العصر الفاطمى فكان معظمها رسوم حيوانية وآدمية ونباتية وكلها محورة ورمزية ، متبعـــة فى ذلك الأسلوب القبطى ومحصورة دائما فى جامات ومعينات أو أى شكل هندسى آخر . وكما استعمل الفنان القبطى الألوان الكثيرة البراقة ليغطى ردىء رســـومه كذلك استعمل الفنان الفاطمى نفس تلك الألوان لا ليغطى ردىء

الزخرفة ولكن ليظهر براعته الفائقة فى قدرته على استعمال هذا الحشد المتضارب من الألوان فى انسجام واتساق تام لا تمله النفس بل وتعشقه العين .

وبرغم أن مصر قد عرفت صناعة التخزيف منذ أقدم العصور إلا أن هذه الصناعة لم تصل من التقدم الفنى ما وصلت إليه بلاد ما بين النهرين ، ولذلك فقد ظلت صناعة الخزف صناعة شعبية لم يقبل عليها علية القوم ، واستمرت صناعة التخزيف فى مصر حتى أوائل العصر الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى صناعة ثانوية حتى اكتشف خزافو الدولة العباسية نوعا جديدا من الطلاء عرف باسم البريق المعدنى الذين أقبل على اقتنائه المسلمون واستعاضوا به عن معدنى الذهب والفضة اللذين حث فقهاء الشريعة الإسلامية على عدم استعمالهما لما فيهما من مظاهر الترف الذى ينهى عنه الدين الإسلامى الحنيف . وقد انتشر الخزف ذو البريق المعدنى فى جميع ولايات الدولة الإسلامية ، وتشابهت زخارفه ، حتى أصبح من العسير ، فى كثير من الأحيان ، تمييز مكان إنتاجه وذلك فى القرن الثالث ، وأوائل الرابع الهجرى فلما استقلت مصر وقامت بها الخلافة الفاطمية ، ولم تعد تستمد سلطتها المادية ولا الروحية من الخلافة العباسية فى بغداد ، حدثت تغييرات جوهرية فى نظم حكمها وشئونها الإدارية والمالية ، مما كان له تأثير مباشر وفعال على حياتها الاجتماعية وفنونها الزخرفية .

فقد بدأ يظهر على الخزف ذى البريق المعدنى فى مصر الرسوم الآدمية ذات المسحة المسيحية التى تمتاز بالعيون اللوزية المتسعة والأنف العريض ، شكل (٦ ، ٧ ، ٨) . بل لقد عثرنا على قطع زخرفية عليها رسوم القسيسين والرهبان و بأيديهم المباخر وحول رؤوسهم هالة التقديس وإحدى أيديهم تشير إلى علامة التثليث ، شكل (٩) . وكذلك وجدت على بعض الأوانى الخزفية

شارات مسيحية مثلثـة الصليب والأسماك والحمام التى تمثل مقاطـع من اسم المسيح باللغة القبطية. وقد أدى ظهور مثل هذه الرسوم وتلك الشارات المسيحية على البريق المعـدنى المصرى إلى اعتقاد بعض علماء الآثار مثل BUTLER أن الخزف ذا البريق المعدنى من اختراع أقباط مصر، وقد فاته أن هذه القطع الخزفية من صناعة العصر الفاطمى ، وليست من صناعة العهد القبطى .

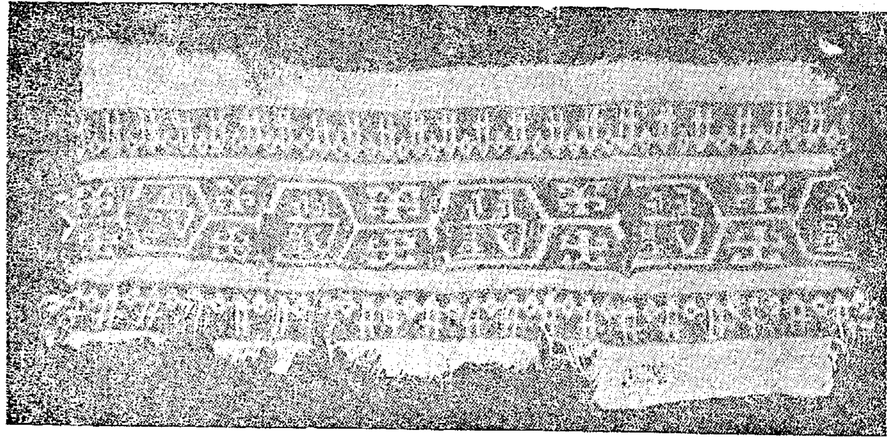
ومن الصناعات التى برع فيها الأقباط الحفر على الخشب ،فهنـاك مجموعة من الأفاريز الخشبية التى ترجع إلى القرن الرابع والخامس الميلادى عليها زخارف بارزة تمثل القصص المسيحى مرسوم بأسلوب قريب من الطبيعة إلى حد كبير شكل(١٠) . ومجموعة أخرى ترجع إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، تكاد تقتصر زخارفها على رسوم هندسية بحته، ولمـا دخل العرب مصر أقبلوا على استخدام الزخارف الهندسية والنباتية دون غيرها من العناصر الأخرى فى الحفرعلى الخشب ، أى بنفس الأسلوب الذى كان سائدا فى العصر القبطى مع إضافة شريط من الكتابة العربية يكاد يكون دائما آيات قرآنية مثل آية الكرسى أو سورة التوحيد . شكل (١١) . وفى القرن الثالث الهجرى ، أى العصر العباسى ، حدث انقلاب فى تاريخ الزخارف الإسلامية إذ اقتصرت الزخرفة على كافة المواد وخاصة الجص والخشب على الزخارف النباتية المحورة والمحصورة فى الأشكال الهندسية وهى التى أطلق عليها الأوروبيون كلمـة (أرابيسك) شكل (١٢)، وقد ظل أسلوب الزخارف النباتية المحورة مستعملا فى الحفر على الخشب فى مصر فى القرن الثالث والرابع الهجرى . أما فى العصر الفاطمى فقد بدأت الرسوم الآدمية والحيوانية تظهر فى الحفر على الخشب ، بل ولقد وجدت أفاريز خشبية يبلغ طولها مئات الأمتار كانت تزين الحوائط الداخلية للقصور الفاطمية، تحتوى على مناظر تصويرية تمثل الحياة الاجتماعية

فى ذلك العهد أصدق تمثيل شكل (١٣ ، ١٤ ، ١٥) : وتشبه هذه الأفاريز إلى حد كبير الأفاريز الخشبية التى ترجع إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين كما تشبه كذلك الحفر على الحجر فى العصر القبطى ، سواء من حيث الأساوب الزخرفى ، أو من حيث حصر الموضوعات الزخرفيــة فى جامات نجمية ، أو فى وحدات مستطيلة أو أشكال هندسية أخرى . شكل (١٦) .

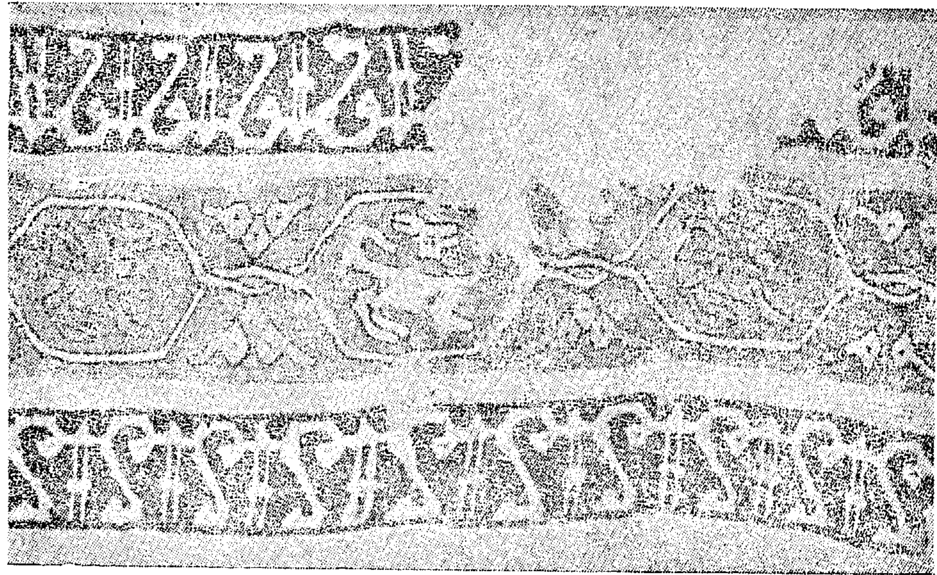
على أن هذه الرسوم الآدمية التى ظهرت طفرة واحدة فى أخشاب العصر الفاطمى اختفت تماما فى نهاية العصر الفاطمى وحلت محلها الزخارف الهندسية مرة ثانية حتى أصبحت هى الطابع المميز للزخارف الخشبية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى والعثمانى الذى عرف باسم الحشوات المجمعة على شــكل الطبق النجمى .

ولم يقتصر هذا الأسلوب الزخرفى المكون من العناصر الآدمية والحيوانية والمتأثرة إلى حــد كبير بالأسلوب القبطى من حيث العناصر والموضوعات الزخرفية ، أو من حيث الأسلوب التطبيقى — على الخشب فحسب ، بل وجد كذلك على العاج والحجر والرخام والرسوم الحائطية المــائية (الفرسكو) .

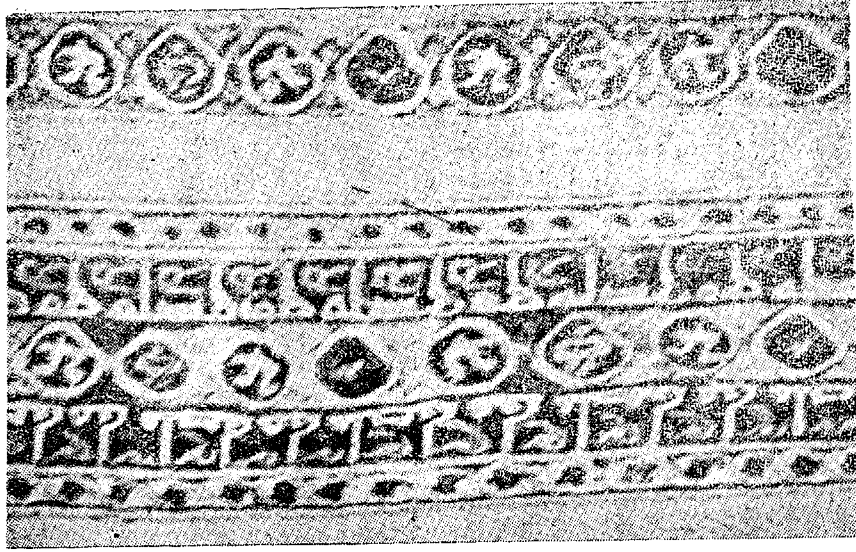
وهكذا نرى أن العصر الفاطمى كان عصر أحياء للفن القبطى ، أى الفن الوطنى الذى ظهر أثره واضحا على معظم المنتجات الفنية تقريبا .



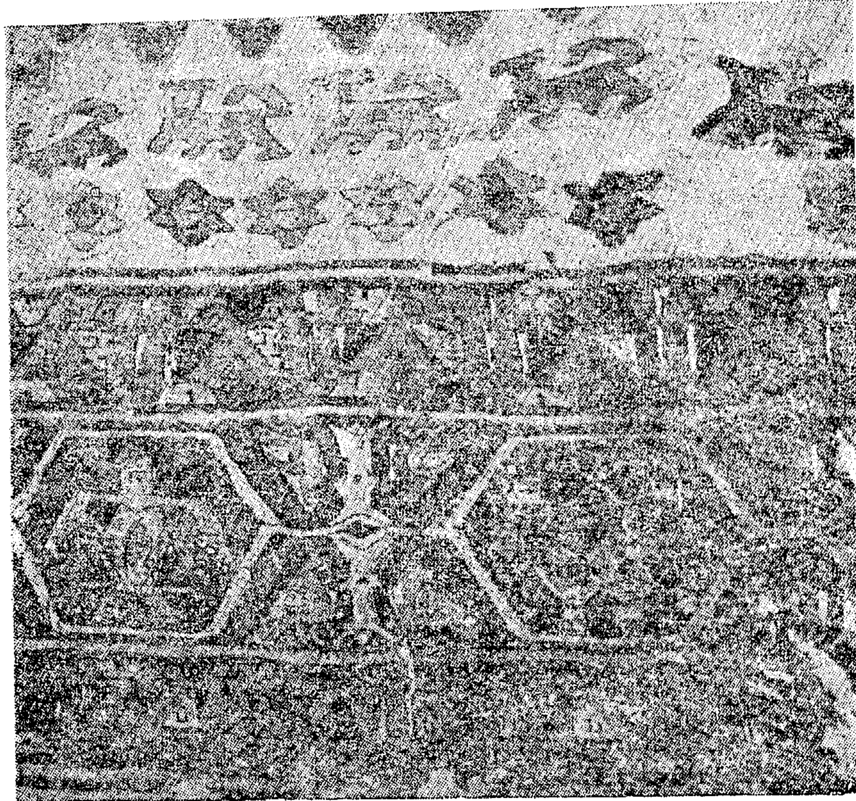
شكل (١) قطعة من نسيج القباطى (Tapestry) من صـــناعة مصر فى العصر الفـــاطمى عليها زخارف حيوانية محورة بالاسلــوب القبطى محصورة داخل أشكال هندسية ، كما تحتوى على أشرطة كتابية عبارة كلمة « الله » مكررة



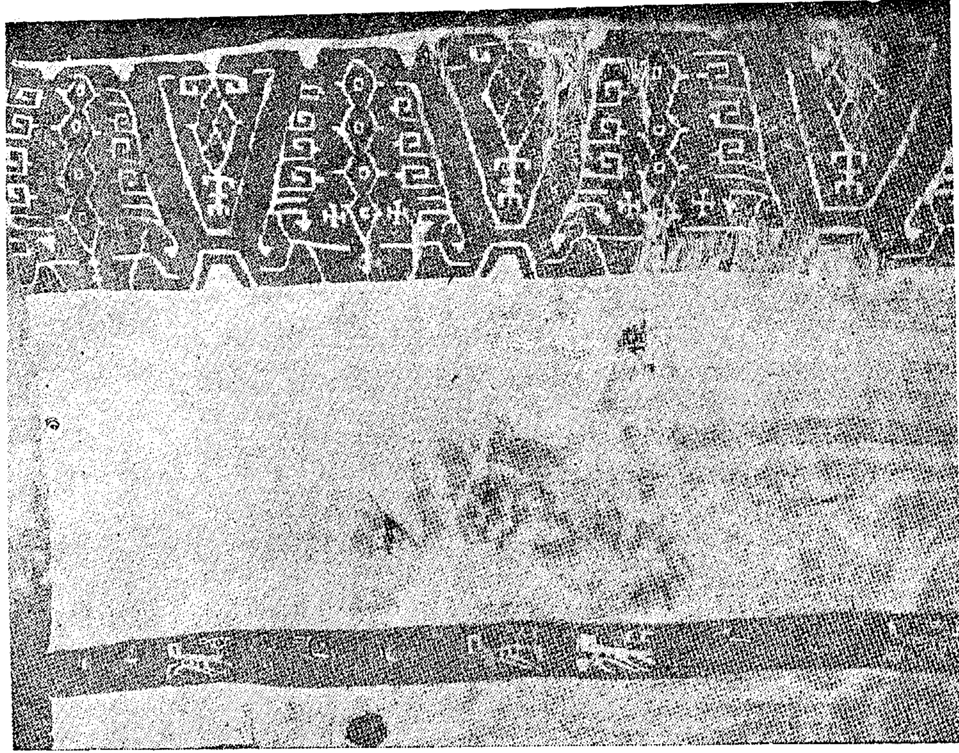
شكل (٢) قطعة من نسيج العصر الفاطمى عليها زخارف حيوانية محصورة فى جامات متأثرة فى ذلك بالاسلوب القبطى . كما يحيط بالشريط الزخرفى شريطان من الكتابة «أى الطراز » وترجع القطعة إلى القرن (٤ ، ٥ هـ)



شــكل (٣) قطعة نسيج فاطمى متعددة الاشرطة الزخرفية وبداخل الاشرطة عناصر حيوانية مرسومة بالاســاوب القبطى . والزخارف متعددة الالوان وترجع القطعة إلى القرن « ٥ هـ » .



شكل (٤) قطعة من طراز الفيوم التى تعتبر استمرارا للطراز القبطى وترجع إلى أوئل العصر الفاطمى .



شكل (٥) قطعة من طراز الفيوم جمعت بين الزخارف النباتية المحورة باسلوب « سمارا » الثالث على الجص وتبين الاساوب القبطي بعناصره الحيوانية الرمزية. وهي ترجع إلى أوائل العصر الفاطمي .



شكل (٦) قطعـــة من النسيج القبطى من القرن « ٤ » الميلادى تبين الوجه القبطى ذا العيون اللوزية الواسعة



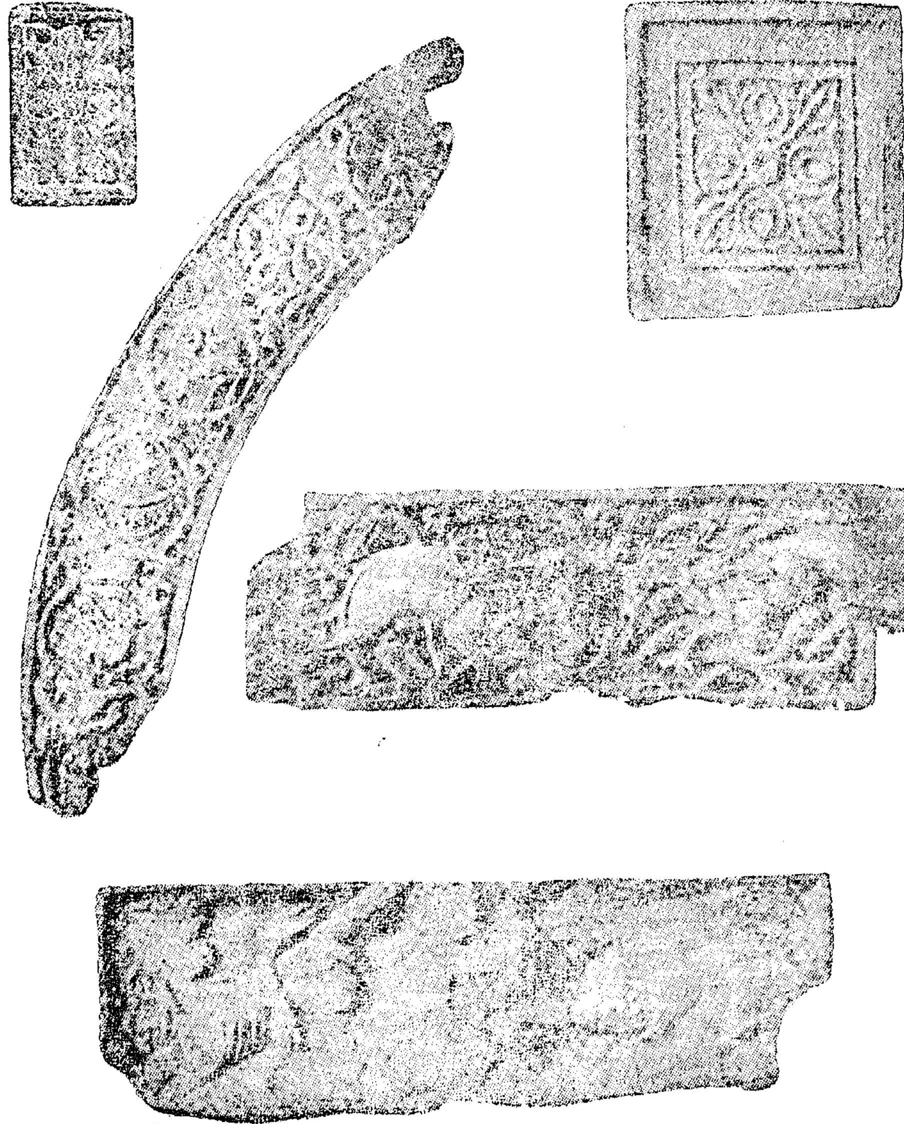
شكل (٧ و ٨) طبقان من الزخزف ذى البريق المعدنى عليهما رسوم آدمية قبطية الملامح والملابس من انتـــاج العصر الفاطمى فى القرن (٥) هـ .

شكل (٨)

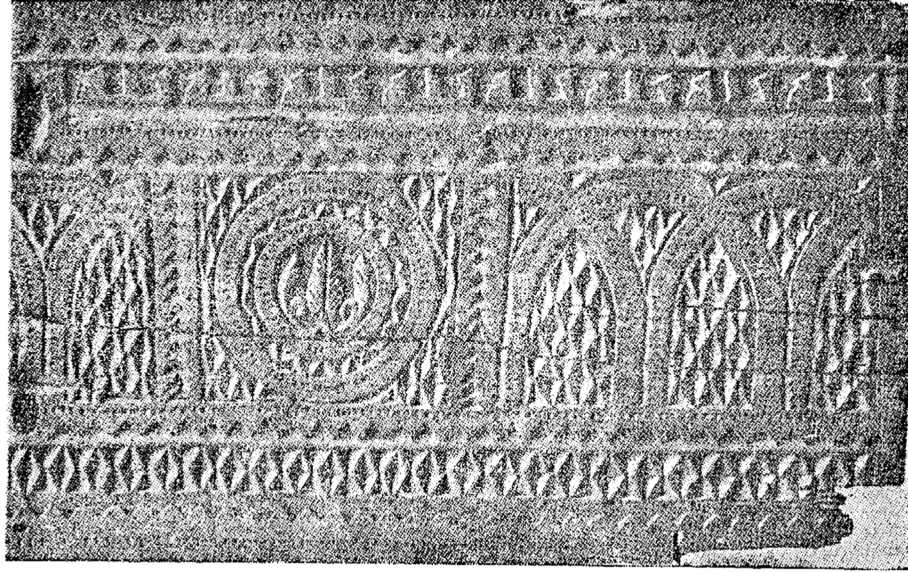




شكل (٩) قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى عليها رسم قسيس وحول رأسه هالة التقديس بداخلها شكل الصليب ، كما يشير القسيس بيده إلى علامة التثليب . والقطعة من العصر الفاطمى فى القرن (٥) هـ .



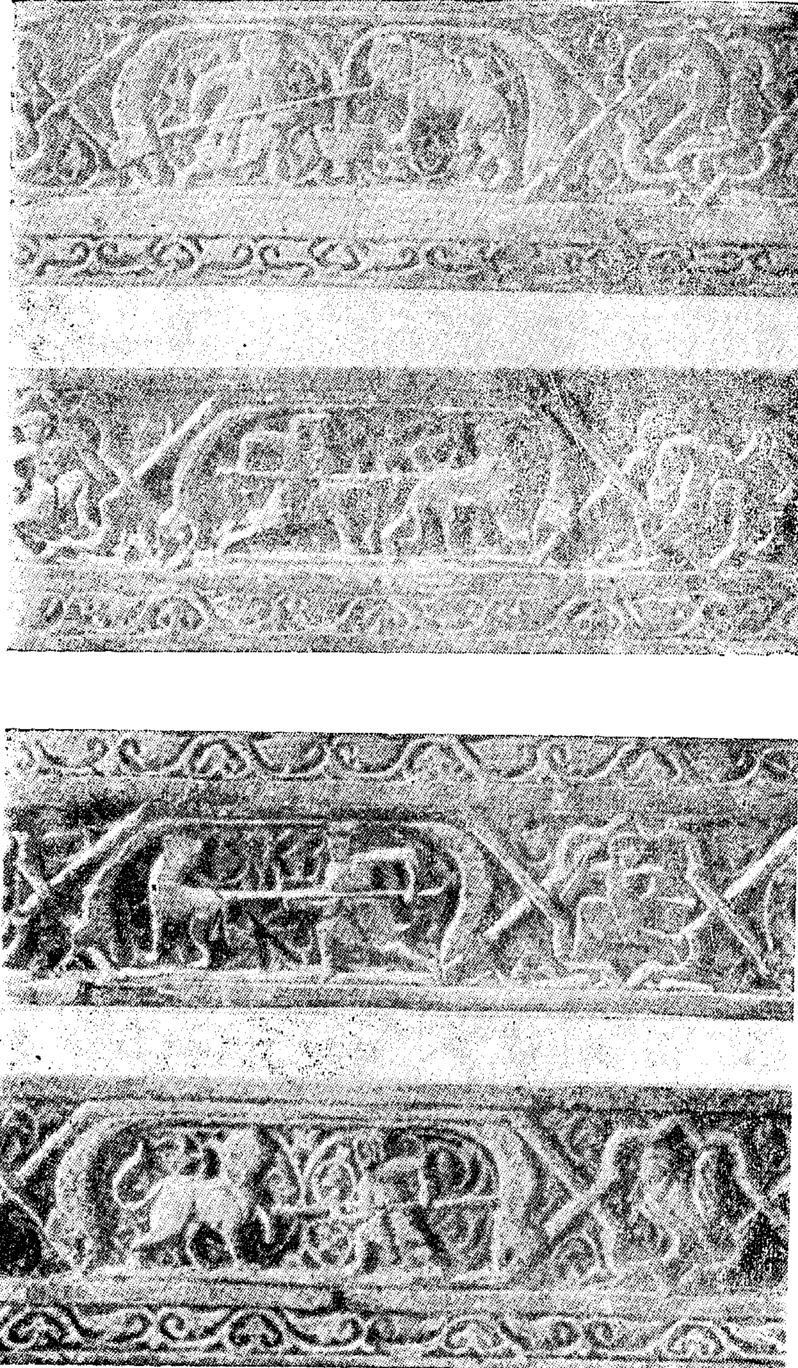
شكل (١٠) حشوات خشبية محفور عليها زخارف متعددة آدمية وحيوانية ونباتية قريبة من الطبيعة إلى حد كبير . والحفر غائر ومجسم وترجع الحشوات جميعها إلى العصر القبطى فى القرن (٤ ؛ ٥) الميلادى .



شكل (١١) حشوة خشبية محفور عليها زخــارف هندسية بحتة من صناعــة مصر فى القــرن الثانى الهجرى . ويعلو الحشوة كتابة عربية « الله » .



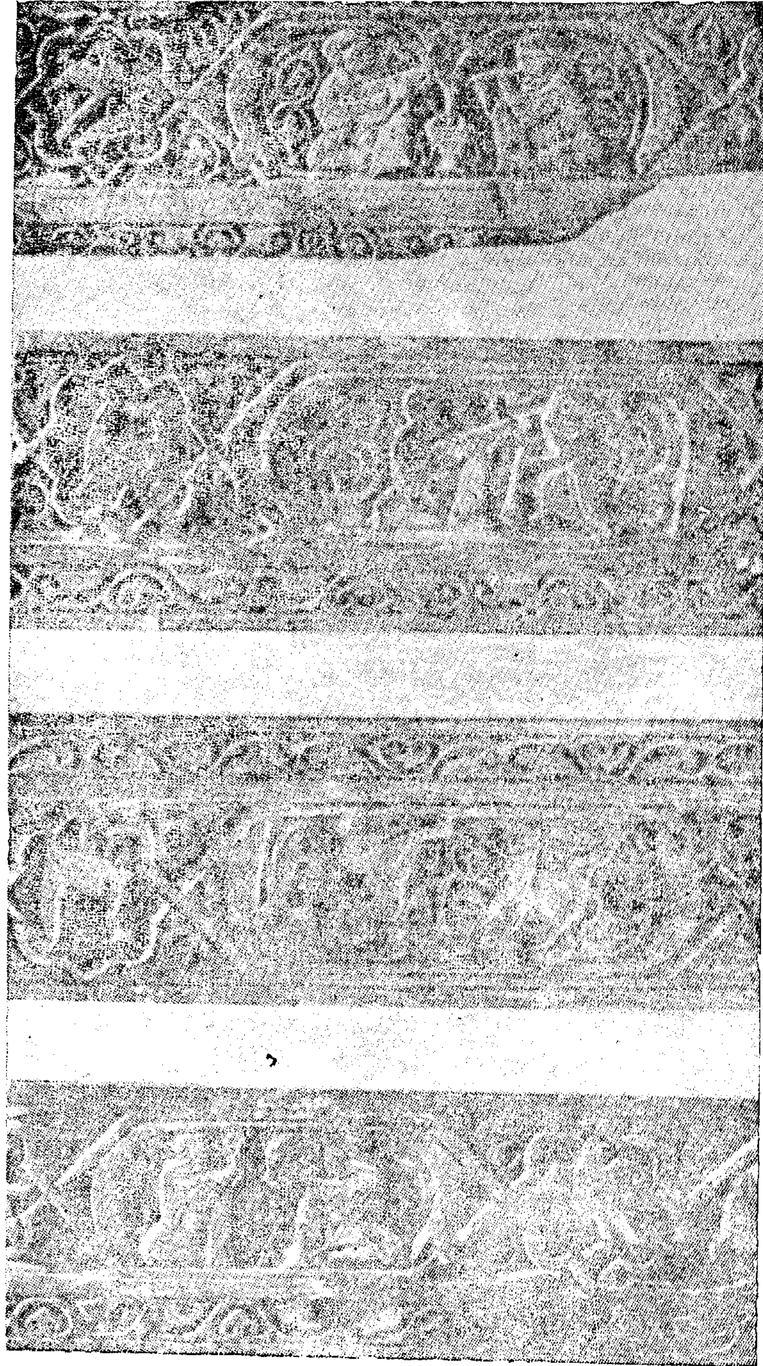
شكل (١٢) حشوات خشبية محفور عليها زخارف نباتية محورة تشبه أسلوب سامرا على الجص من صناعة مصر فى القرن « ٣ هـ » .



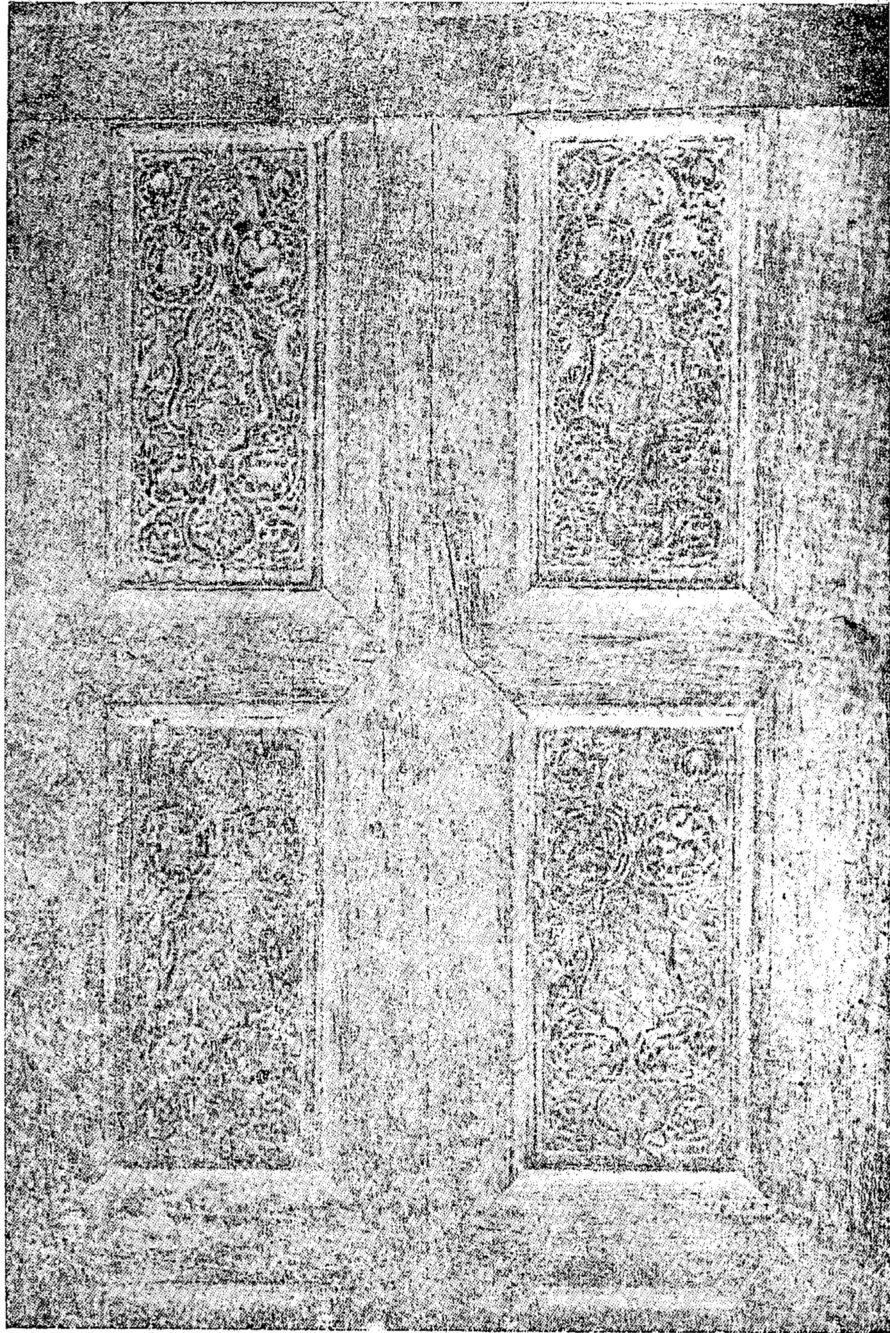
شكل (١٣) حشوات خشبية من العصر الفاطمى (القرن ٥ ﻫ) عليها زخارف آدمية وحيوانية متأثرة بالاسلوب القبطى إلى حــد كبير .







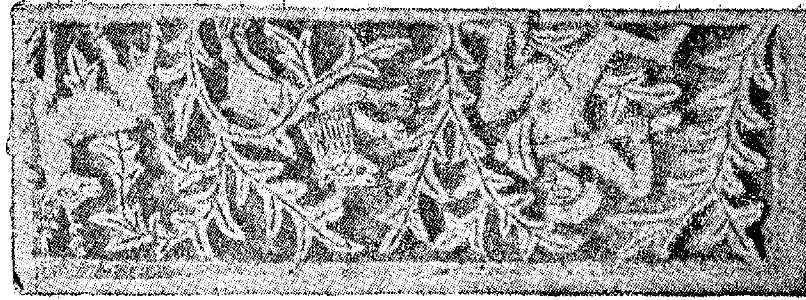
شكل (١٤) حشوات خشبية من العصر الفاطمي (القـرن ٥ هـ) عليها زخارف آدمية وحيوانية متأثرة بالاسلوب القبطي إلى حـد كبير .



شكل (١٥) باب من قصور الفاطميين محلى بحشوات بها زخارف محفورة مكونة من مناطق تصويرية بها رسوم آدمية وحيوانية .







شكل (١٦) قطع حجرية محفور عليها رسوم آدمية وحيوانية وهى ترجع إلى العصر القبطى
وفى اعتقادى أنها الأصل الذى نهج على منواله الحفر على الخشب والحجر فى العصر الفاطمى .



بعض إيصالات من التجار وأرباب الحرف
في القرنين السابع عشر والثامن عشر

سعد الخادم

ملخص

بعض إيصالات من التجار وأرباب الحرف
فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

سعد الخادم

ملخص

أقدم اليوم فى هـذا البحث المقتضب خمسة مخطوطات فى هيئة صحائف من الورق منفصلة ، مستخرجة من مجموعة المرحوم الدكتور « يوى هوبير » الذى عاش فى الإسكندرية أكثر من نصف قرن ، وكان يمتلك مجموعة كبيرة من الآثار ، وعددا كبيرا من المخطوطات عثر عليها فى مواقع تاريخية مختلفة منها مخطوطات وجدت بموقع الفسطاط وتختلف فى القدم ، ويرجع أقدمها إلى القرن العاشر وما قبله .

وقد اخترت من ضمن ١٠,٠٠٠ ورقة – عبارة عن أجزاء من خطابات خاصة وتعاويذ سحرية ، وعقود بيع بين تجار ، وأحكام قضائية ، وغيرها. خمسة مخطوطات اعتبرها مستندات يجدر تقديمها للقراء .

الورقة الأولى بحجم ١٠ سم × ٧,٥ سم هى إيصال صادر من تاجر أقمشة يدعى الخواجا شمس الدين الفارسكور ، دوّن فيه :

« لديّ وصل من الخواجا شمس الدين الفارسكور :

« يوم الخميس ثامن عشرين شهر ربيع الآخر ثوب بعلبكى عاتابى ، وسوسى خمسين ، ضهر محرر نصف ، ومنديل شغل القاعة ، ومنديلين كتابى وبجنق مرمر وشعر برسم شلابين ، عشر أدرع برسم جاريه جلبه » .

والمخطوط الثانى يحتوى على أبيات من الشعر أو الأغانى الشعبية ، الأسطر الأولى ناقصة والورقة ممزقة فى بعض أجزائها ، وبعض عباراتها لا تقرأ ، ونص الأسطر الأولى كالآتى :

« إن كنت بتحبنى تشترى لى بدله » .

المقطع الثانى يجرى هكذا :

« ستى عالمه ، قولى على مطلوبك وان كان (هنا نص ممزق) ، وأن يكون ديباج والا تولى والا خفيف ، أو تطلبى مقطع يكون دابولى والاضرب أو تطلبى أطلس يكون أفرنجى ، اطلبى منى وقولى لى اقطع لى بدله .

والمقطع الثالث نصه كالآتى :

« انكنت يابعدى كلامك صحيح ، جبلى ديباج ، وقفطان أطلس ، واطلب كمان جوزين أساور دهب وجوز خلخال .

ويقول المقطع الرابع :

« ساهل قوى يا حب مجايب المطلوب ، بكرا أجيب كل ما تعوزى ، وانزل إلى خان الخليلى بدرى أعرف خواجه كنت باخد عنده (نص ممزق) اقطع لك بدله طرية ، واحط طيب ومسك ، واجيب لكى السيف كمان ياستى مهما طلبتيه لاجيبه .

ان حجم هذا المخطوط ٩٠ × ١٥ سم ، والكتابة فيه غير منتظمة ، ولكنها منسقة ومرتبة أكثر من كتابة الإيصال الأول ، كما أنها تبدو أقدم منه من واقع الخط ونوع الورق .

والمخطوط الثالث عبارة عن حكم صادر من محكمة الصالحين بحجم ١٦ × ٢٨ سم والأجزاء المطموسة أو الناقصة لا تسمح لنا بتتبع النص بسهولة ، ولكننا نستطيع مع ذلك فهم مضمونه وهومذيل بمصالحة بين تجار أقمشة بخان الخليلى واتفاق بين دائنين ومدين لتسلم محل كائن بسوق النابلسى بخان الخليلى وهو ممزق فى بعض أجزائه والتاريخ غير موجود .

وهذه القطع الثلاث التى ترجع إلى عهود مختلفة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بما حوته من مصطلحات لتعيين الأقمشة التى كانت تنسج فى ذلك الوقت — مثل البجنق المرمر ، ورسومات جارية جلية ، والديباج ، والدابولى والأطلس ، والنابلسى — تساعد على تحديد الزمن الذى حررت فيه .

وتحوى هذه المخطوطات أيضا التسميات التى كانت تطلق على تجار الأقمشة والجوخ ، أو أعضاء نقاباتهم وهى « خواجاكى » و « خواجالار » و « خواجا » .

وكتب « أميشى » Amici فى مؤلفه عن مصر القديمة والحديثة الصادر عام ١٨٨٤ أن خان الخليلى كان فى ذلك الوقت مركزا لتجارة الأقمشة والسجاد الشرقى ، وتكلم اللورد كرومر فى تقريره عن مصر عام ١٩٠٤ عن تدهور أسواق القاهرة ، واستبدال منتجات أجنبية ببعض المنتجات المحلية ويبدو مما تقدم أن المخطوطات الثلاثة ترجع إلى ما قبل عام ١٨٨٤ .

وذكر المقريزى فى القرن الخامس عشر أسماء الأسواق التى كانت موجودة فى القاهرة ، وكان احتكار أصناف مختلفة من الأقمشة سائدا فى أسواق كثيرة فى ذلك العهد ، وعليه فإن تاريخ المخطوطات يبدو لاحقا لعهد المقريزى ، أى ما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر فى الغالب ، حيث تقلصت أسواق الأقمشة فى القاهرة تدريجيا حتى انحصرت فى خان الخليلى .

وفى القرن الثالث عشر صنف « الأسعد بن مماتى » فى كتابه : « قوانين الدواوين » مختلف الموظفين فى منشآت النسيج ، وقد أشار على بهجت إلى مؤلف مماتى فى دراسته المنشورة عام ١٩٠٤ عن صناعة الأقمشة فى مصر ، فى القرون الوسطى — فقال : « إن للمنشأة ناظرا » و « متوليا » و « مشارفا » و « شاهدا » عدد ٢ كما أشار أيضا إلى كتاب رحلة ناصرخسرو إلى مصر ، ما بين عامى ١٠٣٥ ، ١٠٤٢ ، فذكر بعض أسماء الأقمشة مثل القصب وبقع الليمون وغيرهما ، مما اختص به مصنع الأقمشة فى مصر ، ثم قال : « ينسج فى تنيس أقمشة قصب ملونة (من الكتان البالغ النعومة) ، ويستعمل هـذا القماش فى صنع العمائم والطواقى والملابس النسائية ، ولا يصنع فى أى مكان آخر مثل هـذا القصب المـلون ، والقصب الأبيض يصنع فى دميـاط ، والقصب الذى ينسج فى مصانع السلطان الخليفة لا يباع ولا يوهب ، وقـد روى لى أن سلطان « فرس » أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس لشراء بدله كاملة من القماش المخصص للسلطان ، وقد أقام وكلاؤه بضع سنوات بالمدينة دون أن يتمكنوا من عقد الصفقة ، والصناع الذين يعملون للأمير على درجة عالية من المهارة ، وقيل لى إن أحدهم نسج قطعة قماش معدة لعمامة السلطان ، وأعطى له عن هذا العمل خمسمائة دينار ، وقد رأيت العمامة ، وكانوا يقدرونها بأربعة آلاف دينار ، ويصنع فى تنيس أيضا — وليس فى أى مكان آخر — القماش المسمى « بقع الليمون » الذى يتغير لونه مع ساعات النهار ، وهو يصدر إلى بلاد الغرب والشرق » .

ولم تذكر فى زمن ابن مماتى والمقريزى عبارات « خواكى » أو « خواجالار » أو « خواجما » فى سياق الكلام عن الموظفين المسئولين عن مصانع النسيج ، أو تجار الأقمشة ، ويبدو أن هذه العبارات لاحقة للعهد التركى ، ابتداء من عام ١٥١٧ مما يعطينا فترة ثلاثة قرون لتحديد عهد هذه المخطوطات ، ومن

وصلنا إلى القرن التاسع عشر نجد أن الرابطات الحرفية والنقابات العمالية كانت قائمة حتى سنة ١٨٨٢ ، وكان يطلق على عميد التجار لقب « شهبندر » .

ويشير كتابان فرنسيان — أحدهما صدر عام ١٩١١ للمؤلف «أرمنجان» Arminjan ، والآخر صدر عام ١٩١٢ للمؤلف « مونيي » Maunier إلى حل هذه الرابطات الحرفية . والكتاب الأول عنوانه : « الحالة الاقتصادية والمالية فى مصر» (باريس — بتون ، ١٩١١) ، وعنوان الكتاب الثانى « التدريب على الصناعات الصغيرة فى مصر (مجلة مصر المعاصرة — عدد ١١ — ١٩١٢) .

ولا نرى فى الكتاب الذى أصدره كلوت بك فى باريس عام ١٨٤٠ بعنوان « لمحة عامة عن مصر » ، أى ذكر لعبارات « خواجاكى » أو « خواجالار » ، لاسيما فى المقالات التى نشرها الصحفى عبد الله النديم ما بين عامى ١٨٩٢ ، ١٨٩٤ ، ويرثى المؤلف لغزو الأقمشة الأجنبية للأسواق المحلية ، وقد ذكر فى أغنية المخطوط الثانى الأطلس الأفرنجى والديباج والدابولى ، ويبدو لنا أن هذا كان فى وقت كانت المنتجات المحلية ما زالت تضارب فيه السلع الأجنبية فى أسواقنا ، لا سيما أن العاشق يقترح فى نشيده أن يشترى لمحبوبته أثمن منتجات خان الخليلى ، مما يرجع بنا فى الغالب إلى ما قبل سنة ١٨٨٢ ، بزمن طويل ، ومن جهة أخرى فإن أسماء الديباج والدابولى ترددت بكثرة فى المؤلفات العربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، واستعمال العبارات التركية مثل « خواجاكى » و « خواجالار » كان شائعا لدرجة أنه كان يدخل فى أصغر الوصفات الشعبية وفى المعاملات بين التجار والصنّاع ، وكان كل من الرابطات العمالية أو الصناعية أو التجارية فى مصر ، لا تكتفى بمنح كل حرفىّ فيها لقبا مناسبا لعمله ، بل كانت تستعمل أيضا لغة خاصة بها ، وتعبارات فنية سرية لا يفهمها إلا أعضاؤها .

ونشر المـــؤلف « بوريان » Bourriant فى ١٨٩٣ فى مقـــالة عنوانها « أغان شعبية عربية فى القـــاهرة » المصطلحات الفنيـــة التى يستعملها بحارة النيـــل ، ونشر مؤلف آخر يدعى س . غندور فى عام ١٩٢٢ بعض العبارات التى يستعملها الغجر فى مصر ، وكانوا يحترفون السمكرة وصناعة الأقفال . ويؤخذ مما تقدم أن تسمية المهنة فى رابطات الصناع أو التجار ، كما ذكر ابن مماتى وغيره من الكتاب ، كانت وثيقة الارتباط بمصطلحات فنية يحرص على سريتها أعضاء كل رابطة ، وعلى أية حال فما أثبته غندور وبوريان فى مؤلفيهما كان شائعا فى بلاد كثيرة من العالم العربى مثل سوريا والعراق والجزائر وتونس والمغرب .

وقد نشر A.joly دراسات عن هـــذا الموضوع فى ١٩٠٦ فى دار المحفوظات المغربية ، فقد استمرت الرابطات الحرفية فى بلاد أفريقيا الشمالية مدة طويلة بعد زوالها من مصر ، ويشهد بذلك المقالات التى نشرت المجلات المغربيـــة والجزائرية ما بين عامى ١٩١٢ ، ١٩٤٠ للكتّاب L . Brūnot, B.S. golvln, Golin, A.joly, P.ricard, A.M.jouin, Loichit, David Brunot, L,paye, Le Tourneau كما أن بعضا من المصطلحات الفنيـــة التى ظهرت فى مقالات هؤلاء الكتاب ، كانت متداولة فى مصر فى القرنين الأخيرين ، فنجد أن نفس أسماء الأقمشة الواردة فى المخطوطات الثلاثة التى استعرضناها آنفا كانت تستعمل فى أفريقيا الشمالية حتى أوائل القرن العشرين ، ولكنها مع الأسف فى طريق الزوال :

وإنى أنهى هـــذا البحث بتعليـــق على مخطوطين آخرين الأول عبارة عن مذكرة كتبها فى الغالب صانع كان يحفر على أوانى المطبخ أسماء أصحابها ويدون عليها أحيانا بعض العلامات الشخصية ، وأهمية هـــذا المخطوط هى فى ذكر أسماء آنية المطبخ والسفرة من جفنات وأطباق وصوان وأباريق ،

وأطباق للحساء ، وأصحن ذات أغطية وقدور ... الخ ، كل ذلك فى هيئـــة قائمة جرد قد تكون ذات فائدة فى الأبحاث عن النحاس العربى . ويذكر هذا المخطوط أسماء تركية أيضا ، مصحوبة بعبارات عربية مما يحدد تاريخا يقع غالبا ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر .

والمخطوط الأخير الذى نقدمه هو حكم طلاق أصدرته إحدى محاكم القاهرة فى سنة ١١٢٨ هجرية ، وهو خاص بطلاق بنت نحات للحجر ، ويذكر الحرفة التى يزاولها والد الطليقة ، وهى حرفة تختلف على ما يظهر عن حرفة قطاع الحجر أو الحجار ، لابد أن النحات على الحجر كان ينتسب فى ذلك العهد إلى فئة راقية من الصناع فى شغل الحجارة ، وربما متخصصة فى الأعمال الزخرفية بالنقش البارز على الحجر ، وهذا التخصص الذى يبدو لنا أساسيا بين رابطات الحجارين ، نشاهده أيضا بين رابطات النساجين التى تكلمنا عنها آنفا .

وظلت هذه الرابطات الحرفية قائمة منذ القرون الوسطى حتى ١٨٨٢ فى مصر ، وحتى ١٩٣٠ فى المغرب والجزائر .



نساء القاهرة في عصر سلاطين المماليك

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

نساء القاهرة في عصر المماليك

د . سعيد عبد الفتاح عاشور *

جرى العرف على قياس رقى أى مجتمع من المجتمعات ، بمدى تقدير ذلك المجتمع للمرأة ، واستجابته لمنحها حقوقها كاملة ، بوصفها الشريكة الأولى للرجل فى تحمل أعباء الحياة ، والزوجة التى تدبر شئون الخلية الأولى للمجتمع وهى الأسرة ، والأم المسئولة قبل غيرها عن تنشئة المواطن الصالح :

ومع أن الشريعة الإسلامية فرقت بين الرجل والمرأة فى بعض الحقوق — مثل حق الإرث — إلا أنها أعطت المرأة حقها كاملا فى المجتمع الإسلامى ، وحققت لها العدالة فى المعاملة . هذا إلى أن مركز المرأة من الناحية القانونية فى التاريخ الإسلامى كان شيئا ، ومركزها العملى فى الحياة كان شيئا آخر ، فأسهمت المرأة بدور بارز فى مختلف نواحى النشاط فى الدولة الإسلامية ، وظهر هذا الدور أوضح ما يكون فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك بالذات ، أى فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثالث عشر ، وأوائل القرن السادس عشر الميلادى :

ذلك أن المرأة تمتعت فى ذلك العصر بقسط وافر من الاحترام ، سواء كان ذلك داخل طبقة المماليك الحاكمة ، أو عند سائر طبقات الشعب ، فالمماليك نظروا إلى نسائهم نظرة تفيض بالإجلال والتقدير ، وخصصوا لهن

ألقاب التشريف مثل خوند وخاتون ، كما أضفوا عليهن فى مكاتباتهم عبارات الإحترام والتبجيل ، مثلما يبدو بوضوح فى مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم(١) ؛ ولم يضن سلاطين المماليك على نسائهم بالمال والمتاع حتى أن أحد المعاصرين يقول إن وصف ملابس ومتاع كل واحدة منهن ، يحتاج إلى عدة مجلدات(٢). وحسبنا أن إحدى زوجات السلاطين ، لما حصرت ثروتها بلغت أكثر من ستمائة ألف دينار ، أما ابنة السلطان الناصر محمد ابن قلاوون فقد خلفت ثروة طائلة تحدثت عنها المراجع ، من جملتها قبقاب مرصع قيمته أربعون ألف درهم ، أى ألفا دينار مصرية(٣) ؛

وقد اعتاد بعض سلاطين المماليك أن يستصحبوا معهم حريمهم فى نزهاتهم الخلوية ، وعندئذ يخرج حريم السلطان على الخيول فى محفات مغشاة بالحرير يحيط بهن سائر الأمراء والمماليك والخدام(٤) ، فإذا خرجت زوجة السلطان أو أمه للحج فإنه يجهزها جهازا عظيما ، فتخرج فى برج كبير ، وعلى محفتها العصائب السلطانية ، وتضرب الطبول والكوسات حولها ، ويتبعها « قطار » من الجمال المحملة بكل أصناف الكماليات ، فى حين يأمر السلطان عددا كبيرا من الأمراء بمصاحبتها فى الطريق(٥) ؛ وعند عودتها إلى مصر - بعد قضاء شعائر الحج - يخرج السلطان لاستقبالها ، ويحتفل بقدومها احتفالا عظيما ، ويسرع الأمراء بتقديم الهدايا الثمينة إليها . وإذا سمع السلطان بمرض إحدى زوجاته فإنه يعودها مرارا أما إذا وجد حالتها تستدعى « تغيير الجو » فإنه يسمح لها بالنزول إلى بولاق

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٧ ص ١٦٦ .
(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٨٨٨ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، ج ٩ ص ٧٤ — ٧٥ .
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٢١ .

حتى تتمتع برؤية النيل ، وتسترد حالتها الطبيعية [(١)] . وعندما يتم شفاؤها يحتفل بذلك احتفالا عظيما، فيتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة ، ويجتمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهى ، وتعمل فى النيل مرامى النفط والصواريخ ، ثم تعود خوند إلى بيتها بالقلعة فى موكب رائع ، وحولها المشاعل والشموع والفوانيس ، وخلفها عدد لا يحصى من زوجات الأمـراء [(٢)] .

ولم يقتصر ذلك الاحترام للمرأة فى عصر المماليك على نساء السلاطين وأمرائهم ، فهناك من الشواهد ما يثبت احترام عامة الشعب المصرى فى ذلك العصر لنسائهم . وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب العديدة التى أطلقهـا الناس على نسائهم وبناتهم ، مثل ست الخلق وست الحكام وست الناس وست القضاة وست الكل ... وذلك من باب « الفخر والتزكية والثناء والتعظيم » [(٣)] ، وإذا خرجت إحدى النساء إلى الطريق ، وكان زوجها مقتدرا فإنه يحضر لها حمارا يقوده مكارى ، ويتبعها خادم [(٤)] . ورغم قلة الإشارات إلى النساء وندرتها فى المراجع المعاصرة ، فإننا نجد كثيرا منها يعبر عن الثناء والتقدير ، فالسخاوى يصف إحدى النساء المعاصرات بأنها « ذات رياسة وقناعة وإتقان » [(٥)] والشعرانى — وهو من رجال الدين المحافظين — لا يتمالك شعوره نحو زوجته ، فيكتب عنها ويثنى عليها ثناء فياضا [(٦)] .

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ص ٢٦٢ — ٢٢٩ .

(٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٧ ص ٢٦ .

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٢ ص ٤ .

(٦) زكى مبارك : التصوف ، ج ٢ص ٢٧٩ .

حقيقة أننا نرى أحيانا فى كتب عصر المماليك إشارات إلى تعرض المرأة بين حين وآخر للامتهان وسوء المعاملة ، ولكن هذه الإشارات قليلة ، وهى لا تعبّر بأى حال عن الوضع الغالب للمرأة ، فضلا عن ضرورة ملاحظة روح العصر ومستواه الفكرى والحضارى ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها كثيرون عند دراسة التاريخ هو أن يحكموا على العصور السابقة بعقلية ومستويات العصر الذى يعيشون هم فيه. ويكفى عصر سلاطين المماليك فخرا أن بعض القضاة فى القاهرة كان إذا احتكم إليه رجل وامرأته ، فإنه كان لا يجبن عن مناصرة المرأة ما دامت صاحبة حق ، وذلك رغم ما تعرض له ذلك القاضى من أذى على أيدى بعض العامة الذين أدى ضيق أفقهم إلى الرغبة فى عدم إعطاء المرأة حقها المشروع فى الحياة (١).

وهكذا نهضت المرأة بنصيب كبير فى الحياة العامة بمصر والقاهرة على عصر سلاطين المماليك : ورغم القيود الاجتماعية ، التى فرضتها التقاليد على المرأة فى ذلك العصر ، فإن نشاطها ظهر بوضوح ، وفى القاهرة على وجه الخصوص : وحسبنا أن السخاوى فى كتابه «الضوء اللامع» أفرد جزءا كاملا ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة لنساء توفين فى القرن التاسع الهجرى ، ولمعظمهن نصيب كبير فى الحياة العامة بالقاهرة فى ذلك القرن :

من ذلك ما نسمعه عن بعض السلاطين والأمراء فى عصر المماليك — كالسلطان إينال — أنهم استسلموا لزوجاتهم ، حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير « من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة فى الدولة وطواعية

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٤٢ .

السلطان لأوامرها [1] » : وفى هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير « لا إختيـار له معها [2] » : وقد قال المؤرخ أبو المحاسن عن خوند زينب — زوجة السلطان إينال — أنهـا « صارلها نصيب وافر مع السلطان فى كل هدية ورشـوة [3] » . كذلك وصفها المؤرخ ابن إياس بأنها « صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل [4] » : ومثل هذه الأوصاف نجد لها أشباها كثيرة لبعض نساء المماليك، مثل أم السلطان شعبان ، وزوجة السلطان برسباى وغيرهن [5] :

وهناك أدلة واقعية كثيرة تشير إلى تدخل نساء سلاطين المماليك وأمرائهم فى شئون الحكم ، ومشاركتهم فى توجيه سياسة الدولة : وأول هذه الأمثلة شجرة الدر التى استطاعت أن تنقذ البلاد وتدير شئونها فى فترة عصيبة من أحرج فترات التاريخ المصرى ، عندما تعرضت البلاد لحملة لويس التـاسع ملك فرنسا ، فضلا عن أنها تولت منصب السلطنة وقضت فيه ثمانين يوما ، برهنت فيهـا على كياسة عظيمة وذكاء وافر : كذلك حدث سـنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧م) عندما نشب خلاف بين الملك السعيد وأمرائه، أن بعث الملك السعيد أمه لمفاوضة الأمراء فى الصلح، فأظهروا لها كل احترام ، واشترطوا عليهـا شروطا كثيرة التزمت لهم بها [6] : وشهدت القاهرة هذه القصة تتكرر أكثر من مرة فى عصر سلاطين المماليك ، عندما تدخلت نساء السلاطين للإصلاح بينهم وبين أمرائهم : ويروى المقريزى كيف تطرف الولاة سنة ٧٣٧ هـ

(١) أبو المحاسن : حوادث الدهور ، ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ١٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ص ٤٩٥ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ص ١٨٩ .

(٥) ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٤ ص ٢١٤ ، المقـريزى : السلوك ج ٤ ص ٤٧٩ .

(٦) أبو المحاسن النجوم ، ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(١٣٣٦ م) فى مصادرة التجار وإنزال المظالم بهم ، فقام كثير من الأمراء ليشفعوا للتجار ، ولكن السلطان لم يسمع لأحدهم قولا ، حتى إذا تدخلت ست حدق زوج السلطان الناصر محمد فى رفع الظلم عن التجار ، فعندئذ استمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فورا (١). وكثيرا ما نقرأ فى كتب عصر المماليك أن زوجة أحد السلاطين أو جاريته كانت السبب فى إلغاء مكس أو ضريبة . ومن ذلك ما يرويه ابن حجر من أن طغاى زوج السلطان الناصر محمد كانت السبب فى إلغــاء المكس المفروض على القمح (٢). وعندما أدرك أهل القــاهرة سلطة النساء فى قضاء حوائج الناس ، صاروا يوسطوهن فى هذا الشأن ، فإذا تعذر على فرد قضاء حوائجه عند أهل الدولة ، بحث عن الطريق الذى يوصل شكواه إلى حريم السلطان ، وعندئذ تقضى حاجته فورا (٣). وقد حكى السخاوى عن أحد كبار المعاصرين من رجال العلم والدين أنه توصــل إلى منصبه عن طريق زوجته نظرا لصلتها القوية بزوجة السلطان (٤).

ولم يقتصر نشاط المرأة فى القاهرة خلال عصر سلاطين المماليك على التدخل فى بعض شئون الدولة ، وإنما شاركت أيضا مشاركة فعالة فى الحياتين العلمية والدينية . ويسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن فى القــاهرة فى عصر سلاطين المماليك بالنحو كما نظمن الشــعر (٥). أما من اشتغلن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى : ولم يأنف كثير من كبار فقهاء القاهرة فى عصر المماليك من الاعتراف بأنهم سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللائى أجزن لهم (٦)

(١) المقريزى : السلوك ، ٢ ص ٤١٢ .
(٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٠١ ، الدرر الكامنة ج ص ٢٢١ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١١٦ .
(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٢٥ .
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٩٥ .
(٦) السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ١١٩ .

ويذكر السخاوى كيف تزاحم طلبة العلم فى عصره على إحدى المحدثات ، كما يذكر أسماء كثيرات ممن تعلم على أيديهن مثل آمنة ابنة الشمس ، المتوفاة سنة ٨٦٧ ﻫ (١٤٦٣ م) وأمة الخالق ابنة الزين عبد اللطيف ، المتوفاة سنة ٨٣٣ ﻫ (١٤٣٠ م) وأم هانئ ابنة التقى ، المتوفاة سنة ٨٨٥ ﻫ (١٤٨٠ م) (١) .

وفى عصر سلاطين المماليك ظهر إقبال عامة النساء بالقاهرة على مجالس العلم والدين ، فحرصت كثيرات منهن على الذهاب إلى المجالس حيث يجلسن فى مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية (٢) . وقد خص بعض الفقهاء والوعاظ فى ذلك العصر النساء دون الرجال بعلمهم بدعوى أن النساء فى حاجة إلى عناية خاصة حتى يعرفن أحكام الدين ، وما عليهن من واجبات تجاه الزوج والأبناء والجيران (٣) .

كذلك سلكت بعض نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك طريق التصوف ، وشاركن مشاركة فعالة فى حركة التصوف التى اشتد ساعدها فى ذلك العصر بالذات . وبعض النساء لبسن خرقة التصوف كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن اسم الشيخات (٤) . ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التى خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن : ووصف المقريزى هذه الزوايا الخاصة بالنساء بشدة الضبط والمواظبة على وظائف العبادات ، والحرص على مبادئ الأخلاق « حتى أن خادمة الفقيرات كانت لا تمكن أحدا من استعمال إبريق بزبوز ، وتؤدب من خرج على الطريق بما تراه » (٥) .

(١) المصدر السابق ج ١٢ ، ص ٤ ، ٩ ، ١٣٤ ، ١٥٩ .
(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢١٩ .
(٣) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١١١ .
(٤) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ ص ٨٤١ .
(٥) المقريزى المواعظ والاعتبار ، ج ص ٢٩٤ .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الرحالة الأجانب الذين زاروا القاهرة فى عصر المماليك – مثـــل سانوتو Sanuto والحسن بن الوزان Leo Africanus لاحظوا أن المرأة تتمتع بحرية كبيرة فى شوارع القاهرة وأسواقها ومتنزهاتها ، حتى أن بعضهن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهـــار ، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن (١) . وقد ذكر الجوبرى أن مجالس الخلاعة بالقاهرة اكتظت بالنساء إلى جانب الرجال (٢) . أما ابن الحاج فقال إن نساء القـــاهرة فى عصره كن يباشرن معظم أمور الشراء من الأسواق ، بل الغالب أن المـــرأة تشترى لزوجها ما يحتاج إليه فى لباسه لنفسه (٣) ، فإذا لم يكن لهن حاجة من السوق فإنهن يذهبن إلى الحمامات العامة حيث يأنسن ببعض ، أو يذهبن إلى الأعراس التى لا انضباط فيها على القوانين الشرعية (٤) . وكثيرا ما خرجت نساء القـــاهرة فى ذلك العصر إلى القرافات والبرك وشاطئ النيـــل وغيرها من أماكن اللهو والفرجة حيث ينكشف ستر الحياء ، ويختلط النساء بالرجال ، الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين ، فنادوا بمنع خروج النساء على ذلك الوجه السافر (٥) .

وجدير بالذكر أن المـــرأة القاهرية فى عصر سلاطين المماليك تفننت فى مختلف الوسائل التى تظهر بها جمالها وفتنتها ، فحرصت على العناية بنفسها وجسمها ، فأبت على أن تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف ، وشـــعر حواجبها بالمساواة والزينة : وقد استرعى نظر تافور بالقاهرة ذلك العدد الكبير

---

(١) 3 - Schefer : Le Voyage d'Outremer; P. 33

(٢) الجوبرى : المختار فى كشف الاسرار ، ص ٣٥ .

(٣) ابن الحاج : المدخل ، ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) زكى مبارك : التصوف ، ج ١ ص ٣٤٢ .

(٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٧ – ٢٣ .

من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة ، ويسيرون في الشوارع صائحين . فلما استفسر عن حقيقة أمرهم قيـل له إنهم يقومون بتحفيف النساء اللائى لا يرغبن فى إتمام هذه العملية فى الحمامات العامة .[١]

أما عن الملابس التى اعتادت المرأة أن ترتديها فى شوارع القاهرة فكانت عبارة عن قميص واسع طويل تصل أطرافه إلى الأرض ، له أكمام كبار واسعة ، وفوق ذلك القميص سبلة أو إزار يغطى جميع بدنها ويعلو كل ملابسها[٢] ، وحرصت النساء عند خروجهن إلى الطريق على إخفاء وجوههن بحجاب أو برقع أسود اللون ، تضعه المرأة بطريقة لاتمكن أحدا من رؤية وجهها ، فى حين تمكنها من رؤية كل ما يحيط بها[٣] . كذلك حرصت النساء على غطاء الرأس ، واستعملن لذلك الغرض الشاش ، وهى عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها عند ظهرها ، مع زخرفتها بالذهب واللؤلؤ .

ووصف الرحالة الأجانب ملابس النساء فى القاهرة على عصر السلاطين المماليك بأنها من الأقمشة الرقيقة الفاخرة[٥] . والواقع أن نساء القاهرة فى ذلك العصر كثيرا ما بالغن فى ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الأمر بهن أحيانا أن تفصل الواحدة منهن قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البندقى الذى عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة قميص

(١) Tafur : Travels; P. 101.

(٢) العينى : عقد الجمان — حوادث سنة ٧٩٣ هـ ، تاريخ ابن الفرات : سنة ٧٩٣ هـ .

(٣) Belon : Les Observations de Plusieurs Singularitez et Choses Memorables ... P. 106

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٥) Dopp:LeCaire Vu par les Vayogeurs Occidentaux du Moyen Age, P. 134,

المرأة أكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعا مربعا ، تتجاوز قيمتها الألف درهم[(١)]. أما ثمن الخف الذى كانت ترتديه المرأة القاهرية فى قدميها فكان يتراوح بين مائة وخمسين درهم[(٢)]. ويبدو أن هذا الإسراف من جانب النساء دفع أهل الدولة إلى التدخل لتحديد ملابسهن ، كما حدث سنة ٧٥١ وسنة ٧٩٣ ، وسنة ٨٥٠ وسنة ٨٧٦ هـ (١٣٥٠ ، ١٣٩١ ، ١٤٤٦، ١٤٧١ م). وفى تلك الحالات كان المنادون يطوفون بشوارع القاهرة محذرين النساء من لبس القميص الذى يزيد طوله عن اثنى عشر ذراعا ، وأن لا تكون الأكمام مفرطة فى الاتساع[(٣)]. وكان رسل المحتسب تطوف بشوارع القاهرة ، فإذا وجدوا امرأة خالفت التعليمات السابقة تعرضت للعقوبة الشديدة[(٤)]. كذلك نصبت أخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلق عليها تماثيل على صورة نساء ، وعليهن القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن[(٥)].

على أنه يلاحظ أن ملابس نساء القاهرة فى عصر المماليك لم تظل على حال واحد من الطول والقصر ، أو الاتساع والضيق ، وإنما تعرضت للتغيير والتبديل تبعا لاختلاف الموضات بين وقت وآخر . فابن الحاج فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) أخذ على نساء القاهرة « تلك البدعة التى أحدثنها فى ثيابهن من جعلها ضيقة وقصيرة » وطالب ابن الحاج معاصريه بمنع النساء من تلك الأكمام القصيرة التى أحدثنها[(٦)]. ولكن المقريزى فى القرن

(١) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٧٣ .
(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ص ١٢٧ .
(٣) تاريخ ابن الفرات حوادث سنة ٧٩٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٤٠ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٣٢ .
(٥) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٧٣ .
(٦) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عاب على نساء عصره فى القاهرة إفراطهن فى طول الثياب واتساعها ، والمبالغة فى اتساع الأكمام وطولها ، حتى أن الواحدة إذا أرخت كمها فإنه يغطى رجلها [1].

هذا كله فضلا عما اعتادت نساء القاهرة التزين به من الحلى والجواهر مثل الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة ... حتى القباقيب كانت تصنع من الذهب وترصع بالجواهر [2].

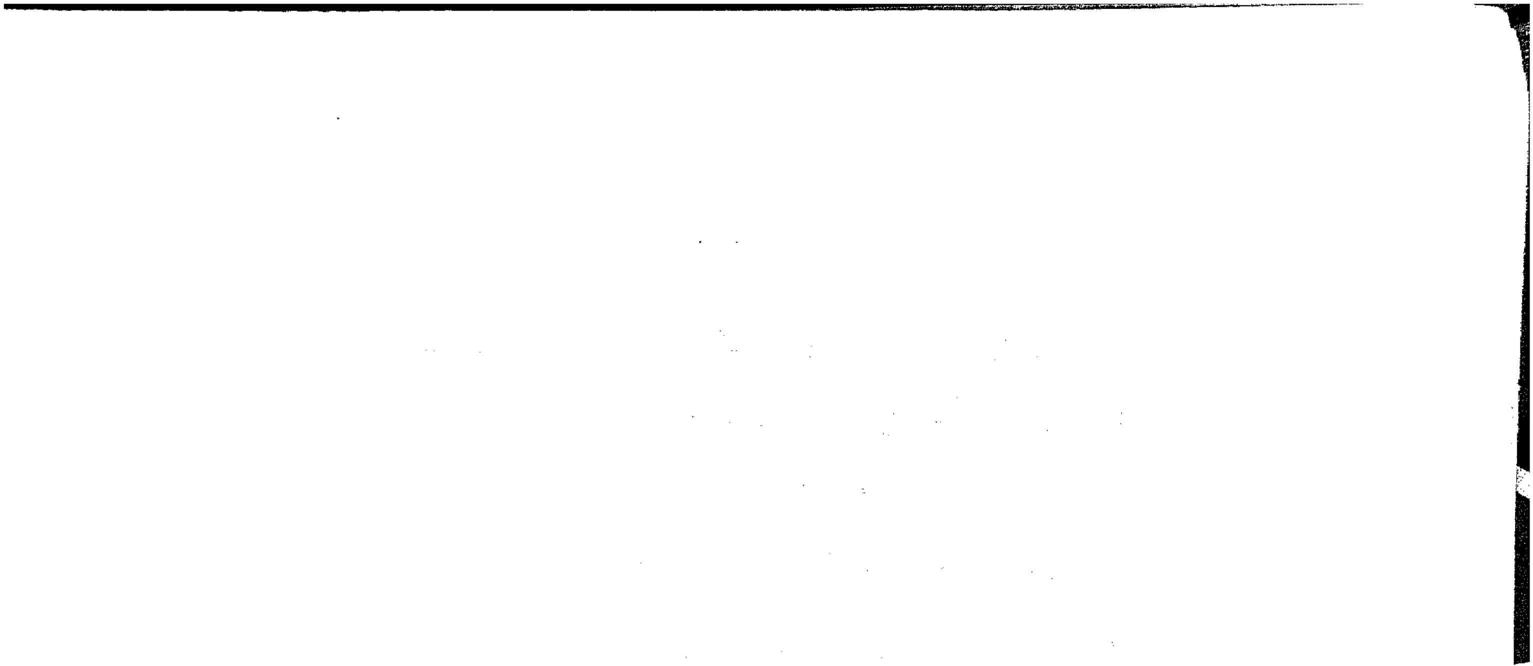
ولعل هذا كله مما دفع أحد علماء القرن العاشر الهجرى (السادس عشر للميلاد) إلى أن يصف نساء القاهرة بأنهن أرق نساء الدنيا طبعا ، وأحلاهن صورة [3].

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٨٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حوادث سنة ٧١٠ هـ .

(٣) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٨٠ ب .



الماَمة عن أحوال القاهرة الإقتصادية وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين

سليمان مصطفى زبيس

المامة عن أحوال القاهرة الإقتصادية وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين

سليمان مصطفى زبيس

ما من شــك أن مصر كانت بلادا غزيرة الثروة ، فلعبت بموجب ذلك أدوارا جليلة فى السياسة والحضارة ، وأن الآثار الفرعونية الفخمة الموجودة فى ربوعها لهى دليل ساطع على عظمة المظاهر التى بلغها فيها المجهود البشرى للنهوض بالقيم الإنسانية المبدعة الخلاقة .

وقد عاشت مصر فى كنف هذا المــاضى المجيد عيشة الرغد والســعة إلى أن أسدل الإسلام عليها رايته ، فكانت جوهرة ناصعة فى عقد الخلافة ، وغرة باسقة فى جبينها ، فكانت قاعدة الفتوح الإسلامية ومنطلق الدين الحنيف ولغة الضاد فى انتشارهما نحو المغرب قبل أن تتولى القيروان النهوض بالمشعل والوصول به إلى مدينة بواتيسى الفرنسية عبر الأندلس وجبال البيرينى .

وبقيت مصر فى انتشارها عهدا بعد عهد ، من فسطاط عمرو بن العاص إلى عسكر بنى العباس فإلى قطائع ابن طولون والأخشيد، المعقل الرئيسى ، والدعامة الممتازة فى جهاز الامبراطورية الإسلامية ، السياسى والحــربى ، والاقتصادى والثقافى ، إلى أن خرج بها الفاطميون من هذه التبعية الذهبية ، فجعلوا منها مركزا لخلافة فاقت فى الأبهة والعظمة والحضارة جميع الخلافات السابقة. وإذ أنشأ الفاطميون مدينــة القاهرة فإنما أنشأوا عاصمة لتبعث من

أرجائها طاقات جديدة يستعيد بها الإسلام قوته السائرة إلى الوهن بعد فتور بغداد، وتلاشى نفوذها وضعفها وعجزها عن قود الأمة الإسلامية فى سبيل التقــدم المطرد الذى عرفته فى عصورها الزاهرة ، والذى أوشك تياره على الانقطاع : وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة فإنما أرادوا بذلك تهيئة مركز وسط بين المغرب والمشرق ، وبين الجنوب والشمال ، وإقامة شرفة على البحر ترصد منها مختلف التيارات السائرة على اليم : فالمظنون أن غايتهم التى تاقوا إليها من احتلال بغداد يوما من الأيام، وزحزحة الخلافة العباسية من الميدان، فالمظنون أن الغاية من ذلك لم تكن تفيد القطع بأنهم عقــدوا العزم على أن يتخذوها عاصمة ثالثــة للخلافة الفاطمية ، فلعلهم كانوا يرمون فقط إلى الاستيلاء على مدينة السلام وما والاها ، ثم العودة إلى الوكر الذى لم يرضــوا عنه بديلا ، وهو القاهرة بجوار النيل المنعش ، وحقوله الطيبة الكريمــة ، ومنتزهاته الفاتنة :

وعلى كل فإن الواقع الذى حدث أن الخلفاء الفاطميين لم يغادروا القاهرة طوال مدة دولتهم ، بالرغم من أنهم امتلكوا جانبا من الأقطار الشرقيــة ليس بالهين : وهذا ما جعل من القاهرة مركزا سياسيا راسخ القدم ، طــويل النفس فى اتجاهاته ، ومعقلا عتيدا لقوة جبارة فى عالم ذلك الوقت ، بل فلقد أرسى الفاطميون لهذه المدينة قواعد البقاء والازدهار ، وضمنوا لها الاستمرار والدوام ، محاطة بالهيبة وحسن الاعتبار . فمنها قــام صلاح الدين الأيوبى لحملاته الموفقة على الحركة الاستعمارية الصليبية ، وعن طريقها توزعت خيرات المشرق وذخائره نحــو أوربا والمغرب ، خصوصا فى أيام المماليك ، وعن طريقها استمر توزيع هذه النفائس بعدهم ، وذلك قبل فتح ترعة السويس وبعدها : فلا غرابة أن كان لذلك فضل عظيم فى ازدهار اقتصادها ازدهارا

خارقا متواصلا ، وإن كانت محل اعتبار مختلف الدول الغربية جميعهـا ، وخصوصا التجارية منهـا والبحرية كجنوة والبندقية ، ثم هولاندا وانجلترا وفرنسا ، فكانت محل الاعتبار من طرف هذه الدول ، وكذلك مجلبة للأطماع وهدفا للحملات الاستعمارية المناوئة :

وفى هذه الكلمة المختصرة على أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقتهـا الخارجية سوف لا نتعدى الفترة الفاطمية ، لأنها فترة الإنشاء والانبعاث ، وكذلك لاتساع الموضوع وتشعب أبوابه ، ووفرة مادته لو حاولنـا تجاوز الفترة المذكورة :

وقد تصفحنا فى المدة الأخيرة كتاب الذخائر والتحف للقاضى الرشيد ابن الزبير فرأينا أن نستهل هـذه الكلمة ببعض من الفصـول التى أوردها المؤلف عن تحف وذخائر القاهرة فى عصر الفاطميين : وهى ذخائر تصور لنا مكاسب ملوكها وكبرائها الواسعة وثرواتهم الطائلة ، وروائع كنوزهم ، ونفيس أعلاقهم فى صورة مدهشة :

جاء فى كتاب ابن الزبير أن القائد جوهر « أهدى إلى المعز لدين الله بعدما ملك مصر فى سنة ٣٥٩ هـ، هدية فيها ٩٩ نجيبة وإحدى وعشرون قبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ومناطق من الذهب مكللة بالجوهر و ١٢٠ ناقة بالديباج :.. والأعنة المحلاة بالفضة و ٥٠٠ جمل عراب ، و ٤٨ دابة ، ٤٧ فرسا عليها أجلة الديباج المنقوش والسروج على جميعها أصناف الحلية من الذهب . ومنها ماهو بالفضة مموه بالذهب وجمها منها ماهو بالذهب ، ومنها ماهو بالفضة » :

«ولمـا سار العزيز بالله إلى بلبيس متوجها للغزو سنة ٣٨٥ هـ . كان فى جملة ما خرج معه من المـال خمسة آلاف جمل ، على كل جمل صندوقان كبيران

مملوءان مالا . وألف وثمانمائة بختية وبختى على كل واحد صندوقان ، فى كل صندوق منهما مثل ما فى الصناديق المحمولة على الجمال » ؛

« وأهدت السيدة الشريفة ست الملوك أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها فى سنة ٣٨٧ هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا ، منها مركب واحد مرصع من حجر البللور ، وعشرون بغلة بسروجها ولجمها ، وخمسون خادما ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها ، وتاج مرصع بنفيس الجوهر ، وشاشية مرصعة ، وأسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه ، وبستان من الفضة ، مزروع من أنواع الشجر » ؛

« وقد وجد للأستاذ أبى الفتوح برجوان العزيزى حين قتله الحاكم فى سنة ٣٩٠ :

— مائة منديل شروب ملونة مصممة كلها على مائة شاشية ؛

— آنية الذهب والفضة مالا يحصى كثرة ؛

— الخيل الجياد ١٥٠ فرسا ؛

— البغال المثقلة ٣٠٠ بغل ؛

— السروج الثقيلة الحلى ١٥٠ سرجا ؛

— الكتب المصورة وكتب الأغانى الشىء الكثير » ؛

« ووجد لقائد القواد الحسين بن جوهر حين قتله الحاكم سنة ٣٩٩ ، فى جملة ما وجد :

— ٧٠٠٠ مبطنة حرير ؛

— ٩ مثارد صينى أسود فنصورى مملوءة حب كافور فنصورى (من فنصورة وهى بلدة فى جنوب جزيرة جاوة) وزن كل حبة ثلاثة مثاقيل » ؛

وقد أهدى المعز بن باديس صاحب القيروان هدايا إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله فى سنة ٤٢٠ ، فأنفذ إليه الظاهر — على حد قول القـاضى الرشيد — هدية جليلة المقدار ، فيها من غرائب طرف بلاد الهنـد والصين وبلاد خراسان من سائر أنواع الطيب والجوهر وغير ذلك مالا يحد ، ومن دق تنيس ودمياط وتونة وأعمالها من الملابس والفـرش والتعاليق والأعلام والبنود والألوية على القصب الفضة المجراة بالذهب من سائر الصور كل بديعة وغريبة قدرها وتمنع وجود مثلها . وحمل إليـه ... القباب والمحامل المعمولة من العاج والأبنوس والصندل المضبب بالذهب والفضة التى عليها أهلة الذهب المجللة بفاخر الأجلة ، ومن الخسروانى الأحمر المذهب والمخمل بالذهب والدبيقى المذهب ... ومن الخيل العراب ذوات الأثمان الغالية ، والصفات البديعة شىء كثير على أكثرها سروج الذهب والفضة ، والجوهر والعنبر والكافور ... ومن الدروع والخـود والجواشن المذهبة ، والسـيوف المجوهرة ... » .

« وقد وجد للسيدة راشدة بنت المعز لدين الله حين ماتت سنة ٤٤٢ ، ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، وكان فى جملة ما وجد فى خزائن كسوتها ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع واثنا عشر ألفـا من الثياب المصمتة ألوانا ومائة قطرميز مملوءة كافورا فنصوريا » .

« وماتت أختها عبدة بنت المعز فى هذه السنة (٤٤٢) بعـد ثلاثة أيام ، فكان مما وجب أن يختم عليه فى خزائنها ومقاصيرها وصناديقها ممـا حوته من موجودها ذهبا أربعون رطلا من الشمع ، وأن بطائق المتاع الموجود المسجل لها بلغ ٣٠ رزمة من الورق ، ووجد لها :

– أربعمائة سيف محلى بالذهب :

– ٣٠,٠٠٠ شقة صقلية ؛

– أما الجواهر فما لا يحد كثرة :

– والزمرد كيلة إردب واحد » ؛

« ووجد لها طست وإبريق من البللور ، فلما رآهما سيد الوزراء اليازورى فلفرط استحسانه لها وعظيم قدرهما عنـــده سأل السلطان فيهما فوهبهما له (واستأثر اليازورى) بمدهن ياقوت أحمـــر وزنه ٢٧ مثقالا ، أخذه سرا من السلطـــان » ؛

« وخلفت السيدة ست مصر بنت الحاكم بأمر الله حين ماتت فى مستهل جمادى الثـــانية سنة ٤٥٥ مالا يحصى كثرة : وكان إقطاعها فى كل سنة يغـــل ٥٠,٠٠٠ دينار ، ووجد لها ٨٠,٠٠٠ جارية ، ونيف وثلاثون زيرا صينيا مملوءة جميعا مسكا مسحوقا ، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت قيها ١٠ مثاقيل » ؛

وأما ما جاء فى أخبار المُخْرَج من خزائن قصر المستنصر بالله فى سنتى ٤٦٠ و ٤٦١ حين تغلب الأتراك على دولته ، واستباحوا ما وجد فى بيت ماله ، واقتسم مقدموهم دور المكس والجبايات ، فحصل لهم من ذلك مال لم يعرف مثـــله فيما تقدم من الدول منذ ظهر الإسلام إلى وقتنا هذا — عهـــد القاضى الرشـــيد بن الزبير (١) — نفاسة وجلالة وغرابة وكثرة وحسنا وملاحة ، وجودة وسناء قيمة وغلة ثمن : على أن الذى أخرج يسير من كثير ، وقليل من جليل : «ولقد قيل إنه نقل منه مياسير التجار إلى سائر الأمصار ، وجميـــع

(١) مات فى النصف الثانى من القرن الخامس هـ . / الحادى عشر م .

الأقطار ... سوى ما أخذته النار وغرق فى البحار ، وامتلأت قياسير مصر وأسواقها من الأمتعة المخرجة من قصر السلطان المبيعة على الناس بما يعجز الواصف عن وصفه » . وقد عدد شيئا منها صاحب كتاب الذخائر والتحف بما يقف الإنسان إزاءها حائرا فى أمره ، أيطلق العنان للإعجاب بهذا الكشف الذى تضمن هذا العدد العديد من أنفس النفائس ، أم يطاقه لمثل هذا القاموس الفنى الطريف الغزير الألفاظ ، الوافر المادة ، كأنه ألف خصيصا لهذه الطرف النادرة الثمينة :

بعد هذه الطرائف حول مكاسب بعض أمراء الدولة الفاطمية ، وكبار رجالاتها يتضح بجلاء أن مثل هذه الثروات ما كان يتيسر جمعها إلا إذا كان اقتصاد البلاد اقتصادا مزدهرا ازدهارا خارقا . نعم إننا لا ننسى أن القائد جوهر ثم الخليفة المعز قد نقلا جميع ما أمكن نقله من الذخائر والنفائس والأموال مع صناعها التى انكبت الدولة على جمعها فى بلاد المغرب طيلة ما يقرب من السبعين سنة ، ولكن البلاد المصرية كانت بها ذخائر الإخشيد وممتلكاته ، وممتلكات أهل بيته وممتلكات رجال دولته وحاشيته . وكل ذلك صار فى قبضة الفاطميين ، فدعموا به ثروتهم الطائلة . زد على ذلك ذخائر صقلية ، وقد بقيت هذه الجزيرة تابعة للقاهرة بعد خروج الفاطميين إلى مصر ، وانقطعت عن القيروان فسيقت خيراتها ، منذ حل القائد جوهر بأرض مصر ، مباشرة إلى القاهرة ، بعد أن كانت السفن تسير بها إلى مرسى سوسة ومرسى المهدية منذ عشرات وعشرات من السنين :

ولا ننسى فى النهاية أن الوزير يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين قد وضعا منذ سنة ٣٦٣ — أى بعد عام من حلول الدولة الفاطمية بالقاهرة — وضعا نظاما جبائيا مبتكرا ، وفرا به خراج مصر بصورة عظيمة ، وبالجملة فإن النظام الفاطمى قد كان نظاما مركزا على جباية ملحة بالغة المضايقة ،

فكانت هناك ضرائب مفروضة على التجارة والصناعة فى مختلف أطوار تنقل البضاعة ، عند دخولها إلى الحدود ، وفى تجوالها داخل البلاد من مكان ورودها إلى غيره من الأمكنة ، كل ذلك مع استلزام البقاع المخصصة للبيع والمسالخ والمذابح ، وهناك ضرائب على مصانع السفن . يضاف إلى ذلك احتكار بعض المواد للدولة كالشب ودار الضرب ودار الطراز ودار العيار ودار الأحباس .

فلا غرو والحالة هذه أن تكون مداخيل الدولة الفاطمية مداخيل عظيمة تفوق بلاشك موارد الدول العربية السابقة فى مصر . إلا أن الفاطميين لم يكونوا من الملوك الذين يقترون فى ميدان الإنفاق ، بل إنهم جعلوا من الرياء والتظاهر وحب البهرج قاعدة من قواعد سوس الدولة ، وكان الخليفة الآمر يطرح الدنانير على الناس من الشباك ، وكان الخلفاء جميعا يكثرون البذل والأعطيات للجوارى والمغنين والشعراء ، ولكن بيت المـــال كان محل نزيف رهيب من جراء الرواتب المـــالية المبذولة للجيش العرمرم من الموظفين لهم ولأبنائهم ولأزواجهم ولإخوانهم ولأصهارهم ، وذلك بالإضافة إلى الأعطيات القارة والهدايا من أطعمة وألبسة وغير ذلك مما جاء مفصلا فى كتابى صبح الأعشى وخطط المقريزى .

على أن ذلك يشكل معيـــارا دقيقا لثروة مصر العـــامة وسعتها ، ومرآة للازدهار الاقتصادى الخارق الذى غمر القاهرة منذ تأسيسها :

وإن ازدهار الزراعة بمصر قد ازداد أشواطا على ما كان عليه من قبـــل مذ دخلها الخليفة المعز لدين الله إذ حرص على شق مساحات كبيرة من الأرض كانت جدباء ، بشبكة ثخينـــة من الخلجان والأبحـــر والترع والجســـور وتعددت فى أيامه مقاييس النيـــل لرقابة سيله واتخـــاذ الاحتياطات المحكمة لتفادى المكروه واتقائه إزاء النقص المجحف ، أو الارتفاع المخيف ورتبت

الأراضى حسب نوعها لتزرع بمختلف البقول والغلال الصالحة لها كما رتبت الزراعة لتكون المحاصيل متوزعة على كامل العام الشتوية منها والصيفية، وقد عنى الفاطميون بصورة خاصة بزراعة الفواكه من كرم وتين وتفاح وتوت ولوز وخوخ ومشمش ونخل وموز ، وبالرياحين من ورد ونرجس وياسمين وفل وقرنفل ، كل ذلك على نسق ما كانوا يتعاطونه فى البلاد التونسية فى برج عريف وهيبون بضاحية المهدية ، وبمختلف العينات التى كانت بضواحى القيروان مثل جلولا وسردانيا . والمعروف أن من هذه الأخيرة قد شد منها المعز لدين الله الرجال إلى القاهرة ، ومن جملة أنواع الليمون التى أوجدت فى مصر– على حد قول المقريزى – ليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه ، وكذلك كان فيها ما يسمى بالليمون الشتوى والليمون السائل .

وكان أحسن التفاح بمصر التفاح المسمى بالشامى ، وكان مضرب المثل فى الحسن كما قال السيوطى فى « حسن المحاضرة » ، وأما قصب السكر فليس هناك من الإخباريين من ذكره بالنسبة إلى عصر الفاطميين فى عهدهم الأول إلا أن الكميات الهائلة من أوراق البردى التى كانت رائجة بمصر قبل ظهورالكاغذ دليل قاطع على وفرة قصب السكر بمصر قبل الفاطميين وبعدهم على أن هذا القصب قد زاد وفرة ورواجا فى أيامهم بصورة محسوسة ، حتى قال المؤرخ ناصر خسرو (حوالى عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) فى ذلك مايلى : « وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا » :

ومن فلاحة مصر الكيمياوية للتلوين النيلة والقرمس والزعفران ، وهى فلاحة رقيقة تستدعى الخبرة والصبر . هذا ومن المعلوم أن فلاحة مصر قوامها ماء النيل ، فكان توزيعه توزيعا معقدا متشعبا ، ولكنه مبنى على قاعدة واحدة

لا تقبل النزاع ، وهى أن المـاء لا يجوز بيعه أو شراؤه ، فلم يكن جائزا للأفراد أو للدولة أن يجعلوا من المـاء بضاعة للكسب أو للإتجار ، وقد وفر الفاطميون الانتفاع بماء النيل بربط سدين ، وذلك منذ صدر دولتهم بالقاهرة وهما سدا عين شمس بالحلفاء والتراب ، وكان يقام قبل زيادة النيل ، فاذا أقبـل السيل رده السد وعلا المـاء فسقى ما وراء السد من ضياع ، وقد عرف هذا السد أيضا بخليج أمير المؤمنين :

ولمصر ميزة فى تربية الدواجن ، وخصوصا فى تربية الدجاج بالترقيـد الصناعى على النحو المتعارف اليوم ، والذى يسرته وسائل التكنكة العصرية المتقدمة ، والظاهر أنها طريقة لم يستعملها غير المصريين فى ذلك العهد :

وقد فاقت الصناعات المصرية جميع الصناعات المعروفة فى الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وذلك لأن القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة قد جلبت إليها من مختلف العواصم التى كانت تابعة لها أمهر الصناع ، فتدعم بذلك ساعد طوائف الصناعات المصرية الأصلية ، فمن المعروف مثلا أن القائد جوهر عندما خرج من القيروان لبناء القاهرة لم يكن مصحوبا فقط بالجنود والعتاد الحربى ، بل كان معه النخبة من أهل الصنائع وأنفس النفيس من التحف المصنوعة فى صبرة المنصورية عاصمة الفاطميين الثـانية بإزاء القيروان ، ولنتصور براعة هؤلاء الصناع التونسيين وحذقهم المفرط ، فانتظر إلى تلك الربعة الصغيرة البديعة الصنعة المحفوظة فى المتحف الأثرى بمدريد ، وهى تحمل كتابة مرصعة بالعاج تفيد أنها صنعت فى مدينة صبرة المنصورية وأنها صنعت برسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مع تاريخ لها صريح سابق لنقلة الخلافة من القيروان إلى القاهرة . ويفيدنا وجود هذه التحفة الفريدة اليـوم فى بابهـا أن مثلهـا قد كان يصنع فى القيروان بالعشرات ، وأن البعض منـه قد نقل إلى المشرق فى حقائب جوهر وحقائب المعـز ، وعليه فلنحث الباحثين

على التروى عندما ينعتون فريقا من هـذه التحف بأنه فاطمى ، وأن يتساءلوا هل هو فاطمى من الطـور القيروانى أو فاطمى من الطور المشرقى أو القاهرى كما يتعين على الباحثين إمعان النظر فى نوعية الزخارف ، لأن الطورين يمتازان كل على حدة بميزاته الفنية . فالفن التونسى على جودته وأصالته فى الرقة ، لا شك أنه تطور فى بيئته الجديدة مصر ، وتكيف هنالك فخرج بذلك نوعا ما عن أشكاله ومظاهره الأصلية ، فلا شك أن إعادة النظـر فى التحف الفاطمية المتوزعة فى متاحف الدنيا سوف تفيدنا الإفادات الجمة للتفرقة بين فصيلتين من الإنتاج الفنى الرائع بدل فصيلة واحدة :

وعلى كل فإننا لا نتردد لحظة عن إعادة ما سبق بيانه، وهو أن الإنتاج الفنى المصرى فى عهد الفاطميين قد كان أبدع وأروع إنتاج عصرهم ، وقد تناول مختلف الفنون ومختلف المواد :

فقد ازدهر النسيج على اختلاف أنواعه من نسيج الكتان الرفيع الذى كان يصنع بالفيوم وتنيس ودمياط وشطا ، ومن المنسوجات الحريرية النفيسة المصنوعة بدبيق ، وقد اشتهرت هذه المدينة بالثياب الدبيقية ، ومنها العمامة الدبيقية المذهبة ، ومنها أيضا كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة ، وقد أقام المعز لدين الله دار الكسوة ، ومنها كان يلبس الأمراء وكبار القوم من البلاط الخلافى ، وكانت الأقمشة الرائجـة فى ذلك العصر محلاة ومطرزة بالذهب والفضة ، مع مختلف أنواع الزخارف والكتابات الجيدة الرائعة ، الحاملة لمعلومات تاريخية على غاية من النفاسة :

وقد كان الخشب قليلا فى مصر ، فكانت السلط الفاطمية تحتكر جميـع الأخشاب الواردة عليها من أى بلد. وكان شغل الدولة الشاغل هو بناء السفن وتدعيم الأسطول التجارى والحربى بالإكثار المطرد من عدد قطعه ، وقد بنى

المعز لدين الله دار صناعة بالمقس صنع فيها ٦٠٠ سفينة على وتيرة واحـــدة ، وكان الخشب يرد من صقلية ومن أوربا عن طريق سفن البندقية ، بالرغم من تحريج ذلك عليها من طرف امبراطور الروم الذى كان لا يرتاح باله لنمـــو أسطول مصر بهذه السرعة ،وفى غير الأسطول كان الخشب يستعمل فى شتى المآرب ، ولكنه كان مادة سهلة الاستعمال قد يسرت أنواعاً من الصناعات الفنية كالحفر والنقش والترصيع والتطعيم، وفى متحف القـــاهرة للفنـــون الإسلامية نماذج رائعة لهذه الفنون ، وخصوصا المحراب الفاطمى المجلوب من الجامع الأزهر ، ومحرابا مثله مجلوب من مسجد الست رقية .

ولقد عنى صناع القاهرة بصناعة الجلد التى حذقوها ، وأخذوا شيئا عظيما من فنون دبغها وتهيئتها عن الأقوام الصحراوية التى استوطنت مصر ، ولنلاحظ من بين منتوجات الجلد التى يتجلى فيها منتهى الإبداع صناعة الكتب من أوراق الرق الملونة أو الناصعة البياض ، ومن دفات مجلدة للكتب تحمل أنواع الزخارف . وقد ضاعت معظم مجموعات التجاليد الفاطمية المشرقية وبقيت المجموعات الفاطمية التونسية على حالها الأول وعددهابضع عشرات محفوظة فى متحف باردو بتونس ، ومتحف المنستير ، ومتحف القيروان .

وتتمثل البقـــايا من المصنوعات الزجاجية الفاطميـــة فى مجمـــوعات من القنـــاديل والمشكاوات وفصوص الزجاج والشمسيات والقـــوارير ، ومختلف الأوانى ، ولكن هناك مجموعة من البللور الصخرى تمتاز عن الكل بالصفاء والرقة . والمعروف أن هـــذا البللور الصخرى قد كان يجلب من بلاد المغرب كما أن صبرة المنصورية قد كانت مركزا ممتازا لصناعة الزجاج الفاطمى ، فقد أوجد الفاطميون فى الشرق مراكز جديدة لهذه الصناعة وذلك فى الفسطاط والأشمونين ، وقد برع صناع الفسطاط فى زخرفة البللور بالميناء والذهب وأنواع الدهن ، كما حذقوا نقشه ونحته وجرده وترصيعه .

أما الخزف فلم يفت أهل مصر نوع من أنواع فنونه ، فمنه المطلى طلاء بالذهب له بريق المعدن ، ومنه الأوانى الشفافة ، ومنه الأقداح والأزيار المنقوشة ، وعلب البخور والعطور والأزياء المحلاة بمختلف الزخارف . فلنذكر منها بالخصوص تلك الأجرار الصغيرة التى جعلت لكل منهـا فى حلقها مصفاة مثقوبة بطرز فنية مختلفة :

ولصناع مصر براعة فى فنون الترصيع والفسفساء ، وصناعة الذهب والفضة ، وتحلية الأقمشة والسروج والسيوف والمصاحف ، وتكفيت أوانى النحاس والبرنز .

وبالجملة فقــد كانت القاهرة تجمع جمهرة من الصناعات الرقيقة التى كان لانتاجها رواج عظيم . بالخصوص فى الخارج : فكان ذلك مادة ثراء خارق للبلاد ، ومادة مبادلة كانت تجنى بدلها البضاعات المحتاج إليهـا من الأقاليم الأخرى أى البضاعة المختلفة التى تحتاج إليها مصر :

وكانت التجارة المصرية تجارة نشيطة ، سواء أكانت فى القطاع الداخلى أم القطاع الخارجى .

أما التجارة فى الداخــل فقد كان قوامها حجم البضاعة الضخم التى كانت تتجول كمادة خام ، وكمنتوج مصنوع من مركز صناعى إلى مركز تجارى ، وإن أحسن طرق هذا التجوال وأرخصها هو النيــل ، وفى ذلك تأثير طيب فى تخفيض أثمــان البضاعة وتيسير اقتنائها ، وتنشيط صناعتها وترويجها ، فلا شك أن كانت أسواق المدن المصرية وأســواق القاهرة بالخصوص أسواقا ضاقت بالدكاكين ، واكتظت بالزبائن بصورة جعلت رقعتها تمتد شيئا فشيئا إلى أن اتخذت مساحات ضخمة ، وكانت القيسريات فيها والخانات والمستودعات تزداد يوما بعد يوم لإيواء التجار القادمين من الخارج ، ولخزن بضاعاتهم وبيعها بالجملة لتتوزع على صغار التجار .

وأما التجار الأوروبيون من أهل بيزة وأمالفى والبندقية وجنوة فكانوا يحلون فى فنادق لهم على نسق القيسريات ، فيها كنيستهم ومصرفهم ومدرستهم وحرسهم ومحكمتهم وغير ذلك مما كان يجعل هذه الفنادق شبه القلاع تعيش فيها الجاليات الأجنبية عيشة الانفراد عن سكان المصر متى أراد أهلها الانفراد.

هذا ولما كانت التجارة والصناعة فى داخل البلاد مرتبطة الارتباط الكلى بما يرد إليها من بضاعة خارجية ، وما يصدر منها إلى الخارج من بضاعة داخلية بقى لنا أن نستعرض قليلا دواليب العلاقات بين القاهرة الفاطمية والعالم الخارجى .

العلاقات الاقتصادية

بين القاهرة والأمم الخارجية

لقد لاحظنا أن موقع القاهرة فى مفترق الطرق بين الشمال والجنوب وبين الغرب والشرق قد جعلها فى المحور الرئيسى الذى كان يدور حوله دولاب التجارة العالمية ، فكانت القاهرة نقطة التجمع للبضاعة الآتية إليها ، ومركزا لصنعها . وكانت أيضا المنطلق لترويجها وتوزيعها فى البلدان الراغبة فى اقتنائها وذلك إما غــربا وإما شمالا ، فهناك غربا سلسلة من المــوانى تشتمل على الإسكندرية فبرقة فطرابلس فالمهدية ، وكانت هــذه الأخيرة أعظم الموانى المذكورة جميعا قبــل تأسيس القاهرة مذ كانت المهــدية عاصمة الفاطميين البحرية : وكانت السلسلة تمتد إلى الأندلس عبر المغرب الأوسط والمغــرب الأقصى مؤلفة فى ذات الوقت طريقا بحرية للحج . وكان الحج إلى بيت الله الحرام هو الباعث على هذا النشاط الاقتصادى والمحرك لتجوال السفن بين مختلف السواحل المغربية ، والضامن لدوامه واستمراره ، وإلا فان المنافسة الشديدة التى كانت بين الفاطميين والأمويين وأخلافهم بالأندلس سريعــا ما كانت تقوم عرقلة فى سبيل التبادل التجارى بين القاهرة وقرطبة ، ثم بين القاهرة وبعض عواصم ملوك الطوائف كبلنسية وغرناطة وإشبيلية التى كانت توزع هى بدورها البضاعة الواردة إليها من المشرق إلى مختلف العــواصم الأوروبية ، وكانت تشتمل هذه البضاعة على العطور والأبراز والتــوابل

والقمارى وخشب الساج والجوهر والياقوت والمــاس والعقيق وأنواع البخور وكانت السفن تعود من الأندلس إلى القاهرة وقد تزودت بالخشب الطرطوشى والفضة والزئبق . وعند مرورها بالموانى المغربية كانت تتزود بالقمح والشعير والتمور والصوف والعسل وزيت الزيتون ، وخصوصا زيت مدينة صفاقس التونسية ، ومن الموانى التى على السواحل الجزائرية التونسية كان تصــدير المرجان الرفيع والأسفنج والحرير والخفاف وأنواع من الفواكه وخصوصا تفاح جربة وقابس ، ومنها كان أيضا تصدير البضاعة الواردة إليهــا من الصحراء وبلاد السودان كالعاج والتبر ، وكذلك الرقيق الأسود الذى كان منه الكشمير فى قصور الخلفاء وفى الجيش .

وكانت الطريق المتجهة من القاهرة غربا تنعرج أحيانا شمالا ، وتتصل مباشرة بصقلية ، أو تنعكس نحوها بعد أن تصل إلى المهدية ، وذلك طالمــا كانت صقلية مملكة تابعة للفاطميين . فلما امتلكها ملوك النرمان فى الربع الأخير من القرن الخامس هـ ، الحادى عشر م ، انقطعت الصلة مدة بهذه الجزيرة ، حتى ربط ملوكها علائق تجارية منتظمة بالقاهرة . فكانت هذه الأخــيرة تستورد الخشب الصقلى النفيس لصنع السفن مــع شىء من قمــح الجزيرة وفاكهتها ومعادنها ، يضاف إلى ذلك أنواع الأقمشة الحريرية التى كانت محل اعتبار عظيم فى مصر .

وشمالا كانت للقاهرة علاقات تجارية نشيطة جدا مع مختلف الجمهوريات الإيطالية ، وبالخصوص مع جمهورية أمالفى وبيزا وجنوة والبندقية ، فكان لتجار هذه الدويلات فنادق كثيرة فى الإسكندرية وفى الموانى الشامية التابعة للامبراطورية الفاطمية ، وخصوصا فى أنطاكية ، وكان حرص التجار الأوروبيين عظيما على أن تتواصل العــلاقات الطيبة مع مصر لا من أجــل

الحفاظ على الخيرات المغدقة عليهم فقط ، ولكن أيضا للتمتع بإمكانية الزيارة لبيت المقدس بدون حرج ، وكانت السفن الإيطالية تحمل — على السواء — إلى المشرق البضاعة والحجيج النصارى ، أما البضاعة المصدرة على متن هـذه السفن فكانت تشتمل على أنواع من المصنوعات اليدوية من نسيج وأوان ، وبالخصوص الخشب .

وكانت بيزنطة توصى وتلح على جمهورية البندقية أن لا تستعمل سفنها لحمل الخشب إلى مصر ، وذلك خوفا من أن يتدعم بذلك الأسطول الفاطمى ، ولكن البندقية لم تذعن إلى ذلك . قصارى ما فى الأمر أنها قصرت فى طول هذا الخشب حتى لا يصلح لتعمير السفن الكبيرة . وكانت هـذه الجمهوريات حريصة على تقديم شواهد الود لأصحاب القاهرة ، كما كانت شديدة التنافس بعضها مع بعض ، وذلك لما كانت تجنيه كل منها من أرباح خارقة من وراء ترويج بضاعة المشرق فى البلاد الأوروبية .

ولم يكن نشاط سفن مرسيليا وسكان بروفنسا بجنوب فرنسا دون نشاط الجمهوريات الإيطالية . وقد بهر البلاد الأوروبية مدى الخيرات التى تزخر بها المـوانى الإسلامية ، فأدى بها الجشع والطمع فى الاستحواذ عليها ، والاستئثار بها إلى القيام بالحملات الصليبية المعروفة ، فكان ظاهرها إفساح المجال فى وجه الحجيج النصارى إلى بيت المقدس ، وكانت فى الباطن عمليات استعمارية ترمى إلى احتكار البضاعة التى كانوا يقتنونها عن طريق موزعيها المسلمين ، والحلول محلهم لتوزيعها بعد أن يضعوا أيديهم على بعض البلاد الإسلامية كى تمكنهم من بلوغ نقاط وصول البضاعة الشرقية كأيلة وجدة فى البحر الأحمر وعدن على أبواب المحيط الهندى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى الفوز بالوصول إلى أبرز سوق تجارية تربط عن طريق البر أفريقيا

بآسيا وبأوروبا وهى بغداد عقدة المسالك من الهند ومصر والشـــام إلى دول البلقان وروسيا ، وإلى بخارى وسمرقند والصين : وقـــد كانت محاولات النصارى أيام عنفوان الدولة الفاطمية محاولات لم تكن تفوت السعى لنيل امتياز والظفر باذن التجول والبقـــاء فى منطقة من ترابها حتى بدت عليهـــا علائم الضعف ، فتجرأ الجانب النصرانى عليها ، وأقبل على عمليات الفتح الترابى للسيطرة على هذا التراب بحد السيف ، وقد نجحت الخطة الحـــربية الصليبية نوعا ما ، فاحتل الصليبيون سواحل الشام مدة من الزمن ، ولكنهم لم يظفروا بمـــا كانوا عولوا على اجتنائه من الناحية الاقتصادية ، إذ بقيت القـــاهرة بعد زوال الفاطميين ، طوال أيام الأيوبيين والمماليك مسيطرة على احتكار الخـــيرات الواردة من المشرق ، تاركة توزيعها نحو البلاد الأوربيـــة — على نحو ما كان العمل به من ذى قبل — إلى سفن الجمهوريات الطليانية .

ومن الدول العظمى المجاورة لمصر ، والتى كانت لها علاقات متواصـــلة مع هـــذه نذكر (بيزنطة) ، وكانت هـــذه العلاقات تمر بين الفينة والأخرى بأطوار حسنة للغاية ، تعقبها أطوار تصادم ونزاع ، وفى الجمـــلة فإن الروم البيزنطيين كانوا شديدى الرغبة فى المصنوعات المصرية الرقيقة من نسيج ومجوهرات ، كما كانت مصر تحتاج إلى الفـــراء المجلوب من البلاد الروسية ، وإلى غلال هضبة الأناضول :

ولم تفتر الدولة الفاطمية فى السعى للوصول إلى بغداد لا لزحزحة الخلافة العباسية عنها فقط ، بل وبصورة أوكد لوضع يدها على سوق تجارية عالمية من أبرز الأسواق وأغناها .

ولنلق الآن نظرة إلى الأمم الواقعة فى جنوب مصر ، فهـــذه بلاد النوبة كان ملوكها يكنون المودة الخالصة للقاهرة ، سالكين معهـــا سلوكا مرضيا ، يتفق ومبادئ حسن الجوار اتفاقا كليا ، يشترون منها الأقمشة وأدوات الزينة ،

وكانت السفن القادمة من الحبشة وزنجبار تحمل إلى مصر أنواع الخشب النفيس والعاج والتبر والمـــاس وذلك بدل المصنوعات اليدوية المصرية . هـــذا وإن معظم أصناف الرقيق التى كانت تدخل القاهرة إنما كانت من بلاد النـــوبة وبلاد الأحباش :

وأما الضفة الشرقية من البحر الأحمر فكان عليها ، بشواطئ الجـــزيرة العربية ، مرسى جدة وهو محط الحجيج المسلمين القادمين عن طريق أيلة والقـــلزم وعيذاب ، ويلى مرسى جدة فى الجنوب مرسى عدن الذى كان بمثابة باب مفتوح بين البحر الأحمر والمحيط الهنـــدى ، ومنه كانت تمـــر السفن والقوافل المحملة بالتوابل المجلوبة من سواحل ملبار وجزر الهند الشرقية وجزر المـــلايو ، وبالعطور والنّد والمسك والكافور والعنبر الخام زيادة على أنواع البخور النادرة التى تمتاز بإنتاجها جزيرة جاوة ، مع العود الصينى ، وكافور زنجبار ، والقمارى المجلوب من سيلان والهند الصينية :

من هذه الحوصلة عن علائق القاهرة بالعالم الخارجى يتضح جليا أن هذه العاصمة الفاطمية قد كانت محورا رئيسيا للتجارة العالميـــة ، ووسطا للدائرة تلتقى فيـــه وتشع منه جميـــع تيارات النشاط الاقتصادى فى عصر من عصورها الزاهرة ، وتوالت عليها القـــرون ، ودالت الدول ، وتغيرت الأوضاع ولكن القاهرة دأبت إلى اليوم تُمَثِّل ذلك المحور وذاك الوسط للدائرة ، فكان ذلك معدن سعادتها الدائم ، وكذلك السبب الحـــامل على مشاكستها وإزعاجها بين الفينـــة والأخرى ، صانها الله وأدام عزتها ومناعتها :

القاهرة كمركز للحركة الإسماعيلية

صموئيل ستيرن

ملخص

القاهرة كمركز للحركة الإسماعيلية

صموئيل ستيرن*

ملخص

اتخذ النشاط التبشيري للطائفة الإسماعيلية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة شكلين : أولهما الاعتراف للفاطميين بحق الولاية على مصر ، وهو نفس ما حدث فى ملطان بالسند ، وثانيهما تكوين مجموعات صغيرة من الدعاة ينبثون فى مختلف الأقطار الخارجة عن نطاق سلطان الفاطميين ، ويؤمنون بحتمية غلبة الدعوة الفاطمية فى نهاية الأمر .

وقد استمد المركز الممتاز الذى كان يشغله المذهب الإسماعيلى فى الأراضى الخاضعة لسلطان الفاطميين ، استمد أهميته من حيث إنه كان يطبّق بوصفه قانونا تفرضه السلطة القضائية ، برغم أنه لم يكن أبدا دين الأغلبية . وكان يتزعم هذا المذهب قاضى قضاة ، يعاونه فى بعض الأحيان زعيم للدعاة ، وكان هذا المذهب يدرّس عادة بواسطة محاضرات عامة ذات صفة رسمية

(*) خسر عالم الدراسات الإسلامية كثيرا بوفاة صموئيل م . ستيرن فجأة فى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٩ . ولسوف يكون من العسير حقا تعويض هذه الخسارة . وقد امتدت سعة اطلاعه وحسن بيانه ورجاحة أحكامه حتى شملت الكثير من الموضوعات ، غير أنه يفضل التركيز على دراسة الفاطميين وعالمهم . وأنه لفخرلنا وبهجة أن يختص مصر الفاطمية بإحدى دراساته الأخيرة .

ويطلق عليها (مجالس الحكمة) ، وكان مضمون مايذاع فى الناس يختلف بطبيعة الأمر باختلاف جمهور المستمعين ، إذ كانت مبادئ التعليم الأولية تتألف فى الأساس من أحكام الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن يدرس إلا للمتبحرين . وكانت هذه المحاضرات تلقى على أسماع المؤمنين أيام الخميس أو الجمعة من كل أسبوع ، وصارت أيام عهد الحاكم تقليدا ثانيا ، رغم أن أول مجموعة باقية من هذه المحاضرات لا ترجع فى تاريخها إلا إلى منتصف القرن الخامس الهجرى . وكانت هذه المجالس تخصص بشكل مستقل لكل من المتضلعين فى العلم ، وأعضاء البلاط ، وعامة الشعب والغرباء ، وكان النساء يستمعن إليها فى الجامع الأزهر . وبعد أن كان كبير الدعاة يعد نص المحاضرة ، أو كان هذا النص يعد له ، كان الخليفة يتلقى صورة منه ، فيمهرها بتوقيعه ، بل ويتولى إلقاء المحاضرة بنفسه فى بعض الأحيان .

وهناك معلومات شيقة عن هذه الإجراءات تتضمنها رسالة من جنيزة القاهرة ، محفوظة حاليا فى مكتبة جامعة كيمبردج ، وهى رسالة تهنئة لقاضى القضاة الذى رُبَّمَا كان هو نفسه قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان المعيَّن سنة ٤١٨ هجرية .

وكان لعواصم الأقاليم ، بل ولمختلف أرجاء البلاد دعاتها المحليون الذين كانوا يعملون تحت إشراف قاضى القضاة فى القاهرة . وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر العصر الفاطمى فى القرن السادس للهجرة ، حين بدأ هؤلاء الدعاة يعتبرون أنفسهم خاضعين لسلطان كبير الدعاة .

وكان النشاط التبشيرى لطائفة الإسماعيلية خارج حدود الامبراطورية الفاطمية يعتبر فى جوهره امتدادا للحركة الفاطمية التى نشأت فى القرن الثالث للهجرة ، والتى أدت إلى قيام الأسرة الفاطمية الحاكمة . وقد انقسمت

الدعوة من الناحية النظرية إلى مناطق (جزائر) يبـلغ عددها اثنى عشرة منطقة ولكن التفاصيل التى تتوفر لنا عن هذه المناطق تعتبر -فيما يحتمل- محض خيال ، وما زلنا حتى الوقت الحاضر لا نعرف إلا القليل عن التنظيم الفعلى لهـذه البعثات الفاطمية التبشيرية . ومع ذلك فقد حفظ لنا التاريخ قـدرا كافيا من الرسائل التى كتبها الدعاة ، الأمر الذى يمكننا من الحكم على أن العلاقات بين الأقاليم والعاصمة كانت دائما وثيقة إلى حد ما ، وأن الدعاة المحليين كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال فى مباشرة الشئون الجارية ، رغم أنهم كانوا يعينون من قبل الخليفة بوصفه إماما . وينطبق هـذا القول على وجه الخصوص على الحكام الصليحيين فى اليمن ، رغم أن هؤلاء قد يمثـلون حالة خاصة ، من حيث إنهم كانوا حكاما محليين ودعاة فى الوقت ذاته . وبحدوث الانشقاق النزارى فقد الفاطميون كثيرا من مقومات الدعوة فى الخارج . وبهذا انقضى طموحهم فى أن يصبحوا أكثر من مجرد حكام للمناطق التى تألفت منهـا امبراطوريتهم .

القاهرة في الأدب الشعبي

د. عبد الحميد يونس

القاهرة في الأدب الشعبي

د. عبد الحميد يونس

إن الباحث فى الأدب الشعبي العربى ليس فى حاجة إلى أن يؤكد حقيقة بارزة لها تأثيرها فى التصور الشعبي لمدينة القاهرة : وهـذه الحقيقة هى أن الطبقات الشعبية ، وغير الشعبية ، لا تميز القاهرة بهذا الاسم الذى غلب عليها مذ أنشئت على يد الفاطميين ، وإنما تتصورها عاصمة الديار المصرية ، ولقد ازداد هذا التصور تأثيرا بزوال الحواجز بين المدن والأحياء التى أريد لها أن تكون مقر الحاكم بصرف النظر عن المرحـلة التاريخية أو الدولة الحاكمة ، وبذلك استوعبت القـاهرة فى التصور الشعبى الفسطاط وأم دنين ومصر والقطائع والعسكر والقلعة والحلمية والمنيرة ، وما أضيف إلى هـذا كله من أحياء . ولم تعد أسوار القـاهرة ، ولا أبوابها ، حدودا يقف عندها التصور الشعبي لهذه المدينة العريقة النامية .

ولم يستشعر أبناء القاهرة بصفة خاصة ، وأبناء مصر بصفة عامة الحاجة إلى التشبث بهذه الصيغة « مصر القاهرة » التى ترددت فى كتب التاريخ ، وتقويم البلدان والرحالة وغيرهم ، واكتفوا بأن يعرفوها باسم « مصر » . والمواطن المصرى عندما يتجه إلى عاصمة بلاده يذكر أنه إنما يقصد مصر ،

ولا يدور بخلده — ولا أقول إنه من النادر— أن يذكر « القاهرة » ، وهكذا نَرَى أن الأدب الشعبي العربي بصفة عامة قلما يذكر المدينــة العريقة باسم القاهرة ، وإنما يعرفها باسم « مصر » ، وكثيرا ما يلتقي الجزء بالكل في الخيال الشعبي ، حتى أن الباحث لايجد في معظم الأحيان قرينة توثر المدينة بالحديث أو الوصف أو تركز الانتباه على الديار المصرية كلها ، وهذا مألوف في التعبير الشعبي الذي يختار النموذج والمثال ، ولا يجد فارقا بين الواحــد المتعين وبين العام الذي يجسمه النموذج أو المثال : بيد أننا نلاحظ أن السير الشعبية كانت تطابق بين مصر وبين القاهرة في أكثر الأحوال . ومن ثم كان من الضروري أن يتــابع الباحث شخصية ابن البــلد وأخلاقياته في تلك السير ، مع الاعتراف بأن هذا النمط الإنساني قــد ظهر في الحياة قبل أن ينشئ المعز لدين الله الفاطمي القاهرة بحدودها الخاصة .: كان ابن البلد مسايرا لمــا عرفه العصر الحديث من « ابن عرب » ، فكما كنا إلى وقت قريب نجد العقلية الشعبية تفرق بين الفرنج وأولاد العرب ، كذلك برز ابن البلد ، أي المواطن إلى جانب الدخلاء والأجانب على اختلاف منابتهم وأصولهم .

ونرى لزاما علينا أن نوضح أن هذا البحث إنما يستهدف محاولة الكشف عن مكانة القاهرة في الأدب الشعبي ، وهذا مخالف لمــا يلابس هذا الموضوع من إبراز عناصر الأدب الشعبي التي ظهرت ونمت في مدينة القــاهرة ، ولقد حرص الباحثون على أن يميزوا الآثار الأدبية الشعبية التي نشأت أو تكاملت في مدينة القاهرة . ولم يعد هناك — بعد الدراسات المستفيضة في هذا الموضوع — شك حول أثر القاهرة الواضح والبارز في تكامل الحلقات القصصية الشهيرة مثل « ألف ليلة وليلة » و « السيرة الهلالية » و « سيرة الظاهر بيبرس » و « سيرة عنترة بن شداد » و « سيرة سيف بن ذي يزن » وغيرها وغيرها . يضاف إليها مواويل قصصية تلقفت القاهرة أحداثها أو بذورها ثم عملت على صياغتها

وصقلها وترديدها حتى تجاوزت حدودها بل حدود الديار المصرية مع ماشتهر عن أهل القاهرة من الملح والنوادر والمطارحات والأمثال .. هذه الموضوعات إنما تدخل فى باب « الأدب الشعبى فى القاهرة » أما « القاهرة فى الأدب الشعبى فتتطلب أن يفتش الباحث عن الأحداث والشخوص التى لها علاقة بمدينة القاهرة بصفة خاصة فى الآثار الأدبية الشعبية على كثرتها وتنوعها :

وعلى الرغم من هذا التحفظ الذى له أهميته فإن الباحث فى مكان القاهرة من الأدب الشعبى لا يستطيع أن يغفل الإنسان القاهرى الذى يعد بحق المضمون الإنسانى لتصور شخصية هذه المدينة فى نظر أبنائها وفى نظر العالم العربى بأسره ومن اليسير أن نميز هذه الشخصية القاهرية من الموازنة بينها وبين النماذج البشرية الأخرى فى الخيال الشعبى القاهرى نفسه.و « ابن البلد » هو التشخيص الواضح للمواطن القاهرى ، وهو فى الوقت نفسه يشخص السمات القومية والمحلية أروع تشخيص بما اختص به نفسه من أخلاقيات وصفات تميزه من غيره ممن يحيطون به . وهذا المحور الإنسانى وهو « ابن البلد » القاهرى كما صورته مرآة الأدب الشعبى أجدر بالدراسة من تتبع البيئة المادية بأحيائها وخططها وحدودها وأسوارها : ولقد وردت أوصاف تقترب إلى حد كبير من المصورات المجملة لمدينة القاهرة فى القصص الشعبى ، ولم تكن هذه البيئة المكانية إلا المسرح الذى تظهر فيه الشخوص والأحداث والعلاقات الإنسانية وإن تمييز «ابن البلد» القاهرى من النماذج البشرية الأخرى هو الذى يساعدنا على الكشف عن الملامح الإنسانية لتلك المدينة العريقة فى الأدب الشعبى :

وقبل أن نعرض لشخصية « ابن البلد » وأخلاقياته فى الحكايات الشعبية نرى لزاما علينا أن نسجل تصوره لنفسه من خلال النوادر التى تؤلف جانبا هاما من تراثه الأدبى الخاص، والواقع أن هناك خريطة جغرافية — إذا صح

هذا التعبير — تبين الأنماط الإنسانية التي عاشت في القاهرة وحولها . إن ابن البلد يبدو في النوادر شخصية متميزة عن أبناء الريف وعن الأعراب الضاربين في الصحراء ، وعن الروم وعن اليهود وعن غيرهم في مربع تحدده الجهات الأصلية الأربع التي تحيط بابن البلد المستقر في مدينة القاهرة . وتبدو أخلاقياته في هذه النوادر بارزة بما تضيفه النادرة من المفارقة أو التنافس بين شخصيتين إحداهما هي ابن البلد ، والثانية شخصية تناظره ولا بد من أن يتغلب عليها بالذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر ، كما أحب أن يحكم على نفسه : وهو مقبل على الحياة يؤثر المنادمة ويعتصم بالمرح ويتشبث بالتفاؤل ولا يحرص على اكتناز المال لأنه « ينفق ما في الجيب ليأتيه ما في الغيب » ، يضاف إلى هذا كله أنه وسيم جذاب تحبه النساء ، بل تتحبب إليه بجماله وظرفة وخفة روحه وكرمه .

ويستطيع الباحث أن يتبين بشيء من الجهد بعض الملامح الإنسانية لابن البلد القاهري من الأمثال الشعبية المرددة على ألسنة أبناء هذه المدينة العريقة : ولقد حاول بعض الباحثين أن يجمعوا طائفة من الأمثال الشعبية القاهرية ، وعلى الرغم من ذيوع هذه الأمثال في بيئات أخرى غير القاهرة فإنَّ للقاهرة تأثيرها الذي لا شك فيه على تلك الأمثال : ولكننا يجب أن نفرق بين تصور ابن البلد لنفسه في الأدب الشعبي وهو تصور فيه نزوع إلى المثالية ، وبين محاولته تبرير الكثير من المواقف التي يتعرض لها بواسطة الأمثال الشعبية وهي تنزع إلى الواقعية ولكنها واقعية موقف لا واقعية شخصية . وأكثر من ذلك فان الأمثال الشعبية تبين وجهة نظر قد يكون فيها تبرير لفشل أو خطأ ، أو انحراف : وعلى الباحث أن يضيف شواهد قليلة من الأمثال الشعبية تؤكد أو تطابق تصور ابن البلد لنفسه وتصور الآخرين له في وقت واحد والأمثال التي تبرر مواقف متناقضة ، وصفات أخلاقية متقابلة لا يمكن أن تعد دقائق

نفسية بالمعنى الصحيح. وإذا كان ابن البلد كما ينبغى أن يكون فى نظر نفسه — كريما إلى حد التبذير فان الأمثال الشعبية فيها ما يبرر الحرص وفيها ما يبرر السرف وفيها ما يدفع إلى الإقدام وفيها ما يدفع إلى الجبن أو النفاق الاجتماعى ومع ذلك فبين هـــذه الأمثال ما يعد العظة المستخلصة من بعض الحكايات والنوادر وإن كان قليلا ؟

ولا بد من التمييز بين نمطين من أبناء البلد ، كما تنعكس صورهما على العقلية الشعبية : الأول ويعد امتدادا للظرفاء الذين عرفتهم العواصم العـــربية قبل القاهرة ، وعرفتهم الديار المصرية أيضا قبل الفاطميين وهؤلاء الظرفاء يبالغون فى سمتهم وهندامهم ، ويصدرون عن قواعد صارمة فى السلوك ، أو بعبارة أخرى يصدرون عن « اتيكيت » لا يخرجون عليه بحال من الأحوال إنهم معروفون بالرقة ودماثة الأخلاق ، ولهم إجاباتهم وتعليقاتهم على مختلف المواقف وهى أقرب إلى الصيغ المحفوظة منها إلى أى شىء آخر ، على الرغم من كثرة المواقف وتعقدها ، وهم ، إلى هذا كله ، من الندماء الذين يجيدون أدب الحديث ، ويحفظون فى الوقت نفسه الكثير من الأسمار والنوادر وجوامع الكلم ، ومنهم من عرف بالقدرة على النظم أو الصياغة البليغة . وتلتقى هـــذه الشخصية بالصورة التى رسمها ابن البلد لنفسه فى النوادر وهى صورة تجعله قادرا على المناظرة ورد القافية والتورية والرمز .

أما النمط الثانى فهو الشخصية المجسمة للوجدان الوطنى أو القـــومى ، فى مقابل الحاكم الدخيل ، أو هو الصورة المجسمة للشعب فى نظر نفسه أمام الدخلاء الذين زاحموه فى الرزق ، وضيقوا الخناق عليه فى مسالك الحيـــاة ، ولقد بدأت هذه الصورة مع العيّاق والشطار والزعر ، وهم أصل « الفتوة » الذى ظل مرتبطا بأحياء القاهرة إلى هذا القرن الذى نعيش فيه ، ومهما يكن

من أمر المتابعة التاريخية للشطارة والعياقة وما إليهما فان المتخصص فى الحكايات الشعبية يتوقف عند ثلاثة شواهد أساسية وهى كتاب ألف ليلة وليلة والظاهر بيبرس وعلى الزيبق المصرى .

ابن البلد فى الليالى

إن الخيط الأول الذى يمسك به المتتبع لحياة ابن البلد هو كتاب ألف ليلة وليلة . ولقد انتهى الباحثون إلى تقسيم الليالى أربع طبقات تتميز كل واحدة منها عن الأخرى بخصائص ومقومات : ورأوا أن الطبقتين الأخيرتين قاهريتان ، ومع ذلك فنحن نضرب صفحا عن الطبقة التى شغلت بالطلاسم والأرصاد والأماكن المسحورة وما إليها مما صوره الخيال الشعبى من آثار المصريين القدماء ، ونتوقف لحظة عند الطبقة التى سجلت ملاعيب الشطار وجماعاتهم . وهى إن جعلت هذه الطائفة من أبناء البلد تحترف الشطارة والعياقة فانها إنما كانت تعبر عن موقف الشعب المصرى من التجار والحكام :

وأبناء البلد هؤلاء يمتازون بفضائل لابد أن تجتمع فيهم ، فهم أولا وقبل كل شىء يؤلفون طوائف لكل منها وجدانه الخاص بها ويصدرون فى علاقات بعضهم ببعض عن حب وإيثار ، وبذلك يختلفون كل الاختلاف عن العصبية التى كانت المحور الذى يصوغ علاقات الوحدات الاجتماعية . كانوا أشبه بأصحاب مهنة معينة أو تجارة خاصة :: كانوا أقرب إلى جماعات الفرسان فى المراحل المتأخرة من تاريخ الديار المصرية :: كانوا يواجهون ويناظرون أولئك الفرسان من المماليك والأتراك :: الواحد منهم ابن البلد فى مقابل « الجندى » كما اصطلح الأدب الشعبى :: إنهم وحدة متحابة تعد نفسها فئة واحدة :: ومهما تنافسوا فيما بينهم فان الحب هو الذى يظللهم جميعا :

وثمة فضيلة أخرى امتاز بها أبناء البلد من الشطار وهى الحذق والبراعة وخفة الحركة ، والقدرة على التغلب على الغرماء والمناظرين بالحيلة البارعة ، وقد يحتاجون إلى الجسارة أو الإقدام وهم فى « الملاعيب » التى يقومون بها لا يستهدفون شرا بفرد أو جماعة .. إنهم يأخذون ولكنهم يردون ما أخذوا وحسب الهيئة الاجتماعية أن تقر لهم بالحذق ، وأن تبوئهم المكانة التى أهلتهم لها براعتهم . ولقد عنى القاص فى كتاب الليالى بفضيلة الفضائل عند أبنـــاء البلد وهى الشهامة التى تمثل أهم القواعد السلوكية عندهم، فهم يرعون الجار ويعينون الضعيف ويدافعون عن الحمى ويغيثون الملهوف ، ويصدرون فيما بينهم عن تكافل اجتماعى أصيل فى رعايتهم لمن يموت منهم وتعهدهم المستمر لأولادهـــم .

ابن البلد فى الظاهر بيبرس

وتختلف سيرة الظاهر بيبرس عن الليالى من بعض الوجوه فيما يتصـــل بموضوع ابن البلد ، ذلك لأن الليالى أبرزت طائفة الشطار على أنهم يحترفون الشطارة فحسب ، أما السيرة الظاهرية فقد صورتهم من أبناء المهن ، أو من أبناء مهن بعينها ، وإذا كانت سيرة بيبرس تتألف هى الأخرى من طبقات يختلف بعضها عن بعض فإن « ديوان الأسطى عثمان » يشمل الطبقة المصرية الخالصة فى تلك السيرة .

وأول شيء يلاحظه الباحث هو أن الأسطى عثمان من سواس الخيل وأنه من أبناء البلد الأصليين وهو يتصف بجمال الصورة وبحسن الهندام وبالشجاعة إلى جانب الحلية مع سائر الفضائل التى لابد من أن يتحلى بها الشطار والعياق والزعر — كما كانوا يسمّون — وهو إلى ذلك كله ممن كشف عنهم الحجاب

حتى أنه عرف الظاهر بيبرس وأكد أنه المنتظر لخلاص الإسلام من الباغين عليه ، وكان كلما قابله قال له : « اظهر يا ظاهر » وكأنما أراد القصاص أن يفسر لقب الظاهر تفسيرا فنيا لا يخرج عن مزاج الشخصية.

ومما يدل على الطابع شبه الفروسى فى أخلاقيات ابن البلد ذلك الجسر الذى أقامه القصاص لكى يوفق بين الظاهر بيبرس من ناحية وبين الأسطى عثمان من ناحية أخرى .. لقد اعترض كل منهما الآخر حتى إذا دل اختيار القوة على وجوب اللقاء والتعاون بينهما تصافيا وتآخيا على طريقة الفرسان فى ذلك العصر :

وكان الأسطى عثمان زعيم طائفة الشطار والعياق لتبحره فى الشطارة والعياقة وقوة شخصيته إلى جانب تجسيمه لأخلاقياته ابن البلد فى خفة الروح والاتجاه إلى المرح ، وتحويل المواقف العسيرة من الناحية النفسية إلى وسائل للفكاهة ، وإنبساط النفس وتأكيد التفاؤل ، والأسطى عثمان بهذه المشابة يجمع فضائل ابن البلد ويتسم بمزيتين أخريين : الأولى أنه من أبطال التحرير ولم يستخدم شطارته لمجرد إظهار الحذق والبراعة ، والثانية أنه من أصحاب المهن فى الأصل إذ كانت مهنته ترتبط بالفروسية ارتباطا وثيقا وهى سياسة الخيل .

على الزيبق المصرى

ويظهر ابن البلد امتدادا لمهنة الشطارة كما صورتها الليالى فى سيرة على الزيبق المصرى ، والواقع أن هذه السيرة تعد — امتدادا وتفصيلا — حلقة من حلقات ألف ليلة وليلة . كما يوجد هناك بعض التشابه بين الأسطى عثمان من ناحية وبين على الزيبق من ناحية أخرى ، ولكن الأول عرف بالولاية إلى جانب الشطارة ، أما الثانى فقد كان علما على الشطارة وحدها :

وعلى الزيبق عرف بالقوة مذ كان صبيا ، واتسم بالذكاء والحيلة طوال حياته ، وتفوق على الشطار من أقرانه ونظرائه ، ولم يكن يسكت على الضيم الذى يقع عليه أو على واحد من شيعته وأنصاره ، بوأته الشطارة بأخلاقياتها الخاصة مكانة مرموقة من الهيئة الاجتماعية ومن الحكام.. ومن عزيز مصر ومن هارون الرشيد .

واقترنت الشطارة فى أخلاقيات ابن البلد بالاتجاه إلى المشاركة فى الحكم وكان للشطارة درجات يرقى بعضها على بعض . ويقوم التفوق على الصراع وهو صراع يرتكز على التفوق فى الملاعيب ، ولذلك عرف الشطار المتفوقون بلقب « المقدمين » وهو لقب يطلق على رجال الأمن فى الهيئة الاجتماعية ، ومهما كانت حلقات السيرة تستهدف التسلية والترفية فانهـا كانت تؤكد أخلاقيات ابن البلد وفضائله ومواقفه من التجار وبعض الحكام المتسلطين ، ومن الدخلاء .

ولقد أسبغ القصاص الصورة نفسها على الشطار الآخرين ، حتى الذين لم يكونوا من أنصار على الزيبق. ويعود السبب فى ذلك إلى أن الحكاية الشعبية تؤثر النمط على رسم الشخصية بما ينبغى لها من خصوصية ، وعلى الرغم من أن على الزيبق أكد الشطارة والعياقة فأنه جسم اتجاه الشعب إلى تأكيد فضائله وأخلاقياته ، كما أنه أكد الإحساس القوى بالمواطنة وعبر عن كراهة الضيم والمبادرة إلى رد الظلم مع النزعة القوية إلى التفوق :

الشطارة والعياقة والفتوة

ولا يريد الباحث أن يدخل فى دراسة تفصيلية لتطور هذه المصطلحات الثلاثة وهى الشطارة والعياقة والفتوة . وإذا كانت بعض الكلمات قد دلت فى مرحلة من المراحل على معنى غير مقبول ، فإن التعديل فى النظر إلى الجماعات

يستتبعه بالضرورة تعـديلا فى الأسماء أو الألقاب التى كانت تطلق على تلك الجماعات ، ومن هنا أصبحت الشطارة فى الاستعمال الشعبى تدل على البراعة ولا تـدل على الانحراف عن الجادة أو الخروج على القانون أو التعرض للغير وكذلك العياقة فقد كانت فى المصطلح الشعبى تدل على عائق الطريق أكثر مما تدل على خبرة مخصوصة ، ثم أصبحت تدل على المبالغة فى حسن الهندام ، وجاء هذا التعديل من اقتران العياقة بالعناية بالزى أو المظهر . أما الفتوة فقـد دلت منذ البداية على أخلاقيات فرسان ومجاهدين ، ثم أصبحت تدل عند الشعب على أولئك الذين يتفوقون فى القوة ، ويفرضون سلطانهم على هـذا الحى ، أو ذلك من أحياء المدينة . واختلفت دلالة الاصطلاح من الناحية النفسـية باختلاف النظر إلى طائفة الفتوات وهم الذين جمعوا أخلاقيات الشطار والعياق كما عرفها الشعب ، وكما صورها خياله فى قصصه وحكاياته ونوادره ، ومن ثم لخصت طائفة الفتوات — إلى عهد قريب — أخلاقيات ابن البلد . إذا ضربنا صفحا عن نظرة القانون الوضعى إليهم .. كان الفتوة مقداما جسورا شهما كريما ، خفيف الظل بارعا فى الحيلة ، قادرا على المناظرة فى الحديث قدرته على التفوق فى المصارعة والمصاولة .. وكان إلى هذا كله أنيقا ظريفا مصقولا لمـاحا ، متوددا فى حالات صفوه ، محبوبا من الجنس الآخر ، قادرا على الغزل ، بارعا فى المنادمة .

وهذه الصورة هى بعينها التى نجد خطوطها البارزة فى نظرة ابن البلد لنفسه ، كما نجدها فى أوصاف الرحالة عنه ، وفى تصوير بعض المؤرخين ، الذين عنوا بتفصيل الحياة الاجتماعية وهى صورة تتجاوز الشكل إلى الأخلاق وتحدد بصفة عامة فلسفة الحياة كما طمح إليها ابن البلد الحضرى وهى الفلسفة التى تنكبت عن التشاؤم وأقبلت على الحياة واعتصمت بالتفاؤل ، ووجدت متنفسا فى الفكاهة والمرح ، والتندر على كل شىء ، والاستعلاء على المواقف العصيبة بالضحكات الساخرة .

إمتداد القاهـرة

من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك

(٩٦٩ - ١٥١٧ م)

للدكتور عبد الرحمن زكي

إمتداد القاهـرة
من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك
(٩٦٩ – ١٥١٧ م)

للدكتور عبد الرحمن زكى

أسس القائد جوهر القـاهرة حصنا ومسكنا للفاطميين فى ١٧ شـعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليو ٩٦٩ م) ، فكانت شبيهة بضاحية ملكية أو امتداد للعواصم الإسلامية الثلاث التى سبقتها منذ الفتح العربى ، وهى : الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع :

ظلت القاهرة منذ أسست ، وفى أثناء حكم الفاطميين معقلا فاطميـا ، بدأت مساحتها قرابة ٤٠٠ فدان ، وكان لا يسمح للأهالى بالدخول إلى هذا المعقل إلا بإذن خاص . وقد ساعدت المعـالم الطبيعية التى أحاطت بالضاحية الفاطمية على الحفاظ عليها : تلال المقطم شرقا ، والخليج الكبير والنيل غربا ، وفضاء رملى فسيح فى الشمال ، وآخر مثله يفصل بين السور الجنوبى والقطائع .

وكانت للأسوار التى أسرع القائد جوهر فى تشييدها حول القاهرة ، أهمية فى الدفاع عن البلاد ضد أى اعتداء يدبر عليها من الخارج أو مؤامرة من الداخل . وكان هذا التهديد قائما ، إذ كان القرامطة يغيرون وينهبون ، ويخربون السهول ويهددون الفسطاط ، ولذلك أمر جوهر بحفر خندق كبير

عمقه واتساعه عشرة أذرع كان يتجه غربا من المقطم إلى منية الأصبغ[1] ، وقد بدئ فيه فى شعبان ٣٦٠ ﻫ (يونيو ٩٧١ م) وتم حفره سريعا . ويذكر لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة بعد ذلك ، إحداهما فى ربيع الأول ٣٦١ ﻫ (ديسمبر ٩٧١ م) ، والثانية فى ٣٦٣ ﻫ (٩٧٣ م) ، وقد تمكن القرامطة من عبور الخندق فى الغارة الثانية ، لكنهم لم يستولوا على القاهرة .

ومع أن الغرض الأساسى من بناء القاهرة أن تكون معقلا حصينا للفواطم فقد عمر خلفاء هذه الأسرة الأوائل كثيرا من المساجد والمناظر والمبانى العامة خارج أسوار المدينة . فالخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله الذى حكم البلاد فيما بين عامى ٩٧٥ و ٩٩٦ م شيد دار صناعة لصناعة السفن بالمقس[2] ، وكانت المقس فى أيام الفواطم ميناء القاهرة ، وتقع على شاطئ النيل القديم فى المكان الذى يمر فيه شارع عماد الدين عند مسجد أولاد عنان . وكانت المقس فى أيام الدولة الفاطمية مقصورة على قرية المقس ، وفيها شيد الحاكم بأمر الله مسجدا

والمعروف أنه فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ ، ١٠٢٠) توسعت القاهرة من ناحيتيها الشمالية والجنوبية . ففى الشمال خارج باب الفتوح ذكر المقريزى[3] أن الطائفة الحسينية ، وهى إحدى الطوائف الفاطمية ، سكنت حارة (خطة) الحسينية ، وكانت تتألف من عدة حارات ، ويتوسطها اليوم من الجنوب إلى الشمال شارع الحسينية ، وشارع البيومى من باب الفتوح إلى ميدان الجيش .

---

(١) منية الأصبغ هى الخندق ونسبت إلى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان .

(٢) المقس هى أم دنين حينما فتح العرب مصر ، وكانت تقع على الشاطئ الشرقى للنيل بالقرب من ميدان رمسيس اليوم .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : ج ٤ ص ٤٥ .

يقـــول المقريزى فى الخطط عن الحسينية : اعلم أن الحسينية شقتان : إحداهما ما خرج من باب الفتوح ، طولها من خارج باب الفتوح إلى قرية الخندق[1] ، وهذه الشقة هى التى كانت مساكن للجند فى أيام الخلفاء الفاطميين والشقة الأخرى ما خرج من باب النصر ، وامتد فى الطول إلى الريدانية « العباسيّة » . وهذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر ، وما بين المصلى إلى الريدانية فضاء لا بناء فيه ، وكانت القوافل إذا برزت تريد الحج تنزل هناك ، ثم صارت هذه المنطقة مقـــابر ، أنشئت حول قبر بدر الجمالى الذى أقامه خارج باب النصر ، واستمر ذلك إلى ما بعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفى زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالى ، جنوب السور الجنـــوبى ، يعمرون ويبنون خارج أبواب زويلة والفرج. وكانت هذه الجهة من قبل غير عامرة بالمبانى حتى مدينة القطائع الطولونية ، وسرعان ما نهضت « ضاحية » امتدت تدريجا حتى كثرت مساكنها فى زمن المجاعة العظمى فى أيام المستنصر لدين الله (١٠٣٥ — ١٠٩٤) ، حينما بدأ نجم الفسطاط فى الأفول .

حارة اليانسية :

تنسب هـــذه الحارة إلى أبى الفتح يانس مملوك الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (١١٣٠ — ١١٤٩) ووزيره ، ولقب بأمير الجيوش أيضا ، وهو صاحب الحارة اليانسية التى كانت واقعة خارج باب زويلة ، وحرفها الناس إلى حارة لأنسية ، ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الأحمر تجاه جامع قجماس الأسحقى (أبو حريبة) ، وثانيهما بشارع المغربلين .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٢ .

وفى خطط ابن طولون فى الجنوب (حول المسجد الكبير) ، أمر الحاكم بأمر الله ببناء ثلاثة مساجد معلقة ، منها مشهد محمد الأصغر ، ومنها المسجد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولونى ، لأن العامة تزعم أن به قبر الشيخ عبد الرحمن الطولونى ، وأما المسجد الثالث فلم يعثر على آثاره : ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها [1] .

فوق جبل المقطم :

وفى أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ، ويرجع هذا المسجد إلى عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وهناك عدة مشاهد وقباب شيدت أيضا خارج قاهرة الفواطم فى القرن الثانى عشر ، كمشهدي كلثم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة المبانى الفاطمية التى شيدت خارج باب زويلة فى عام ١١٦٠ م ، وللتحقق لنرجع إلى ما ذكره المقريزى فى خططه عندما أشار إلى ما بناه الفاطميون فى ظاهر القاهرة : « توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر إلى مدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية « العباسية اليوم » ، وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطئ النيل ... وبنوا خارج البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور ، فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين ، أحدهما يقال له القاهرة ، وآخر يقال له مصر » :

ومن سوء الحظ أن المقريزى لم يذكر بالدقة تاريخ هذا التوسع العمرانى ومتى حدث .. ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمى

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٤٢ .

التالى ، فيذكر لنا أنه فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحى بتعمير الخرائب والفضاء الذى يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة ، فنودى لمـدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بأن « من كان له دار فى الخراب أو مكان فليعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه » . فلما نادى الوزير المأمون عمر الناس ما كان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة . ولم يبق من العسكر ماهو عامر سوى جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون[1] . ولكن فى أيام صلاح الدين الأيوبى ، حينما بدأ بناء قلعة الجبـل (بعد ١١٧٦) ، أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين ، وأخذت تشغل المساحة الممتـدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسى حيث كانت نهاية تلك البساتين الخضراء .

جزيرة الروضـة :

وهناك فى أقصى الجنوب ، وأمام مدينة الفسطاط حيث يجرى النيـل ، تقابلنا جزيرة الروضة التى تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها . وفى أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤ م) أعاد بناء أسوار الجزيرة وحصونها (٨٧٦ م) ، وجعلها مقرا لخزائن أمواله ، وشيد فيها الدور كما أقام فيهـا دار صناعة للسفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهاد . وفى أيام محمد بن طغج الأخشيد أنشأ بستانا ودارا سماها المختار ، وفى أعقاب ذلك أخـذ الأهالى فى تشييد محلات لهم .

ثم عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ،

(١) المقريزى : خطط ، جـ ١ ص ٣٠٥ .

وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحد الأمراء الفواطم بموقع الروضة التى أصبحت متنزها ملكيا ومسكنا للأهالى .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

وفى أيام الولاة العرب ، طرأ على ساحل النيل الشرقى فى المسافة الممتـدة من الفسطاط إلى روض الفرج ثمانية تغييرات على الأقل ، وذلك فيما بين عام ٦٨٨ م ، أى فى زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ فى أثناء حكم محمد على . ويهمنا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة فى العصر الفاطمى أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذى ظهر حول سنة ١١٢٦م فى أيام الدولةالفاطمية إذ طرح النيل(١) أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزادت فى عمرانها ، وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الثالثة إلى الغرب فى المسافة التى كانت بين جامع جامع الطيبى(٢) وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى بشارع رمسيس، وقد نتج عن هذا الطرح المنطقة التى يقع فيها اليوم : كلية تجارة عين شمس ، ومبانى وزارة التموين « القديمة » ووزارة البحث العلمى والرى والصحة ، ومجلس الأمة والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وكلية الليسيه ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ، ويمر فيها شارع شريف وامتداده إلى ميدان عرابى .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة فى أيام الأسرة الأيوبية ، وفى أيامها أخذت المدينة الفاطمية تتنازل عن مكانتها الارستقراطية التى تمتعت بها خلال قرنين :

امتداد القاهرة فى أيام الأيوبيين

أصبحت القاهرة الأيوبية فى أخريات القرن الثانى عشر ، ومستهـل الثالث عشر تتميز عن ذلك الحصن الملكى الفاطمى ،وأضحت تشغل مساحة

(١) تزحزح غربا تاركا أرضا إلى شرقية .

(٢) يقع بشارع الديورة بقسم السيدة زينب .

قدرها عشرة أمثال ما كانت عليه، فاحتوت على عدد كبير من المبانى ذات الطابع الهندسى المستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم وكان الفضل فى هذه الانجازات لصلاح الدين الأيوبى ، غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشقاؤه وأبناؤه وأحفاده ، وعاشوا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا العاهل ، فقد شاهد فى الشام أن لكل مدينة قلعة حصينة تحميها ، فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ؟ كما لها سورها وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين فى هذا الشأن .

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال : إن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها . وإنى أرى أن أدير عليها سورا واحدا من الشاطئ . وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة فى عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطواشى بهاء الدين قره قوش الأسدى أحد أمرائه المخلصين ، ولم ينقضى على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة النص التذكارى لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣ م) قبل أن ينتهى بناء جميع أسوار القلعة وأبراجها ، فأهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم البناء .

سور حول القاهرة والقواعد الإسلامية السابقة :

أراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) والقلعة سورا واحدا يحيط المدينة الكبرى بأسرها ، فبدأ عمارة هذا

السور الأيوبى « ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين » عام ١١٧١ ، وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله . وفى عام ١١٧٤ انتدب بهاء الدين قره قوش الأسدى لعمل هذا السور، فبناه بالحجارة ، وزاد فى سور القاهرة الغربى الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومنه إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس فى نهاية السور الشمالى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك [1] ، ثم زاد فى سور القاهرة الشمالى الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر فى أقصى الشمال الشرقى للقاهرة . ومن هذا البرج الذى ما زال باقيا فى مكانه إلى باب البرقية فى السور الشرقى ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع لوفاة صلاح الدين .

كان لبنــاء القلعة والسور حــول المدينة أثر كبير فى امتداد العمــران فى القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش ، فى القلعة نقل مركز ثقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية ، حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد أنشاء عدد كبير من المدارس الدينيــة ، بالقرب من ضريح الإمام الشافعى ، وجامع عمرو بن العاص ، وفى القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسّر توسع القاهرة فى ذلك الاتجاه الجديد .

حى بركة الفيــل :

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمالى شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى ،

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت مجرى المياه .

وبعد نزول المـــاء تزرع أصنافا شتوية ، وقد تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ ﻫ (١٢٢٢ م) فى العصر الأيوبى ، ولم يبق من أرض البركة بغير بناء إلى عام ١٨٠٠ إلا قطعـــة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول والى مصر ، وهى المعـــروفة بسراى الحلمية وحديقتها ، وفى عام ١٨٩٤ قسمت أراضى الحديقة ، وفى عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيه وبيعت ، وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة .

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التى تحد اليوم شمالا بسكة الحبانية ، ومن الغرب بشوارع درب الجماميز ، واللبودية ، والخليج المصرى ، ومن الجنوب شارع الشيخ عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحـــد إلى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير قبلى إلى أول شارع الألفى ، ومن الشرق تكملة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم ، فسكة عبد الرحمن بك وما فى امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحـــد البحرى (محمد رمزى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٦ — ٣٦٧) .

وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة نهضت فى القـــاهرة على أيام الأيوبيين ، ثم نراها قـــد ازدهرت كحى ارستقراطى فى أيام المماليك ، فشيدت حولها كثير من القصور والدور :

جبل يشكر ومناظر الكبش :

يطلق اسم الكبش على الجزء الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون ، ولا تزال هذه المنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش وهى تطل على شارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسيناسابقا). وفى أثناء سلطنة الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على هذا الجبل ، عرفت بإسم المناظر ، وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل ،

وعلى البساتين التى فى بر الخليج الغربى من المقس إلى فم الخليج ، والتى فى بره الشرقى من باب زويلة إلى الصليبة ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت متنزها جميلا يقصده الناس . وقد تأنق الملك الصالح فى بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك الصالح من المنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين فى عام ٨٦٨ ﻫ (١٣٦٦ م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن ، وأقبل الناس على التعمير .

جزيرة الروضة :

وفى أقصى الجنوب ، وفى مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩ م) قلعة الروضة أو القلعة الصالحية ، وقد شرع فى حفر أساس القلعة فى يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ ﻫ ، وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة ، وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها ، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب مقياس النيل ، وأدخلها فى القلعة ، وأنفق فى عمارتها أموالا جمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجا ، وأقام بها جامعا ، وغرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد خشية محاصرة الفرنج ، فإنهم كانوا حينئذ على عزم أن يقصدوا بلاد مصر عن طريق ثغر دمياط .

وذكر المقريزى أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية . وموجز القول أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا فى جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين الأيوبى هذه الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد انتقاله من قلعة الجبل .

واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عــز الدين أيبك ، فأمر بتخريب القلعة ليعمر بها مدرسته المعزية التى كانت برحبة الحنة بمدينة مصر ، واقتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيرا من سقوفها ونوافذها وغيرها ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة ، ومع ذلك فلم يطل هذا التخريب والإهمال . فقد أعاد إليها الظاهر بيبرس بهجتها وشأنها لمـــا تولى شؤون البلاد .

امتداد القــاهرة فى العصر المملوكى

شمالى القــاهرة ــ الحســينية :

يصف المقريزى تطور العمران وازدياده فى الحسينية على أيام المماليك البحرية بقوله : « ولم تعمر هــذه الشقة (الحسينية) إلا فى الدولة التركية المملوكية ، ولا سيما لمـــا تغلب التتار على مماليك الشرق والعراق ، وجفــل الناس إلى مصر فنزلوا بهذه الشقة والشقة الأخرى ، وعمروا بها المساكن ، ونزل بها أيضا أمراء الدولة فصارت عمائر مصر والقاهرة ، واتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية إلى الخندق مناخات الجمال واسطبلات الخيل ، ومن ورائها الأسواق والمساكن العظيمة فى الكثرة ، وصار أهلها يوصفون بالحسن ، خصوصا لمـــا قدمت « الأويراتية » Ujur وهى جماعة من المغول خالفت غازان ملك المغول فى إيران ولجأت إلى مصر فى عصر السلطان زين الدين كتبغا (٧٩٥ هـ) فأنعم على رئيسهم وأمرائهم وأنزلهم بالحسينية .. الخ ولكن لمـــا ولى الحكم السلطان لاجين قبض على رئيس تلك الفرقة ، وفرق أفرادها بعد أن سجن زعماءها .

وفى أيام المماليك الشراكســة ، ولا ســيما فى عصر السلطان قايتباى (١٤٦٧ ــ ١٤٩٦) الذى عشق التعمير والبناء ، يقابلنا أحد أمرائه وهــو يشبك بن مهدى مشيد القبة المعروفة فى العباسية باسم « القبة الفداوية » وذلك

فى مكان قبور أمر بإزالتها عام ١٤٧٩ ، وغرس مكانها البساتين الغناء ، كما حفر بئرا للمياه ، وأقام عدة أسواق ، كما أنشـأ مناظر للتنزه ، وشق ترعة كبيرة يجرى فيها المـاء إلى المزارع حتى صارت هذه المنطقة من أجمـل المتنزهات ، والمعروف أنه بعد وفاة الأمير يشبك أكمل السلطان قايتباى هذه المنشآت .

فى أوائل حكم المماليك البحرية وقرابة عام ١٢٥٢ م طرح النيل أرضا جديدة اتصلت بالطرح الثالث الذى حدث فى أيام الأيوبيين فى المسافة الواقعة بين النقطة التى يتقابل فيها شارع النباتات بجاردن سيتى ، بشارع إبراهيم باشا نجيب بقصر الدوبارة (أمام السفارة البريطانية) وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع مريت باشا بشارع رمسيس .

وبذلك تحول شاطئ النيل الشرقى للمرة الرابعة إلى الغرب فى المسافة المذكورة . وقد نتج عن هذا التحول أن كسبت القاهرة المنطقة التى فيها اليوم شارع الأنتكخانة المصرية (محمود بسيونى الآن) وشوارع شامبليون ومعروف والنمر[1] .

وفى حوالى عام ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) أى فى أثناء سـلطنة الملك الظاهر بيبرس طرح النيـل أرضا جديدة اتصلت بالطرح الأربعة السابقة فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان الفرنساوى بشارع عمرو بن العاص بمصر القديمـة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع مريت بشارع رمسيس ، وبذلك تحـول شاطئ النيل الشرقى للمرة الخامسة إلى الغـرب فى المسافة المذكورة ، ويقع

---

(١) محمد رمزى : الجغرافيا التـاريخية لمدينة القـاهرة — شاطئا النيـل تجـاه مصر القديمـة والقاهـرة وما طرأ عليهما من التحولات مـن الفتح العـربى لمصر إلى اليـوم . مجلـة العلوم مجلد ٤ عـام ١٩٤٢ ، ص ٤٩٧ — ٥٢٣ .

الآن فى أرض الطرح الخامس مستشفى الإرسالية الإنجيلية الأمريكية وشارع السكر والليمون بمصر القديمة وعيون مجرى الماء وفم الخليج ومستشفى الانكلستوما ومعهد الأبحاث ومعهد ومستشفى الكلب وكلية طب ومستشفى قصر العينى ، وشارع الوالدة وقصر وزارة الخارجية ومبنى جامعة الدول العربية وفندق هيلتون ودار الآثار المصرية ومقر الاتحاد الاشتراكى العربى .

طرح النيل السادس وظهور بولاق :

وفى سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ظهر طرح آخر وزادت مساحة أرض الطرح زيادة لم يسبق لها مثيل فى المرات السابقة ، فقد ظهرت الأرض التى يقوم عليها الآن قسم بولاق وجزء من قسم الأزبكية ، والأرض الواقعة بين السكة الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج ، كما طمت أيضا أرض السيالة التى كانت تفصل بين أراضى منية السيرج والشرابية وميدان رمسيس من جهة وبين جزيرة الفيل التى بها الآن قسما شبرا وروض الفرج من جهة أخرى [1] ، واتصلت أراضى هذا الطرح السادس بما سبقه من الطرح التى انتهت عند شارع رمسيس فى المسافة الواقعة بين مديرية مصلحة المجارى وبين ميدان رمسيس ، وبذلك أصبح النيل يجرى تحت مديرية مصلحة المجارى من الجهة الغربية ، ثم يسير تحت شارع ساحل الغلال ببولاق فشارع ماسبيرو فشارع سوق العصر ، وبعده يسير النيل فى طريقه إلى الشمال مارا غربى جامع الشيخ محمد الأخرس ، ثم يسير مخترقا أرض عنابر السكك الحديدية القديمة ببولاق ، إلى أن يصل إلى جامع الشيخ فرج من الجهة الغربية ، وهناك يتصل هذا الطرح بأرض جزيرة الفيل . وبظهور هذا الطرح اتصلت أراضى هذه الجزيرة من جهتها الشرقية بأراضى منية السيرج والشرابية وميدان باب الحديد ، ومن جهتها القبلية بأرض بولاق .

(١) سنتكلم عن مصير جزيرة الفيل فيما بعد .

أرض جديدة تكسبها القـاهرة :

وفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) ظهر الطرح السابع للنيل فى المسافة الواقعة بين الطرف الجنوبى لورش صب القوالب التابعـة لدار الآثار المصرية وبين النقطة التى يتقابل فيهـا شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران فى شمال عنابر السكك الحديدية ، وبذلك تحول النيل إلى جهة الغرب للمرة السابعة ، واتخذ سيره بشارع ماسبيرو ، ثم يسير إلى الشمال بشارع المطبعة الأهلية ، فشـارع أبو الفرج إلى أن يتقابل بشارع جزيرة بدران .. وفى هـذا الطرح يقع الآن جامع سنان باشا ، ومركز بوليس قسم بولاق وعنابر السكك الحديدية القديمة .

بولاق وشـبرا :

يحدثنا المؤرخ ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ضمن حوادث عام ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) عن سلطنة الملك المنصور قلاوون على مصر قائلا :

« وفى هذه السنة (أعنى سنة ثمانين وستمائة) تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل تجاه قرية بولاق واللوق ، وانقطع بسببها مجرى البحر ما بين قلعة المقس « ثغر القاهرة » وساحل باب البحر والرملة ، وبين جزيرة الفيل وهو المـار تحت منية السيرج ، وانسد هذا البحر ونشف بالكلية واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشى ، ولم يعهد فيما تقدم ، وحصل لأهل القاهرة مشقة من نقل المـاء الحلو لبعد البحر (النيل) ، فأراد السلطان حفره فنهوه عن ذلك ، وقالوا له : هذا ينشف إلى الأبد ، فتأسف السلطان وغيره على ذلك .. فسبحان القادر على كل شيء » .

ربما تكون عبارة ابن تغرى بردى ليست دقيقة فى التعبير ، لأنها تصور أن بولاق كانت موجودة قبل ظهور هـذه الجزيرة ، فى حين أنها أنشئت فى عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) على جزء من هذه الجزيرة بعد ظهورها فى عام

٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ، ويستفاد مما ذكره ابن تغرى بردى[1] والمقريزى[2] عند الكلام على اللوق وبولاق وقنطرة باب البحر ، وعلى جزيرة الفيل « شبرا » أن شاطئ النيل الشرقى القديم تجاه القاهرة كان سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ، بعد أن يمر فى مجراه الحالى من مصر القديمة إلى قصر النيل ينعطف قليلا إلى الشرق ، ويمتد فى شارع رمسيس من بدايته عند مبنى مديرية المجارى ، ثم يسير فيه إلى ميدان رمسيس فمحطة كوبرى الليمون ، ثم يمر شرقى مخازن محطة مصر وينعطف شمالا فيسير فى شارع مهمشة .

وعند عزبة الحمايسة يميل إلى الشمال الغربى ماراً تحت منية السيرج ، ثم يسير شمالا إلى الغرب حتى يتصل بمجراه الحالى عند فم ترعة الإسماعيلية ، وفى سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) انحسر النيل عن جانب المقس عند ميدان رمسيس وظهر فى مجرى النيل بجوار الشاطئ القديم جزر من الرمال ، وصارت أرض هذه الجزر تتسع وتنضم إلى بعضها حتى أصبحت جزيرة واحدة كبيرة ، اتصلت من بحريها بجزيرة الفيل ، ومن قبليها بأرض اللوق ، ثم طرح عليها البحر فربت وارتفعت أرضها عن منسوب ماء النيل بسبب ما كان يتركه عليها من الطمى سنويا ، وأصبحت أرضها صالحة للزراعة والسكنى ، وفى عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) سمح الملك الناصر محمد بن قلاوون بالعمارة والبناء فى تلك الأراضى ، فتسابق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء وبنوا على النيل الدور والقصور والبساتين ، وتكون من مجموع ذلك بلدة جديدة هى بولاق ، إذن فقد أضيفت بولاق إلى بر القاهرة فى عام ١٣١٣ م وكانت الأرض التى بين بولاق المملوكية وبين شارع ٢٦ يوليو « اليوم »

---

(١) الجزء السابع ص ٣٠٧ — ٣٠٨ — ٣١٠ .

(٢) الخطط المقريزية : ج ٢ ، ص ، ١١٧ ، ١٣٠ ، ١٥١ ، ١٨٥ .

كلها أرضا زراعية وبساتين ، ولم تحدث فيها المبانى إلا فى أيام الخديو اسماعيل ومنذ ذلك الحين أخذت بولاق تتسع فى العمارة حتى اتصلت مبانيها بمدينة القاهرة ، وأصبحت بولاق قسما إداريا من أقسام القاهرة .

أما جزيرة الفيل التى أصبحت فيما بعد الجزء الجنوبى من حى شبرا، فقد ذكر المقريزى فى خططه أن هذه الجزيرة كانت واقعة فى وسط النيل تجاه ناحية منية السيرج خارج باب البحر من القاهرة ، وكان موضعها غامرا بالماء فى أيام الفواطم . وفى أواخر تلك الدولة انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك فى مكانه ، فربا عليه الرمل وانطرد عنه الماء فصارت جزيزة يحيط بها الماء من جميع الجهات، ثم علا أراضيها الطمى وما برحت تتسع مساحة أراضيها حتى تم تكوينها حول عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ، أى فى أوائل حكم الأيوبيين ، فزرعت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف ، وفى عام ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) طرح البحر بجوارها ، فاتصلت أراضيها بأرض ناحية منية السيرج ، وبالمقس حيث ميدان رمسيس اليوم ، ثم أخذ آل قلاون وأمراؤهم والأعيان ببناء القصور والدور ، حتى صارت حيا كبيرا ، هو الذى نعرفه اليوم باسم شبرا أحد أقسام مدينة القاهرة . وكانت جزيرة الفيل تشغل المنطقة التى يتوسطها اليوم شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ويحدها النيل من الغرب حيث جسر طراد النيل القديم .

القرافة الشرقية :

ولا يمكن إغفال هذه المنطقة الصحراوية الكبرى التى ضمت إلى أراضى القاهرة على أيام المماليك الجراكسة منذ أيام مؤسسها السلطان الظاهر برقوق وابنه فرج ، فقد شيد السلاطين والأمراء فى شرق القاهرة مجموعة فخمة من المساجد والأضرحة والقباب والخانقات ، وهى اليوم تؤلف فى مجموعها خير العمائر فى قاهرة الجراكسة .

العمران فى جزر النيـــل

جزيرة الروضة :

لمـــا تولى ملك مصر السلطان الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ م) عنى بعمارة قلعة الروضة بعد خرابها ، وأمر أحد أمرائه بإعادتها إلى ما كانت عليـــه فى أيام الصالح نجم الدين الأيوبى . فأصلح بعض ما تهدم فيها ، ووزع أبراجها على الأمراء ، ومنح برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، وفرق بقية الأبراج على كثيرين من الأمراء المقربين ، ولذلك عرفت أسرة المماليك البحرية بالمماليك البرجية . وأمر بأن لا يغادروها ، ومن هنا اجتذبت الروضة إليها نفرا من الأهالى والباعة وأخذوا يسكنونها .. بيد أن قلاوون بعدما تولى السلطنة وعزم على بناء البيمارستان والقبة والمدرسة فى النحاسين ، نقل من قلعة الروضة جميع ما احتاج إليه من العمد والرخام . وكذلك فعل ابنه الناصر محمد حينما شيد مسجده ودار العدل بالقلعة .

جزيرة الزمالك :

وفى أيام المماليك البحرية انحسر المـــاء عن جزيرة النيل الوسطى وهى جزيرة أروى ، وقد ذكرها المقريزى (ج ٢ ص ١٨٦) بأنها تقع فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة . وكان انحسار الماء عن الجزيرة حوالى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠-١٣٠١ م)، فشيد الناس فيها الدور والأسواق والجوامع والطواحين ، وغرسوا فيها البساتين ، وحفروا فيهـــا الآبار ، وصارت من متنزهات القاهرة ، يحف بها المـــاء من جميع جهاتها . وجزيرة الزمالك التى تعرف بالجزيرة فقط من أحسن المواقع للسكنى والتنزه فى القاهرة ، وبها نوادى الرياضة والمستشفيات والفنادق ودور السفارات .

* * *

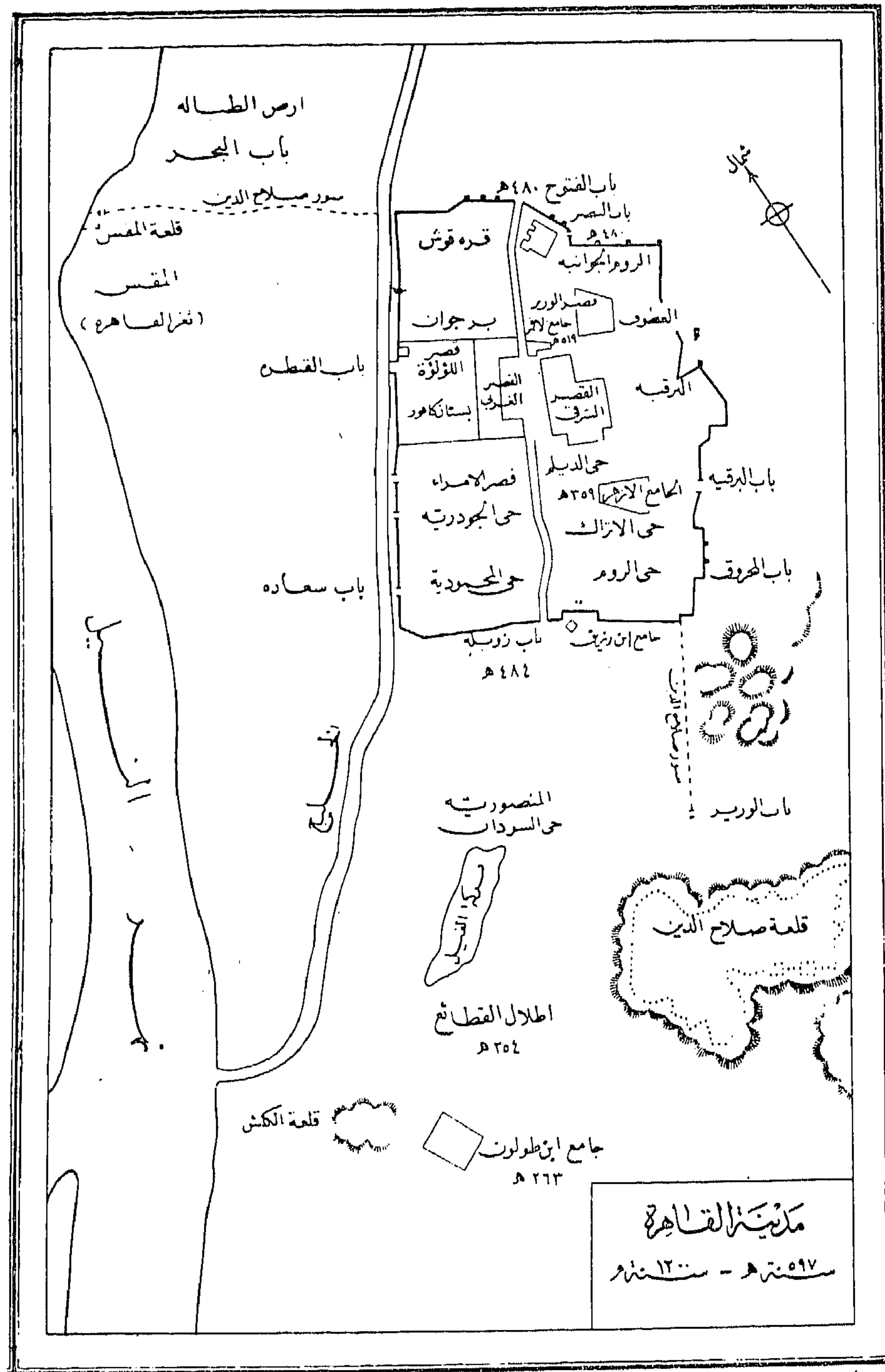
يتبين لنا مما سبق كيف اتسعت القاهرة من أيام الفاطميين فى عام ٩٦٠ إلى انتهاء أيام دولة المماليك (١٥١٧ م) . ويمكن القول بأنها حافظت على اتساعها وامتدادها على أيام العثمانيين باستثناء زيادة صغيرة كسبتها المدينة(١) بجوار بولاق حول عام ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) نتيجة للطرح السابع وفى تلك الأرض أنشأ على باك الكبير عمارة كبيرة على ساحل النيل (فى ذلك الوقت) حيث يمر بشارع المطبعة الأميرية وذلك بسبب ما كان يلقى من الأتربة وبقايا العمارات بجوار الساحل القديم ، فطمى النيل عليها ، وبذلك تكونت الأراضى التى قامت عليها فيما بعد دار المطبعة الأميرية والورش الأميرية ، ومصلحة الوابورات (الترسانة) فى أيام محمد على .

وأختتم هذا الموضوع ذاكرا أننى مدين جدا إلى جميع الذين سبقونى من طبوغرافى القاهرة ومؤرخيها وعلماء آثارها فى هذا السبيل ، منوها على وجه الخصوص بالقلقشندى ، والمقريزى ، وعلى مبارك ، والجبرتى ومحمد رمزى ، ومحمود أحمد ، ومن استفادوا بما كتبه هؤلاء الأعلام خلال الأعوام السبعين الأخيرة ، من أمثال السادة : رافيس ، وكازانوفا ، وسالمون ، وكريسويل وڤييت ومارسل كليرجيه .

فلولا بحوث هؤلاء العلماء جميعا ، لما ساهمت بهذا الموضوع من أجل العيد الألفى للقاهرة .. أم الدنيا .

---

(١) الجبرتى : ج ١ ص ٣٨٠ . أنظر أيضا الملحقين فى خاتمة البحث .



تخطيط القاهرة فى عصر الفواطم

الملحق الأول

شاطئ النيل الشرقى الأصلى القديم تجاه مدينة «مصر والقاهرة» وقت الفتح العربى

كان نهـــر النيل بعد مروره بناحية أثر النبي جنوبي « مصر القديمة » يسير شمالا بجـــوار شارع أثر النبي (أزيل جزء كبير منه عند مدخل شارع كورنيش النيل) إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ ، فيسير النيل بجوار هـــذه السكة إلى أن يتقابل بشارع مارجرجس ، فيسير محاذيا له من الجهـــة الغربية ماراً بحصن بابليون وشارع مار جرجس وجامع عمرو ، ثم يسير محاذيا لشارع ســـيدى حسن الأنور إلى نهايته ، ثم يســـير النهر شمالا إلى النقطة التى يتقابل فيها شارع السد البرانى بسكة المدبح ، ثم يسير بعد ذلك متجها فى طريقه إلى الشمال ، فيمر فى حارة المغربى بجنينة قاميش بشارع بنى الأزرق بجنينـــة لاظ ، فشارع جنان الزهرى ، فشارع مصطفى كامل بعابدين (سابقا الشيخ عبد الله) فشارع البلاقسة ، فعماد الدين إلى نهايته البحرية (شارع محمد فريد) ثم ينعطف النيل مائلا إلى الشرق ويسير بجوار شارع رمسيس حتى يصـــل إلى ميدان رمسيس (محطة مصر) ، ومن هناك ينعطف إلى الشمال الشرقى ويمـــر بجوار محطة كوبرى الليمون من الجهـــة البحرية الغربية ، ثم يسير فى شارع غمرة قليلا ، ثم يسير إلى الشمال محاذيا لمخازن بضائع محطة مصر من الجهـــة الشرقية ، ثم يتجه إلى شارع مهمشة غربا حتى يصل إلى منية السيرج وهناك يسير غربيها ثم يسير شمالا بدوران خفيف إلى الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالى عند فم الترعة الإسماعيلية « جنوب شبرا الخيمة » (محمد رمزى)

الملحق الثانى

طرح نهر النيل فيما بين مصر القديمة وبولاق منذ عام ٦٨٨م وعام ٨٣٠

الطرح الأول: (٦٩ هـ - ٦٨٨ م) زمن حكم الدولة الأموية، وولاية عبد العزيز بن مروان، طرح النهر أرضا اتصلت بالشاطئ القديم فيما بين ساحل أثر النبى وبين المنطقة التى يتلاقى فيها شارع السد البرانى بقسم السيدة زينب؛ ونتج عن هذا الطرح الأول ظهور الأرض التى تقوم عليها الآن مصر القديمة.

الطرح الثانى : (٣٣٠ هـ - ٩٤١ م) فى أيام الدولة الفاطمية طرح النهر أرضا فى المسافة الواقعة بين جامع الطيب بشارع الديورة وبين المنطقة التى يتلاقى فيها شارع التحرير بشارع عماد الدين (محمد فريد) ، نتج عن هذا الطرح ، المنطقة التى تقوم فيها اليوم مبانى وزارات : الداخلية والعدل القديمة والمالية (الخزانة اليوم) ورئاسة مجلس الوزراء القديمة والحربية (وزارة الإنتاج الحربى فيما بعد بجوار ضريح سعد؛ والمعارف (التربية والتعليم) ودار العلوم والمعهد العالى الفرنسى للآثار الشرقية وشوارع : نوبار ومنصور وحاوان والمنيرة .

الطرح الثالث : (ح ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م) فى أيام الدولة الفاطمية طرح النيل أرضا اتصلت بالطرحين الأول والثانى فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبى وبين المنطقة التى يتلاقى فيها شارع توفيق بشارع رمسيس ، ونتج عن هذا الطرح المنطقة التى تقوم فيها اليوم كلية التجارة (جامعة عين شمس) ووزارات التجارة والشؤون الاجتماعية والصحة ومجلس الأمة والجامعة الأمريكية ، والليسيه ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ، ويمر فيها شارعا شريف وأبى السباع

الطرح الرابع : (ح ٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ م) فى أوائل حكم دولة المماليك البحرية طرح النيل أرضا جديدة متصلة بالطرح الثالث (جاردن سيتى) ،

ونتج عنه المنطقة التى يمر فيها شارع الأنتكخانة المصرية وشوارع : شامبليون ومعروف والنمر .

الطرح الخامس : (ح ٦٧٠ هـ - ١٢٧١ م) فى أيام المماليك البحرية ، طرح النيل أرضا اتصلت بالطُّرح الأربعة السابقة ، ونتج عنه المنطقة التى تقوم فيها مستشفى الإرسالية الإنجيلية الأمريكانية وشوارع السكر والليمون بمصر القديمة وسواقى قناطر المياه وفم الخليج ومستشفى الانكلستوما ومعهد الأبحاث ومستشفى الكلب وكلية الطب ومستشفى قصر العينى وشارع الوالدة ، ووزارة الخارجية ودار جامعة الدول العربية والمتحف المصرى .

الطرح السادس : (٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م) فى أيام المماليك البحرية زادت هذه المرة مساحة أرض الطرح زيادة لم يسبق لها مثيل ، ظهرت فيها الأرض التى يمتد فيها قسم بولاق وجزء من قسم الأزبكية والأرض الواقعة بين السكة الحديدية الموصلة إلى الوجه القبلى وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج وظهرت أيضا أرض السيالة التى فصلت بين أراضى منية السيرج والشرابية ، وميدان رمسيس من جهة ، وبين جزيرة الفيل التى بها الآن قسما روض الفرج وشبرا من جهة أخرى ، ويظهر هذا الطرح الذى اتصل بما سبقه من الطُّرح التى انتهت عند شارع رمسيس فى المسافة الواقعة منه بين مقر مصلحة المجارى وبين ميدان رمسيس ، اتصلت أراضى جزيرة الفيل من جهتها الشرقية بأراضى منية السيرج والشرابية وميدان باب الحديد ، ومن جهتها بأرض بولاق ، واتسعت أراضيها من الجهة الغربية ، وفى هذا الطرح الذى ينتهى حده الشرقى بشارع رمسيس تقع مدينة بولاق وقسم بولاق .

الطرح السابع : (٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م) فى أيام المماليك الجراكسة حدث فيما بين شارع ثكنات قصر النيل (همت شمال دار الاتحاد الاشتراكى العربى) وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران فى شمال ورش (عنابر) السكة الحديدية ، ولذلك تحول النيل إلى جهة الغرب للمرة السابعة ، ويقع فى هذا الطرح جامع سنان باشا ببولاق ومركز شرطة قسم بولاق وعنابر السكة الحديدية .

الطرح الثامن : (حول ١٨٣٠) ، ويعتبر آخر طُرُح النيل حدث غربى شارعى أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل من الجهة الغربية ، يشمل المنطقة التى تحد اليوم شمالا بفم الترعة الإسماعيلية ، ومن الغرب بمجرى النيل الحالى ، ومن الجنوب بمصلحة وابورات الركائب الملكية سابقا ، ومن الشرق بشارع المطبعة الأهلية ببولاق وشارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل .

الشاطئ الغربى للنيل تجاه القاهرة (1)

حدث تحولان فى هذا الشاطئ : الأول عام ١٨٦٣ بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب إلى الشرق نتيجة عمل هندسى ، والثانى (١٩٠٣ — ١٩٠٥) بسبب طرح البحر .

ففى سنة ١٨٦٣ بدأ ديوان الهندسة بإجراء عملية التحويل بإقامة جسر على النيل بين مدينتى الجيزة وامبابه ، وفى سنة ١٨٦٥ تمت هذه العملية وأخذ النيل يسير فى مجراه تحت شارعى الجيزة وشارع البحر الأعمى بدلا من شرق الدقى .

(١) كان شاطئ النيل الغربى تجاه القاهرة حوالى عام ١٨٠٠ واقعا تحت الأمكنة الآتية : بعد أن يمر النيل تحت سكن مدينة الجيزة يسير مائلا إلى الغرب قليلا ، فيمر شرق مبنى كلية الزراعة ثم يسير مخترقا أرض حدائق الحيوان ثم يمر شرق مبنى كلية الهندسة الى أن يصل الى شارع الدقى فيسير محاذيا له من الجهة الشرقية ثم يسير شرق مبنى وزارة الزراعة فالمتحف الزراعى فعزبة الحوتية ، ثم يسير مائلا إلى الشرق حتى يتلاقى بمجراه الحالى جنوبى سكن مدينة امبابة ، ولا تزال آثار جسر النيل الغربى القديم هذا باقية إلى اليوم بين الدقى وأمبابه ، وكان مبينا على خريطة القاهرة لغاية سنة ١٩٣٠

وكانت نتيجة إقامة هـــذا الجسر أن تخلف عن النيل المنطقة الغربية منه ، التى كانت بين قرية الدقى وبين الشارعين المذكورين سابقا ، ثم قامت شركة فرنسية بردم القسم الجنوبى من تلك المنطقة بمعاونة رجال العـــونة فى المسافة الواقعة بين مدينة الجـــيزة وشارع ثروت ، أما القسم الشمالى من تلك المنطقـــة أى فى المسافة الواقعة بين شارع ثروت وامبابه ، فقد طمت أرضها بتحويل مياه الفيضان عليها بطريقة هندسية ، وبذلك أصبحت المنطقة أرضا زراعية ، تتوســـطها قرية العجوزة التى تحـــولت فى الأعوام الأخيرة إلى منطقة سكنية ممتـــازة .

أما تحويل مجرى النيل الثانى ، فإنه بسبب تحويل مجرى النيل من الغرب إلى الشرق بالعمـــل الهندسى السابق ذكره ، فقد تحولت قوة تيارماء النيـــل إلى الشاطئ الشرقى ، وبسبب هـــذا التحول ضعفت قوة التيار تحت الشاطئ الغـــربى الجديد ، فطرح البحر أرضا جديدة فى عام ١٨٧٠ تحت الشاطئ المذكور هى عبارة عن الساحل الواقع الآن بين شارع الجيزة وشارع النيل (فاروق الأول سابقا) على النيـــل فى المسافة الواقعة بين كوبرى الجـــيزة (عباس سابقا) وبين كوبرى فم البحر الأعمى (كوبرى الأنجليز سابقا) ، ومن عام ١٨٧٠ إلى اليوم احتفظ شاطئا النيل الشرقى والغربى تجاه القـــاهرة ، بحالتهما الحاضرة . (محمد رمزى) .

دراسة فى الزجّاج المصرى

عبد الرؤوف على يوسف

دراسة فى الزجاج المصرى

عبد الرؤوف على يوسف

يضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحفتين متشابهتين من الزجاج، عبارة عن دورقين صغيرين بدنهما كمثرى الشكل ، ولكل منهما فوهة بيضاوية الشكل ، ينتهى طرفها بجزء صغير مسحوب يكون المصب، ويقابله مقبض يتألف من شريط زجاجى ينثنى من أعلاه ، ليكون نتوءا يرتكز عليه أبهام اليد عند الاستعمال .

ويحمل الدورق الأول رقم سجل ١٣١٠٤ ، وقد اقتناه المتحف عن طريق الشراء من التاجر موريس نحمان بالقاهرة سنة ١٩٣٥ (شكل ١) .

أما الدورق الثانى فقد ضم لمجموعات المتحف عن طريق الإهداء سنة ١٩٥٠ ، وسجل برقم ١٦٣٧٣ (شكل ٢) .

وقد ذكر بسجل المتحف أن الدورق الأول يحمل نصا بالخط الكوفى يقرأ « عمل أحمد بن هنيدا » ، أما الدورق الثانى فقد اقتصر على ذكر أنه مزين بكتابة كوفية . ولم ينشر أى من هذين الدورقين من قبل .

ويمتاز الدورق الأول بأنه أكثر جمالا وتناسبا من الدورق الثـانى، فنجد له رقبة لطيفة رشيقة ، ومقبضا رقيقا يزيدان من جماله ، أما الدورق الثـانى فرقبته قصيرة ، تعطى للبدن شكلا مخروطيا ، ومقبضه أكثر سمكا ، ويمتـاز هذا الدورق الأخير بعروة للتعليق فى أعلى البدن. ويحمل كل من الدورقين سطرين من الكتابة الكوفية البارزة :

ومن دراستنا لهاتين التحفتين أمكننا أن نتبين فيهما مثلين جديدين من مجموعة متشابهة من الدوارق عددها أربعة ، وكلها ذات بدن كمثرى ومنفوخة فى القالب — هذه المجموعة التى قام بنشرها الأستاذ رايس D. S. Rice فى صحيفة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن سنة ١٩٥٨ م (ص ٨ — ١٦) .
"Journal of the Royal Asiatic Society"

وقد نشر الأستاذ رايس فى بحثه هذا دورقا فى متحف الفن بمدينة توليدو بولاية أوهايو الأمريكية ، وذكر أنه مطابق فى كتاباته وزخارفه لدورق آخر كان محفوظا فى مجموعة أسرة « ا : تشرشل » بلندن (A. Churchill)

وقرر الأستاذ رايس أن هذين الدورقين لابد وأن يكونا قد نفخا فى قالب واحد ، وكذلك ذكر أن الدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك(1) مطابق لدورق رابع محفوظ فى مجموعة السيد « أرنست كوفلر » (Ernst Kofler) بمدينة لوسيرن بسويسرا ، وأنهما نفخا فى قالب مشابه آخر أقل حجما من القالب السابق .

وقد قرأ الأستاذ رايس السطر الأول من الكتابة «مما عمل للأمير ببغدا[د]» ، كما قرأ السطر الثانى « عمل طيب (طلب) بن أحمد بن مسى » :

(١) م . س. ديماند : الفنون الاسلامية (ترجمة أحمد عيسى) ص ٢٣١ ، القاهرة ١٩٥٣

أما عن السـطر الأول فلا خلاف على الكلمتين « مما عمـل » نجدهما واضحتين على تحفتى متحف الفن الإسلامى ، يليهما كلمة « الأمير » نجـدها مقسومة نصفين ، يفصل بينهما الخط البارز الفاصل بين نصفى القالب على أحد الدورقين ، بينما نجدها كاملة على الدورق الآخر رقم سجل ١٣١٠٤ ، وتتكون الكلمة الأخيرة من أربعة حروف يمكن قراءتها « بيعة » ، ولمـا كان المتبع وما نتوقعه دائما بعد عبارة « مما عمل للأمير » أن نجد اسمه ، فإن هذه الكلمة الأخيرة تصبح اسما واضحا إذا أضفنا إلى أولها حرف « راء »، فتصير « ربيعة » (أشكال رقم ١ ، ٢ ، ٣) ، ولعل حرف الراء هذا قد سقط سهوا ممن قام بحفر القالب ، وربما يكون الصانع قد تعمد عدم تكراره بعـد حرف الراء الأخيرة فى كلمة « الأمير » ، ونقرأ الحرف الأخير من هـذه الكلمة الرباعية حرف « هاء » منتهية ، بدلا من قراءتها حرف دال ، « د »، كما فعل الأستاذ رايس فجعلها « ببغدا » وافترض وجود حرف « د » ثانيـة بعد حرف الألف ، وأن هذه الدال الأخيرة ربما تكون قد فقدت بين نصفى القالب ، ولذا رجح قراءة هذه الكلمة « ببغداد » : ويبدو أن الأستاذ رايس قد اعتمد على الدورق الذى كان فى حوزة « أ . تشرشل » بلندن ، والذى اشـتراه بعد ذلك السيد ارنست كوفلر بلوسيرن وضمه إلى زميـله المشابه فى مجموعته ، وقد تفضل السيد كوفلر بتزويدى بصور تفصيلية ، وصورة لقالب جصى للنص ، وتبينت وجود خط رئيسى بارز ، بعد هـذه الكلمة الرباعية فى السطر الأول ، ولعل هذا الخط هو الذى دفع الأستاذ رايس إلى وضع حرف « ألف » بعد الدال الأولى :

ولكن هذا الخط الرأسى أو مايشبه حرف الألف لانجده فى باقى الدوارق من هذه المجموعة [1] ، ولعله وضع هنا لملأ الفراغ ، وذلك لقلة عدد كلمات النص العلوى عن النص السفلى :

وهنا يبرز السؤال من يكون الأمير ربيعة هذا ؟ وبمقارنة أسلوب الكتابة وأشكال الحروف على هذه الدوارق بمثيلتها على العملات وصنج السكة الزجاجية من العصر الطولونى نجد على بعض هذا النوع الأخير عبارة « مما أمر الأمير أحمد بن طولون » وعلى بعضها الآخر اسمه فقط مسبوقا بلفظ الأمير بعبارة « الأمير أحمد » وعلى صنجة أخرى نجد اسم ابنه « الأمير خمارويه » [2] ، فاذا تأملنا أشكال الحروف على مجموعة دوارقنا هذه نجدها مطابقة لأسلوب الخط وأشكال الحروف من هذا العصر أيضا :

ولذا نعتقد أن هذه المجموعة من دوارق الشراب تحمل اسم أحد أمراء الدولة الطولونية فى مصر هو الأمير ربيعة بن أحمد بن طولون الذى كان يحيا حياة الترف والتنعم حتى كانت ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه ، ومقتله سنة ٨٩٦ م :

أما السطر الثانى على دورقى متحف الفن الإسلامى السابق الذكر فيمكن قراءته « عمل نصير بن أحمد بن هيثم(؟) » (شكل ٣)، ولعل الأحرف التى تنتهى بها الكلمة الأخيرة تحتاج لبعض التحقيق ، أما باقى العبارة فتبدو واضحة ، وهى تدل على اسم الزجاج ، أو صانع القالب :

---

(١) زودنى كل من الأستاذ الدكتور إرنست جروبه والآنسة مارلين جنكينز مشكورين بمجموعة من الصور التفصيلية للدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان ، رقم سجل (X. 121. 191).

(٢) من أمثلة هذة الصنج الصنجتان برقمى سجل ١٨٥٣٥ ، ١٨٥٤٧ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، الأولى باسم أحمد بن طولون وعلى الثانية عبارة « الأمير خمارويه ».

ولقد قرأ الأستاذ رايس الاسم الأول « طيب أو طاب » ، بالرغم من أنه لاحظ وجود حرف شبيه بحرف اللام قبل هذه الكلمة على الدورق الأول بمجموعة أرنست كوفلر :

ويضم متحف الفن الإسلامى بعض قطع من الزجاج عليها اسم صانعها « عباس بن نصير »(1) يرجح أنها من العصر الفاطمى ، وهنا يمكن أن نتساءل عن صلة قرابة بين هذا الزجاج وصانع هذه الدوارق الجميلة « نصير بن أحمد ابن هيثم » .

كذلك يضم متحف الفن الإسلامى كسرتين آخرتين من الزجاج (رقم سجل ١٤٨٤١ ، ١٩٧٣٧) ، وقطعة ثالثة فى إحـــدى المجموعات الخاصة بالقاهرة (شكل ٥) عليها كتابة بارزة مختومة نصها « عمل بمصر »(2) بنفس أسلوب الخط والكتابة على مجموعة الدوارق هذه ، فضلا عن تشابه نوع الزجاج ، مما يؤيد نسبة هذه المجموعة إلى مصر وليس إلى الشام أو العراق ، كما كانت تنسب حتى الآن(3) :

---

(١) لام : الـــزجاج فى العصـــو ر الوسطى ص ١١٧ لوحة رقم ٥ ، زكـــى حسن : كنـــوز الفـــاطميين ص ١٨٣ . ويضم متحف الفـــن الاسلامى ثـــلاث قطع عليها أسم هـــذا الصانـــع ارقام سجلها ٨١٦٧ ، ٢ ١٢٦٣٨ ، ١٥٥٧٩ .

(٢) كـــذلك تحمل بعض صنج السكة الزجاجية منذ فجـــر الاسلام اسم « مصر » بخط كـــوفى بسيط كمكان لصناعتهـــا . انظر عبد الرحمن فهمى : الشارات المسيحية على السكة الاسلامية لوحة ٨ شـــكل ٢٣ ، ٢٤ ، ص ٣٥٣ : المؤتمـــر الثالـــث للاثار فى البلاد العربية فى فـــاس . القاهـــرة : ١٩٦١ م .

(٣) م . س . ديماند : المـــرجع السابق ص ٢٣١ .

ويعرض متحف الفن الإسـلامى هذين الدورقين فى الخزانة رقم (١) بقاعته الزجاج رقم (٢١) :

ويضم متحف الفن الإسلامى قطعة أخرى من الزجاج ذى البريق المعدنى ، فريدة فى بابها (رقم سجل ١٢٧٣٩-٦)(١) تعتبر أقدم قطعة مؤرخة وهى تمثل قاع إناء صغير ، مزخرف بأسلوب البريق المعدنى (قطر ٥,٥ سم — ارتفاع ١,٧ سم) تزينها هيئة وريدة حولها نص دائرى من الكتابة الكوفية بحروف بسيطة قرأته « مما عمل فى طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ » (شكل ٤) ، ونلاحظ أن أرقام هذا التاريخ الهجرى مكتوبة بالأرقام القبطية ، ويقابل هذا التاريخ سنة ٧٧٩ م. ويحيط بالنص بقية زخارف نباتية باللونين الأصفر والبنفسجى الداكن ، وقد ساعد على تحقيق التاريخ خاصة الرجوع إلى وثائق البردى العربية بدار الكتب ، والتى نشرها أستاذنا أدولف جروهمان(٢) ، ونلاحظ أنه قد استمر كتابة التواريخ الهجرية بالحروف القبطية فى بعض الوثائق فى مصر حتى العصر الفاطمى(٣) :

ويقع هذا التاريخ الذى تسجله هذه الوثيقة الزجاجية (سنة ١٦٣هـ) ، فى عهد والى مصر يحيى بن داود بن ممدود الحرشى ، وكنيته أبو صالح(٤) ، وقد تولى إمارة مصر من قبل الخليفة العباسى المهدى فى الفترة من ذى الحجة سنة ١٦٢ هـ إلى ١٠ المحرم سنة ١٦٤ هـ :

(١) نشرت هـذه التحفة لأول مـرة فى مقالنا عن « الزجاج » ضمن موضوعـات الاهرام الخاصة عـن القاهـرة — صحيفة الاهرام عـدد ٢٣ ينـاير ١٩٦٩م .

(٢) أوراق البردى العـربية ج ٣ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، رقم ١٩٦ لوحة ٢٠ سطر ١١ ، ج ٤ وثيقة ٢٢٦ لوحة ٣ سطر (٥) ، لتحقيق رقم (ستين) . وانظر كذلك عبد الرحمن فهمى : الشارات المسيحية والـرموز القبطية (المرجع السابق) لـوحة رقم (٩) نقلا عـن : (A. Mallon : Grammaire Copte, 1926.)

(٣) جروهمان : المـرجع السابق ج٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، إيصال مؤرخ (٤٠٥ هـ)

(٤) ذكـر زامباور فى « معجم الاسرات الحاكـة فى التاريخ الاسلامـى ج ١ ص ٣٩ هامش (٥) أن اسم هذا الوالى يحتمل أن يكون يحيى بن سعيد » كما ذكر الطبرى ج٣ ص ٤٩٣ .

ويذكر المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٣٠٧) عن هذا الوالى أنه كان من أشد الناس وأعظمهم هيبة وأكثرهم عقوبة ، فمنع من غلق الدروب بالليل ومن غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب ، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها ، وقال من ضاع له شيء فعلى أداؤه ، فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول يا أبا صالح احرسها ، فكانت الحال على هذا مدة ولايته :

وترجع أهمية هذه القطعة ليس فقط إلى تاريخها المبكر ، ولكن لذكر مكان الصناعة أيضا فى النص « فى طراز الفيلة بمصر » ولعل أرجح التفسيرات لهذه العبارة هو « مصنع الفيلة » بالفسطاط ، ولما كان النص غير منقوط فيمكن قراءة الكلمة على عدة وجوه: منها « الفيلة » أو « الفيلة » جمع فيل : وتحدثنا المراجع عن « دار الفيل» التى كانت من أهم دور الفسطاط[(١)] وكذلك نعرف « جامع الفيلة » الذى بناه الأفضل بن بدر الجمالى فيما بعد سنة ٤٧٨ هـ بسطح الجرف المطل على بركة الحبش، وسمى بذلك لوجود تسع قباب فوقه، فى جانبه القبلى كانت تبدو بشكل الفيلة لمن يرى المسجد من بعيد، ذكر هذا المقريزى فى حديثه عن الجوامع[(٢)] ، ثم نجده يشير إليه بعبارة أخرى فى الحديث عن إنشاء المرصد (الرصد) فيقول « .... فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير :::: » .

---

(١) الكنـدى : الولاة والقضاة ص ٤٧٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ . كانت هذة الدار لأبى عثمان مولى الأمير مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى . ، البلاد المندرسة ص ١٥٢ ، ١٥٣ أنها كانث على بركة قارون واشتراها كافور الاخشيدى من حبس بنى مسكين (جنان بنى مسكين) ، وموقعها على سكة المذبح من الجهة الشمالية منها جنوبى البغالة بالسيدة زينب . كما ذكر أيضا أن هذة الدار هى غير «دارالفيلة» التى أنشأها خمارويه على حافة بركة الفيل حيث شارع نور الظلام الآن .

(٢) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٢٨٩ .

فلعل لفظ « الفيلة » هذا كان يطلق على المكان أيضا فى هذا الموضع (منطقة الحرف) وليس فقط تشبيها للقباب على جامع الأفضل بشكل «الفيلة»

ولعل لفظة « الفيلة » اختصار أو تحريف لاسم بلدة « فيلس » القديمة بمصر الوسطى التى جاء ذكرها فى وصف رحلة العائلة المقدسة ببعض الأماكن بصعيد مصر : يقول المقريزى « .... ثم أنهم ساروا من الأشمونين ، وأقاموا بقرية تسمى « فيلس » مدة أيام ، ثم مضوا إلى مدينة تسمى « قس وقام » ، وهى التى يقال لها اليوم « القوصية » (خطط ج ١ ص ٢٣١) ، كذلك جاء فى (القاموس الجغرافى) ذكر « كفر الفيلة » كأحد كفور « البربا الكبرى » بالأشمونين .[١] كذلك ذكرت مدينة « فيلوتريس » وهى من المدن المندرسة التى أنشئت بالفيوم فى عهد البطالسة[٢] ، وإن كان هذا الافتراض الأخير يستتبع أن تعنى كلمة « مصر » التى تلى كلمة « الفيلة » مصر كلها وليست مدينة الفسطاط ، والمعروف أن منطقة الأشمونين هذه كانت ذات شهرة قديمة أيضا فى صناعة الزجاج قبل الإسلام :

ومن القراءات ذات المعنى لهذه الكلمة أيضا « القبلة » وتذكر فى المراجع التاريخية لتدل على الكعبة الشريفة أو الاتجاه اليها (الاتجاه الجنوبى الشرقى) جاء فى ذكر مدائن أرض مصر بالخطط « ومن كور القبلة كرى الحجاز وهى كورة الطور وفاران وكورة راية والقلزم وكوره أيلة وحيزها ومدين والعونيد والحوراء وحيزها ثم كورة بدا وشغب .[٣] »

(١) محمد رمزى : القاموس الجغرافى . البلاد الحالية ج ٣ ص ١٨٤ سنة ١٩٦٠ . وينطق لفظ (الفيله) بفتحتين على الفاء والياء ، وتتبع هذه البلدة حاليا مركز ابى قرقاص بمديرية المنيا.

(٢) المرجع السابق ج١ ص ٣٤٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ج١ ص ٧٣ .

كما تستعمل كلمة «القبلة» أيضا بمعنى محراب الجامع ولكننا نستبعد وجود مصنع للزجاج كان يحمل هذا الاسم «طراز القبلة» وينسب إلى قبلة الصلاة.

وارجح التفسيرات هو أن نعتبر كلمة الفيلة علما على أسم المصنع أو المدينة كما ألفنا غالبا أن نجد تفسيرا لنوع مصانع النسيج بعبارات نصها « مما عمل فى طراز الخاصة ، أو العامة بمدينة . . . . كذا » .

وتبقى الاشارة إلى أهمية هذه القطعة الزجاجيه بمتحف الفن الاسلامى فى اثبات استخدام أسلوب البريق المعدنى المتعدد الالوان على الزجاج فى هذا الوقت المبكر من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ويرجح هذا الدليل كفة مصر فى السؤال الذى كان يتردد منذ مدة طويله عن أصل أسلوب الزخرفة بالطلاء المعدنى على الزجاج والخزف ، هل موطن هذا الاسلوب مصر أو العراق أو ايران ؟ ؟

وبناء على هذا الدليل نستطيع أن ننسب إلى مصر تحفا جميلة من الزجاج ذى البريق المعدنى عثر عليها بالفسطاط آخرها الكأس الزجاجية الجميلة ذات البريق المعدنى التى عثرت عليها بعثة مركز البحوث الامريكى بالقاهرة فى حفائرها بمنطقة الفسطاط عام ١٩٦٥ والتى تحمل أسم الامير عبد الصمد بن على وإلى مصر سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ — ٧٧٣م) والتى تخلو من ذكر مكان الصناعة .(١)

(١) جورج اسكانلون : مجلة الآثار «Archaeology» جـ ٢١ ص ١٩٥ وشكل ملون مقابل، يونية سنة ١٩٦٨م. الكأس محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة برقم سجل ٢٣٢٨٤ .



شكل رقم (١)

دورق رقم سجل ١٣١٠٤ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة



شكل رقم (٢)
دورق رقم سجل ١٦٣٧٣ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

شكل رقم (٣)

نص الكتابة على دورق متحف الفن الإسلامى بالقاهرة



شكل رقم (٤)

قاع إناء زجاج مزخرف بالبريق المعدنى عليه عبارة نصها « مما عمل فى طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ »
وأرقام التاريخ الهجرى مكتوبة بأرقام قبطية



شكل رقم (٥)

جزء من جدار اناء زجاج عليه بالبارز عبارة « عمل بمصر »
فى مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض بالقاهرة

دور الأزهر فى الحفاظ
على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى

للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى

للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى بحث ثان نوقش فى الندوة عنوانه « صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر » و ينشر مستقلا فى مطبوعات الألفية .

دور الأزهر في الحفاظ
على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني

للأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى

قضى الغزو العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ على دولة المماليك الشراكسة ، ففقدت البلاد استقلالها ، وانفصمت عرى الوحدة التى كانت قائمة بين مصر وبين بلاد الشام ، وسقطت تبعية الحجاز لمصر بعد أن تحول شريف مكة بولائه نحو الدولة العثمانية ، وانتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة ، وخسرت مصر زعامة العالم الإسلامى ، وهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية .

انطوى الحكم العثمانى لمصر على عيوب كثيرة لا مراء فيها ، ولكنه لم يخل تماما من المزايا ، واستطاع الشعب المصرى أن يفيد من بعض تلك العيوب ومن هذه المزايا ، فاحتفظ وهو تحت الحكم العثمانى بصبغته العربية ، واستمسك بمقوماته الأساسية : اللغة ، الدين ، الثقافة ، التقاليد ، العادات . وكانت هذه المقومات من أهم العوامل فى المحافظة على الطابع العربى لمصر .

خصائص الحكم العثمانى لمصر

لم يحاول العثمانيون عثمنة الشعب المصرى ، أى صبغه بالصبغة العثمانية ، ولم يحاولوا ربطه بالحضارة العثمانية ، واكتفوا بالوشيجة الدينية الإسلامية . وكان للجيش فى الدولة العثمانية وظيفتان : الحرب ، والاشتراك فى الحكم ، وقد طبق العثمانيون هذا المبدأ بشقيه فى مصر ، فتقلد العسكريون المناصب القيادية فى شتى أجهزة الحكومة ، عدا المناصب القضائية .

ا — استعلاء وعزلة

عاش العثمانيون فى مصر طبقة حاكمة ، منعزلة عن الشعب المصرى ، طابعها الصلف والصرامة والاستعلاء . وتمثل هذا الطابع فى أساوب الحيـــاة الذى التزموه فى هذه البلاد ، وفى طريقة استيطانهم مصر ، فهم لم يختلطوا بالمصريين ، ولم يصهروا إليهم ، بل تقوقعوا اجتماعيا وجنسيا ، وأطلقوا على المصريين شتى الأسماء والنعوت ، مثل « الفلاحين » و « أولاد العرب» و«العرب» ولم يحدث امتزاج أو انصهار بين العثمانيين وبين المصريين ، وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة العرب حين انطلقوا من قاب الجزيرة العربية فى موجات بشرية متلاحقة ، فاتحين مبشرين برسالة الإسلام والعروبة ، فقد اقترب العرب من سكان البلاد الأصليين منذ نهاية القرن الثانى ، ومطلع القـــرن الثالث للهجرة ، واختلطوا بالمصريين ، وتزوجـــوا بالمصريات ، وانسابت الدماء العربية فى دماء سكان مصر ، وهى الظـــاهرة التى تسمى « التعريب الجنسى » ، وهكذا اتحـــدت ألسنتهم فى لغة واحدة ، واتحدت أرحامهم وأصلابهم ، واتحدت عاداتهم وتقاليدهم ، وتمت عملية الانصهار

بين العرب والمصريين على مدى أجيال متعاقبة . ومن المعروف أن عمليـات الانصهار والامتزاج والتفاعل والذوبان هى التى تبقى وهى التى تصنع التاريخ. وقد استطاع العرب تحويل مصر إلى بلاد عربية إسلامية . وكان شأن مصر فى هذا التحول شأن العراق والشام وشمالى أفريقيا وغيرها (١) .

ب — حكم غير مباشر

وإلى جانب الاستعلاء الذى كان سمة بارزة فى خلق العثمانيين ، كانت هناك عوامل أخرى ساعدت على انعزال العثمانيين عن الشعب المصرى . كان من بينها طبيعة الحكم العثمانى نفسه ، فقد كان حكما غير مباشر ، بمعنى أن العثمانيين فى حكمهم لمصر لم يتصلوا بالشعب المصرى اتصالا مباشرا . كان الملتزم فى الريف هو أداة الاتصال بين الحكومة وبين الفلاحين العاملين بدائرة

(١) كانت السياسة العليا للدولة الإسلامية فى خلال القرنين الأول والثانى للهجرة تقضى بأن تكون القوات المسلحة مقصورة على العنصر العربى . ففرضت على أفراد هـذه القوات أن يعيشـوا فى عزلة اجتماعية عن أهالى البلاد ، وأقامت لهم الدولة مدنا عربية أو معسكرات ، وحرمت عليهم ممارسة النشاط الاقتصادى ، وعينت لهم أرزاقا وأعطيات لإعانة أسرهم والإنفاق عليها . وعلى الرغم من هـذه القيود فقد حدث فى هذا الدور المبكر طلائع التزاوج بين المهاجرين العرب وبين السكان عن طريق السبايا أو الزواج بالكتابيات ونظام تعدد الزوجات ونظام التسرى . وقد أمعن الرجال العرب فى صدر الإسلام فى استخدام هـذه الرخص استكثاراً لعددهم . وقد بدأت الدولة تحيد بالتدريج عن تلك السياسة العليا فى العصر العباسى الأول لعدة اعتبارات ، كان من بينها : زيادة الأعباء على بيت المال واعتماد الخلفاء العباسيين على العنصر الفارسى ثم العنصر التركى ، حتى إذا تولى الخلافة المعتصم العباسى أسقط العرب من الديوان وقطع مرتباتهم ، وانساح العرب فى البلاد ومارسوا نشاطا اقتصاديا متعدد الأنواع .

التزامه[١]، وكان شيخ الطائفة فى المدينة بمثــابة ضابط الاتصال بين السلطات الحكومية وبين أفراد الطائفة[٢]، وبمضى الزمن ازداد نظام الالتزام رسوخا فى بنيان المجتمع فى مصر ، فكان الملتزمون طرائق قددا : فيهــم علماء الأزهر وكبار التجار وشيوخ العرب وأعضاء البيوت المملوكية وفيهم النساء أيضا. كما كثر عدد الطوائف كثرة مذهلة، فشملت جميع أصحاب المهن والحرف

(١) من الدراسات الرصينة والحديثة التى ظهرت عن نظام الالتزام فى مصر إبان الحكم العثمانى البحث الذى تقدم به ستانفورد شو Stanford J. Shaw الأستاذ المساعد فى التاريخ العثمانى بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديثة الذى عقــد فى ابريل ســنة ١٩٦٥ بجامعة لندن وكان عنــوان البحث Landholding and Land - tax Revenues in Ottoman Egypt. وقد جمعت الأبحاث التى نوقشت فى هذا المؤتمر فى مجلد تولى الإشراف على إخراجه الأستاذ هولت P.M. Holt أستاذ تاريخ العــالم العربى الحديث بجامعة لندن. وكان عنوان المجلد : Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic edited by P.M. Holt. London. 1968. وقد ظهر البحث المشار إليه فى ص ص ٩١ — ١٠٣ .

(٢) يطلق الأستاذ برنارد لويس على هــذه الطوائف اسم نقابات الحــرف craft guilds بينما يطلق عليها دكتور محمد فهمى لهيطة : الطوائف، ويسميها دكتور الجرتلى النقابات انظـــر :

Bernard Lewis; The Islamic Guilds.

وهو بحث منشور فى مجلة .

Economic History Review. London, vol. VIII, 1937, pp. 20 - 37.

دكتور محمــد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة . القاهــرة ، ١٩٤٤ ، ص ص ٢٩ — ٣١

دكتور على الجرتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ص ٢٢ — ٢٤.

وانظر أيضا .

دكتور حسن عثمان : تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧–١٧٩٨ ص ص ٢٧٢ — ٢٧٣ وهو دراســة مركزة ورصينة ظهرت فى مجلد بعنوان « المجمل فى التاريخ المصرى » ص ص ٢٣١ — ٢٨٤ وشارك فى وضعه بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة القاهــرة . ١٩٤٢ وهــذا المجلد يناول تاريخ مصر وحضارتها من أقدم العصور حتى المعاهدة المصرية الإنجليزية ١٩٣٦ واتفاقية مونتريه الخاصة بإلغاء الامتيازات الأجنبية .

البسيطة، بل والوضيعة كذلك. وارتاحت السلطات العثمانية لهذه النظم، لأنها كانت تحمل عنها عبء تحصيل الضرائب من الممولين، وتوفر عليها مشقة الاتصال بالجماهير. ونجم عن هذه النظم أن السلطات العثمانية لم تكن تتصـل بأحد من المصريين إلا عن طريق شيخ طائفته، وهى لاتعرف الفرد إلا مندرجا فى طائفة، وفى الوقت نفسه كان الفرد لايستطيع أن يمارس نشاطه الاقتصادى إلا إذا كان منتميا إلى طائفة يخضع لنظمها وتقاليدها وزعامتها ويحتمى بها [(١)]، ومن ناحية أخرى كان التصوف قد ازداد انتشاراً فى مصر بصـورة ساحقة بين المصريين إبان الحكم العثمانى، ومضى أرباب الطرق الصوفية يزاولون نشاطهم الدينى، ويمارسون سلطانهم على الأتباع والمريدين ومن إليهـم، ويوقعون على المذنبين منهم شتى العقوبات، دون تدخل من السلطات العثمانية [(٢)]. فكان المصرى يعيش ويمـوت دون أن تضطره ظروف حياته إلى الاتصال بالحـاكم العثمانى أو مواجهته. وكان الفلاح فى الريف يعرف الملتزم أكثر مما يعرف الكاشف [(٣)]، والصانع فى المدينة يتصل بشيخ طائفته، يلتمس منه الحماية

(١) الدكاترة محمـد بديع شريف وزكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهـرة، لم تذكر سنة الطبع، الاقتباس مأخوذ من الدراسة التى وضعها الدكتور عزت، ص ص ٥٢٨ — ٥٢٩ .

(٢) دكتور توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى . القاهرة، لم تذكر سنة الطبع . الناشر مكتبة الآداب بالجماميز، ص ص ١٠٨ — ١٤٠، ٢٠٠ — ٢٢٨ .

(٣) الكاشف مصطلح تاريخى معناه حاكم وحدة إقليمية تسمى كاشفية، وجمعها كاشفيات . والكاشفية تقل فى المساحة والأهمية عن الصنجقية التى يحكمها صنجق، وقد ينوب الكاشف عن الصنجق فى حكم الصنجقية إذا آثر الأخير البقاء فى القاهـرة مدة طويلـة . وقد حدد قانوننامه اختصاصات الكاشف . وأجازله فرض ضريبة تسمى « مال الكشوفية » على القرى لسد نفقات الإدارة المحلية لمرتب الكاشف ومرتبات العسكر المحليين وترميم الجسور وتزويد الجبه خانة-مستودع الذخيرة الحربية- بالبارود . ومن أهم الكاشفيات فى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر: دمنهور والمنصورة ومنوف والجيزة والفيوم والبهنسا والأشمونين ومنفلوط وطما وفرشوط والاقصر .

أو العون أو التوجيه الفنى ، والمجاور لا يعرف إلا شيوخ الأزهر الذين يقرأ عليهم، يذودون عنه ذيادا إذا ألم به حيف، والأعراب والبدو يدينون بالولاء لزعماء عشائرهم . وهكذا كان المجتمع المصرى نتيجة الحكم العثمانى غير المباشر يسوده نوع من التكتل فى طوائف وهيئات لها كيانها وتقاليدها واحترامها. وليس معنى هذا التكتل الطائفى أن المجتمع المصرى إبان الحكم العثمانى كان مجتمعا منحلا ، بل إن انتماء الجماهير فى الريف والحضر إلى مثل هذه الطوائف والهيئات قد جعل من كل طائفة وحدة تربط أفرادها صلات اجتماعية وثيقة ، ويسودهم التضامن فى السراء والضراء ، ويمارسون قدرا من الحرية فى حياتهم ولونا من ألوان الحكم الذاتى فى نطاق مهنتهم أو حرفتهم . كما كان يربط بين الطوائف جميعا شعور من الأخوة والمحبة فى عصر اتسمت الحياة العامة فيه بالهدوء والبساطة والزهد. كما ألفت بين الطوائف السياسة التعسفية التى كانت السلطات الحاكمة تلجأ اليها فى هذا العصر من فرض ضرائب جزافية وقروض إجبارية ومصادرات وما إلى ذلك من أنواع المظالم.

ج — قلة التدخل الحكومى

وهناك خصيصة أخرى من خصائص الحكم العثمانى ساعدت على دعم هذه الأوضاع ، وأدت إلى انعزال العثمانيين عن الشعب المصرى ، كان نشاط الحكومة محدودا جدا مارسته فى نطاق ضيق لم يتجاوز بضعة قطاعات معدودة مثل القضاء ، وجمع الضرائب ، والمحافظة على الأمن ، وتطهير الترع ، والإشراف على إعداد وتنظيم وحراسة قافلة الحج المصرى، وما تتطلبه من إعداد الكسوة الشريفة ، وإرسال الصرة ، وهى الأموال السائلة والعينية ، المرصودة على الحرمين الشريفين ، وأشراف الحجاز ، وفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتعيين أمير الحج وسردار الحج ، والقوة العسكرية المرافقة

للقافلة ، ولم يمتد نشاط الحكومة إلى قطاع التعليم أو الصحة أو المواصلات ، أو غير ذلك من مرافق الخدمات التى تنهض بها غالبية الدول الحديثة فى الوقت الحاضر ، وتتضح هذه الحقيقة من دراسة أوجه الإنفاق الحكومى فى مصر ، إبان الحكم العثمانى (١) . وإذا كان للنشاط الحكومى الضيق عيوبه التى لاشك فيها

(١) كانت وجوه الإنفاق الرئيسية هى الجزية السنوية وتسمى الخزنة ، ومعتادات الآستانة وتسمى الإرسالية ، واعتمادات الحجاز وتسمى الصرة ، ونفقات جيش الاحتلال العثمانى الذى كان يطلق عليه الحامية ، ثم مرتبات الباشا ، والدفتردار ، والروزنامجى ، والبكوات المماليك أمراء طبلخانة ، والكشاف ، والأفندية وهم الجهاز الكتابى فى الدواوين .

كما كانت ترصد اعتمادات مالية نذكر منها على سبيل المثال : شراء قلل فخارية ليشرب منها أعضاء ديوان الباشا فى أثناء انعقاد الجلسات ، وشراء القفاطين التى يقدمها الباشا لكبار الموظفين عند صدور فرمانات سلطانية أو ديوانية بتعيينهم فى مناصبهم أو بإسناد مهام كبرى إليهم كقيادة فرق عسكرية تشترك فى حروب السلطان . ويطلق المؤرخون على القفاطين وهو مصطلح تاريخى اسما حديثا هو أردية الشرف robes d'honneur وكانت من ثلاث درجات . كما كانت تدرج اعتمادات مالية لنقل ماء الشرب إلى السويس والعناية بالآبار فى منطقة الطور ، وصيانة السواقى بمصر القديمة ، ومرتبات لشيخ مقياس الروضة ونظار المحطات الصحراوية المتناثرة فى شبه جزيرة سيناء حتى العريش لاستبدال الخيول بغيرها كى يستخدمها الموظفون المنوط بهم نقل البريد الحكومى بين القاهرة والآستانة .

انظر المذكرة الضافية التى وضعها إستيف Estève عن مالية الحكومة المصرية فى العهد العثمانى بعنوان :

Mémoire sur les finances de l'Egypte, depuis sa conquête par le sultan Selym 1er, jusqu'à celle du général en chef Bonaparte, par M. le Comte Estève.

قد نشرت هذه المذكرة فى الجزء الثانى عشر ص ١ ٤ — ٨ ٢٤ من موسوعة

Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherchés qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée française. Séconde édition ,celle de Panckoucke, Paris, 1821 - 1829.

والمجموعة التى فى متناول الباحثين فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة هى الطبعة الثانية التى أشرنا إليها هنا ، وهى تتكون من ٢٦ جزءا ، وقد استقينا من هذه الطبعة المادة العلمية فى بحث بعض النقاط التى تتضمنها هذه الدراسة . ولذلك فان الإحالة فى هوامش الصفحات التالية من هذا البحث تشير إلى الطبعة الثانية .

حتى وصفه بعض الباحثين بأنه كان سطحيا متحرجا عن أن يتغلغل فى حياة الناس[1]، ولكن كان له مزاياه أيضا، ومن بينها أنه أتاح للمصريين قسطا كبيرا من الحرية ، والقدرة على التحرك وتكييف أوضاعهم الاجتماعية والثقافية بل والاقتصادية طبقا لمـــا ألفوه من تقاليد وعادات، وباعد بينهم وبين الخضوع للمؤثرات العثمانية على اختلاف صورها وأشكالها ، فاستمر المصريون يحيون الحياة التى ألفوها قبل دخـــول العثمانيين مصر ، ومضوا يستخدمون اللغة العربية فى أحاديثهم ومجتمعاتهم وفى ثقافتهم ، مما حفظ لمصر وجهها العربى ، وحال دون طمسه بصبغة عثمانية . وقنعت الدولة من مصر بالجزية السنوية تحمل إليها برا ، وبمعتادات الآستانة تنقـــل إليها بحرا كل عام[2] ، وبالأموال والغـــلال

= وانظر أيضا دراسة حديثة ظهرت عن التنظيم المالى والإدارى لمصر إبان الحكم العثمانى بعنوان :

Stanford J. Shaw; The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798. Princeton University Press ,Princeton. N.J. 1962, pp. 184 - 282.

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : المقدمة التى وضعها لكتاب « حوادث دمشق اليومية » ١١٥٤ — ١١٧٥ هـ (١٧٤١ — ١٧٦٢ م) ألفه الشيخ أحمد البديرى الحلاق ونقحه الشيخ محمد سعيد القاسمى وحققه ونشره الدكتور عزت ، من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٧ من المقدمة .

(٢) معتادات الآستانة مصطلح تاريخى معناه الهدايا التى كان يتعين على الحكومة المصرية إرسالها كل عام إلى السلطان وزوجاته وبعض أفراد أسرته ورجالات الباب العالى . وتتضمن كميات وفيرة من الأرز والسكر والبقول وماء الورد والشربات والعطور والعصافير والتوابل والأقمشة الحريرية الهندية والأقمشة الصوفية والجوخ . وكانت الحكومة المصرية تحصل على هذه الأصناف سواء من الأسواق المحلية أو الخارجيـــة أو من ملتزم منطقة دمياط أو من أمين جمرك البهار . وكانت معتادات الآستانة تتضمن أيضا الخيل والبغال والبارود للجيش العثمانى ، وخيوط القنب والأسلاك والشنابر الحديدية للأسطول، والقصدير لتنظيف الأوانى فى مطابخ القصور السلطانية . انظـــر :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols. Tome troisième. Le Caire, 1933. Première Partie, l'Egypte Ottomane de la conquête par Selim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). par Etienne Combe, pp. 73 - 74.

ترسل إلى الحجاز ، وقنعت أيضا بأن يذكر اسم السلطان على منابر المساجد، مقرونا بالدعاء له ، وبالعملة تضرب باسمه ، وبالباشا العثمانى نائبا للسلطان فى مصر ، وبجيش الاحتلال يرابط فى قلعة الجبل وبعض المواقع الأخرى، إلى غير ذلك من مظاهر السيادة ، ويلاحظ أن السياسة العليا للدولة العثمانية كانت تتجنب قدر الإمكان إحداث تغييرات جذرية فى حياة سكان الأقاليم المفتوحة ، فكانت السلطات العثمانية تبقى على الأنظمة التى تجدها ، والتى ألفها هؤلاء السكان ما لم تكن هذه الأنظمة تتعارض مع السيادة العثمانية ، فكان العثمانيون فى هذه الحالة يدخلون تعديلات تتمشى أو تخدم أو تساند « الوجود العثمانى » . وسنرى أن الأزهر قد استفاد من هــذه السياسة العليا التى انتهجتها الدولة العثمانية ، فلم يتدخل العثمانيون فى شئونه .

د — اهتمام بالجانب الدينى

والدولة العثمانية — فوق ذلك كله — دولة تيوقراطية un état théocratique أى دينية[1] . وكان للهيئة الإسلامية فى الآستانة مركز مرموق ووضع معترف به . وكان يطلق على رئيسها المفتى أو مفتى استانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شيخ الإسلام . وكانت الهيئات الدينية والقضائية كلها تخضع لنفوذه . وكان الســـلاطين حريصين على تدعيم سلطته ، وكانوا يعماون على استغلالها ، كلما حزبهم أمر ، أو أقدموا على مشروع خطير . ومما يذكر فى هذا الصدد أن السلطان سليم الأول اســـتصدر من مفتى اســـتانبول فتوى تجيز له محاربة المماليك ، على الرغم من أنهم مسلمون وسنيون كالعثمانيين سواء بسواء ، ولكنه استند إلى أن المماليك أيدوا الشيعة فى أثناء الحرب التى اندلعت بين

(١) من خصائص الدولة العثمانية أنها كانت دولة عسكرية ، وإقطاعية من نوع خاص، وطبقية، وتيوقراطية . وقد تعرضنا بالشرح لهذه الخصائص فى كتابنا : أوربا فى مطلع العصور الحديثة . الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، دار المعارف ، ص ص ٥٢٨ — ٥٤٣ .

السلطان سليم الأول وبين الشاه اسماعيل الصفوى . وكانت الأحكام فى الدولة تستند إلى الشريعة الإسلامية ، تمشيا مع روح العصر الذى كان يضع الدين فوق كل اعتبار آخر . وكانت الدولة تعمل من ناحيتها على تغذية العاطفة الدينية الإسلامية المشتعلة فى نفوس العثمانيين ، رغبة فى الإفادة منها فى دفع حركات التوسع العسكرى العثمانى فى أوروبا بوجه خاص ، وأملا فى القيام بالدور الذى قام به العرب فى صدر الإسلام . وكان الاتجاه الدينى ملحوظا فى سياسة الدولة العثمانية . كان المفتى يتمتع فى البروتوكول العثمانى بمركز يمتاز عن مركز رئيس الوزراء (١) والوزراء (٢) . وكانت المساجد العظيمة والعديدة التى أنشأها السلاطين فى الآستانة وأدرنة وغيرهما صدى لاهتمام السلاطين بمسايرة الشعور الدينى المتأجج فى نفوس الشعب ، ورغبتهم فى اكتساب قلوب الرعية عن طريق الدين . وكان يلحق بالمسجد الكبير الفخم منشآت خيرية من مطاعم مجانية وتكايا وأسبلة ومدارس ومكتبات ، حتى كان المسجد بملحقاته بمثابة وحدة مجمعة دينية خيرية . وكان من مظاهر الاتجاه الدينى فى سياسة الدولة تشجيع التصوف بين العثمانيين ، حتى قيل فى هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال

---

(١) كان رئيس الوزراء أو الوزير الأول فى الدولة العثمانية يطلق عليه « أولو وزير » ولماتولى السلطان سليمان المشرع عرش الدولة (١٥٢٠ — ١٥٦٦) أطلق عليه لقب «الصدر الأعظم» .

(٢) حين يذهب المفتى للمثول بين يدى السلطان يخف هذا لاستقباله متقدما سبع خطوات بينما لم يكن يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح للمفتى بتقبيل كتف السلطان ، بينما كان لايسمح لكبير الوزراء إلا بلثم ذيل ثوبه .

انظر :

محمد جميل بيهم : العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب . ١٩٥٧ ، ص ص ١٢٤ — ١٢٥ (لم يذكر اسم المدينة أو الدولة التى طبع فيها الكتاب ، والرأى الغالب أنه طبع فى بيروت شأن كل كتب هذا المؤلف) .

الدولة ، وظهر أيضا نظام الفتوة ينضوى تحت لوائه شبان غير متزوجين ، عرفوا باسم « جماعات الإخوان » . وكان السلاطين فى مجموعهم يقربون إليهم علماء الدين والأتقياء . وكان العـالم المتخصص فى الشريعة الإسلامية وأصـول الدين يظفر بتقدير عميق من الحكام والمحكومين على السـواء .

وانعكس هذا الطابع الدينى للدولة العثمانية على سياستها فى مصر ، فقد اهتمت اهتماما بالغا بالمحافظة على التقاليد الإسلامية وإقامة الاحتفالات فى المناسبات الدينية ، واهتمت بالمساجد ، وكان الأزهر فى مقدمتها. وسنرى فى موطن قادم من هـذه الدراسـة مظاهر الاحترام العميق الذى أبداه العثمانيون للأزهر وعلمائه . واهتمت الدولة أيضا بإعداد الكسـوة الشريفة التى ترسـل إلى الحجاز ، وإرسال « الصرة » وهى الأموال السائلة المرصودة على الحـرمين الشريفين وأشراف الحجاز (١) . وكان جزء من هذه الأموال – كما ذكرنا من قبل – مخصصاً لفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وإرسال الغلال من السويس أو القصير إلى جـدة أو ينبع ، وكذلك تعيين أمير الحج وسردار الحج والقوة العسكرية المرافقة . والجبرتى المؤرخ – كأحد كبار رجال الفكر الإسلامى – يستهويه الطابع الدينى البـارز فى سياسة الدولة العثمانيـة ، فيتكلم بإعجاب وفى عبارات مسجعة عن اهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقـوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم المالك والمملوك » (٢) .

(١) كان يطلق على مخصصات أشراف الحجاز المصطلح التاريخى « تعيينات الأشراف »

(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . القاهـرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ أربعة أجزاء ، ج ١ ، ص ٢١ .

في ظل هذه الدولة العثمانية ذات الطابع الديني الإسلامي البارز في سياستها، وفي ظل نظم الحكم التي التزم بها العثمانيون في حكم مصر، مضى الأزهر يؤدي رسالته باللغة العربية في الحقلين الديني والتعليمي، استمراراً للحياة الدينية العلمية الخصبة التي عرفت بها من قبل. وقد بلغ أثره في الحياة المصرية من القوة والعمق والذيوع ماجعله يحافظ على الطابع العربي لمصر طوال الحكم العثماني، وهي فترة امتدت قرابة ثلاثة قرون حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات تعدت جدرانه إلى الحياة العامة في مصر كلها؛ ووجدت الحملة أن الأزهر معقل رئيسي للمقاومة استطاع أن يقود ثورة رائدة في وجه أول غزو أوروبي عسكري لإقليم عربي في التاريخ الحديث.

وقد أسهمت عدة عوامل في نجاح الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني، كان من بينها :

اولا : عدم تدخل العثمانيين في شئون الأزهر :

فرضت الدولة العثمانية اللغة التركية لغة رسمية في دواوين الحكومة في مصر. وكانت هذه الدواوين قليلة العدد إلى حد بعيد[1]. والتزمت الدولة بفلسفتها في الحكم والتي كانت تتلخص — كما ذكرنا — في أن يكون التدخل الحكومي في حياة الجماهير ضيقاً محصورا في نطاق محدود لايتجاوز بضعة قطاعات. وتمشيا مع هذه السياسة لم يتدخل العثمانيون في شئون الأزهر ولم يجعلوا من التركية لغة الدراسة في الأزهر، ولم يفرضوا علية الدراسات التركية سواء الدراسات اللغوية أو الأدبية من نحو وصرف وبلاغة وفقه اللغة التركية والأدب التركي وتاريخه. ولم يفرضوا عليه أيضا دراسة الحضارة

(١) كان أهم هذه الدواوين : ديوان الباشا، والديوان الدفترى، وديوان الروزنامه

التركية والفكر التركى. ومهما قيل إنه لم يكن للأتراك العثمانيين رصيد حضارى متفوق يلقنونه للعرب ، فإنهم كانوا بحكم الاحتلال أصحاب القدرة على تتريك الدراسات الأزهرية . ولكنهم التزموا بتقاليدهم فى حكم البلاد المفتوحة ، فلم يزجوا بأنفسهم فى شئون الأزهر . وقد التزموا بهذه السياسة التزاما دقيقا . وتعددت مظاهر هذه السياسة . كما سنرى فى موطن قادم فى هذه الدراسة . وتمشياً مع فلسفة الحكم العثمانى لم تقم السلطات العثمانية بإنشاء معاهد أو مدارس لتعليم اللغة التركية ونشرها . ولم تكن قد عرفت بعد وسائل الإعلام الحديثة كالصحافة والإذاعة والتليفزيون وغيرها ، وعلى ذلك ظلت اللغة التركية بعيدة عن أسماع الجماهير . وكانت وسيلة الإعلام الرسمية على الصعيد الجماهيرى تتمثل فى قراءة الفرمانات السلطانية والديوانية فى الجامع الأزهر بعد ترجمتها إلى اللغة العربية من التركية[1]، كما كانت تتلى هذه الفرمانات فى خان الخليلى كوسيلة إعلامية للتجار ومن إليهم . ولم يحاول المصريون من ناحيتهم تعلم اللغة التركية سواء بدافع ذاتى أو جرياً وراء مغانم يظفرون بها.

ظاهرة صحية :

ومن الملاحظات ذات المغزى العميق والتى ذكرها نابليون الأول فى مذكراته التى أملاها وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجنرال برتران Bertrand ، قوله إنه لما جاء إلى مصر قائدا عاما للحملة الفرنسية ، وجد أن المصريين لا يتكلمون اللغة التركية وأنهم يجهلونها ، وأن هذه اللغة

---

(1) Stanford J. Shaw; Ottoman Egypt in the Eighteenth Century The Nizâmnâme - i Misir of Cezzar Ahmed Pasha. Edited and translated from the Original Turkish by Stanford J. Shaw. Harvard, 1962. Distributed for the Center for Middle Eastern Studies of Harvard University. Harvard Middle Eastern Monographs, VII, p. 38.

كانت غريبة عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غريبة عليهم سواء بسواء [1]. ومن المعروف أن بونابرت جاء إلى مصر بعد مضى ٢٨٢ سنة على دخول السلطان سليم الأول مصرفى ينـاير ١٥١٧ ، ومعنى هـذا أن اللغة التركية لم تنتشر بين الشعب المصرى بعد انقضاء مايقرب من ثلاثة قرون على الحكم العثمانى. وهى ظاهرة صحية تدل على أصالة الطابع العربى لمصر. وقد عانى الشعب المصرى إرهاصات عديدة، وتراءى للبعض أنه استكان للطغيان، ولكنه صمد له وقاوم ألوان الظلم مقاومة سابية حينا ، وبالثورة الهادئة حينا آخر، وبالثورة الصاخبة حينا ثالثا. وكان الأزهر هو مصدر حركات مقاومة الظلم يغذيها ويتصدرها ، كما كان الأزهر معقل اللغة العربية ، درأ عنها اللغة التركية واستطاع أن يردها عن التسلل إلى المجتمع المصرى .

ثانيا : الاستقلال المـالى للأزهر

كان الاستقلال المـالى للأزهر فى مقدمة العوامل التى أسهمت فى نجاح الأزهر فى الحفاظ على الطابع العـربى لمصر. فقد كان الأزهر يتمتع باستقلال مالى عن الحكومة بفضل حصيلة الأوقاف التى حبسها عليـه الخيرون من أهل البذل ، ليؤدى رسالته الإسلامية العربية نشرا وتعليما . وكانت هذه الأوقاف تدر الخـير على علمائه وطلابه ، وجعلتهم فى غناء عن عون مالى تقدمه لهم الحكومة ، ويعتمدون عليه فى معيشتهم ، ويقـرر جومار Jomard أحد أعضاء بعثـة العلوم والفنون التى صحبها بوناپرت فى حملته على مصر ، وأحد أعضاء مجمع مصر العلمى L'Institut d'Egypte أنه كانت للأزهر موارد

(1) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie 1798-1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par Généralel Bertrand. Paris. 1847, 2 vols. t. II. p. 151.

مالية ضخمة ، وأن شطرا كبيرا منهـــا ينفق على التعليم الجامعى الذى يمارس فى رحاب الجامع وعلى تمويل المكتبة به (١) :

وفى ظل هذا الاستقلال المـــالى عاش الأزهر بعيدا عن الخضوع النفوذ العثمانيين ، فلم يعرف عنـــه طوال الحكم العثمانى أنه واكب الحكام العثمانيين فى اتجاهاتهم أو فى نزعاتهم ، بل عاش علماء الأزهر وطلابه معززين مكرمين ، بمنأى عن الخضوع للباشا العثمانى ، أو العسكريين العثمانيين ومن إليهم من أدوات الحكم العثمانى ، وكان لمشايخ الأزهر الجـــرأة عند اشتداد الخطوب بالشعب ، فى أن ينـــذروا الحكام ويتهددونهم بتأليب الشعب عليهم إذا بدا من الحكام إهمال لنصحهم ، أو رفضوا الاســـتجابة لوساطتهم . واستطاع علماء الأزهر فى حالات عديدة إسداء هـــذه المعونة للشعب الذى التف حولهم يلجأ إليهم ، ويرجو منهم التوسط لدى الحكام لرفع المظالم عنه : وقد ترتب على هذا الوضع المـــالى المستقل للأزهر أن مارس علماؤه حرية مطلقـــة فى اختيار الدراسات والبحوث ، والموضوعات التى تلقى على الطلاب فى الحلق الدراسية وفى انتقاء الكتب التى يقرأها الأساتذة على طلابهم ، دون أن يخضعوا أنفسهم أوطلابهم أوجامعتهم العتيدة لرقابة الحكومة أوتوجيهها أو إشرافها . وأهم من ذلك كله :

(١) انظر بحثه الذى نشر بعنوان :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire, accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (sic), sur sa distribution, ses monumens (sic), sa population, son commerce et son industrie.

فى موســـوعة :

Description de l'Egypte; op. cit., t. XVIII, deuxième partie, pp. 113-538.

ظلت الدراسات والمراجع والكتب كلها باللغة العربية استمراراً وتدعيما للمركز الانفرادى الذى كانت تشغله لغة القرآن فى الحياة العلمية فى الأزهر قبل دخول العثمانيين مصر . فمضت العربية دون سواها لغة الدراسة فى هذه الجامعة . ونجم عن هذه الحرية التى تمتع بها الأزهر أن كانت اللغـة التركية بعيدة عن الأزهر وعن حياته العلمية . فكانت الحـرية بأوسع معانيها هى الطابع الذى ميز الأزهر إبان الحكم العثمانى ، مما أضفى عليه شخصية عربية أصيلة ومستقلة ، لها كيانها واحترامها وهيبتها فى نفوس الحكام والمحكومين على السواء :

كانت تدرس فى الأزهر إبان الحكم العثمانى علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة العربية وآدابها ، وما يتصل بهـا من بلاغة ونحـو وصرف ، ثم علم الفلك وكان يسمى علم الهيئة ، إلى جانب علوم أخرى كانت تدرس فى نطاق ضيق وهى الطبيعة والأحياء ، وكان يطلق عليها علم المواليد ، والرياضيات من حساب وهندسة وجبر (١) :

وعلى هـذا النحو ظل الأزهر طوال الحكم العثمانى يؤدى رسـالته باللغة العربية التى ظلت لغة الثقافة ولغة الجماهير معا ، وظل طابع مصر هو الطابع العربى الأصيل :

---

(١) انظر ترجمة الشيخ أحمـد بن عبد المنعم الدمنهورى شيخ الجامع الأزهر ١١٨٢ — ١١٩٠ هـ = ١٧٦٧ — ١٧٧٦ م فى الجبرتى ج ٢ ، ص ص ٢٥ — ٢٧ ويذكره هذا المؤرخ بين وفيات سنة ١١٩٢ هـ

وتوجد مخطوطة محفوظة تحت رقم ٢٣٢ تاريخ بمكتبة رفاعة الطهطاوى فى مدينة سوهاج تحت اسم اللطائف النورية فى المنح الدمنهورية لشهاب الدين الشيخ أحمـد الدمنهورى .

وهـذه المخطوطه عبارة عن سجل لإجازات الشيخ الدمنهورى والعلوم التى تلقاها عن شيوخه والمؤلفات التى وضعها . وتقع هـذه المخطوطة فى ١٠٢ صفحة من القطع المتوسط.

وانظر أيضا سند الشيخ الدمنهورى فى : الأزهر تاريخه وتطوره . صادر عن وزارة الأوقاف وشئون الأزهر . القاهـرة ١٣٨٣هـ١٩٦٤م . مقدمة الكتاب بقلم الأستاذ الدكتور محمد البهى ص ط.

ثالثا : المركز الانفرادى للأزهر

ولم يكن فى مصر إبان الحكم العثمانى معاهد تنافس الأزهر فى نشر الثقافة الدينية العلمية الإسلامية العليا أو تدانية سواء فى شهرته التى طبقت أرجاء العالم الإسلامى أو فى رسوخ قدمه فى مجالات الدراسات الإسلامية العليا ، لأن المدارس والمعاهد التى كانت قائمة مزدهرة فى القاهـــرة على عهد الأيوبيين والمماليك قـــد أصابها الاضطراب وتلاشـــت مواردها وفقدت ماكانت تظفر به من رعاية السلاطين ، وغدت هذه المدارس والمعاهد آثارا دارسة [1] ، وفى العصر العثمانى كان عدد المدارس ذات المستوى الرفيع يقرب من العشرين مدرسة موزعة على سائر مدن مصر فى الوجهين البحرى والقبلى [2] . وكانت هذه المدارس تقوم فى رحاب المساجد الكبرى أو تلحق بها ، ويطلق البعض عليها [3] College mosques أى كليات قائمة فى المساجد . وكانت الدراسة تسير فيها على نمط الدراسة فى الأزهر وإن كانت أدنى فى مستواها العلمى من مستوى الدراسة فى الأزهر . وقد أسس الأثرياء هذه المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف زلفى إلى الله . وكان يجلس للتدريس فيها شيوخ ممن درسوا فى الأزهر ثم عادوا إلى بلادهم يشتغلون بالتدريس فى هذه المدارس على مقربة من ذويهم

(١) على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهـــرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ — ١٨٨٩) ، ٢٠ جزءا . ج ١ ، ص ص ٨٧ — ٨٨

(٢) انظر البحث الذى تقدم به المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال إلى مؤتمر لندن لتاريخ مصر الحديثة فى أبريل ١٩٦٥ والذى سبقت الإشارة إليه فى هامش رقم ١ ص ٦٨٠ فى هذه الدراسة ، وكان عنوان البحث

Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-century Egypt.

وقد نشر هـــذا البحث فى السنة التالية لوفاة هـــذا العالم المحقق الجليل الذى جاز إلى ربه فى أول نوفمبر ١٩٦٧ ، وقد ظهر المجلد الذى ضم أبحاث المؤتمر فى سنة ١٩٦٨ .

انظر البحث فى ص ص ١١٧ — ١٣٢

(3) Loc. cit.

ويباشرون مصالحهم العائلية : وكان من أشهر هذه المدارس وأوفرها نشاطاً تلك التي قامت في طنطا ودسوق والإسكندرية ودمياط ورشيد والمنصورة والمحلة الكبرى، وكان من أبرز مدارس الوجه القبلي مدارس قوص وقنا وطهطا : وكان الطلاب النابهون في تلك المدارس يلتحقون بالأزهر :

أما في القرى فكانت الكتاتيب تعد فتيتها إما لدخول الأزهر ، وإما الثقافة بسيطة قوامها حفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم مع قدر يسير من الحساب والإملاء . وكان يقوم على شأن الكتاتيب « فقهاء» أنفقوا بالأزهر شطراً من حياتهم أو تلقوا العلم في إحدى المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى على يد متخرج في الأزهر . فكان التعليم في مصر مستمدا من الأزهر[1] . وكانت المدارس والكتاتيب بمثابة أفرع صغيرة من الدوحه الكبرى يستظل طلاب العلم بظلها الظليل . وهكذا عاش الأزهر طوال العصر العثماني الموطن المبروز للثقافة العليا في مصر بل كان بمثابة الجامعة الأم في العاصمة[2] .

وقد نجم عن هـذا المركز الانفرادي الممتاز الذي كان للأزهر إبان الحكم العثماني في مجالات الثقـافة الدينية العلمية الإسلامية أن أصبحت له القيـادة العلمية والفكرية في مصر وفي سائر أنحاء العـالم العربي والإسلامي ، وكان علماء الأزهر هم العلماء المبرزين في علوم اللغة العربية وآدابها ، وفي العلوم الدينية .

(١) دكتور أحمـد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمـد علي . القاهـرة ، ١٩٣٨ ، ص ص ٤ – ١٨ ، ٥٥٥ – ٥٥٧ .

(2) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey, et suivis du récit des événemens (sic) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohamned-Ali. Paris. 1830-1836. 10 vols., t.II,p. 234.

رابعا : التحام الأزهر بالجماهير

ومما ساعد الأزهر على الحفاظ على الطابع العربى لمصر أن الالتحام كان قائما أشد ما يكون إبان الحكم العثمانى بين الأزهر وبين جماهير الشعب المصرى : كانت عواطف جميع المصريين فى ذلك العصر مشدودة إلى الأزهر باعتباره المركز المرموق للإشعاع الفكرى فى مصر شخصوا إليه بأبصارهم وبعثوا إليه بأبنائهم لينالوا فى رحابه حظا موفورا من الثقافة الدينية العلمية الإسلامية كانت تضفى عليهم فى المجتمع مركزا مرموقا ومهابة ووجاهة. وبذلك أتيح للأزهر مناخ صحى لأداء رسالته دون أن يلقى منافسة مشروعة أو غير مشروعة من مؤسسات تعليمية تعاقب إنشاؤها فى مصر منذ العشرينات من القرن التاسع عشر بعد أن أسس محمد على « الدولة الحديثة »، وأدخل هو وخلفاؤه الأساليب الغربية فى الحياة المصرية أو مايسمى Westernization وأنشأوا عددا وافرا من المدارس العليا لتلقين الشبيبة المصرية العلوم الحديثة أو العلوم النفعية كما يسميها البعض. فأنشئت مدارس الطب البشرى والهندسة والزراعة والطب البيطرى والصيدلة والألسن والكيمياء والمحاسبة والمعادن وماإليها (١) فضلا عن المدارس العسكرية ، وكانت الحكومة المصرية تنتزع الطلبة قسراً

(١) انظر عرضاً ضافياً لهذه المدارس وملابسات إنشائها وبرامج الدراسة فيها وهيئات التدريس بها فى مؤلفات الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم التعليمية :

تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨٢ — ٩٢ ، ١٣٧ — ١٤٠ ، ١٥٥ — ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٩٢ — ٢١٩ ، ٢٢١ — ٢٤١ ، ٢٥١ — ٤٢١ .

تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨ — ١٨٨٢ .القاهرة ١٩٤٥ .

الجزء الأول : عصر عباس الأول وسعيد ١٨٤٨ — ١٨٦٣

ص ص ٤٨ — ١٢٣ ، ١٩١ — ٢٤٢

الجزء الثانى : عصر اسماعيل والسنوات المتصلة به من حكم توفيق ١٨٦٣ — ١٨٨٢

ص ص ١٦٧ — ٣٢٥ ، ٣٩٧ — ٦٨٧ ، ٨٢١ — ٨٧٥ .

أول الأمر من عائلاتهم ، وتبعث بهم إلى مدارسها حيث تقوم على تربيتهم وتعليمهم وتقدم لهم بالمجان المـأكل والملبس وتؤويهم فى مدارسها ليلا ونهارا وتعطيهم « مصروفهم » فى أول كل شهر ، بل تقوم بختان من لم يختتن منهم (١) . وبمضى الزمن انتشر الوعى التعليمى وأخذت العائلات المصرية تبعث بأبنائها إلى المعاهد الحديثة استجلابا للمستقبل الزاهر والرزق الرغيد والمركز الاجتماعى المرموق وفرص إيفادهم فى بعثات علمية إلى أوروبا وغير ذلك من امتيازات كانت أو كادت تكون مقصورة على خريجى المدارس الحديثة : ومن ثم توزعت عواطف المصريين بين الأزهر وبين هذه المدارس . ولم يكن لهـذا التوزع فى عواطف المصريين وجود أو مقتضى إبان الحكم العثمانى ، لأن الأزهر كان القبلة العلمية الرئيسية الوحيدة . ولذلك كان التعاطف والتقدير فى أسمى درجاتهما يربطان الأزهر بالمصريين على بكرة أبيهم . ولعل هـذا المركز الانفرادى الممتاز للأزهر هو منشأ العبارة التى ترددت على الألسنة قائلة إن للمسلمين قبلتين : قبلة دينية هى الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة ، وقبلة علمية هى الأزهر الشريف فى القاهرة .

---

(١) كان من أسباب إعراض العائلات عن إرسال أبنائها إلى المدارس الحديثة أن فكرة التعليم فى هذه المدارس اختلطت فى أذهان المصريين بالجندية ، لأنهم كانوا يرون رجال الحكومة يجمعون الأولاد كما يجمعون الشبان سواء بسواء ، ويذهبون بهم إلى حيث لا يعودون إلا بعد وقت طويل ، وحين تشاء الحكومة . وكانوا يرون أن هذه المدارس يقوم فيها نظام عسكرى صارم ، بحيث كانت فى أول أمرها أقرب إلى الثكنات العسكرية منها إلى المؤسسات التعليمية . فالمدارس يحرسها الجنود يمنعون دخول أحد إليها ، وكان التلاميـذ يخضعون للنظام العسكرى : ينهضون من النوم على صوت الطبل أو البـوق (البروجى) يدوى فى أنحاء المدرسـة ، وكذلك الشأن فى ذهابهم إلى أماكن الدرس أو حجرات الطعام ، يسيرون فى نظام عسكرى ، ويؤدون التحية العسكرية للمدرسين ، وللطلبة ذوى الرتب العسكرية ، وكان الأخيرون يشتركون فى « ضبط التلاميذ وربطهم » ، وكان منهم الباشجاويش ، والجاويش ، والأونباشى .

انظر : دكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٥٧ — ٤٦٠ .

والأزهر — وهذا شأنه دائما — لم يكن يوصد أبوابه فى وجوه أبناء الشعب الراغبين فى الالتحاق به ، فضلا عن أبناء شعوب الأمة الإسلامية ، ولم يؤثر الأزهر فريقا على فريق بسبب الفروق الاجتماعية أو الاقتصادية ، فلم يعرف الأزهر فى تاريخه الحافل نظام الطبقية بين طلبته ، كما أنه لم يمارس نظام التفرقة العنصرية . كانت الديمقراطية بأوسع معانيها هى التى اتسم بها الأزهر فى قبول الدارسين به . وترتبت على هذه الديمقراطية نتيجة هامة هى أن علماء الأزهر وطلابه لم يكونوا يشكلون طبقة منعزلة عن الشعب ، يحتكرون لأنفسهم العلم ، أو يأنفون من الاختلاط بالشعب . وكانوا فى هذا السلوك الاجتماعى على عكس العثمانيين والمماليك الذين كانوا يتعالون على الشعب . وكان فى استطاعة رجل الشارع أن يقابل أكبر عالم فى الأزهر ، وتتم المقابلة فى سهولة وبساطة لا تقف فى سبيلها عقبات شكلية أو رسمية . وكان علماء الأزهر يجلسون إلى إخوانهم المصريين فى المساجد بالقاهرة ، وطنطا ، ودسوق ، والإسكندرية وغيرها ، يفقهونهم فى أمور دينهم ودنياهم ، ويبسطون لهم ما قد يشكل عليهم فهمه من دقائق المعاملات المدنية ، وهكذا لم تنقطع الأسباب بين الجماهير وبين الثقافة العربية تمثلها رجال الأزهر .

خامسا : قيام الزعامة الشعبية فى علماء الأزهر

كان علماء الأزهر — أو الغالبية العظمى منهم بتعبير أكثر دقة — قد ضربوا المثل الأعلى فى الورع والتقوى والزهد والبر والإيثار والتواضع والترفع عن الصغائر ، كما عكفوا على الاشتغال بأمور الدين والتعمق فى الدراسات العربية الإسلامية والتزموا فى حياتهم بالكتاب والسنة قولا وعملا ، وأسلوبا ومنهاجا ، فاجتمع فيهم الدين والعلم والخلق ، وظفروا بمحبة وتقدير الشعب وتبوأوا مكانا عليا فى المجتمع المصرى .

ولئن كان المجتمع المصرى قد اتسم بالطابع الدينى فى العهود السابقة على الحكم العثمانى ، فقـد غدا هـذا الطابع الدينى أكثر وضوحا وبروزا أيام العثمانيين . وكانت الحضارة فى مصر على عهدهم حضارة دينية . كان الشعب المصرى لايعرف علوما أسمى من علوم الدين ، ولا يرى ثقافة أحرى بالدراسة من الثقافة الدينية ، ولا رجالا أجدر بقيادته فى حياته الدينية والدنيوية من علماء الدين : وكان تشبع المجتمع المصرى بهذه الآراء من الأسباب التى أعانت على انعقاد الزعامة الشعبية لعلماء الأزهر .

ومن العوامل الهامة التى أدت إلى قيام الزعامة الشعبية فيهم أن العثمانيين والمماليك كانوا يجهلون اللغة العربية إلا من ندر بينهم (١) . فكان الحاكمون والمحكومون يشكلون مجموعتين بشريتين مختلفتين من الناحية الإثنوجرافية ومن الناحية اللغوية . وقد نجم عن هذه الازدواجية فى المجتمع القائم فى مصر وقتذاك أن وجـدت فجوة بين هاتين المجموعتين ، وكان علماء الأزهر بمثابة الجسر الذى يصل بينهما .

"The 'Ulamā' in Egypt held a special position by virtue of the Mamluk system of rule, and by virtue of the fact that rulers and ruled formed different ethnic and linguistic units. There was a gap between the gorups, and the 'Ulamā' supplied the bridge that filled that gap." (٢)

---

(١) الجبرتى ج ٤ ، ص ٤٩ ، وكان يتكلم عن دور علماء الأزهر فى مفاوضات الصلح بين محمد على وبين الأمراء المماليك المعتصمين فى الوجه القبلى فى أثناء الحملة البريطانية بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser على مصر سنة ١٨٠٧ ، وقد اصطحب علماء الأزهر فى رحلتهم إلى الصعيد للتفاوض مع الأمراء المماليك بعض المترجمين ، لينقلوا أقوالهم من التركية إلى العربية .

(٢) انظر البحث الذى تقدمت به الدكتورة عفاف لطفى السيد إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديثة الذى عقد فى لندن فى أبريل ١٩٦٥ وكان موضوع بحثها :

The Role of the 'Ulamā' in Egypt during the early nineteenth century.

« دور العلماء فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » . والنص المذكور فى المتن مأخوذ من الجزء الذى جاء فى بحثها خاصاً بمصر فى العصر العثمانى المملوكى ، وقد نشر بحثها فى مجلد أبحاث المؤتمر . انظر :

Holt P. M. ; Political etc, ouvr. cit., pp. 264-280.

وكانت نظم الحكم التى أشرنا إليها فى مستهل هذه الدراسة سببا آخر فى قيام الزعامة الشعبية فى علماء الأزهر ، لأن تلك النظم كانت تحول دون الاتصال المباشر بين الشعب وحكامه : ولم يجد المصريون ملجأ يفزعون إليه فى أثناء المحن التى كانت تنزل بهم من يمين ويسار سوى علماء الأزهر ينشدون وساطتهم لدى السلطات الحاكمة لرفع المظالم عنهم أو الحد منها. واستطاع المشايخ فى حالات عديدة إسداء هذه المعونة إلى جموع الشعب . ومما هو جدير بالذكر أنه كانت توجد فى مصر فى العصر العثمانى ثلاث قوى شعبية لها أثرها وخطرها ونفوذها الروحى أو المادى : علماء الأزهر ، ومشايخ الطرق الصوفية ، وشيوخ طوائف الحرف . وكانت القوة الثالثة وثيقة الصلة بالقوتين الأولين. وكان شيوخ طوائف الحرف يتخذون من الجامع الأزهر ومن المساجد الكبرى فى القاهرة مكانا مختاراً يباشرون فيه اختصاصاتهم فى أوقات محددة. وكان لهم دورهام فى توجيه الحشود الشعبية الثائرة نحو علماء الأزهر ينشدون منهم التدخل لدى الحكام :

وجاءت تقاليد الدولة العثمانية فساعدت على تأكيد زعامة علماء الأزهر ، فمن خصائص هذه الدولة — كما ذكرنا — أنها كانت دولة دينية : وحرصت السلطات الحاكمة فى مصر على الاحتفاظ بمظاهر التمسك بالدين : وفى مقدمة هــذه المظاهر إضفاء الاحترام والتبجيل على رجال الدين وهم علماء الأزهر ، وكان من دلائل هــذا الاحترام قبول وساطتهم وشفاعتهم (١) : وفى ظل هذه التقاليد ازدادت مكانة علماء الأزهر سموا ، واستطاعوا التدخل لدى الحكام دفاعا عن مصالح الشعب . يذكر الجبرتى أن وفداً من العلماء على رأسه الشيخ

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ — ١٨١١) ، القاهرة : ١٩٥٨ ، ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، صص ١١٢٧ — ١١٢٩ .

عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر (١٧٢٥ — ١٧٥٧) صعد إلى القلعة وقابل أحمـــد باشا كور الوالى العثمانى[١] .وكان مما قاله الشيخ الشبراوى للباشا « نحن المتصدرون لخدمتهم (أى المصريين) وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام »[٢] .

وكان الأمراء المماليك يخشون جانب العلماء على الرغم من جبروت المماليك وعتوهم ، لأنه كان لعلماء الأزهر فى ذلك العصر من الشجاعة الأدبية والجرأة فى الحق والعزوف عن تملق الحكام أو مواكبتهم ماجعلهم يتهددون البكوات المماليك بتأليب « الرعية » عليهم إذا لم يستجيبوا لوساطتهم وقد بلغ من اعتدادهم بأنفسهم أن الشيخ سليمان مصطفى المنصورى المتوفى سنة ١١٦٩ هـ ، ١٧٥٦م —ويصفه الجبرتى بأنه «أحد الصدور المشار إليهم»— تحدى السلطان وأعلن رسميا فى مواجهة قاضى القضاة العثمانى أنه لن ينفذ أمراً أصدره السلطان لأنه مخالف لأحكام الشريعة « ولايجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك[٣] » .

ولمـــا قدمت الحملة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزايرلى إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك خشى ابراهيم بك كبير الأمراء أن يقوم المصريون بثورة عارمة ضد المماليك منتهزين هذه الفرصة : ومن أجل القضاء على هـــذا الخطر المحتمل طاف ابراهيم بك على علماء الأزهر فى دورهم مستعطفا . يقول الجبرتى « وركب ابراهيم بك فى ذلك اليوم (الأحد ٣ شوال ١٢٠٠ ، ٣٠ يوليو ١٧٨٦) وذهب إلى الشيخ البكرى (نقيب الأشراف) وعيد عليه ، ثم إلى الشيخ العروسى (شيخ الجامع الأزهر) ، والشيخ الدردير (أحد كبار العلماء وشيخ رواق الصعايدة) ، وصار يحكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جدا ، وأوصاهم

(١) سبب تسميته كور أنه كان فى عينيه حول ، فعرف باسم كور وزير .
(٢) الجبرتى ، ج ١ ، ص ١٨٧ .
(٣) نفس المصدر ص ١٤٨ .

على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثوه أو قومة أو حركة فى مثل هـذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جدا ، وخصوصا لما أشيع أمر الفرمانات التى أرسلها الباشا للمشايخ وتسامع بهـا الناس »(١). ويقرر أحد الأساتذة الفرنسيين أنه كان هناك مايبرر المخاوف التى انتابت ابراهيم بك من قيام « الرعية » بثورة(٢) ولكن يهمنا فى هذه الدراسة أن نقرر أن تصرفات الأمير ابراهيم بك على هذا النحو كانت تعتبر اعترافا منه بالزعامة الشعبية التى انعقدت لعلماء الأزهر ، وأنه لم يجد فى هذا الوقت العصيب أحداً يلوذ به سوى رجال الأزهر. ولمـا شرع حسن باشا الجزايرلى فى بيع نساء المماليك وأولادهم الذين ظلوا فى القاهرة وعرضهم فى السوق ، وقف فى وجهه الشيخ محمد السادات وأغلظ له فى القول . وكان مما قاله لهذا القائد «هل أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم؟ » فرد عليه الجزايرلى باشا قائلا « هؤلاء أرقاء لبيت المـال» فأجابه الشيخ السادات «هذا لايجوز ، ولم يقل به أحد». وكان الأمير الكبير ابراهيم بك قـد أودع عند الشيخ السادات وديعة ، وعلم حسن باشا الجزايرلى بأمرها فأرسل مندوبا ليتسلمها وامتنع الشيخ السادات قائلا إن صاحبها لم يمت وإن أسلمها ما دام صاحبها على قيد الحياة :

---

(١) الجبرتى . ج ٢ ص ١١١

(2) André Raymond; Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIème siècle. p. 115.

Communication faite au congrès sur l'histoire de l'Egypte Moderne qui s'est tenu à Londres en avril 1965.

Voir :

Holt P. M. Political etc., ouvr. cit., pp. 104-116.

فاشتد سخط الجزايرلى باشا عليه وأراد أن يبطش به « فحماه الله ببركة الانتصار للحق . وكان (الباشا) يقول لم أر فى جميع الممالك التى وطئتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل، فإنه أحرق قلبى »(١) .

وتعددت مظاهر الالتحام بين الأزهر وبين الشعب : ويعطينا الجبرتى صوراً وضيئة نابضة بالحياة عن مجتمع علماء الأزهر فى مصر إبان الحكم العثمانى ، وكيف نظر الشعب إلى علماء الأزهر على أنهم الملاذ الذى يفزع إليــه إذا ضاقت به السبل ، أو جاوز الحكام الظالمون المدى . فكان المصريون لا يتجهون إلا للأزهر ، ولا يلتمسون تدخل أحد ســوى علماء الأزهر ، ومن مآذن الأزهر كان أهل القاهرة الثائرون يدقون الطبول ، وتعلو أصواتهم هاتفــة بســقوط الظلم ، وداعية التجار إلى غلق حوانيتهم ، وفى الأزهر كانت تتعطل الدراسة مشاركة من العلماء والطلاب للجماهير فى مشاعرهم ، ومن الأزهر كانت تخرج المواكب الجماهيرية الصاخبة يتقدمها شيخ الجامع الأزهر وعلمــاء الأزهر راكبين بغــالا ، والمجاورون رجالا ، إلى الحاكم الظليم يطلبون منه رفع المظالم عن الشعب(٢) . وعلى هــذا النحو خرج الأزهر عن

(١) الجبرتى، ج ٤ ، ص ١٨٨ ، وقد جاء هذا النص فى سياق ترجمة الشيخ محمد السادات فى وفيات سنة ١٢٢٨ هـ .

(٢) من بين هــذه الصور نذكر على سبيل المثال :

حادثا وقع بين على بك الكبير وبين الشيخ على بن أحمــد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكى والمتوفى سنة ١١٨٩ ، ج ١ ، ص ص ٤١٥ — ٤١٦ .

وحادثا وقع بين حسين بك شفت وبين الشيخ أحمــد بن محمد بن أبى حامد الدردير العدوى المالكى والمتوفى سنة ١٢٠١ ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

وحادثا آخر وقع للشيخ الدردير فى أثناء الاحتفال بمولد السيد البدوى فى طنطا . ج ٢ ، ص ١٠٤

والمظاهرة الصاخبة التى قام بها أهل الحسينية احتجاجاً على إهانة أحمد سالم الجزار شيخ الطريقة البيومية فى شهر المحرم ١٢٠٥ (سبتمبر — أكتوبر ١٧٩٠) ج ٢ ، ص ١٨٩ .

وانظر أيضا عرضا تاريخيا وتحليليا للثورة الشعبية التى تزعمها فى سنة ١٧٩٥ الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامــع الأزهــر ضد ابراهيم بك ومراد بك ، فى مؤلفنا :
عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية ، ص ص ٢٨ — ٣٢ .

النطاق الأكاديمى المغلق وشارك فى الحياة المصرية العامة مشاركة إيجابية فعالة. وإذا كان العثمانيون والمماليك قد توفرت لهم أسباب القوة العسكرية وتجمعت فى أيديهم أعنة الحكم، فإن علماء الأزهر كانوا يمثلون الزعامة الشعبية، وكانت زعامة نظيفة حانية عطوفة على الشعب فاستراح لها، وتفيأ فى ظلالها الأمن والزاد الروحى والإرشاد والتوجيه الدينى يتلقاه باللغة العربية .

سادسا : الأزهر ودعم الترابط العربى بين مصر وشقيقاتها

وقام الأزهر بدور بارز فى تعميق الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى حين أسهم فى دعم الترابط العربى بين مصر وبين شقيقاتها البلاد العربية فى المشرق والمغرب . كانت الحرية المطلقة التى تمتع بها الأزهر فى تقرير الدراسات التى تلقى على طلابه ، وعدم خضوعه لأى توجيه حكومى، عاملين هامين جعلا منه مركزا عربيا قياديا للفكر الإسلامى تهوى إليه أفئدة كبار العلماء وطلاب العلم من كافة أنحاء العالم العربى والإسلامى ، فوفدوا عليه ، ووجدوا فى رحابه الأمن والملاذ والرعاية والزاد الروحى والتراث الفكرى . وكان العلماء الوافدون يتصدرون بعضا من حلق العلم فى أبهاء الأزهر، بينما يتصدر العلماء المصريون البعض الآخر من الحلقات الدراسية . ويلقى هؤلاء وأولئك دروسهم فى موضوعات شتى تتصل بالثقافة العربية الدينية والأدبية والعلمية . وكانت هذه الحلق دراسات جامعية : وهكذا كانت تجتمع فى رحاب الأزهر أروع مظاهر الوحدة الثقافية بين شعوب الأمة العربية ، ممثلة فى الصفوة الممتازة من رجال الفكر الإسلامى ، ويجعلون من الأزهر مركزا رئيسيا للإشعاع الفكرى :

ويضيق المقام فى هذا البحث عن ذكر جميع أعلام العلماء الذين وفدوا على الأزهر إبان الحكم العثمانى أساتذة زائرين أو مقيمين متفرغين، وحسبنا

أن نشير إشارة سريعة إلى ثلاثة من هؤلاء الأعلام ، وأولهم المقرى — أحد كبار علماء المغرب — واسمه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرى ، نسبة إلى مقرة وهى بلدة من أعمال قسطنطينه Constantine وهى الموطن الأول لأسرته . وكان من مواليد مدينـــة تلمسان ، وجاء إلى مصر سنة ١٦١٨ (١٠٢٧ هـ) ، وامتدت إقامته فيها زهاء خمسة عشر عاما ، حتى وافاه الأجل فى يناير ١٦٣٢ (جمادى الآخرة ١٠٤١)[١] . لازم التدريس فى الأزهر . وكانت حلقه الدراسية تزدحم بالعلماء والطلاب ، وألقى معظم دروسه فى الحديث . وكان يعكف فى رواق المغاربة على الكتابة والتأليف ، وكان هذا الرواق ولا يزال يضم مكتبة حافلة بالكتب القيمة بلغ عددها ثمانية آلاف مجلد ، من بينها عدد من نفائس المخطوطات أضاف عليهـــا المقرى حواشى وتعليقات كثيرة ، وشروحا ضافية . وقد قامت هيئة اليونسكو فى سنة ١٩٦٣ بتصوير بعض المخطوطات من مكتبة رواق المغاربة[٢] . وقـــد استطاع المقرى فى أثناء إقامته فى مصر واشتغاله بالتدريس فى الأزهر أن يثرى المكتبة التاريخية العربية بسفريه الخالدين « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » و« أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » . أما الكتاب الأول فهو أقرب إلى الموسوعة منه إلى الكتاب سواء من ناحية حجمه أو من ناحية مادته العلمية ، فهو يضم أربعة مجلدات ضخمة تناول فيها تاريخ وجغرافية بلاد الأندلس، وهو أقيم المصادر العربية عن تاريخ الأندلس والأدب الأندلسى . أما الكتاب الثانى فهو سفر ضخم

(١) تخللت إقامته فى مصر زيارات سريعة إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج خمس مرات ، وجاور بمكة فى أثناء الحج وفقاً لتقاليد العصر ، وألقى بها كثيرا من دروسه . وفى المدينـــة أملى الحديث . وزار بيت المقدس وألقى بعض الدروس فى المسجد الأقصى . وذهب إلى دمشـــق وألقى دروسا فى الحديث فى الجامع الأموى أسابيع معدودة . وعاد إلى القـــاهرة ليستقر فيها أستاذا محاضرا فى الأزهـــر حتى لحق بالرفيق الأعلى .

(٢) صورت هيئة اليونسكو بعض المخطوطات أيضا من مكتبتى رواق الأتراك ورواق الشوام.

أفرده لترجمة الفقيه الأكبر عياض السبتى ، وأورد فيه بعض الوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين : وإلى جانب هذين السفرين الخالدين وضع المقرى عدة كتب أخرى ألف معظمها فى القاهرة ، وهذه الكتب عبارة عن رسائل دينية وأدبية [1] .

وقدم مصر فى أواخر سنة ١٦٩٣ (جمادى الأولى ١١٠٥) عبد الغنى النابلسى : وتصفه بعض المصادر المعاصرة بأنه كان شيخا للإسلام فى الديار الشامية [2] ، واسمه عبد الغنى بن اسماعيل بن أحمد بن إبراهيم النابلسى الدمشقى الحنفى القادرى النقشبندى . وقد زار الجامع الأزهر فى اليوم السادس من يناير ١٦٩٤ (التاسع من جمادى الأولى ١١٠٥) ، وكانت له انطباعات عن هذه الزيارة ، وأحاسيس افتعلت فى نفسه عن هذه الجامعة العتيدة ، وقد سجلها قلمه فى كتاب له مخطوط ، اسمه «الحقيقة والمجاز ، فى رحلة بلاد الشام ، ومصر ، والحجاز» .

---

(١) من هذه الكتب والرسائل :

« إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة »

« فتح المتعال فى مدح الفعال المستشرفة بخير الأنام »

« حسن الثنا فى العفو عمن جنى »

« قطف المهتصر فى أخبار المختصر »

« عرف النشق فى أخبار دمشق »

« روض الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس »

« الدر الثمين فى اسماء الهادى الأمين »

أنظر : محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . القاهرة ١٩٤٧ . دار المعارف ، الطبعة الأولى . ص ص ٢٤٥ — ٢٥٧ .

(٢) محمد خليل المرادى : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر . القاهرة ١٣٠١ ﻫ (١٨٨٣م) أربعة أجزاء ، ج٣ ، ص ص ، ٣٠ — ٣٧ .

وهذا المخطوط محفوظ فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ٢٤٨١ تاريخ – المكتبة التيمورية .

ومما هوجدير بالذكر أن زيارته للأزهر تمت فى اليوم السادس والعشرين بعد المـائة من رحلته التى زار فيها مصر والحجاز: وجاء فى يومياته عن هذه الزيارة : « ... ثم ذهبنا فدخلنا إلى الجامع الأزهر المعمور بالعلماء والصلحاء وقراءة القرآن ودروس العلم ليلا ونهارا، ثم اجتمعنا بالعلماء المدرسين هناك ، وحضرنا عندهم فى دروسهم ، وحصلت لنا البركة بمجالستهم ، وطلبوا منا أن نعمل لهم درسا فى الجامع الأزهر عاما فى الحـديث أو فى شرح العقائد للسيد التفتازانى ، وأقدمت علينا الطلبة والأفاضل بذلك ، فاعتذرنا لهم بأنا مسافرون إلى بلاد الحجاز ومشغولون بزيارة الصالحين والتبرك بمقاماتهم ، ولا فراغ لنا إلى المطالعةوحبس النفس فى تقريرالعلوم الظاهرة ، لأننا رأينا أن ذلك ينقص علينا مانحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ، ويكدرعلينا صفاء الروح لتلقى المواجيد العرفانية ، فقمنا وخرجنا من الجامع وقد انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون منا الدعاء مع زيادة الاعتقاد ، فأخذتنا هيبة ذلك الحال ، فصرنا نبكى وهم يبكون ، وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع . وصادفنا عند الباب مجىء صديقنا الشيخ أحمد المرحومى لإقراء الدرس على عادته ، وكان هو الذىأشار علينا سابقا لمـا أردنا الذهاب إلى الجامع الأزهر ، وقال لنا إن الطلبة والمجاورين هناك يطلبون منكم إقراء الدرس ، وأنتم لا تحتملون تثقيلهـم لغلبة الشدة والجفا ، فاعتذر إليهم ، فأخبرناه أنا اعتذرنا إليهم ، وخرجنا ثم سرنا إلى خان الحمزاوى ...... »(١) .

وتتمثل الشخصية الثالثة فى أحد كبار العلماء العرب ، وهو محمـد ابن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشـهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنفى :

(١) المصدر السابق ، ص ص ٤٣٥ – ٤٣٦ .

وفد على الأزهر سنة ١٧٥٤ (١١٦٧ هـ) : كان متبحرا فى فقه اللغة العربية وآدابها وفى الحديث ، ارتحـل مراراً فى طلب العلم والحج ، وفى إحدى زياراته لمكة المكرمة فى أحد مواسم الحج اتصل بالسيد عبد الرحمن العيدروسى وقرأ عليه بعض مؤلفاته وأجازه ، ثم زين له زيارة مصر : ويقول الزبيـدى فى هذا الصدد عن العيدروسى : « وهو الذى شوقنى إلى دخول مصر بمـا وصفه لى من علمائها وأمرائها وأدبائها وما فيها من المشاهد الكرام ، فاشتاقت نفسى لرؤيتها » : ودخل الأزهر وحضر دروس أشياخ الوقت ، وتلقى عنهم وأجازوه ، وشهدوا بعلمه وفضـله ، وانقلب أستاذا يلقى دروسه فى جامع شيخون بالصليبة ، وفى مسجد الحنفى ، وفى بيوت الأمراء والأعيان ، ووضع خلال إقامته بالقاهرة شرحه الشهير للقاموس وسماه « تاج العروس من شرح جواهر القاموس » ، واستغرق منه هذا العمل العلمى الجليل سنوات طوالا : ولمـا فرغ منه أقام مأدبة حافلة دعا إليها كبار علماء الأزهر وشرح لهـم منهاجه فى تأليف الكتاب ، فأعجبوا به وتباروا فى مدح الزبيدى وتقـريظ كتابه نثرا وشعرا . ونذكر من بين الشخصيات الأزهرية التى كتبت تقاريظ على النسخة الخطية من الكتاب : المشايخ على الصعيدى ، وأحمد الدردير ، ومحمد الأمير ، وأحمد البيلى ، وعطية الأجهورى ، وأبى الأنوار السادات ، ومحمد المكى ، وعددا آخر من أشياخ الوقت ذكر الجبرتى أسماءهم : وشرح الزبيدى أيضا بعض أجزاء من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، وألف كتبا ورسائل فى علم

(١) وضع الجبرتى ترجمة ضافية لأستاذه الزبيدى فى كتابه عجائب الآثار (ج ٢ ، ص ص ١٩٦ - ٢١٠) . ومما يذكر أنه لما شيد محمد بك أبو الذهب جامعه بالقرب من الجامع الأزهر وألحق به مكتبة زودها بمجموعات من الكتب والمخطوطات ، قال له بعض خاصته إنه إذا استطاع أن يقتنى النسخة الخطية من شرح القاموس ويضمها إلى مكتبة الجامع ، امتازت بهـذا الكنز العلمى عن سائر مكتبات مصر ، فاشتراها أبو الذهب بمبلغ مائه ألف درهم فضة .

الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث : وأصاب شهرة عريضة فى أنحـــاء العالم العربى ، وكاتبه حكام الحجاز واليمن والشام والبصرة وبغداد والشام ، والسودان وفزان والجزائر وبلاد المغرب ، واعتقد فيه أهل المغرب اعتقـــاداً زائدا . وكان إذا مر أحدهم بمصر فى طريقه إلى الحجاز ، ولم يزر الشـــيخ مرتضى أو لم يصله بشىء اعتبر حجه ليس كاملا ، وظل مقيما فى القـــاهرة علما من أعلام اللغة العربية حتى توفى فى أبريل ١٧٩١ (شعبان ١٢٠٥)[١] .

---

(١) يذكر محمـــد المحبى فى كتابه عددا من علماء العالم الإسلامى وفدوا على الأزهر إبان الحكم العثمانى ، منهم :

(ا) الشيخ عيسى بن محمد المغربى « إمام الحرمين وعالم المشرقين والمغربين » المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) .

(ب) الشيخ فضل الله بن محب الله الدمشقى المتوفى سنة ١٠٨٢ (١٦٧١ م) .

(ج) الشيخ أبو المعالى حسن بن على مفتى مكة المتوفى سنة ١١٧٦ (١٧٦٢ م) .

(د) الشيخ محمد بن محمد البايدى المغربى المتوفى سنة ١١٧٦ (١٧٦٢ م) .

انظـــر :

محمـــد المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

ج ٣ ص ص ٢٤٠ — ٢٤٢ ، ٢٧٧ — ٢٧٨ .

ج ٤ ص ص ٣٠١ — ٣٠٥ .

والجبرتى ، ج ٢ ، ص ص ٢٠٨ — ٢١٤ .

ويذكر الأســـتاذ محمد عبد الله عنان أن عالما مغربيا يسمى « أبو عبد الله محمـــد بن سوده المرى الفارسى » وفد على مصر سنة ١١٨٢ هـ (٦٨ — ١٧٦٩) وعقدت له برواق المغاربة بالجامع الأزهر حلقة دراسية حفلت بالعلماء والطلاب ، وكان يلقى دروسه فى الفقه المـالكى ، وكانت له مؤلفات عديدة . انظر محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ ، ص ص ١٤٩ — ١٥٠

وهناك كتاب مخطوط للشيخ عبد الله الشبراوى مودع فى مكتبة رفاعه الطهطاوى فى مدينة سوهاج تحت رقم ١٠١ أدب واسمه « نزهة الأبصار فى رايق الأشعار » فرغ مؤلفه من وضعه فى شهر شعبان ١١٧٠ هـ (٢١ أبريل — ١٩ مايو ١٧٥٧) وقد حوى تأريخا لبعض الأحداث ، كما سجل المؤلف الرحلات العلمية لبعض العلماء الذين زاروا مصر فى عهده . وهذا المخطوط يقع فى ٢٣٥ صفحة من القطع المتوسط .

وكما اجتذب الأزهر كبار العلماء من أنحاء العالم الإسلامى استقطب أيضا طلاب العلم وفدوا إليه من كل فج عميق ، فكان الأزهر الأب العطوف ، يقدم العلم لبنى العروبة والإسـلام ، لا يعرف تمييزا عنصريا أو طبقيا بين طلابه ، فضم عديد الأروقة حسب المذاهب الأربعـة ، ووفق البلاد التى ينتمى إليها الطلاب المصريون ، ووفق الأقاليم التى جاء منها الطلاب الوافدون : فكان من بين الأروقة المصرية : رواق الصعايدة ورواق الشراقوة ، ثم كان من بين النوع الأخير : رواق المغاربة ، ورواق الشوام ، ورواق الروم أى الأتراك ، ورواق الجبرت ، وقد أفرد للطلبة القادمين من الحبشة والأقاليم المتاخمة لها مثل إرتريا والصومال ، ورواق المكاوية ويقطنه أبناء مكة وسائر جهات الحجاز ، ورواق البغدادية ويقيم فيه أبناء العراق ، ورواق السليمانية وخصص لأبنـاء أفغانستان ، ورواق الهنود لأبناء الهند ، ورواق اليمنية لأبناء اليمن ، وغير ذلك من أروقة . وكانت الإقامة فى الأروقة مقصورة فى الغالب على الطلاب الفقراء والمنقطعين ومعظم الأغراب ، أما الطلاب الأثرياء فكانوا يسكنون فى منطقة الأزهر . ويهمنا أن نذكر هنا أن تعدد الأروقة يعطى فكرة واضحة عن كثرة البلاد الإسلامية التى كان أبناؤها يفدون منها على الأزهر طلابا للعلم ، وكان هؤلاء الطلبة الوافدون يحملون معهم إلى بلادهم باللغة العربية رسالة الإسلام الدينية والثقافية والعلمية ، وهكذا كان الأزهر عنصرا فعالا وإيجابيا فى الحضارة الإنسانية فى عصر أجمع معظم الباحثين على أنه كان من أحلك فترات التاريخ المصرى.

ويلاحظ أن الغالبية الساحقة من شعوب الأمة العربية قد وقعت تحت حكم الدولة العثمانية ، فأصبح الاتصال بينها سهلا ميسرا ، إذ لم تكن هناك حدود عازلة بين الأقاليم العربية الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية ، ولذلك لم تنقطـع الصـلات بين مصر وبين شقيقاتها العربيات إبان الحـكم العثمانى . وكان فى استطاعة العربى أن يفد من المشرق العربى أو من المغرب العربى إلى مصر ،

ويمارس فيها ألوانا شتى من النشاط الثقافى أو الاقتصادى ، دون أن تقـام فى وجهه العقبات : وكان قـدوم الأساتذة والطلاب من أرجاء العـالم الإسلامى إلى الأزهـر إبان الحكم العثمانى دليلا على احتفاظ الأزهـر بشخصيته العالمية ذات الطابع الإسلامى العـربى . وكانت هذه الشخصية بارزة قوية واضحة طوال القرون الثلاثة التى امتد إليها الحكم العثمانى .وكان أى عالم يفخر بأنه تخرج فى الأزهر ، أو أنه أحـد أساتذته ، أو أنه حاضر فى يوم من الأيام فى رحابه، أى أنه كان – وفقاً للمصطلح الجامعى الحديث – أستاذا زائراً فى الأزهر :

سابعا : نظرة العثمانيين إلى الأزهر

وأخيراً كانت نظرة العثمانيين إلى الأزهر جامعاً وجامعة من بين العوامل التى ساعدت الأزهر دون قصد منهم على الحفاظ على الطابع العربى لمصر . فقد أظهر العثمانيون احتراما عميقا للأزهر وعلمائه . وكانت هناك عدة بواعث أملت عليهم هذه السياسة : كان الأزهر بعد سقوط الدولة الفاطمية قد غدا المركز الرئيسى للدراسات السنية فى العالم الإسلامى ، والعثمانيون يعتنقون المذهب السنى ، ويتعصبون له أشد التعصب ، وخاضوا من أجل الحفاظ عليه حروبا ضارية ضد الدولة الصفوية التى أنشأها اسماعيل الصفوى فى فارس ، وحاول أن ينشر بين رعايا الدولة العثمانية فى الأناضول مذهبا شيعيا فوضويا يسمى مذهب « قزل باش » أى الرأس الأحمر كخطوة للقضاء على المذهب السنى ، ومد نفوذ تلك الدولة الشيعية إلى ضفاف البوسفور ، فكان من الطبيعى أن يلقى الأزهر من الحكام الجـدد السنيين المغرقين فى التعصب لمذهبهم تقـديرا للقائمين على أمره ، والعاملين فى رحابه . أما الباعث الثانى فكان حرص العثمانيين على اجتـذاب قلوب المصريين نحـوهم بإظهار الاحترام

العميق للأزهر الذى كان يحتل المكانة الأولى بين مساجد مصر ومعاهدها العلمية . وكانت مصر فى القـــرن الخامس عشر الميلادى — التاسع الهجرى — وقبل الغزو العسكرى العثمانى قد استأثرت بفضـــل الأزهر بالزعامة الأدبية والدينية معا فى العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد فى الشرق، وتصدع الأندلس فى الغرب . فكان الأزهر هو الجامعة الإســـلامية الكبرى . وكان القرن الخامس عشر الميلادى هو العصر الذهبى للأزهر ، سواء من حيث مكانته العلمية أو إنتاجه الفكرى أوالحشد الرائع الذى كان يضمه من أفذاذ العلماء فى شتى التخصصات ، أو الرصيد الضخم من المؤلفات التى وضعوها ، وامتازت بعمقها وأصالتها وتنوعها ، وطرافة الكثير من عناصرها ولم يكن الأزهر شيئا جديدا أو طارئا بالنسبة للعثمانيين ، فقد كانت له شهرة راسخة فى بلاد الدولة العثمانية اجتذب إليه أفواجا من الطلاب العثمانيين نهلوا العلم فى رحابه ثم حملوه إلى بلادهم ، كما شهد الأزهر جمهرة من العلمـــاء العثمانيين ، ممن برعوا فى العلوم العربية الإســـلامية شدوا رحالهم إلى مصر ، فى القرن الخـــامس عشر الميلادى ، وتصـــدروا بعضا من حلقه الدراســـية، وألقوا دروسهم فى الحديث والتفسير والفلسفة والمنطق والبيان والنحو[1]، فالروابط

---

(١) يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان اسماء بعض العلماء الأتراك العثمانيين الذين وفدوا على الأزهر خلال القرنين الثامن والتاســع الهجريين وقاموا بالتدريس فى الأزهر . ومنهم :

(ا) شمس الدين الفنارى ، جاء إلى مصر فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

(ب) يعقوب بن إدريس الشهير بقرا يعقوب المتوفى سنة ٨٣٣هـ .

(ج) محيى الدين الكافية جى المتوفى سنة ٨٧٩هـ . والكافية جى نسبة إلى متن «الكافية» فى علم النحو ، وذلك لتعمقه فى هذا العلم وبراعته فى شرحه . وكان شيخا للسيوطى وغيره من الأعلام المصريين .

(د) المولى أحمـــد بن اسماعيل الكورانى المتوفى سنة ٨٩٣هـ .

انظر :

محمـــد عبدالله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٤٠ — ١٤١ .

العلمية والروحية كانت قائمة بين الأزهر وبين العثمانيين قبل أن يدخلوا مصر غزاة فاتحين .

والحق أن الأزهر بمكانته العالية فى العالم الإسلامى وماضيه الحافل ونفوذه الروحى ومجده العلمى ، وقيامه قرونا طويلة على حفظ التراث العربى بما يضمه هذا التراث من ألوان الثقافة الدينية العلمية الإسلامية ، وما اشتهر عن علمائه من التبحر فى العلوم ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة عن مفاتنها ، كل أولئك أضفى على الأزهر نوعا من القدسية ، وجعل له هيبة فى نفوس العثمانيين ، فلم يحاولوا المساس بمركزه ، أو عرقلته عن أداء رسالته ، وظل الأزهر موطن الثقافة العربية يجتذب إليه نابتة البلاد فى مصر وغيرها من أنحاء العالم الإسلامى ، الأمر الذى ساعد الأزهر على الحفاظ على الطابع العربى لمصر .

* * *

وعلى الرغم من أن السلطان سليم الأول أمر بترحيل بعض العلماء إلى الآستانة ، وكانوا طائفة من نواب القضاة على المذاهب الأربعة ، فضلا عن عدد كبير من الصناع والعمال الفنيين المصريين ، فقد أظهر هذا السلطان احتراما للأزهر . وفى خلال الشهور الثمانية التى قضاها فى مصر بعد انتهاء العمليات الحربية كان يحرص على التردد على الأزهر من آن لآن ، ويؤدى فيه صلاة الجمعة متبركا بقدسيته ، ويوزع الأموال والخيرات على مجاوريه[1] ، وقد استهدف السلطان سليم الأول من إظهار الاحترام للأزهر إشاعة الطمأنينة

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . طبعة بولاق ١٣١٢ هـ ١٨٩٤ م ، ج ٣ ص ١١٦ ، ص ١٣٢ .

محمد بن أبى السرور البكرى : الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة . تاريخ تأليفه ١٠٥٤ هـ (١٦٤٤ م) مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة : تحت رقم ٢٢٦١ تاريخ ، ورقة رقم ١٥ مخطوطة .

فى قلوب المصريين ، فلا يشعرون بنفور من الحكم الجديد . وكان المجتمع المصرى مجتمعا دينيا ، وعمل سليم على الإفادة من العاطفة الدينية القوية المتأصلة فى نفوس المصريين : فالسلطان العثمانى حاكم مسلم مثلهم ، وهو سنى مثلهم ، وهو يظهر احتراما للأزهر مثلهم . وكان الزمن — فى تقدير السلطان سليم —

= ومما هو جدير بالذكر أن الأستاذ هولت Holt P. M. فى بحثه الذى قدمه إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديثة الذى عقد فى لندن فى إبريل ١٩٦٥ قد ذكر أن كتاب ابن أبى السرور يسمى «الروضة الزهية» ، أما الأستاذ جمال الدين الشيال فقد ذكر فى بحثه المقدم إلى هذا المؤتمر أن اسم الكتاب هو « الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة » متفقا مع ماهو موجود فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة . فمن بين المخطوطات المودعة فى هذه الدار يوجد مخطوطان :
الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة سنة ١٠٥٤ مخطوط – تاريخ – ٢٢٦١
النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية سنة ١٠٥٩ مخطوط – تاريخ – ٢٢٦٦

ويذكر الأستاذ محمد أنيس فى الكتيب الذى نشره له معهد الدراسات العربية بالقاهرة فى سنة ١٩٦٢ بعنوان « مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى » كتاب النزهة الزهية ضمن مؤلفات ابن أبى السرور البكرى . ولم يشر إلى الكتاب الآخر وهو الروضة المأنوسة . كما يذكر أن لهذا البكرى بحث يسمى « تفريج الكربة فى دفع الطلبة » وأنه لم يعثر على هذا البحث . ولكن هذا البحث موجود وفى مصر ، وإن اسمه « كشف الكربة فى تفريج الغمة » فرغ منه مؤلفه فى ربيع الآخر سنة ١٠٢٢ هـ (٢١ مايو– ١٨ يونيو ١٦١٣) وقد أرخ فيه البكرى لمصر خلال الفترة من سنة سنة ٩٩٠هـ إلى ١٠٢٢ (١٥٨٢ – ١٦١٣) وتناول فى إفاضة الفتنة العسكرية وقد أطلق عليها « الطلبة العسكرية » .

أنظر كلا من . :

Holt P. M.; Ottoman Egypt (1517-1798). An account of Arabic Historical Sources.

Gamal El Din El Shayyal; Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-century Egypt.

والبحثان منشوران فى مجلد أبحاث المؤتمر :

Holt P. M., Political and Social change in Modern Egypt. pp. 3-10 and 117-131 respectively.

دكتور محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .

كفيلا بأن يجعل المصريين يحولون ولاءهم إلى السلطان العثمانى بعد أن دالت دولة المماليك . والحق أن الوشيجة الدينية الإسلامية التى ربطت بين العثمانيين والمصريين كانت الورقة الرابحة فى يد الحكام العثمانيين . فباسم الدين فرضوا سيطرتهم على المصريين . ولم تكن قد وجدت بعد فى نفوس المصريين العاطفة القومية التى تجعلهم يثورون على الوضع السياسى لبلادهم . ومن ثم بدأ الشعب المصرى رويدا رويدا ينظر إلى السلطان العثمانى على أنه سلطان المسلمين ، و « خادم الحرمين الشريفين » ، وينظر إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل ، وبخاصة بعد أن اتسعت رقعتها فشملت معظم البلاد العربية فى آسيا وأفريقيا .

وسار خلفاء السلطان سليم الأول على نهجه من حيث نظرتهم إلى الأزهر . فقد أظهروا رعاية له ، واحتراما وتقديراً لعلمائه ، دون أن يتدخلوا فى شئونه أو يمسوا نظم التعليم فيه ، ولم يحاولوا إدخال الدراسات التركية سواء الأدبية أو اللغوية أو غيرها فى الأزهر . ولم يحاولوا المزج بين الدراسات العربية فى الأزهر وبين أية ثقافة تركية ، ولم يحاولوا طمس الوجه العربى الأصيل للأزهر بصبغة عثمانية . وبقى الأزهر فى مظهره ومخبره ، وفى ظاهره وباطنه ، عربيا أصيلا شامخا لم يطأطأ رأسه لأحد من الحكام العثمانيين .

* * *

ولم يتأثر الأزهر من التغيير الذى أحدثه العثمانيون بجعل المذهب الحنفى المذهب الفقهى الرسمى فى مصر ، بدلا من المذهب الشافعى ، لأن الفقه على المذاهب الأربعة كان يدرس فى الأزهر قبل دخول العثمانيين مصر .

واحترم العثمانيون المذهب الشافعي، إذ كان سواد المصريين يعتنقونه (١) ويعتبرون مصر « بلد الإمام الشافعي » (٢) منذ أن وفد إليها سنة ١٩٩هـ (٨١٤–٨١٥م)، وعكف في جامع عمرو على إلقاء شروحه في القرآن والحديث والفقه وعلوم اللغة، وملك على المصريين قلوبهم : وكانت حلقاته أكثر الحلق ازدحاما في الجامع العتيق، وظل الإمام الشافعي مقيما في مصر حتى جاز إلى ربه ليلة الجمعة ٢٩ من رجب سنة ٢٠٤ (٢ يناير ٨٢٠) ودفن بالقاهرة . وكان الباشوات العثمانيون يحرصون على زيارة ضريح الإمام الشافعي قبل أن يباشروا مهام منصبهم في مصر (٣).

---

(١) يقرر أحد الباحثين أن سكان القاهرة وكذلك سكان مدن الوجه البحري حتى هذا الوقت الذي نعيشه يعتنقون المذهب الشافعي بينما أغلب أهل الوجه القبلي يعتنقون المذهب المالكي .

انظر :

الأستاذ عبدالحليم الجندي : الإمام الشافعي . دار الكاتب العربي، القاهرة، يناير ١٩٦٧، ص ٣٦٥ .

(٢) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣ .

(٣) يذكر الأستاذ كومب Etienne Combe نقلا عن فانسلب Vansleb الألماني الأصل الفرنسي الجنسية والذي وضع كتابا في أواخر القرن السابع عشر اسمه :

Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage en Egypte. Paris, 1698.

أنه إذا أصدر السلطان فرمانا بعزل الباشا من منصبه أو إذا جانب الباشا التوفيق في حكم مصر بحيث كانت مدة ولايته مليئة بالاضطرابات أو تفشي الأوبئة وما إلى ذلك كان أهل القاهرة ينسبون هذا الإخفاق أو ذلك العزل إلى أن الباشا العثماني قد تقاعس عن زيارة ضريح الإمام الشافعي قبل أن يتولى سلطات وظيفته . ومنشأ هذا الاعتقاد رواية يرددها سكان القاهرة خلفاً عن سلف مؤداها أن السلطان سليم الأول كان متهيبا دخول القاهرة خشية أن يكون الأمراء المماليك قد بيتوا له خدعة حربية . ولم يجرؤ على دخول القاهرة إلا بعد أن رأى في المنام الإمام محمد بن إدريس الشافعي يبشره بدخول القاهرة، فدخلها سليم في اليوم التالي لهذا المنام .

انظر :

Précis de l'Histoire d'Egypte, ouvr. cit., t. III, p.57.

ثامنا : عدم تعيين العلماء العثمانيين فى منصب شيخ الأزهر

وهناك مسألتان لا مناص من الإشارة إليهما ونحن نتناول نظرة العثمانيين إلى الأزهر ، أما المسألة الأولى ، فتتلخص فى أن الدولة العثمانية لم تعين أى عالم عثمانى فى منصب شيخ الجامع الأزهر طوال الحكم العثمانى ، وعلى وجه التحديد منذ إنشاء هذا المنصب فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، أى السابع عشر الميلادى ، بل تركت هذا المنصب يشغله العلماء المصريون دون أن ينافسهم فيه علماء عثمانيون. وكانت نظرة الآستانة إلى منصب شيخ الأزهر تختلف عن نظرتها إلى منصب قاضى القضاة فى مصر ، إذ قصرت التعيين فى المنصب الأخير على العثمانيين ، وكان يطلق على شاغله قاضى عسكر ، أو قاضى عسكر أفندى. وكانت الدولة توفده من الآستانة إلى القاهرة وهو لا يعرف اللغة العربية . أما منصب شيخ الأزهر فقد أبقت الدولة على عروبته ومصريته فى آن واحد : ويصف الجبرتى منصب شيخ الأزهر بقوله : « إنه أعظم مناصب العلماء »(1) . وكان موقف الدولة من هذا المنصب متمشيا مع السياسة العليا التى درجت عليها وهى عدم التدخل فى شئون الأزهر : ولا شك فى أن تعيين العلماء المصريين دون سواهم فى منصب شيخ الأزهر كان من أهم العوامل التى أعانت تلك الجامعة الإسلامية العربية العتيدة على الحفاظ على اللغة العربية ، وبالتالى على دعم الطابع العربى لمصر :

وأما المسألة الثانية فتتمثل فى أنه لم يتقلد أحد من علماء الحنفية منصب شيخ الجامع الأزهر طوال الحكم العثمانى أيضا ، وإنما تقلب على مشيخة الأزهر إبان هذه الفترة علماء من الشافعية والمالكية ، بحيث كان منصب شيخ الأزهر محصورا فى علماء هذين المذهبين : ونستقى هذه الحقيقة من ثبت رسمى أصدرته

(1) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

وزارة الأوقاف وشئون الأزهر فى سنة ١٩٦٤ متضمنا أسماء شيوخ الأزهر ومذاهبهم ، والمدة التى قضاها كل منهم شيخا للأزهر.[(١)] وإلى جانب هـذه الحقيقة توجد حقيقتان أخريان نخرج بهما من الدراسة التحليلية لهذا الثبت: الأول أن كفة علماء الأزهر من الشافعية الذين تولوا المشيخة كانت من حيث العدد هى الراجحة بالنسبة للمالكية خلال الحكم العثمانى ، إذ كانت نسبتهم ٧ : ٥ ،[(٢)] والحقيقة الثانية أن العثمانيين لم يجعلوا اعتناق المذهب الحنفى

(١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره . مصدر سبق ذكره ، ص ص ٣٢٠ – ٣٢٩ .
وانظر أيضا :
الأزهر فى ١٢ عاما : سجل وضع تنفيذاً لقرار وزارى رقم ٢ لسنة ١٩٦٤ صدر عن وزير الأوقاف وشئون الأزهر . وقد قامت بإعداد السجل لجنة برياسة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر ومثل فيها مجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للازهر والإدارة العامة للمعاهد الأزهرية . ص ص ٢٧ – ٧٢ ، ولم تذكر سنة طبع الكتاب .

(٢) شيوخ الأزهر إبان الحكم العثمانى

الشيوخ المالكيون :

	ترتيبهم فى تولى المشيخة
الشيخ محمد عبد الله الخرشى المتوفى سنة ١١٠١هـ (١٦٩٠م)	الأول
الشيخ محمد النشرتى (١١٠٦ – ١١٢٠هـ) (١٦٩٤ – ١٧٠٨)	الثالث
الشيخ عبد الباقى القلينى (١١٢٠ – ؟) (١٧٠٨ – ؟)	الرابع
الشيخ محمد شنن أسندت اليه المشيخة عقب وفاة الشيخ القلينى وظل متقلدا إياها حتى وفاته سنة ١١٣٣هـ (١٧٢١) .	الخامس
الشيخ ابراهيم موسى الفيومى (١١٣٣ – ١١٣٧) (١٧٢١ – ١٧٢٥)	السادس

الشيوخ الشافعيون :

الشيخ ابراهيم بن محمد بن شهاب الدين البرماوى (١١٠١ – ١١٠٦) (١٦٩٠ – ١٦٩٤)	الثانى
الشيخ عبد الله الشبراوى (١١٣٧ – ١١٧١) (١٧٢٥ – ١٧٥٧)	السابع
الشيخ محمد سالم أحمد الحفنى (١١٧١ – ١١٨١) (١٧٥٧ – ١٧٦٧)	الثامن
الشيخ عبد الرءوف محمد عبد الرحمن السجينى (١١٨١ – ١١٨٢) (١٧٦٧ – ١٧٦٨)	التاسع
الشيخ أحمد عبد المنعم يوسف الدمنهورى (١١٨٢ – ١١٩٠) (١٧٦٨ – ١٧٧٦)	العاشر
الشيخ أحمد العروسى (١١٩٢ – ١٢٠٨) (١٧٧٨ – ١٧٩٣) ويلاحظ أن منصب مشيخة الأزهر ظل شاغرا بعد وفاة الشيخ الدمنهورى حتى سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨) حين عين الشيخ أحمد العروسى شيخا للأزهر	الحادى عشر
الشيخ عبد الله الشرقاوى (١٢٠٨ – ١٢٢٧) (١٧٩٣ – ١٨١٢)	الثانى عشر

— وهو المـــذهب الرسمى — شرطاً لابد من توفره Sine qua non فيمن يلى هذا المنصب الدينى الخطير ، بل تركوا اختيار شيخ الأزهر مطلقا من كل قيد مذهبى ، ومنوطا بالمشايخ أنفسهم (١) ، على الرغم من أن العثمانيين كانوا يفضلون بطبيعة الحال أن يكون شيخ الأزهر حنفيا ، ولكنهم أمسكوا عن الزج بأنفسهم فى شئون الأزهر كما سبق أن ذكرنا ، والمعنى المستفاد من ذلك أن القيد المذهبى الذى وضعه العثمانيون على منصب كبير القضاة بقصر التعيين فيه على الحنفية لم ينسحب على منصب شيخ الجامع الأزهر (٢) ، وأخيراً فإن هناك حقيقة نستقيها من تاريخ مصر إبان الحكم العثمانى ، وهى أن العلماء الحنفية لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء عدم توليهم مشيخة الأزهر ، فقد سعى بعضهم

(١) كان اختيار شيخ الجامع الأزهر فى العصر العثمانى — وهو العصر الذى شهد إنشاء هذا المنصب — باتفاق الأشياخ فيما بينهم . فإذا أجمعوا أمرهم على اختيار أحد العلماء اتخذت السلطات الحاكمة فى القاهرة الإجراءات التقليدية التى تتبع عند شغل المناصب الكبرى . فيقوم الباشا العثمانى أو شيخ البلد وهو كبير الأمراء المماليك بإلباس شيخ الأزهر الجديد « فرو سمور » . وكان هذا الإجراء يعتبر إقراراً من السلطات الحاكمة بتعيينه شيخا للأزهر . أما إذا اختلفت كلمة العلماء واحتدمت المنافسة بين المرشحين واستحال الاتفاق ، تدخل الأمراء المماليك وأغا الإنكشارية ، وكانوا يقفون عادة إلى جانب المرشح الذى يبدو لهم أن معظم المشايخ يؤيدون ترشيحه .

(٢) يقول الأستاذ دى شابرول de Chabrol إن قاضى القضاة كان يشترط فيه أن يكون حنفيا ، أما قضاة الأقاليم فلم يكن يطبق هـــذا الشرط المذهبى عليهم .

La Cour de Constantinople professe la secte de Hanafy. C'est pourquoi le quady a' askar doit toujours en être. On n'observe pas la même attention à l'égard des qâdy des provinces. p. 12

انظر البحث الذى نشر فى :

Description de l'Egypte. t. 18 première partie. pp. 1-340.

تحت عنوان :

Essai sur les mœurs des habitans (sic) modernes de l'Egypte.

سعيا حثيثا ليتقلدوا هذا المنصب الرفيع ، وحدثت اضطرابات فى الأزهر نتيجة احتدام المنافسة بين الحنفية والشافعية بوجه خاص ؟ (١)

* * *

وكان من مظاهر تقدير الدولة العثمانية لعلماء الأزهر حرصها على عدم المساس بنظام « الرزق الإحباسية » وهى الأراضى الزراعية التى حبست ، أو وقفت للإنفاق من ريعها على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والمدارس والصدقات ، وما إلى ذلك من وجوه البر : وكانت هذه الأراضى معفاة من الضرائب : وكان المشايخ علماء الأزهر هم المتنظرين عليها أو على معظم هذه الأوقاف : وكانت تدر عليهم دخلا محترما . وقد ظل علماء الأزهر نظاراً لهذه الأوقاف طوال الحكم العثمانى ، حتى إذا تولى محمد على حكم مصر سنة ١٨٠٥ كان من بين أساليبه المالية « لاستنضاح » المال تجريد

(١) يذكر الجبرتى تفاصيل دقيقة ومثيرة عن المساعى التى بذلها الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشى الحنفى لتعيينه شيخاً للجامع الأزهر ، ويوضح مراحل المنافسة التى احتدمت بينه وبين الشيخ أحمد العروسى الشافعى ، وانقسام العلماء إلى فريقين كل منهما يناصر مرشحه الحنفى أو الشافعى . وقد استطال هذا الانقسام سبعة أشهر وتدخل ابراهيم بك ومراد بك وغيرهما من الأمراء المماليك تأييداً للمرشح الحنفى . ومع ذلك فقد ظفر الشيخ أحمد العروسى الشافعى بمشيخة الأزهر . وكان العلماء الأحناف يستندون فى مطالبتهم بمشيخة الأزهر إلى أن المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى ، وأن سلطان الدولة العثمانية والباشا العثمانى والأمراء المماليك وقاضى القضاة كل اولئك يعتنقون المذهب الحنفى ، وأن مذهب أبى نعمان هو أقدم المذاهب فى مصر . أما العلماء الشافعية فكانوا يقولون «إن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد أبدا . »

انظر الجبرتى : ج ٢ ، ص ص ٥٣ — ٥٤ .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يتقلد أحد من الحنفية مشيخة الأزهر إلا فى السبعينات من القرن التاسع عشر عندما عين الشيخ محمد المهدى العباسى شيخاً للأزهر سنة ١٨٧٠ (١٢٨٧) فكان أول من تولى الأزهر من الأحناف : وكان يقوم معها بمهمة ومنصب الإفتاء . وهو أول من تولى مشيخة الأزهر مرتين .

علماء الأزهر من هذا الإيراد أو الامتياز [١] : فكان هذا التجريد السبب المباشر فى وقوع الصدام بين محمد على وعلماء الأزهر : واستفاد علماء الأزهر أيضا من النظام المعروف باسم « مسموح المشايخ » :

وكان الباشوات العثمانيون فى مصر يخطبون ود علماء الأزهر ويتقربون إليهم تقديراً منهم لعلمهم وفضلهم ومكانتهم . وكان لبعض الباشوات صلات علمية وصداقات وثيقة مع كثيرين من أعلام المشايخ علماء الأزهر : وكان الباشوات ينزلون من القلعة لزيارة هؤلاء العلماء فى منازلهم . نذكر منهم على سبيل المثال : أحمد باشا حافظ الخادم ، وقد عين واليا على مصر فى يونيو ١٥٩١ (رمضان ٩٩٩) . ووصفت الفترة التى قضاها فى حكم مصر بأنها كانت « ربيع العلماء والفقهاء والرعايا [٢] » ، وكذلك السيد محمد باشا الشريف وقد تولى حكم مصر فى يونيو ١٥٩٦ (شوال ١٠٠٤) ، وخص بصحبته الشيخ محمد بن أبى السرور البكرى والد الشيخ محمد بن محمد أبى السرور البكرى المؤرخ المصرى ، وكان يستمع إلى دروسه . ومما يذكر أن هذا الباشا جدد القبلة القديمة فى الجامع الأزهر ، ورتب عدسا لطلابه [٣] . وأخيراً نذكر

(١) بدأ محمد على بفرض ضرائب على أراضى الأوقاف ، ثم وضع يده على الأرض الموقوفة وتولى الإنفاق من إيرادها على جهات البر التى حددها الواقف . وإذا بقى شىء من حصيلة الوقف ضمه إلى خزانة الدولة . ولكنه لم يتعرض لمبدأ الوقف فى ذاته .

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى : الروضة المأنوسة ، مخطوط سبق ذكره . ورقة رقم ٢١ . وانظر أيضا :

يوسف افندى الملوى الشهير بابن الوكيل : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب . فرغ منه مؤلفه فى شوال ١١٣١ (أغسطس ١٧١٩) مخطوط بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج تحت رقم ٥١ تاريخ . ورقة رقم ٨٨ مخطوط .

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى :
الروضة المأنوسة ورقة رقم ٢٢ مخطوط .
والنزهة الزهية ورقة رقم ٣١ مخطوط .

جعفر باشا الذى عين واليا على مصر فى فبراير ١٦١٩ (ربيع أول ١٠٢٨) ، وكان من صفوة العلماء العثمانيين ، واشتهر ببحوثه فى العلوم الإسلاميـــة ، وبخاصة علمى التفسير والكلام، واستبشر علماء الأزهر بتعيينه واليا على مصر وشاركوا فى الاحتفال بمقدمه.[1] وكان أحمد باشا كور والى مصر يستقبل فى قصره بالقلعة صدور العلماء مثـــل الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى والشيخ حسن الجبرتى ، ويخوض معهم فى أحاديث علمية . وكانت أحب الأوقات إلى قلبـــه تلك التى كان يقضيها مع علماء الأزهر مستمعاً إليهم . وكان يقول لهم « المسموع عندنا بالديار الرومية (يقصد بلاد الدولة العثمانية عامةوالآستانة بخاصة) أن مصر منبع الفضائل والعلوم »[2] . وكان يأنس للشيخ حسن الجبرتى — والد عبد الرحمن الجبرتى المـــؤرخ — وخصص له يومين كل أسبوع هما السبت والأربعاء يأخذ العلم عنه « ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى »[3] .

(١) محمد بن عبد المعطى الإسحاقى : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . فرغ من تأليفه ١٠٣٢ ﻫ (١٦٢٢م) . مخطوط بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينة سوهاج تحت رقم ٣٧٩ تاريخ ص ص ص ٤٤٢ — ٤٤٥

وانظر أيضا :

مصطفى الصفوى : صفـــرة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان . مخطوط مودع فى مكتبة رفاعه الطهطاوى فى مدينة سوهاج . فرغ منه مؤلفه فى ربيع أول ١٢٢٣ (مايو ١٨٠٨) وهو برقم ٥١ تاريخ ص ١٥٨

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٧ . وقد ظل أحمد باشا كور والياً على مصر حتى اليوم العاشر من شهر شوال سنة ١١٦٣ (١٢ سبتمبر ١٧٥٠) .

(٣) المصدر السابق .

وكان من مظاهر رعاية الدولة العثمانيـــة للأزهر اهتمامها بالمحافظة على عمارة المسجد ، وبدت صور شتى لهـــذا الاهتمام على مدى القرون الثلاثة التى امتد إليها الحكم العثمانى.وحسبنا أن نشير إلى مثال رائع لهـــذه الرعاية الحانية . لاحظ الشيخ محمـــد شنن شيخ الجـــامع الأزهر أن بعض أجزاء من بناية المســـجد قد أصابها تصدع ، وأنهـــا أصبحت آيلة للســـقوط . فصعد فى يوم الخميس الخامس والعشرين من يناير ١٧٢٠ (الخامس عشر من ربيع أول ١١٣٢) إلى القلعة حيث قابل الوالى العثمانى واسمه على باشا المظلوم وأنهى إليه مخاوفه.وكان مما قاله هذا الشيخ الجليل للباشا العثمانى : « المرجو من حضرتكم وعالى همتكم أن تكتبوا إلى حضرة مولانا السلطان نصره الله العزيز الرحمن لينعم على الجامع الأزهر بالعمارة ، فإنه محل العلم الذى ببقائه بقاء الدولة العثمانية : ولك وله الثواب من الملك الوهاب » ، واهتم البـــاشا بالأمر ، ورأى أن يضفى مزيداً من الأهمية على طلب الشيخ محمد شنن ، فاقترح أن يضع كبار المشايخ علماء الأزهر مذكرة فى هذا الصدد ترفع إلى السلطان بعـــد أن يوقعوا عليها ، ويشترك الباشا وكبار الأمراء المماليك فى وضـــع أختامهم عليها . واستجاب السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠) إلى طلب علماء الأزهر ، وأوفد بعثـــة عثمانية رسمية إلى مصر تحمل رد السلطان بالموافقة على اعتماد خمسين كيسا ديوانيا من مال الخزانة للإنفاق منهـــا على إصلاح المسجد (١) .

---

(١) انظر مخطوطين محفوظين فى مكتبة رفاعه الطهطاوى فى مدينة سوهاج .

(ا) مرتضى بك ابن مصطفى بك ابن حسن بك : ذيل تحفة الأحباب . فرغ منـــه مؤلفه فى ربيع آخر ١١٣٦ يناير ١٧٢٤ وهو برقم ٢٨ تاريخ ورقات رقم ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٢ .

(ب) مصـــطفى الصفوى الشافعى القلعاوى : صـــفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان . مخطوط سبق ذكره ، ص ص ١٨٤ — ١٨٥ .

وتوجه وفد رسمي عثماني إلى الجامع الأزهر في الحادي عشر من فبراير ١٧٢١ (الخامس عشر من ربيع آخر ١١٣٣)، وكان هذا الوفد يضم قاضي القضاة العثماني في مصر ، وأعضاء البعثة العثمانية التي جاءت من الآستانة وكبار ضباط جيش الاحتلال العثماني ، ويوسف بك الجزار ناظر الأزهر ، وعددا من المهندسين . وكان في استقبالهم عند باب المدرسة الأقبغاوية الشيخ محمد شنن شيخ الجامع الأزهر ، وأقام لهم مأدبة تكريما لهم ، وبعد أن فرغوا من تناول الطعام كشفوا على جميع جدران المسجد ، وبدأت عمليات الترميم ، وتجاوزت نفقاتها الاعتماد المالي الذي قرره السلطان ، إذ بلغت تكاليفها ٥٨ كيسا ديوانيا ، وقد غطى هذه الزيادة كل من أمير الحج وشيخ البلد . أما الشيخ محمد شنن الذي سعى في تجديد عمارة الأزهر وإصلاحه فلم يكتب له أن يشاهد نتائج مساعيه ، إذ جاز إلى ربه في السابع من مارس ١٧٢١ ، (الثامن من جمادى الأولى ١١٣٣) .

وإذا ذكرنا الباشوات العثمانيين الذين اهتموا بإصلاح مباني الجامع الأزهر فلا بد أن نشير إلى العمارة التي أمر بها الأمير عبد الرحمن بن حسن جاويش القازدغلي كتخدا سنة ١٧٥٣ (١١٦٧) هـ، لأنها لم تكن أكبر عملية معمارية أجريت بالمسجد في العصر العثماني فحسب، بل كانت أكبر وأضخم عمارة شهدها هذا الجامع منذ إنشائه والفراغ من بنائه في رمضان ٣٦١ (يونيو ٩٧٢) حتى تلك السنة .[1] فقد أضاف هذا الأمير أقساما هامة إلى بنيانه وتخطيطه فضلا عن ثلاث مآذن . ويعطي الجبرتي وصفا مسهبا ودقيقا عن الإضافات التي قام بها عبد الرحمن كتخدا[2] ، وحسبنا أن هذا الأمير « زاد في مقصورة

(١) دكتور أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الأول . العصر الفاطمي . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ص ٤٥ — ٤٧ .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ص ٥ — ٨

الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا يشتمل على خمسين عامودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب النقي، وبنى به محرابا جديدا ومنبرا، وأنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة، وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمـدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبداخله رحبة متسـعة، وصهريج عظيم وسـقاية لشرب العطاشى المـارين .... » ويقول الجبرتى أيضا إن الإضافات الجديدة فى الجامع الأزهر جاءت « من أحسن المبـانى فى العظم والوجاهة والفخامة » : ويعتبر المؤرخون عبـد الرحمن كتخدا رائد العمارة الإسلامية فى مصر إبان الحكم العثمانى، وأنه جمع فى أكثر مبانيـه بين الفن والجمال [1] ، واشتهر باسم « صاحب الخيرات والعمائر فى مصر والشـام والروم » [2] .

* * *

يبين من هذا التحليل السريع لبعض الأوضاع التى كانت سائدة فى مصر إبان الحكم العثمانى أن دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر كان نتاج عدة عوامل تضافرت معا فى الإبقاء على الوجـه العربى لمصر، وكان بعضها عوامل ذاتية انبثقت من الأزهر نفسه، ومن رسوخ مركزه فى الحياة المصرية بحيث طبعها بطابع خاص، وغدا الأزهر جزءاً لا يتجزأ من الحيـاة العامة فى مصر سواء فى النواحى السياسية أو الدينية أو العلمية أو الاجتماعيـة، بينما كان البعض الآخر من هذه العوامل يتصل بما يمكن أن نطلق عليه فلسفة الحكم العثمانى. ومما لا مراء فيـه أن العثمانيين قد أسهموا عن غير قصد فى

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة وتاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨٢٥) من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٧ .

تمكين الأزهر من القيام بهذا الدور ، فكان هو الحصن الحصين للغة العربية . وكان علماء الأزهر ومجاوروه هم حراس هذا المعقل ، حافظوا على التراث الحضارى الفكرى الإسلامى ، وبخاصة اللغة العربية لساناً وأدباً وسط ظروف متناهية فى قسوتها وظلامها وعسفها ، واستطاعوا طوال ثلاثة قرون رد اللغة التركية عن التسلل إلى المجتمع المصرى. وليس من المبالغة أن نقرر أن أسمى خدمة أسداها الأزهر فى تاريخه الحافل عبر العصور والأدهار إلى مصر والعروبة إنما تتمثل فى اضطلاعه بالمحافظة على اللغة العربية ، وما نجم عن هذه المحافظة من آثار بعيدة : وكفى الأزهر فخراً وفضلا أنه حفظ للغة العربية حياتها ، وللثقافة العربية أصالتها ، ولمصر طابعها العربى ، وأصبح الاسم العلمى الذى يطلق عليها خلال الفترة من سنة ٩٢٣ حتى سنة ١٢١٣هـ (١٥١٧–١٧٩٨) هو « مصر العربية إبان الحكم العثمانى » :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى
أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

من أهم المصادر والمراجع التى
ورد ذكرها فى هوامش هذا البحث

أولا : المخطوطات

(١) ابن الوكيل ، يوسف افندى الملوى الشهير بابن الوكيل :
تحفـــة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، وهو محفوظ برقم ٢٨ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينة سوهاج :
من ورقة ١ إلى ورقة ١٨٠ لابن الوكيل ٩٢٢/١١٣١
ومن ورقة ١٨١ إلى ورقة ٢٠٢ وهى آخر المخطوط من تأليف مرتضى بك ابن مصطفى بك ابن حسن بك الكردى الدمشقى ١١٣١/١١٣٦

(٢) أحمـــد الدمنهورى : اللطائف النووية فى المنح الدمنهورية .
محفوظ برقم ٢٣٢ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينـــة سوهاج ، ١٠٢ صفحة من القطع المتوسط :

(٣) الإسحاقى ، محمـــد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى الإسحاقى المنوفى الشافعى :
لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول :
محفوظ برقم ٣٧٩ تاريخ بمكتبة رفاعه الطهطاوى بمدينة سوهاج ، أنجز تأليفه فى ٢٦ ربيع آخر ١٠١٦ هـ

(٤) البكرى، الشيخ السيد محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى:
الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة :
محفوظ برقم ٢٢٦١ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
فرغ منه مولفه فى سنة ١٠٥٤ هـ

(٥) ———————— :
النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية :
محفوظ برقم ٢٢٦٦ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
فرغ منه مؤلفه فى ١٣ ذى الحجة ١٠٥٩ هـ

(٦) الشبراوى ، عبد الله الشبراوى :
نزهة الأبصار فى رايق الأشعار
محفوظ برقم ١٠١ أدب بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج :

(٧) الصفوى ، مصطفى الصفوى الشافعى القلعاوى :
تاريخ صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان :
محفوظ برقم ٥١ تاريخ بمكتبة رفاعة الطهطاوى بمدينة سوهاج :

(٨) الغزى، نجم الدين بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزى العامرى القرشى الشافعى :
الكواكب السايرة بمناقب أعيان المائه العاشرة .
محفوظ برقم ١٢٠٦ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

(٩) النابلسى، عبد الغنى بن اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم بن النابلسى الدمشقى الحنفى القادرى النقشبندى :
الحقيقة والمجاز ، فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز .
محفوظ برقم ٢٤٨١ تاريخ المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

(١٠) مصطفى ابن الحاج ابراهيم تابع المرحوم حسـين أغا عزبان :

تاريخ وقائع مصر القاهـرة ، كنانة الله فى أرضه .

محفوظ برقم ٤٠٤٨ تاريخ بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهـرة .

ثانيا : المطبوعات العربية مرتبة أبجديا

(١) ابن إياس ، أبوالبركات محمـد بن أحمد الشهير بابن إياس :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، المشهور بتاريخ مصر . طبعة بولاق ، ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ — ١٨٩٥ م) .

(٢) أحمـد عزت عبد الكريم (دكتور) :

تاريخ التعليم فى عصر محمـد على ، القاهـرة ، ١٩٣٨ .

(٣) أحمـد عزت عبد الكريم (دكتور) بالاشتراك مـع الدكتور محمد بديع شريف وزكى المحاسنى : دراسـات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة . لم تذكر سنة الطبع . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة .

(٤) أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) :

المقدمة التى وضعها لكتاب «حوادث دمشق اليومية» ١١٥٤ — ١١٧٥هـ (١٧٤١ — ١٧٦٢م) ألفه الشيخ أحمـد البديرى الحلاق ونقحه الشيخ محمد سعيد القاسمى . وحققه ونشره الدكتور عزت . من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية ، القاهـرة ، ١٩٥٩ .

(٥) أحمـد فكرى (دكتور) :

مساجد القاهـرة . ومدارسها . الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهـرة ١٩٦٥ .

(٦) الجبرتى ، عبد الرحمن حسن الجبرتى (الشيخ) :
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة بولاق ١٢٩٧ﻫ (١٨٨٠م)
أربعة أجزاء :

(٧) المحبى ، محمد الأمين فضل الله بن محب الله المحبى :
خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر : القاهرة ، ١٢٨٤ ﻫ
(١٨٦٧ — ١٨٦٨) أربعة أجزاء :

(٨) المرادى ، محمد خليل المرادى :
سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر . القاهرة ، ١٣٠١ (١٨٨٣) م
أربعة أجزاء :

(٩) المقرى ، شهاب الدين أبوالعباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقرى :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكروزيرها لسان الدين
ابن الخطيب . مطبعة بولاق بالقاهرة ، ١٢٧٩ ﻫ (١٨٦٢)
أربعة أجزاء .

(١٠) توفيق الطويل (دكتور) :
التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى : القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع

(١١) حسن عثمان (دكتور) :
تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ :
دراسة نشرت فى مجلد باسم « المجمل فى التاريخ المصرى » القاهرة
١٩٤٢ :

(١٢) عبد الحليم الجندى (المستشار) :
الإمام الشافعي : القاهرة ، يناير ١٩٦٧ .

(١٣) عبد الرحمن زكى (دكتور) :

القاهــرة ، تاريخها وآثارها (٩٦٩ — ١٨٢٥) من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ. القاهــرة: ١٩٦٦، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(١٤) عبد العزيز محمــد الشناوى (دكتور) :

عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، القاهــرة : ، ١٩٦٧ .

(١٥) ———————— :

أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ (الفصول ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ الخاصة بالدولة العثمانية وخصائصها ، والزحف العسكرى العثمانى ومراحله وخصائصه ، والنذر الأولى لاضمحلال الدولة العثمانية)

(١٦) على الجرتلى (دكتور) :

تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٢ .

(١٧) على مبارك باشــا :

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهــرة ومدنها وبلادها القــديمة والشهيرة . القاهــرة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨ — ١٨٨٩) ٢٠ جزءا

(١٨) محمــد أنيس (دكتور) :

مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهــرة ، ١٩٦٢ .

(١٩) محمــد جميل بيهم :

العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب . بيروت، ١٩٥٧ .

(٢٠) محمـــد عبد الله عنان :

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . القاهـــرة ، ١٩٤٧ .

(٢١) ———— - :

تاريخ الجامـــع الأزهر ، القاهـــرة ، الطبعة الثانية : ١٩٥٨

(٢٢) محمـــد فهمى لهيطة (دكتور) :

تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، القاهـــرة ١٩٤٤

(٢٣) محمـــد فؤاد شكرى (دكتور) :

مصرفى مطلع القرن التاســع عشر (١٨٠١ — ١٨١١) القاهـــرة ، ١٩٥٨ ، ثلاثة اجزاء

(٢٤) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر :

الأزهر تاريخه وتطوره ، القاهـــرة ، ١٣٨٣هـ (١٩٦٤) .

وضع مقدمة الكتاب الأستاذ الدكتور محمـــد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر وقتذاك .

(٢٥) الأزهر فى ١٢ عاما :

سجل وضع تنفيذاً لقرار وزارى رقم ٢ لسنة ١٩٦٤ صدر عن وزير الأوقاف وشئون الأزهر . وقامت باعداد السجل لجنة برياسة الأستاذ الدكتور محمـــد عبد الله ماضى وكيل الأزهر ومثل فيها مجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للأزهر والإدارة العامة للمعاهد الأزهرية .

لم تذكر سنة طبع السجل .

ثالثا : المصادر والمراجع غير العربية مرتبة أبجديا

(1) Dr. Afaf Loutfi El Sayed; The Role of the ʿUlamāʾ in Egypt during the Early Nineteenth Century with a detailed introduction on Mamluk Egypt.

A Historical Study presented to the Conference on the Modern History of Egypt held in London in April 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

See No. 8 in this bibliography.

(2) André Raymond; Quartiers et Mouvements Populaires au Caire au XVIII siècle.

Communication faites au congrès sur l'histoire de l'Egypte Moderne qui s'est tenu à Londres en avril 1965. Voir No. 8 dans cette bibliographie.

(3) Chabrol (de); Essai sur les mœurs des habitans (sic) modernes de l'Egypte.

dans :

Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et de Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'Armée française. Seconde édition, celle de Panckoucke, Paris, 1821 - 1829. T. XVIII, Première partie, pp. 1 - 340.

(4) Combe Etienne; L'Egypte Ottomane, de la Conquête par Selim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798).

dans :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols.

Tome troisième. Le Caire, 1933. Première Partie.

(5) Estéve le Comte; Mémoire sur les finances de l'Egypte, depuis sa conquête par le Sultan Selym Ier, jusqu'à celle du général en chef Bonaparte.

dans :

Description de l'Egypte; t. XII. pp. 41 - 248.

(6) Gamal El Din El Shayyal; Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth - century Egypt,

A Historical Study presented to the London Conference referred to in No. 8 in this bibliography.

(7) Holt P. M.; Ottoman Egypt (1517 - 1798): An account of Arabic Historical Sources.

A Historical Study presented to the London Conference referred to in No. 8 in this bibliography.

(8) ....; Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. London, 1968.

Professor Holt, being the editor, included in this volume the essays presented to the Conference on the History of Modern Egypt, held in April, 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

(9) Jomard E.; Description de la ville et de la citadelle du Kaire (sic), accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (sic), sur sa population, son commerce et son industrie.

dans :

Description de l'Egypte, t. XVIII, Deuxième partie, pp. 113-538.

(10) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie 1798 - 1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le Général Bertrand. Paris, 1847. 2 vols.

(11) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte, ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successurs d'Ali - bey et suivis du récit des événemens (sic) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed - Ali. Paris, 1830 - 1836. 10 vols.

(12) Stanford J. Shaw; The Financial and Administrative Organisation and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798. Princeton University Press. Princeton N. J., 1962.

(13) .... ; Ottoman Egypt in the Eighteenth Century. The Nizâmnâme - i Missir of Cezzar Ahmed Pasha. Edited and translated from the Original Turkish by Stanford J. Shaw. Harvard, 1962. Distributed for the Center for Middle Eastern Monographs.

(14) .... ; Landholding and Land - tax Revenues in Ottoman Egypt.

A Historical Study presented to the London Conference referred to in No. 8 in this bibliography.

(15) Vansleb; Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage en Egypte Paris, 1698.

القاهرة مدينة النهضة الأدبية العربية

البروفيسور الدكتور عبد الكريم جرمانوس

القاهرة مدينة النهضة الأدبية العربية

البروفيسور الدكتور عبد الكريم جرمانوس

احتلت الخرافات والخزعبلات فى عصر القـــرون الوسطى فى أوربا مكان العلوم القديمة ، حيث اختفى الأمان لدى العامة ومجموعات الشعب ليسيطر بدلا منه الخوف والرعب على الانسان . لهـــذا أطلق العلماء والمؤرخون على عصر القـــرون الوسطى فى أوروبا عصر الظلمات . . عصر الخوف والجهل وعدم المعرفة .

وبينما كانت أوروبا غارقة فى قاع الحياة ، كان النبى محمـــد صلى الله عليه وسلم ، فى بلاد العرب بمعجزاته الإلهية يوقظ فى الشعب العـــربى قدرته النـــائمة ، لينتصر بسلاحـــه البسيط وحميته الدينية على جيوش البيزنطيين والفرس المكتملة حربيا وعسكريا . . وليثبت أن ليس السيف ، وليست القوى الفجة هما سبيلا النصر وليؤكد أن الروح والإيمان هما اللذان قادا الحروب العربية إلى الفـــوز والنصر .

لقد انهزمت وقهرت أقوى الدول قبل عهد الإسلام ، ولقد علّم النبى محمد البحث عن المعرفة فى قوله ما معناه ابحثوا عن المعرفة ولو كانت فى الصين وكانت هـــذه هى إحدى علامات الإسلام العربى : وبهـــذا اتسع نطاق

اللغة العربية فى الشرق حتى الهند وآسيا الوسطى وفى أوربا عامة ، وعبرت اللغة قارة افريقيا حتى عمت الأندلس .

وبهذا ، وفى كل مكان دعا الاسلام إلى النهوض بالمسلمين وإلى الارتفاع بمستوى المعرفة فبنيت المساجد ، ولم يكن الغرض منها هو إقامة شعائر الصلاة وحدها ، لكنها أصبحت مدارس أيضا للمسلمين حيث علمت مختلف العلوم من القراءة حتى الفلسفة . وكانت مدارس هـــذه المساجد الإسلامية ومركزها الأزهر الشريف ، نموذجا لمثيلاتها بعد ذلك فى معاهد وجامعات أوروبا . بل أن كلمة جامـــع العربية أطلقت بعد ذلك على الجامعة التى تحوى مختلف الفروع والعلوم. فعندما كان القساوســـة فى أوروبا يحاولون معرفة القراءة فقط كادت تكون المـــدن العربية فى القاهـــرة ودمشق وبغداد والاندلس على قدر كبير من القـــراءة والكتابة . وبينما كانت المخطوطات اللاتينيـــة فى الأديرة المسيحية الأوربية تعلوها الأتربة من أثر عدم استعمالها ، كانت المكتبات العربية تزخر بمئات الألوف من المخطوطات تقف فى خدمة طالبى العلم وراغبيه . لقد ترجم العلماء العرب العلوم القديمة والفلسفة والميكانيكا والجبر والفلك ، حيث لاتزال بعض النجوم تحتفظ بأسمائها العربية الأصلية . لقد طور العرب علم الطب منذ العصر القديم . وعلم الصناعة والتقدم العلمى الكبير الذى أحرزوه فى مجال الكيمياء يسجل بفخر عظمة الحياة الخيرة وحاسة الذوق وحسن المذاق فى مختلف البلاد والمدن العربية .

لقـــد أنقذت العبقرية العربية الإنسانية من الجهل وسلطت النـــور على مايعشـــش فيها من ظلام . لهـــذا فليس غريبا أن تكون الإنسانية بأجمعها مدينة بالشكر والحمد للعالم العربى .

وبجانب العواصم العربيـــة دمشق وبغداد وقرطبة وصقليـــة وغرناطة لمعت وأضاءت فى أفريقيـــا نجمة إسمها القاهـــرة ، عملت على تحقيق الثقافة الانسانية معلنة إياها فى رفعة وانتصار . هـــذه المدينة المنتصرة هى التى تحتفل اليوم بعيدها الألفى التاريخى :

لقد تطور الجوهر على مر السنوات الألف مارا بالتبديلات والتغييرات حتى أصبحت مدينـــة كبيرة : : وهى اليوم أجمل عواصم العالم وموضع الاهتمام وللشعب المصرى أن يفخـــر بذكرياته التاريخية التى ترويها مدينته الثرية . القاهـــرة .

لاتوجد فى أى من مدن العـــالم مدينة تستطيع أن تفخر بتاريخها العريق كالقاهـــرة . . حيث ترتفع فيهـــا على قرب من الأهرام شامخـــة ، وحيث أخرجت الحفريات للعـــالم أقدم وأعظم الثقـــافة الإنسانية . إن قاهـــرة القرون الوسطى العربيـــة والفـــاطميين وحكم المماليك والمساجد الرائعة لكلها آثار فخر . لقد أعلن الأزهر ذو الألف عام كيف استطاع أن يحصل على العجائب من قدرة الانسان وعظمته . إن تاريخ القاهـــرة لم ينفصل ولم يتغير ولم يمسسه ســـوء تحت الحكم الأجنبى ، وظل دائمـــا تاريخا عربيا وإسلاميا ، لأن فى هـــذه المدينة ولد الأدب العربى كمـــا ولد العلم .

وفى النصف الثـــانى من القرن التاســـع عشر اتخذت العقلية العربية فى مصر ، القاهـــرة طريقا لهـــا . فارتقت التقاليـــد الإسلامية وظهرت ، وفهم المجددون الموجهون لاتجاهـــات الديمقراطية الإسلامية كلمـــة العصر وروحه ، وأبدعت الآلة البخارية والسكك الحـــديدية وعصر الكهرباء علاقات جديدة لنهضة الحياة ، عكست إشعاعات روحية وفكرية على عبد الله فكرى وعبد الله النديم ومحمود سامى البارودى وعلى باشا مبارك ، واسماعيل

صبرى . كما أن محمد عبده وجمال الدين الافغانى أكبر معلمين للجيل المصرى الجـديد فى ذلك الوقت ، قد خطا طريقا جديدا فى القاهرة بالنسبة للعربية وللإسلام عامة . وكان تلامذتهم فى الأدب المصرى وفى العلـوم من أكبر الممتازين نذكرمنهـم محمد حسين هيكل والعقاد وعبد القادر المـازنى وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ، بل وطه حسين أيضا . . . لقـد ولدت الثقافة العربية فى القاهـرة وما زالت هـذه المدينة تقبض على ناصية القيادة الفكرية للأدب العربى ومركزا له فى العالم المعاصر .

لقد قادتنى أحلامى ورغباتى وأفكارى إلى القاهـرة قبل أن أراها أو أحل بها . لقد تعلمت العربية بعد أن فرغت من تعلمى للتركية والفارسية ، وعندما دعانى الشاعر الهنـدى الكبير رابندرانات طاغور عام ١٩٢٩ لكى أدرس التاريخ الإسلامى فى جامعته ، بدأت فى مراسلة كتّاب القـاهرة الممتازين :

كان من بين مراسلى ، الصديق محمد عبد الله عنان الذى أرسل لى كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » ، ثم كتابه « مصر الإسلامية » ، ثم كتاب « ابن خلدون » احدى الدراسات الفريدة العميقة ، وبالمراسلة وثقت فيـه ليعمل على تكوين وإنشاء نادى القلم المصرى . . إذ أننى بناء على طلب الكاتب الانجليزى الشهير جون جولزورثى قد عملت أمينا عاما لنادى القلم المجرى فى عام ١٩٢٦ ، وفى عام ١٩٢٨ عملت على تكوين نادى القلم البلغارى أثناء زيارتى هناك . ولقد سـعدت كل السعادة أن محاولاتى لم تذهب هبـاء وتكللت خطوات عنان ومتاعبه بالنجاح ، وخرج نادى القلم المصرى إلى النور تحت رئاسة الدكتورطه حسين حيث انضم إليه نخبة من أنبغ الكتاب المصريين .

وفى طريق عودتى من الهند عام ١٩٣٣ سافرت إلى لندن ، و سعيت إلى مستشفى سانت جورج حيث زرت فيها الشـاعر العربى الكبير الدكتور ابراهيم ناجى الذى كان يرقد هناك إثر حادث تصادم سيارة . وحينما دخلت

عليه وتحدثت بالعربية قابلنى بترحاب كبير منطلق البشر ، لكننى مازلت أذكر أننى لم أفهم من حديثه كلمة واحدة هى «ازيك » ، خاصة بعد أن نظرت إليه فى سذاجة ويأس .. إذ عجبت كيف بعد كل هـذه القراءات العربية الكثيرة التى قمت بها لم أستطع أن أفهم كلمة « ازيك » عند سماعى لها خاصة، فى أول مقابلة لى وجها لوجه وعينا لعين مـع أول كاتب عربى . لكن كيف كان لى أن أعرف بعد قراءتى للقرآن الكريم والعديد من الكتب العربية ، أنهم فى القاهـرة يستعملون كلمة « ازيك » اختصـارا لكلمة « اى زيك » .

لقد عدت إلى القاهـرة والخوف يملأنى، لأنى لم أسمع الكلمات التى اعرفها مثل اقول لك ، لكننى سمعت بدلا منها « اقولك » . لقد كان على أن اشترى اذنا جديدة وعقلا جديدا لأفهم كلمات وتعبيرات أصدقائى الكتاب لكن الحقيقة أن زملائى من الكتاب قد تصرفوا معى بكل حب وأخـوة . لقد صحبنى عبد الله عنان إلى شيخ الجامع الأزهر، الشيخ الظواهرى مستأذنا منه أن أحضر محاضراته ودروسه فى مسـجد الأزهر ، وهناك على الأرض أجلس متربعا وأتعلم وأنهل من المعرفة الإلهية .

عندما كنت فى الهند أسلمت عائدا إلى الديانة الاسلامية فى مسجد دلهـى الكبير ، وقد أهلنى هذا للدخول إلى رحاب مسجد الازهر الشريف لأتربع بين جدرانه وآخذ مكانى بين صفوف المشايخ . لقد تفتح أمامى عالم جديد . . لقد تحققت بين أعمدة الأزهر الديمقراطية الإسلامية الكاملة بكل ما تحمله من معان ، وبين هـذه الأعمدة كان هناك مصريون وسودانيون ومغربيون وجزائريون وهنود ومن مالاى والصين وبوشنياك واتراك ، وبين هؤلاء الأزهريين جميعـا كنت أنا الطالب المجرى الوحيد . لقد كنت سعيدا ،

وإلى اليوم لازلت أفخر بأن قادنى المصير إلى هـذا الطريق .. لقد طوقت أساتذتى فى الأزهر بحبى واحترامى لهم، وهم أيضا بادلونى هذه المحبة .

بل أنه كان من دواعى سرورى وفخرى أن حضرت وضـع حجر الأساس عام ١٩٦٤ للجامعة الازهرية عندما انبثق من الأزهر القديم جامعة مكتملة عصرية مقرها القاهـرة ابدعتها حكومتها الجمـهورية ، بل إننى القيت عدة محاضرات فى كلية اللغة العربية وأصول الدين عن الأدب العربى تحت رئاسـة البروفيسور ابراهيم محمـد نجا . لقد كان الطلبة الجامعيون متعطشين للعلم والمعرفة :

يثير اهتمامى منذ عشرات السنين الإنشقاق بين اللغتين الفصحى والعامية : لم ألاحظ مثل هـذه الفروق الهامة بينهما فى أى لغة أخرى : لقد قلقت على العربيـة وخفت ألاتسطيع المدارس أن ترفـع من مستوى اللغـة العامية ، لغة الشعب . وأن يقع خطاف الثقافة بين الفصحى والعامية : . هذا الخطاف الذى يعمـل كالمسباك أو كالمصهر ليحول الفصحى إلى عامية منصهرة من المغـرب إلى إيران . ولقد ساعدنى كثير من الكتاب على تخفيف هـذا القلق من نفسى :

بحثت عن عباس محمود العقاد فى مصر الجديدة . : صديقى العقاد الكاتب والشاعر والفيلسوف وصاحب الثقافة العريضة . كان طويل القامة ، قوى العود ، جميل الوجه . من مدرس بسيط ظل يتصارع مع نفسه حتى وصل إلى درجة علمية إعترف بها اصدقاؤه . إستمعت إلى كلمات العقاد فى كثير من الورع والتقوى والإحترام : لقد عرفت أعماله من قبل . لقد كان العقاد من أعظم الفخورين بنفسه وبشعره الذى يكتبه ، قرأ لى من بين أشعاره «ديوان عابر سبيل » قرأه بإيقاع موسيقى منغم ، فأبرز موسيقية الشعر العربى وارتفع به إلى العنان .

وحينما ذكرت له ما أحس به من شقاق بين الفصحى والعامية رد قائلا «لاتقلق إن الوقت واللغة كفيلان بحسم الأمر . لقد كانت اللغة العربية منذ قديم الزمان سليمة ومفهومة لدى العامة ، ثم فقدنا استقلالنا السياسى حيث حكمنا الدخلاء الأجانب ، وبقى الشعب دون تعليم يتحدث اللغة العامية . : إن التعليم المدرسى سوف يعلم شعبنا العربية الفصحى ، وبعد وقت قليل سيتكلم كل واحد بالعربية . . إن الحكم الانجليزى الاستعمارى لم ينشئ مدارس انجليزية منذ الثورة المصرية التى حررت الشعب ، فإن حكومة الثورة تعمل على رفع مستوى التعليم ونشره بين السكان ، والصحافة تلعب دورا هاما فى ذلك : لقد رضى الشعب قبل ذلك بمصيره مؤثرا السكوت ، لكنه اليوم نهض ليبحث عن طريقه وصالحه :

وفى نفس المدارس تعلمت المرأة القراءة والكتابة ، والنساء الآن يقمن بدورهن لإنعاش أدب القصة . وهذا سوف يرفع من شأن المرأة المصرية ويخرجها من معقل « الحريم » لتقوم بدورها الفعال فى تطور حياة مجتمعنا المعاصر » :

كثيرا ما كنت ضيف العقاد ، استمعت لساعات طوال إلى إجاباته العديدة التى يرد بها على أسئلتى . لقد كان يرى بالنسبة للأدب أنه من الضرورى أن يؤثر روحيا ووجدانيا ، وكان يطلب ذلك من الكاتب ومن القارئ فى نفس الوقت . كان يقول « لايكفى أن يكتب الانسان فقط . : بل عليه أن يتعلم كيف يقرأ أيضا » . لقد كان العقاد يجيد القراءة والكتابة ، لم يتعمق أحد مثله من الأوربيين مثلما تعمق هو فى أعمال الفلاسفة اسبينوزا ، كنت ، شوبنهاور ، نوردا ، فونت . دهشت للحديث المنمق المدبج الذى أعده خصيصا راديو القاهرة بمناسبة ٧٠ عاما على ميلاده للاحتفال بجماعة اصدقاء العقاد :

إن القـــاهرة لتتمتع بالتقدير والاحترام ، مثلها فى ذلك مثل العصر الأثينى القديم . لأن كل من يحل بها من الباحثين الغربيين ومن الكتاب يحس وكأنه فى وطنه الأم . لقد استقبلت كثيرا من الكتاب المصريين ، من أمثال اللامع توفيق الحكيم ، الذى أراد أن يكتب أدبا مصريا حقيقيا باذلا كل جهوده ومعرفته من أجل هـــذا الهدف . تعلم وعاش فترة فى باريس ، وحينما عاد إلى القـــاهرة أحس بأنه أحضر معه نسيم باريس إلى مصر . أراد أن يكتب بما يحس وبما يريد أن يعبر . لم يتأثر بالأدب القديم أو بأشكاله المختلفة عن الجمال أوعن سباق الغزلان فى الصحراء ، لم يرتعد أو يرتجف او قرأ عن البردانين (المقـــروران) اللذين تركا الأطلال باكيين . . ومع ذلك فقد اتخذ الحكيم موضوعاته من الخرافات الإسلامية القديمة لأنه يستطيع بخياله أن يرمز بكل قوة إلى مايريد . لكن الجديد عنده أن الشكل واللغة جديدان ، وهو فى حواره يقترب شيئا فشيئا من لغة الشارع .لقد كتب اسطورة شهرزاد، لكنه يعرض لنا فيها أناسا أحياء . لقد تحدث مرة عن الأدب فقال : «كثير من بيننا من يقضمون العظم، وبهـــذا يفقدون شهيتهم للطعام .. هـــذه الشهية التى تتوق إلى اللحم الطرى .. لهـــذا اتجه أنا إلى الشعب الذى لم يصل بعد لحالة الاشباع ، فقد يساوى هـــذا شيئا ». لقد واســـيته بقولى « انتظر قليلا بشئ من الصبر . . فلسوف يأتى اليوم، وعندما يوجد فى القـــاهرة هؤلاء الناس فسيقرأون كل سطرخطته يدك » .

إن من أهم أعمال توفيق الحكيم التى رفعته إلى مكانة عالية، مسرحياته الدرامية. لقد ترجمت إحدى مجلداته الضخمة بما فيها من مسرحيات إلى اللغة الفرنسية ، ومن خلال هـــذه المسرحيات تعرف العالم على وجه من وجوه المجتمع المصرى وعلى صورة عن حياته .

ويناقش محمد أمين حسونه فى قصتة «مصر الحرة» التصادم القائم بين الحياة المحمدية الشرقية وبين حياة التمدن الأوربيـــة . وبطل قصته شاب مصرى يقع فى حب فتاة أوربية ، وتفصح القصة عن موضـــوع حزين لقصة الزواج الذى يرغبه الشاب الحائر بين الجذور المتأصـــلة فى نفسه وتقاليد الإسلام والإحساس والتمتع بالحرية .

ثم مجلده « الورد الأبيض » حيث يرسم صورة عن رياح الصحراء وعن أمواج رمالها منـــذ آلاف السنين مبرزا رغبة امرأة انجلـــيزية فى الحرية ، وحريتهـــا فى الحب . . هـــذه المرأة التى مات أوروبا الباردة وفى أحضان القاهـــرة الملتهبة المشتعلة تبحث عن السعادة .

لقد أثارت الثورة المصرية أدب حسونـــه وضمته إلى ركابها ، وبترقبه للاشياء وبملاحظاته وخبراته الطويلة استطاع بكتابه « كفاح الشعب » أن يحقق الكثير وقت الثورة المصرية :

وفى نفس دائرة أمين حسونه الأدبية يعمل الدكتور إبراهيم ناجى والدكتور أحمد زكى أبو شادى ونيقولا يوسف ومحمود تيمور ، ابن أحمد تيمور باشا .

لقد رأى الإبن نور الحياة منذ مهده فى الأدب والفن . نشأ فى هـــذه البيئة الأدبيـــة التى ورث منها الكثير عن عائلتـــه : إن محمود تيمور ليكشف عن نفسه الملونة وكأنها الوان قوس قزح . لقد ظل على مر السنين الطويلة صديقا مخلصا لى ، وإننى لأكن له مايقابل إخلاصه لى بكثير من الحب والاحترام ، واستمتع دائما بإبداعاته الأدبية ، فى أكثر من أربعين مجلدا تجمع أعماله الأدبية التى ترجمت أغلبها للغات أجنبية هامة . لقد عرفت أعماله من دراســـات كثيرة له ، لكننى والحقيقة عاجز عن تقديرها حق التقدير من كثرة ماتحوية من عظمـــة .

إن القــاهرة مدينة الألف عام لتستطيع أن تفخر بأبنائها الكتاب :

ميدان العتبة الخضراء من أهم الميادين حركة فى مدينة القاهرة .. هناك حيث المقاهى الصغيرة ، يلتهم روادها من القراء ، الجرائداليومية ليقرءوها ثم يجتمعوا فى المقهى للمناقشــة والمجادلة ، ذلك لأن روح الانسان القــاهرى تتحرك للأبد ولاتصمت أبدا ، ولأن الأفكار تندفع اماما بقوة بركانية من عقول المجتمعين : . هناك لايمكن للملل أن يجد طريقة ، ولامجال لغير العلم والاستفادة :

على هذه المقاهى تعرفت على صاحب العينين اللامعتين صغير البنية ، صديقى كامل الكيلانى : . هــذا الشاعر الحى ، رجل المكتبة الذى دائما ما يقتبس من الشعر العربى بلغة أدبية مضبوطة خالية من الأخطاء . وهو قد قسم بطبعه المتــوقد الكتاب إلى نوعين . . كتاب جياد ، وكتاب سُوء : وأهم ما يميزه فى مجــال الأدب العربى سلسلة القصص الخيالية للأطفال ، والتى من خلالها استطاع أن يساهم فى تعليم النشء اللغة العربية السليمة .

اما الدكتورزكى أبو شادى فهوطبيب وشاعر وناقد ومترجم ، قدم جديدا للأدب العــربى . : وترجم للعربية بعضا من مسرحيات شكسبير ، وفى ديوانه الشعرى يعرض مواضيع مصرية تتصل بالشعر الوجدانى ليعبر عن أحاسيس الشعب ورأى الشعب.قدم لكتبه كثير من أصدقائه . : هذه الكتب التى أخذت طريقها مع الثورة المصرية الحديثة . لقد كان زكى أبو شادى شخصية ذكية وتعرض بنقده لكثير من الشعراء العرب . ولقد كان من رأيه أن الأدب الدرامى له المقام الأكبر ، وأن مهمة المسرح هى تعليم المصريين التحدث السليم باللغة ومراعاة سلامة نطقها . فلغة المسرح ماهى إلالغة المجتمع

التى يتحدث بها الناس. ولقد كان من رأيه ايضا أن الشعر موسيقى، وأنه فكرة وإحساس، وإنه لايتحمل قيود القواعد وسلاسلها . . وقد دخل ايضا ميدان الشعر الحديث غير المقفى .

ولقد أصدر بعد ذلك مع عدد من أحبائه مجلة تحت اسم « أبولو » واسم المجلة نفسه كان برنامجا لها ، حيث عملت على ترجمة أعمال الشعراء الأوربيين إلى اللغة العربية حتى تتعرف مصر على الشعر الحقيقى — كما قال لى — لأن جوهر الشعر العربى القديم هو الكلمة وجمال الشكل وليس المعنى أو العقل، وفى آخر وداع لنا هكذا قال لى: « إن الشاعر هو بنى عصره . . لذا يجب عليه الايكون معظما وممجدا للماضى، لكنه من الضرورى أن يصبح ابن العصر ». ومنذ وفاته والشعراء المعاصرون يرددون وصيته الأدبية هذه .

لقد كان بجانب الدكتور زكى أبو شادى الكاتب المناضل عالم كبير آخر ومفكر عميق ، هو صديقى سلامه موسى صاحب النفس الطيبة الحالمة كما كانت تبدو وتظهر ، كثيرا ماكنت ضيفا على هذا الصديق . لقد كان سلامة موسى أول المصريين الذين عرفوا علم الاجتماع الأوربى وكذلك قوانين الحياة الاجتماعية. حقيقة إن العالم الكبير محمد عبده ترجم للعربية الدراسات التى كتبها هربرت سبنسر عن التربية بعد ظهورها بقليل ، هذه الدراسات التى كانت بمثابة الزيادة الفكرية فى الستينات من القرن الماضى . . لكن سلامه موسى عرف بعلوم الطبيعة وبالدارونية وبعلم الحياة الاجتماعى الذى كتبه سبنسر ، كما عرف بنظريات فرويد فى علم النفس. لقد أعان سلامه موسى أن السلالة المصرية اليوم أمتداد لسلالة الفراعنة والقدماء، وفى هذا مايبعث على الفخر لمصر فى العصور الوسطى ومصر العصر الحديث اللتين هما امتداد لتاريخها القديم .

لازلت اذكر بالخير الجريدة اليومية « السياسية » ، اذكر قصرها الجميل المبنى على الطراز العربى حيث تغطى حديقتها شتاء أشعة الشمس ، هناك حيث تحدثت مع الدكتور محمد حسين هيكل رئيس التحرير . وعندما علم الدكتور هيكل بأنى تلميذ جولدزيهر اجناتس قال لى « لقد حدثنى أحمد زكى باشا عنه ، لقد حضر هذا العالم إلى بودابست قبل الحرب وزار جامعة بودابست ، التى تركت فى نفسه أعمق الأثر ، لقد سمع أن هناك عالما مجريا يلقى محاضراته على المسيحيين فى قواعد الاسلام . ومنذ ذلك الوقت فأنا المجرى الثانى ، الذى أصبح خلفا له ، لكننى مسلما وحاج .

لقد أنهى الدكتور هيكل الجامعة فى باريس ، وهناك تكـون عقليا وفكريا ، وأعد نفسه لكتابة القصة التاريخية المصرية . ففى قصته زينب نجد تطور النقد واضحا ، فقد وقف هيكل إلى جانب قاسم أمين مطالبا بتحرير المرأة ، وكان ثائرا مجددا يحارب ليخرج الشعب المصرى من الجمود . لهذا فقد كان يعنف ويزجر كتاب الجرائد الشاحبين الضعفاء . لقد كان ثائرا وبأحاسيسه الدينية كتب كتابه « حياة محمد » عن الرسول صلى الله علية وسلم . يذكر فى كتابه « فى منزل الوحى » فى الصفحة الثامنة والثلاثين ، يكتب أننى كنت مثلا له فى تشجيعه على السفر لاتمام مراسم الحج فى مكة المكرمة :

والآن ، وأنا أستنشق هواء القـاهرة العطر ، أحس وكأننى الباشا الذى كتب عنه محمـد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام فى قصته الفكهة هـذا الباشا الذى استيقظ من حـلم مئات السنين وحضر عرضا إلى القـاهرة فلم يصدق عينيه . وأنا أيضا نفس الشئ . لقـد كنت حاضرا عام ١٩٣٤ فى افتتاح مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهأنذا وكأننى أستيقظ من حلمى لأشهد التقدم والرقى الذى وصل إليه المجمع . إن مهمة المجمع عظيمة

الشأن فى توحيد وتنسيق الحـرية الروحية والفكرية لعلماء المسلمين الذين انحازوا ومالوا إلى الغرب باستشراقهم.انى لفخور بذلك. : فخور بأنى منذ عشرات السنين وأنا أعمل كمجرى وحيد وكعضو بالمراسلة لهـذا المجمع العلمى القدير :

وهناك فى مجمع اللغة العربية تقابلت مع منصور فهمى باشا الذى كان أمينا عاما للمجمع : : وعقدت صداقة متينة أيضا مع العالم أحمد حسن الزيات واليوم نسعد بالعالم ابراهيم مدكور أمين عام مجمع اللغة العربية :

وفى المجمع ينشط المجتهد شوقى أمين مدرسى السابق ، ويجلس على كرسى الرئاسة — ليس فى القـاهرة وحدها ، بل فى العالم العربى أجمع — الدكتور طه حسين . لقد كتبت كثيرا عن هذا العالم المتجدد الذى يرى — إلى بعيد — كل شىء ، لقد وقف قامى دائما بجانبه حينما تعرض للهجوم. وأثناء وجودى فى وطنى بالمجر بعيدا عن شاطئ النيل قرأت له كل كتاباته . . قرأتها واستمتعت بها : انى اقف أمامه بكثير من الاحترام والتقدير ، وأكبر فخر لى أن كتابى عن تاريخ الأدب العربى الذى أهديته إليه قد أتاح لى أن يكتب دكتور طه بخطه الكريم رسالة منه . . هذه الرسالة أحفظها بكثير من الاحترام والتقدير :

يالها من ذكريات لاتحصى ، تجعلنى أفكر فى الكتاب والعلماء الذين عرفتهم ، هؤلاء الذين ينعمون فى جنان خالدة أبدية. .أوه . ابراهيم عبد القادر المازنى ، أحمد أمين الذى كتب دراسات فى تاريخ الاسلام فى كتابه «فجر الاسلام» وكتابيه «ضحى الإسلام ، وفيض الخاطر» :::: كم تعلمت منهم:

لكن العالم الدكتور محمد خلف الله أحمد ما زال بخير وفى تقدم وازدهار ، وأنور الجندى الناقد ، والضاحك للابد أحمـد رامى الشاعر والمترجم الذى كتب لعندليب الشرق أم كلثوم كثيراً من الاشعار والأغنيات :

إن عجلة الزمن لاتتوقف ، وأنهـــا لتحطم كل من يقف فى طريقها :
لقد اختفى السلاطين والملوك من بعدهم ، واشتعلت القـــاهرة فرحا بأصوات الشعب مهللة للجمهورية . وأخذ ابطال شجعان على عاتقهم تحديد المصير واتجاهه . فتقدم إلى الامام أصحاب الأقلام ، وتحررت الصحافة ، وساعدت كثير من المجلات والجرائد اليومية والأسبوعية الكتاب على نشر قصصهم وأعمالهم فى مجلات أولا . . ثم فى اطار الكتاب بعد ذلك . وتحررت المـــرأة المصرية وأتيحت لها فرص التعليم الجامعى ، ومن النساء اليوم دكتوره عائشة عبد الرحمن ودكتورة نعمات أحمـــد فؤاد ، وأخيرا وليس آخرا دكتورة سهـــير القلماوى الاستاذة الجامعية ورئيسة مجلس ادارة هيئة التأليف والنشر : وهن جميعا من أعلام الثقافة المصرية

وفى عهد الجمهورية خرجت إلى النور القصة المصرية الجديدة ،واذكر بعضا من كتابها الاصدقاء .. النابغة يوسف السباعى الذى يمتد بقلمه نحو واقعية الحياة راسما مشاكل المجتمع المصرى بريشته رسما دقيقا ، وكذلك أمين يوسف غراب ومحمود البدوى ويوسف ادريس ، وكل قصصهم تنبع من الحياة المصرية ، ثم نجيب محفوظ وعبد الحميد جوده السحار وعبد الحليم عبد الله ونجيب العقيقى وعبد الرحمن الشرقاوى بقصصه التى تبحث فى حياة الجيل المعاصر للمجتمع من خلال تشريح الحقيقة وتحليلها .. والجميع يبرزون أمراض المجتمع ومواجعه وكيفية العلاج والقضاء عليها .

كما كتب مسرحيات تاريخية الكاتب العربى المولود فى الجنوب العـــربى والمستوطن بالقـــاهرة على أحمـــد باكثير : حيث كتب عن ثورة القرامطة فى اسلوب حى شيق .

ويرى عبد الرحمن الشرقاوى أن سنة ١٩٥٥ تعتبر بمثابة نقطة هامة فى حياة الأدب المصرى، حتى هذه السنة كانت أغلب القصص تدور موضوعاتها حول الحب، ومع ذلك فقد كتب ابراهيم عبد الحليم قصته « أيام الطفولة» التى تحمل أفكارا اشتراكية :

إن روح النقد الأدبى فى القاهرة اليوم تتمتع بقوة علمية ، وفى هذا الميدان نجد صديقين قديمين يحتلان مراكز الامتياز ، هما ابراهيم المصرى وعبد الرحمن صدقى :

إلى جانب أدب النثر فى القاهرة لم يسكت الشعراء المصريون ، وهل يستطيع بلد عربى أن يعيش بدون شعراء ؟ هناك حسن كامل الصيرفى الذى يكتب عن الطبيعة لقرائه راسما لهم صورة عصرية عن الفكر الحديث :

إن الشعر العربى الجديد قد ازدهر فى كل بلد عربى ، لكن القاهرة ظلت دائما مركزا ونموذجا ، ففى كل عام تقام المسابقات الشعرية فى القاعة الذهبية حيث يحضر الشعراء العرب من كافة البلاد العربية ، وكأنه عصر هارون الرشيد الخيالى حينما كان يستدعى الشعراء للتسابق : إن الشعر العربى يشيع من مولد الانسان إلى مماته :

وفى القاهرة تعمل رابطة الأدب العربى الحديث تحت قيادة الناقد اللامع عبد اللطيف السحرتى ، التى اختارت اعضاء ها من بين الادباء الممتازين : وهناك جماعة أخرى تلتف حول الشاعر خالد الجرنوسى ، ومن بين هذه الجماعة شاعرات مصريات كثيرات منهن جليله رضا وزينب حسين : وفى جماعة ثالثة تعمل تحت اسم الأخوة العربية على رأسها جميله العلايلى محررة مجلة الأهداف :

مامن شك أن الشعر العربى الحديث منذ الثورة المصرية المحررة قد خرج صوته ليعلن الحرية التى اعتبرها الفكرة الاساسية ، ليكون الشعر هو صوت الحرية : وتعكس هذة الفكرة أشعار خالد الجرنوسى الملحمية « حـــدث فى عصر الرشيد » ، واشعار فوزى العنتيل « اغنيات الحرية » .وكذلك الشاعر المؤرخ صديقى العالم محمد عبد الغنى حسن بشعره الثورى :

إن شخصية الشعر المصرى الحديث تتجه إلى طريق الطبيعة ، وتقترب من الطبيعة ذاتها ، كما أن الشعراء يتفاعلون معروح الطبيعةوروح العصر .هكذا نرى محمود حسن اسماعيل الذي يقف امام الساقية مترقبا متى ينضج القمح ، أو امام البقرة فى المرعى ليسجل ذلك فى ديوان شعره « هكذا أغنى » :

إن طريق الشعراء المصرين طويل ممتد ، ومصيرهم ليس له من نهاية : .
إن الذين ولدوا على أرض القـــاهرة وتنفسوا هواءها هم اليوم رواد الحركة الثقافية الشعرية العربية وقوادها الروحيون الذين يساعدون على متابعة التقدم الاجتماعى للمجتمع :

إن قاهرة الألف عام، المتعددة الالوان، المتعددة الوجوه، فى مبانيها ومعمارها ، فى معاهدها ومرافقها العلميـــة ، فى متاحفها وفى تقدمها الإنتاجى ومشاكلها الاجتماعية ، لتجد طابورا ضخما يقف من خلفها يشد ازرها .. وعددا غير قليل مليئا بالإعزاز بنفسه وبشعبه وانتصاراته هـــذا الطابور وهذا العدد ، هو كتابها وشعراؤها : : بأقلامهم وابداعاتهم .

ثورات العساكر في القاهرة

في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر، ومغزاها

الدكتور عبد الكريم رافق

ثورات العساكر فى القاهرة

فى الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر، ومغزاها

للدكتور عبد الكريم رافق

١ – الوقائع .

٢ – الأسباب .

٣ – المغزى .

١ – الوقائع

بدأت أولى ثورات العساكر السباهية[1] فى القاهرة فى ٢ شوال ٩٩٧/ ١٤ آب ١٥٨٩ ، ثم توالت ، بشكل متقطع ، حتى قضى عليها فى عام ١٦٠٩ . وقد حدثت الثورة الأولى فى عهد حاكم مصر العثمانى اويس باشا (٩٩٤ – ٩٩٩ / ١٥٨٦ – ١٥٩١) ، وهاجمه العساكر الثائرون ، وهو فى الديوان ، فهرب من وجههم ، ولكنهم اقتحموا بيته ، وسرقوا أنفس مافيه ،

(١) يشير اليهم المؤرخون المحليون غالبا باسم «سباهية». أما أن هذه الثورة هى أولى ثورات العساكر السباهية فقد أشار إلى ذلك كل من : أحمد شلبى، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، مخطوط فى جامعة Yale فى الولايات المتحدة الأمريكية ، رقم Landberg 3 ، الورقة ٧ ب؛ وأيضا مخطوط مجهول المؤلف والعنوان عن تاريخ مصر من ٨٥٧ / ١٤٥٣ إلى ١١٢٠ / ١٧٠٩ ، المكتبة الوطنية فى باريس ، رقم Arabe 1855 الورقة ٣٥ أ .

وقتلوا ثلاثة من أتباعه : كما اقتحموا بيت قاضي القضاة ، أى القاضي الحنفي الرومي بمصر الملا أحمد أفندى الأنصارى ، وقطعوا رأس أغا طائفة الحاويشية . وفى ٤ شوال / ١٦ آب قبض الثائرون على اثنين من القضاة ، وقطعوا رأسيهما فى اليوم التالى ، وعلقوهما بالحميرة التى بالرميلة . واعتدى العساكر المتمردون على الحوانيت فى القاهرة ، وهاجموا بيوت الأكابر وأصحاب المناصب من أولاد العرب (أى السكان المحليين) (١) بالسلاح ، وأخذوا منهم ما يريدون ، وهرب بعض الأعيان ، ومن بينهم أمير الحج المصرى .

---

(١) استعمل تعبير « أولاد العرب » فى كتابات المؤرخين المحليين المعاصرين وفى الأوامر العثمانية ، منذ القرن السادس عشر ، للدلالة على السكان العرب المحليين ، تمييزا لهم عن العثمانيين الذين عرفوا محليا أحيانا بالعثمانيين ، وأحيانا بالتركمان ، وغالبا بالأروام (بسبب احتلالهم مناطق الروم ، أى البيزنطيين ، ماوراء طوروس والفرات ، التى كان يحتلها قبلهم البيزنطيون ، أصحاب مذهب الروم الأرثوذكس ، ثم سلاجقة الروم الذين لصقت بهم صفة مثل البلاد العثمانيين .

انظر حول مفهوم روم وأروام الشروح والمصادر المذكورة فى كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, Khayats, Beirut, 1966, P. 7 n. 1.

وايضا تمييزا لهم عن المماليك الذين أشار إليهم المؤرخون المصريون ، أمثال ابن إياس ومحمد ابن أبى السرور البكرى الصديقى ، باسم الاتراك ، أو الشراكسة ، أو الغز) وكان المؤرخون المحليون ، سواء فى بلاد الشام أو فى مصر ، يشيرون إلى البدو باسم عرب ، عربان ، أو أعراب . انظر : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، الورقة ٥١ أ ، حيث ذكر فى أحداث سنة ١٠٦٧ ١٦٥٦ — ١٦٥٧ أنه أخرج فى القاهرة من البلكات السبع جميع أولاد العرب من المصريين والشاميين » ؛ ويذكر مخطوط (مجهول المؤلف) زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة ، المتحف البريطانى بلندن ، رقم Add. 9972 الورقة ٩ ب عن هذا الحادث أن التحقيق تناول « أولاد العرب جميعا » ، ثم يقول بعد ذلك « أولاد عرب وشوام » وذلك لتبيان هوية الشاميين . وكلا المصدرين يعنيان بتعبير أولاد العرب السكان العرب المحليين . انظر حول ورود تعبير أولاد العرب evladi Arab فى الأوامر العثمانية فى القرن السادس عشر كتاب : U. Heyd, Ottoman documents on Palestine, 1552 - 1615, Oxford, 1960, PP. 48 n. 2, 55 n. 6

وانظر تعليقنا على ارتباك Heyd فى تفسير هذا التعبير والمزج بينه وبين بدو ، مع شروحنا على ذلك فى كتابنا *The Province of Damascus*. P. 7, n. 1

ومما يلفت النظر فى أعمال الثائرين اعتداؤهم على الأعيان وأصحاب المال من السكان المحليين ، من قضاة وأصحاب مناصب وتجار ، ونهب ما أمكن من المتاع والمال منهم ، لأن العامل الاقتصادى ، كما سنرى ، كان أساساً فى ثورتهم . وصب الثائرون نقمتهم خاصة ضد أولاد العرب فطالبوا بمنعهم من الانتساب إلى الطوائف العسكرية ومن استخدام المماليك البيض .

وقد اجتمع قاضى القضاة والدفتردار وغيرهما من كبار موظفى الدولة ، بما فى ذلك قادة العساكر الطائعين ، فى ٨ شوال ٢٠ آب ، فى مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ، وحذروا العساكر من عاقبة أعمالهم ، ولكن بدون جدوى . واضطر أويس باشا إلى اصدار أمره إلى قاضى القضاة بمنح العساكر الثائرين مايريدون ، بعد أن أخذوا ابن أويس باشا رهينة حتى ينالوا مطالبهم . وحين تم لهم ذلك ، هدأت ثورتهم (١) . فما هى مطالبهم ؟ .

(١) يراجع حول هذه الأحداث : محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية ، مخطوط فى المكتبة الوطنية فى فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A. F. 283 ، الاوراق ، ١٤٧أ — ١٤٨أ ؛ المؤلف نفسه ، الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ، المتحف البريطانى بلندن ، رقم Add. 9973 ، الأوراق ٢٠ب — ٢١أ ؛ المؤلف نفسه ، المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ١٩٢٦ ، ٦١ أ — ٦٢ ب ؛ المؤلف نفسه ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، مخطوط فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢٦٦ ، الأوراق ، ٢٩ أ — ٣٠ أ ؛ وانظر أيضا : محمد البرلسى السعدى الدمياطى ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، مخطوط فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، برقم تاريخ ٨١ ، ويوجد فيلم مصور عنه برقم ٢٦ ، فى معهد إحياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية فى القاهرة ، الأوراق ، ٥ ب — ٨ ب ؛ أحمد شلبى ، ٧ ب — ٨أ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٥أ — ٣٥ب ؛ محمد بن عبد المعطى الإسحاقى ، أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣١٥هـ ، ص١٣٩ ،

بالإضافة إلى مطالبة العساكر الثائرين بوضع بعض القيود الهامـة على نشاط أولاد العرب ، فقد طالبوا ، قبل كل شئ ، بالسماح لهم بأخـذ الطلبـة (جمعها ، كما فى المصـادر المعاصرة ، طلب أومطالب) ، وهى مبالغ من المـال كانوا يفرضـونها على الفلاحين وأصـحاب الأطيان فى الريف ، ويأخـذونها لأنفسهم دون وجـه شرعى (١) ؛ وأصبحوا يضاعفون هذه المبالغ كلما لمسوا القوة فى أنفسهم . وكانوا ، مثلا يأتون إلى كاشف إحدى الكشوفيات ، ويطالبون منه أن يكتب لهم على إحدى النواحى مبلغا من المال ، بحجـة أن أحد الأشخاص اشتكى على شخص آخر ، أو على مجموعة من الأشخاص ، فى الناحية المذكورة ، بمبلغ من المـال ، فيضطر الكاشف ، إزاء قوتهم ، أن يكتب لهم مايريدون ، بالاضافة إلى حق الطريق ، ويعنى هـذا أجرتهم الخاصة لقيامهم بالتبليغ والتنفيـذ (٢) ، ويأخذون المبالغ كلها لهم . وقد حدث أن بلدة بالمنوفية ، تخص المؤرخ محمـد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، كان مقررا عليها من الضرائب فى السنة مائة ألف ونصـف (أى نصف فضة ، وهـذا تعبير عامى استخدم للدلالة على البارة المتداولة آنئذ فى مصر) (٣) ، ولكنها غرمت بالطلبة ضعف هـذا المبلغ (٤) .

---

(١) يقول محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : « والغالب أن جميع مايقع من مثل ذلك لاأصل له بل الجميع لا أصل له فهذا معنى الطلبة » ، ويذكر ذلك فى جميع مؤلفاته السابقة ، انظر ، على سبيل المثال ، التحفة البهية ، ٥٥ ب ؛ وانظر ايضا حول معنى الطالبة ، Stanford J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798,* Princeton 1962, PP. 89 f.

سيذكر هـذا باختصار كما يلى : *Ottoman Egypt, 1517 - 1798*

(٢) انظر حول هذا الأمر : Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798,* PP. 87 f.

(٣) انظر : *Ibid.* 65 n . 169 وانظر أيضا : الإسحاقى ، ١٤٢ .

(٤) انظر : محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية ، ٥٥ ب – ٥٦آ ، الكواكب السائرة ، ٢٦ب – ٢٨آ ، المنح الرحمانية ، ٨١ ب – ٨٢ آ ، النزهة الزهية ، ٣٨ آ–٣٨ب .

وإذا ما تفحصنا هوية العساكر الثائرين وجـدنا أنهم كانوا من السباهية (الفرسان) المتمركزين فى الأقاليم : وكانوا مزيجا من طوائف التفنكجية Tüfenkciyye، والجنليان (Gönüllüyan)، والمماليك الشراكسة (Çerakise) وتشتق كلمة تفنكجية من تفنكجى، أى حامل البندقية، وتعنى كلمة جنليان المتطوعين ، ثم حورت إلى جمليان ، بالنسـبة إلى جملى ، أى صاحب جمل ؛ نظرا لاستخدام أفرادها الجمال : وقد دخل أفراد هاتين الطائفتين إلى مصر ، برفقة السلطان سليم الأول العثمانى حين فتحها عام ١٥١٧ . أما طائفة الشراكسة فقد تأسست عام ١٥٢٤ من المماليك الموالين المقيمين فى مصر : وعهد إلى أفراد هذه الطوائف الثلاث من السباهية بمهـام توطيد الأمن فى الأقاليم ، وحماية الفلاحين ، ومساعدة الكشاف فى جمـع الضرائب : ويخضـع أفراد هـذه الطوائف حين وجودهم فى القـاهرة إلى سلطة أغا طائفة الجاويشية[1] . وربما يفسر ذلك قتل العساكر ، فى الثورة السابقة ، لأغا الجاويشية حين شقوا عصا الطاعة فى القاهـرة .

ويبـدو أن زمام المبادرة فى ثورات العساكر هـذه كان بيد المماليك السباهيـة ، بدليل أن محمـد بن أبى السرور البكرى الصديقى قد وصف الثائرين بأنهم من الغز[2] ، وهـذا تعبير أطلق على المماليك فى مصر فى العهد العثمانى[3] . ويذكر أيضا أن المماليك ، بازدياد نفوذهم فى مصر فى العهد العثمانى

(١) انظر حول هذه الطوائف : Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798,* PP. 196 f.
وايضا المؤلف نفسه *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Harvard, 1964,* PP. 89 f.
سيذكر المصدر الأخير باختصار كما يلى : *Ottoman Egypt.*

(٢) يذكرهذا فى جميع مؤلفاته، انظر مثلا: التحفة البهية، ٥٥ب، والمنح الرحمانية ١٨ب .

(٣) انظر : P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922* London 1966, P. 76 n. 1
وانظر ايضا : A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250 - 1900,* London, 1939, P. 54 n. 10,

قـد تكاثر انتسابهم إلى طائفتى التفنكجية والجنليان ، حتى اقتصرت تقريبا عضوية هاتين الطائفتين عليهم فى القرن الثامن عشر [١]. وقد أطلق على محمد باشا (حاكم مصر من ١٦٠٧ إلى ١٦١١) ، الذى قضى على ثورات العساكر السباهية فى مصر عام ١٦٠٩ ، كما سنرى بعد قليل ، لقب قول قران (Kul Kiran) ، أى محطم المماليك [٢] ، مما يدل على اشتهار المماليك بين الثائرين ، واعتبار القضاء على الثائرين قضاء بالدرجة الأولى على نفوذ المماليك الذين سيطروا بينهم . ولعل هذا مايفسر كره الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم فى استخدام المماليك البيض والانتساب إلى الطوائف العسكرية ، خوفا من مقاسمتهم نفوذهم وامتيازاتهم. والجدير بالذكر أن استيراد المماليك البيض إلى مصر كان يرفض أحيانا ، فى حالة عدم سدهم الحاجة المحلية ، باستيراد مماليك سود من أفريقية . وكثيرا ما كان يدب العداء بين المماليك البيض والمماليك السود [٣] ؛ ومن هنا ، كما يبدو ، اقتصار مطالبة العساكر الثائرين بمنع أولاد العرب من استخدام المماليك البيض فقط لأنهم من أبناء جنسهم .

وقد أدى تخاذل أويس باشا أمام العساكر المتمردين ، بعد أن حاول الفتك بهم [٤] ، إلى ازدياد نفوذهم ، خاصة وأنه اضطر إلى تلبية مطالبهم .

---

(١) انظر Shaw, *Ottoman Egypt*, P. 89 (76)

(٢) انظر حول هذا اللقب : أحمد شلبى ، ١٠ ب ، ومخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٩ آ ؛ وانظر ايضا Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, P. 74.

(٣) انظر حول ذلك : D. Ayalon, "Studies on al-Jabarti I, Notes on the transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans", *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. III, Part 3, Oct. 1960, PP. 310 f.

(٤) يصفه محمد بن أبى السرور البكرى الصديق بان له « التفات لعسكر مصر فقامت نفوسهم لذلك وهجموا عليه » ؛ انظر ، مثلا ، من مؤلفاته : التحفة البهية ، ٤٧ آ ، والنزهة الزهية ، ٢٩ ب .

وبلغت جرأة العساكر حداً كبيراً فى أول رجب ١٠٠٦ / ٧ شباط ١٥٩٨ ، فى عهد حاكم مصر الشريف محمـــد باشا (١٠٠٤ — ١٠٠٦ ، ١٥٩٦— ١٥٩٨ ، (حين جمعوا جموعهم من ســائر الأقاليم ، واعترضوا طريق هذا الباشا ، قرب قلعة القاهرة ، وأطلقوا النار عليه ، فهرب والتجأ إلى القلعة ، وأصبحت السلطة الفعلية بيدهم : « وبطلت أحكام الوزير المذكور وصار الحل والعقد لطائفة الأسباهية » (١) . وقتل العساكر الثائرون بعض كبار الأمراء والموظفين والأعيان ، ممن كانوا يعارضون مصالحهم وتتبعوا أولاد العـــرب وقتلوا كل من وجدوه منهم « يتزى بزى الأروام » ، على حـــد تعبير محمد ابن أبي السرور البكرى الصديقى (٢) ، وربما يقصد بذلك الذين أصبحوا منهم عساكر وموظفين عثمانين ، أى أرواماً (٣) ، فى محاولة من العساكر ، كما يبدو ، للحيلولة دون تسرب أولاد العرب إلى الطبقة الحاكمـــة (٤) :

وتكرر تحدى العساكر السباهية لحاكمى مصر التاليين : خضر باشا (١٠٠٦ — ١٠١٠ ، ١٥٩٨ — ١٦٠١) وعلى باشا السلحدار (١٠١٠—١٠١٢ ١٦٠١ — ١٦٠٣) ، وقتلوا عدداً من كبار الموظفين : ويبدو أن العساكر حاولوا أن يسبغوا على تمردهم بعض الشرعية ، لكسب عطف الرأى العام ، فنصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الدولـــة والشعب ، واتهموا بعض أعوان خضر باشـــا بالتلاعب بالشونة (أى عنبر المؤن السلطانية) ، كما اتهموا على باشا السلحدار بالتلاعب بأسعار القمح وبأنه سبب الغلاء :

---

(١) مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٧ آ ، وأحمـــد شلبى ، ٢٩ آ ؛ وانظر أيضا : الإسحاقى ، ١٤٣ .

(٢) التحفة البهية ، ٥٠ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٣ آ ، النزهة ، ٣٢ ب .

(٣) يتضح هذا من تعبير محمد بن أبي السرور البكرى الصديقى فى : المنح الرحمانية ، ٦٧ آ — ٦٧ ب .

(٤) محمـــد البرلسى ، ١٠ آ .

وبلغت جرأة العساكر المتمردين ذروتها حين قتلوا حاكم مصر ابراهيم باشا، في الأول من جمادى الأولى ١٠١٣ / ٢٥ أيلول ١٦٠٤ ، فعرف، تبعا لذلك، بالمقتول . وكان مهتما بإزالة الطلبة والتجسس على العساكر المتمردين للقضاء عليهم ، ففاجأوه وهو في شبرا ، من ضواحي القاهرة ، وقتلوه ، ثم طافوا برأسه ، ورأس أمير آخر قتلوه ، في شوارع القاهرة ، وعلقوهما على باب زويلة « كما يفعل بأقل الناس » — على حد تعبير محمد ابن أبي السرور البكرى الصديقي. وكان ذلك إمعانا منهم في التحدى . ثم نصبوا قائم مقام مكانه، وكأنهم بذلك أصحاب السلطة الوحيدون في مصر .

وكان وقع هذه الأحداث قويا لدى سلطات استانبول ، فعهدت إلى محمد باشا الكرجي الخادم بولاية مصر بالتفحص عن أصل الطلبة، وملاحقة قتلة إبراهيم باشا ، وتمكن محمد باشا ، خلال مدة حكمه من ٢٨ تشرين الأول ١٦٠٤ إلى ١٦ تموز ١٦٠٥ ، من قتل عدد كبير من المتمردين ، واعتمد على مساعدة البدو في مطاردتهم . وتختلف الروايات حول عدد من فتك بهم ، فيذكر محمد بن أبي السرور البكرى الصديقي أن القتلى بلغوا مائتين (١) . ويذكر كل من أحمد شلبي وصاحب « زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر » أنهم كانوا حوالى ثلاثمائة (٢) . ومهما يكن ، فلم يقض على جميع العساكر المتمردين ، واستمر بالتالي التمرد ، لأن قصر عهد محمد باشا ، كما يبدو ، لم يتح له ذلك .

ولاشك أن البطش بهذا العدد قد أضعف المتمردين ، ومكن ذلك حاكم مصر اللاحق محمد باشا (١٠١٦ — ١٠٢٠ ، ١٦٠٧ — ١٦١١) ، من القضاء نهائياً على تمردهم ونفوذهم في شهر ذى القعدة ١٠١٧ ، شباط ١٦٠٩ و إبطال

(١) انظر مثلا : التحفة البهية ، ٥٣ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٤ ب ، المنح الرحمانية ، ٧٧ آ ؛ النزهة الزهية ، ٣٥ ب .

(٢) انظر على التوالى : ١٠ ب، ب ؛ وانظر ايضا : مخطوط باريس، رقم Arabe 1855 ، ٣٨ ب .

الطلبة . وكان محمـــد باشا ، وهـــو فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهـــرة لاستلام منصبه ، ترد إليه الشكاوى من الأهلين ضد الظلم والطغيان ، وقد عقد فى ١٥ صفر ١٠١٦ ، ١١ حزيران ١٦٠٧ ديوانا فى القاهـــرة ، ضم الصناجق ، أصحاب النفوذ المتصاعد ، وممثلين عن الطوائف العسكرية . وندد بالموقف السلبي لهؤلاء الزعماء من مقتل إبراهيم باشـــا ، وأبرز خطـــاً سلطانيا بمعاقبة القتلة . وأعقب خطوته هـــذه بقتل بعض الكشاف الفاسدين من حكام الأقاليم وبإبطال الطلبة . وبدأ بتعبئة القوات الموالية للبطش بالعساكر المتمردين . وكان هؤلاء قد اثارتهم اجراءات محمد باشـــا ، ولاسيما أوامره بإزالة الطلبة ، فعقدوا العزم على الدفاع عن مصالحهم ، وتنادوا إلى الاجتماع عند مقام أحمـــد البدوى فى طنطا ، حيث تحالفوا على عدم دفع الطلبة وعلى قتل الزعماء المؤيدين للباشا ، وعينوا من بينهم سلطانا ووزراء . ويدل هذا على جرأة الثائرين ومحاولتهم تقويض السلطة العثمانية من أساسها ، وربما كانت وراء ذلك مطامع سياسية مملوكية استغلت الثورة لاهدافها . وزحف الثائرون نحو القاهـــرة ، بعد أن اقتسموا حاراتها لنهبهـــا ، وروعوا سكان القرى التى مروا بها أثناء سيرهم .

واستعد محمـــد باشا ، من ناحيته ، لملاقاة الثائرين ، وحشد العناصر الموالية والطائعة من صناجق وجاويشية ومتفرقة وانكشارية وعرب ومرتزقة من اللاوند ، كما أنه استنجد ببعض قبائل البدو . وخرجت هـــذه القوات من القاهـــرة ، يحمل معظمها البنادق وتصحبها المدافع ، فى ٩ ذى القعدة ١٠١٧ ، ١٤ شباط ١٦٠٩ ، واصطدمت ، فى اليوم التالى ، بالثائرين فى الخانقاه ، فى ضواحى القاهـــرة . وقد هزم الثائرون ، وكان من بينهم جماعة ليسوا من العساكر اندسوا فى صفوفهم ، وقتل نحو من خمسين من هؤلاء ، كما قتل عدد كبير من قادة وأفراد العساكر الثائرين ، ونفى حوالى من ثلاثمائة

إلى أربعمائة منهم إلى اليمن . وبلغ ماقتل من الثائرين ، حسب إحدى الروايات (١) في عهد كل من محمد باشا الكرجي الخادم (١٦٠٤ — ١٦٠٥) وعهد محمد باشـا الحالى بلغ أكثر من ثلاثمائة متمرد ، ونفى مثل هـذا العدد إلى اليمن. وفى رواية أخرى أنه قتل ، فى عهد هذين الحاكمين ، أكثر من (٢) أربعمائة متمرد . ونفى مثل هـذا العدد إلى اليمن :

ويعلق محمـد بن أبى السرور البكرى الصديقى فى مؤلفاته على هـذا الانتصار بقوله : « وهـو فى الحقيقة الفتح الثانى لمصر فى الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعـالى » . ويدل هـذا القول على مـدى النفوذ الذى تمتع به الثائرون ، وعلى خطورة عملهم فى تنصيب سلطان من بينهم . كما يدل على أهمية فرض الهيبة العثمانية لا ضد الثائرين فحسب ، بل ضد عناصر مماوكية طموحة ، كما لو أن فتحا عثمانيا جديدا قد حدث . وقد وضع محمـد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، بهـذه المناسبة ، مؤلفاً صغيراً أسماه : «تفريج الكربة بدفع الطلبة » ولايعرف مكان وجوده الآن . وقيل شعر كثير يطرى عمل محمد باشـا الذى أصبح يعرف لدى المؤرخين المحليين بالألقاب التالية : « معمر مصر » و « مبطل الطلبة بعد أن استحيل إبطالها » ، وبلقب « قول قران » ، بالتركية :

وقد استغل محمد باشا انتصاره على الثائرين وإلغاءه الطلبة فأدخل عددا من الإصلاحات الإدارية ، ونظم أمر الالتزام والرزق ، بنوعيها العسكرى

---

(١) هـذه روايه محمـد بن أبى السرور البكرى الصديق ، انظـر : التحفة البهية ٥٣ آ ، ٥٤ ب — ٥٥ ب ، الكواكب السائرة ، ٢٤ب السائرة ، ٢٤ب ، ٢٦آ — ٢٦ ب ، المنح الرحمانية ، ٧٨ آ ، ٨٠ ب — ٨١ ب ، النزهة الزهية ، ٣٥ ب — ٧ : ب — ٣٨آ .

(٢) يشترك فى ذكرها كل من : أحمـد شلبى ، ١٠ب ، ١١آ ، مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٨ ب ، ٩ : ب ، انظر ايضا : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر ، ٤٤ب .

والديني ، وهي مدفوعات خاصة ، نظم العثمانيون إعطاءها للمستحقين[1] .وتفحص صكوك التزام المرتزقة ، وكلما رأى صكا قديما ، أولا قيمة قانونية له أعاده إلى الدولة. كما أنه ألغى العمل بدفتر الشراكسة الذى فيه ضبط الأرزاق، والذى كان قد ألغى العمل به سابقا ، بعد أن أعاد المماليك وغيرهم استخدامه ليستفيدوا من امتيازاتهم القديمة . وحصر العمل بموجب دفتر التربيع الذى أحله العثمانيون محل دفتر الشراكسة فى ٩٣٣ ١٥٢٦ — ١٥٢٧ . وخصص محمد باشا اليوم الثامن والعشرين من كل شهر موعد الصرف[2] رواتب العساكر والموظفين ، وأمر بدفع الرواتب بكاملها ، وذلك لتحاشى تذمر أصحابها . وقد أتاح طول حكم محمد باشا فى مصر ، الذى تجاوز السنوات الأربع ، الفرصة له للقيام بهذه الإجراءات الهامة[3] .

١ـ الأسباب :

يتبين لنا من تفحص الأسباب التى أدت إلى ثورات العساكر فى مصر أن هناك أسبابا عامة ، عسكرية واقتصادية ، تتعلق بوضع الامبراطورية العثمانية ككل ، وأسبابا خاصة تتعلق بولاية مصر بالذات :

---

(١) انظر حول الرزق : تاريخها وانواعها ؛ Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798,* PP. 45-50, *Ottomon Egypt,* P. 115 (155)

(٢) انظر : أحمد شلبى ، ٤آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣١آ ؛ الاسحاقى ، ١٣٦ .

(٣) انظر حول الأحداث السابقة منذ مطلع القرن السابع عشر : محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية ، ٥٠آ — ٥٨ب ، الكواكب السائرة ، ٢٢آ — ٢٨ ب ، المنح الرحمانية، ٦٧ب — ٨٥آ ، النزهية الزهية، ٣٢ ب — ٠ ب ؛ المؤلف نفسه ، الروضة المانوسة فى أخبار مصر المحروسة ، مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ٢٢٦١ ، الأوراق ، ٢٣ب — ٢٦آ ؛ محمد البرلسى ، ١١آ — ٦٠ب (نهاية المخطوط) ؛ أحمد شلبى ، ٩آ — ١١آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٧آ — ٣٩ب؛ الإسحاق ، ١٤٣ — ١٥١

لقد بدأ الضعف العسكرى العثمانى يظهر للعيان ، بشكل واضح ، فى اعقاب وفاة السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) . وكانت فتوحاته وأمجاده قد طغت على بذور الضعف والفساد فى الدولة وحجبتها ، لفترة ، عن معظم العيان . وفى عهد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ — ١٥٧٤) تجمدت حدود الامبراطورية العثمانية ، وأخذت فى التقلص التدريجى بعد ذلك[١] . وانعكس أثر ذلك على تطور الدولة ككل ، لاسيما وأن الدولة العثمانية قد ازدهرت على الفتح ، وخاصة غزو أعداء الدين . وقد ظهر ضعف الدولـــة فى شخصيات السلاطين أنفسهم ، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية فى قيادة الجيش وفى الإدارة ، وانقطعوا إلى حياة القصر الخاصة ومؤامراته[٢] .

ومن مظاهر ضعف الدولـــة ازدياد نفوذ الانكشارية ، ففسد نظامهم ، وطمع المسلمون الأحرار فى لتجند فى صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم . وأهملت الدمشرمة (جمع الشبان من البلقان لإدخالهم الجيش) ، بالتدريج حتى بطلت

(١) انظر حول ذلك : B. Lewis, The *Emergence of Modern Turkey*, London, 1961, PP. 24-29; Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, PP. 52-57; E. Creasy, *History of the Ottoman Turks*, reprinted by Khayats, Beirut, 1963, PP. 156-223; H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West*, Vol. I, in 2 parts. London, 1951, 1957, see I. i. 91-94;

وانظر ايضا : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٧ آ — ١٢ آ ؛ مخطوط مجهول المؤلف (انظر حول ذلك كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ — ١٧٩٨ ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٤٢٩) بعنوان : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، مكتبة جامعة Yale ، بالولايات المتحدة الأمريكية ، برقم Landberg 229 ، الأوراق ٧٧آ — ٨١آ .

(٢) انظر : Gibb and Bowen, I· i· 37

فى الربع الثانى من القرن السابع عشر . وازداد تمرد الانكشارية بعد انتساب السكان المحليين إلى صفوفهم ، ومارسوا كثيراً من التعسف فى الولايات بشكل أرهق أهلها لكثرة ما ابتزوه منهم من مال[1] .

وكان قد رافق اعتماد الدولة ، بشكل متزايد ، على الانكشارية ، منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر ، إهمال الاعتماد على الجند الإقطاعى بالتدريج ، وانحط بنتيجة ذلك نظام الإقطاع . وكان تأثير ذلك حاسما بالنسبة للحياة الاقتصادية فى الدولة ، لأن الجندى الإقطاعى وإن لم يعد قادرا على مجابهة الجندى الأوربى الأحسن تدريباً ، فقد غدا وجوده ، بالنسبة للاستقرار وحسن الإنتاج فى الريف ، أمرا ضروريا . وهكذا ، فإن ضعف الجندى الإقطاعى أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة، أن تسيطر على جزء كبير من الريف وتستثمره لصالحها. وكانت تتصرف فى أراضى الدولة إما بأخذها كإقطاع إن وجد — وقد تضاءل أمر هذا بالتدريج — أو بالتزام ضرائبها . وقد شاع نظام الالتزام ، بشكل كبير ، فى أراضى الدولة بعد انحطاط الإقطاعات وأصحابها ، وصاحب ذلك كثيراً من التلاعب بأراضى الدولة ، وظهرت قوى محلية ثائرة تستمد سلطتها من التزام الضرائب أو دعم الملتزمين، وتقوم بابتزاز الأموال من الفلاحين . وكان ذلك ملحوظا وقد أفقر الريف نتيجة لهذه المساوئ ، واندثر كثير من القرى بسبب هجرة أصحابها منها . وكان ذلك ملحوظا منذ عهد السلطان سليمان القانونى[2] .

---

(١) انظر : *Ibid*, PP. 180 f.

(٢) انظر : Lewis, *Emergnce*, P. 32, n. 19

ونتج عن تكاثر عدد الجنود الانكشارية وعدد الموظفين الذين يتقاضون المرتبات بعد أن تضاءل الاعتماد على الجنود والموظفين الإقطاعيين ، أن ازداد ارتباك الاقتصاد العثمانى . ومما زاد فى تناقص واردات الدولة إفقار الريف نتيجة التلاعب بنظام الالتزام وعدم توفر الأمن ، ثم فساد كبار الموظفين الذين عمت الرشـــوة بينهم .

وتأثر اقتصاد الدولة العثمانية أيضا بنقص واردات الضرائب التى كانت تفرض على بضائع الشرق الأقصى المارة فى أراضيها ، إذ أنه بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، أصبح بعض هذه البضائع يصدر مباشرة إلى أوروبا ، عبر هـــذا الطريق ، وأحيانا يعاد تصديره من أوروبا إلى الدولة العثمانية. وبالرغم من أن قسما كبيرا من بضائع الشرق الأقصى بقى يمر فى القرن السادس عشر عبر موانىء البحر الأحمر وميناء البصرة إلى أوروبا، إلا أن هـــذا تناقص بمرور الزمن ، نظرا لازدياد تهديد أمن القوافل التجارية البرية ونمو قوة الإمبراطوريات الأوروبية الغربية فى الشرق الأقصى . وخسرت الدولـــة العثمانية ، وولاية مصر خاصة، من جراء ذلك موارد مالية كبيرة .

وقد نتج عن العوامل السابقة ضغط على النقد العثمانى ولم تستطع موارد الدولة من المعادن سد الحاجة المتزايدة للنقد : وتصادف فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، والأزمة النقدية مستفحلة ، أن تدفقت الفضة والذهب إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط من العالم الجديد ــ أمريكا ــ، وذلك بواسطة الأسبانيين . فارتبك النقد العثمانى ، تبعا لذلك ، وانهارت قيمة وحدته الفضية وهى الأقجة (أو الأسبر). وارتفع سعر الذهب، وقل وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة نجحت محاولة الدولة العثمانية تخفيض سعر الأقجة

عام ١٥٨٤ فى القضاء على الأزمة النقدية وغلاء أسعار المعيشة . واستفحل انهيار النقد ، وصدرت عملات جديدة فى القرن السابع عشر ، وانهارت قيمتها بدورها[١].

والذى يهمنا من هذا الانهيار الاقتصادى وانخفاض قيمةالنقد انعكاس ذلك على سلوك الموظفين والعسكريين الذين يتقاضون المرتبات : فقد عمد الموظفون إلى قبول الرشوة للتعويض عن انخفاض قيمة مرتباتهم[٢] ، واستشرت هذه العادة لانعدام مراقبة الدولة . وعبر العساكر عن سخطهم لانهيار القيمة الشرائية لمرتباتهم، بطريقتهم الخاصة ، أى بالثورات وفرض ابتزاز المال بالقوة . وهكذا قام العساكر بثورات وفتن فى اليمن ومصر وبلاد الشام ، وشجعهم على ذلك ضعف الهيبة العثمانية بصورة عامة . وقاسى الشعب فى الولايات العربية ، كما فى غيرها ، من ظلمهم :

ومما تجدر ملاحظته أن ثورات العساكر هذه بدأت، بالنسبة للولايات العربية ، فى مناطق الأطراف ، فى اليمن مثلا ، حيث هدد الزيديون السلطة العثمانية ، وانتقلت، بعد ذلك ، فى اتجاه الداخل، فعمت مصر وبلاد الشام . وقد ظهر أول آثار الضائقة الاقتصادية بين العساكر العثمانيين فى اليمن : وكانت هذة الولاية العثمانية من نوع سالياتلى (Saliyaneli)[٣] ، أى أن موظفيها ، بما فيهم العساكر ، يعطون مرتبات سنوية ، وليس إقطاعات

(١) انظر حول ذلك : Ibid. ,PP. 27-33; Gibb and Bowen; I. ii, 51 ff; F. Braudel, *La Méditerrannée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1949, PP. 391-394,417 420.

(٢) انظر مثلا : محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، التحفة البهية، ٤٦ ب ، قارن مع ٤٦ آ .

(٣) انظر : Gibb and Bowen, I. i. 147, 148, n. 3

لقاء خدماتهم . وحدث فى أوائل الستينات من القرن السادس عشر أن انخفضت القيمة الشرائية للعملة الفضية فى اليمن ، بسبب غلبة النحاس فيها ، وذلك بالنسبة « للدينار[١] » الذهبى السلطانى الذى كانت تدفع الرواتب على أساسه وارتفعت أسعار الحاجيات ، تبعد لذلك : ويذكر قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى المكى ، صاحب « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » ، الذى عاصر هذه الأحداث ، أن السكة قد تلفت وأن « الدينار والذهب السلطانى هو الآن فى الروم بستين عثمانيا ، وفى مصر بثمانين عثمانيا ، وصار فى اليمن بثلثمائة عثمانى ، ومازال يتزايد : : : إلى أن صار الدينار الذهبى بألفين من العثمانى ، وكان ذلك سببا لخراب العسكر وفقرهم ، فصار من يملك مائة عثمانى عاوفة فى كل يوم ، يأخذ فى الشهر ثلاثة آلاف عثمانى : : فيصرف له فى الديوان عن الثلاثة آلاف عثمانى دينار واحد ونصف » ، وهذا على حد قول قطب الدين المكى ، « لايفى بثمن القهوة التى يشربها ، فضلا عن سائر حوائجه وضرورياته ، فشرعوا فى ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن إنصاف الرعايا من العسكر ، لعلمهم بشدة ضرورة العسكر ، إلى أن أرهقوا الرعية وأضعفوها[٢] . » ويقول قطب الدين المكى فى مكان آخر « وضعفت علوفاتهم بهذه الدراهم السكة التى صارت الفلوس النحاس خيرا منها[٣] » . ونتج عن ذلك ضعف العساكر فى اليمن عن القتال ، ولجئوا إلى

(١) هكذا وردت فى كتابات المؤرخ المحلى قطب بن أحمد النهروالى المكى ، وربما كانت تسمية محلية للنقد الذهبى العثمانى المعروف آنذاك رسميا باسم شريفى أو أشرفى ، ولدى التجار الأوربين باسم سلطانى ، انظر :
Gibb and Bowen, I. ii. 50, n. 12

(٢) البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ، وانظر أيضا ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق ، ١٩٠ .

الإمام مطهر الزيدى ، كبير الزعماء المحليين ، الذى استغل ذلك للثورة على العثمانيين . فكلفت الدولــة أحد ولاتها المشهورين ، ســنان باشا ، بإخضاع الثائرين الزيديين فى اليمن ، وتم لسنان باشا ذلك فى الفترة بين ١٥٦٩ و ١٥٧١ ، ووصف قطب الدين المكى هــذا الانتصار بأنه الفتح الثانى العثمانى لليمن (١) .

وتأثرت ولاية مصر ، بدورها ، بالأزمة النقدية وانعكس ذلك على سلوك الموظفين فيها . والسؤالان اللذان يطرحان : ماهو مدى تأثر العملة النقدية فى مصر بالأزمة النقدية العامة ، ولماذا ثار العساكر السباهية دون غيرهم ؟ .

بدأت قيمــة العملة النقدية فى ولاية مصر بالاختلال ، بشكل ملحوظ فى عهــد الحاكم العثمانى على باشا الصوفى (١٥٦٤ — ١٥٦٦) حين بدأت دار ضرب النقــود فى مصر تمزج كمية من النحاس ، أكثر من المعتاد مع العملة الفضــية ، فانهارت قيمتها تبعا لذلك ، وضجت الرعايا . ويعلــق محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى على ذلك بقوله « . . . . وما زال يختل نظام المعاملة إلى يومنا هذا (٢) » ، أى فترة النصف الأول من القرن السابع عشر التى عاصرها الصديقى (٣) . وسواء كان أمر تزييف العملة قد تم برغبة الكسب من قبل على باشا الصوفى أو الذين تعهدوا دار الضرب فى عهده ، فإن هــذا الأمر يدل على ارتباك عام فى قيمة النقد ، بدليل أنه استشرى بعد ذلك .

(١) الفتح الأول كان فى ٩٤٥/١٥٣٩ انظر : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ وانظر أيضا : محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، التحفة البهية ، ٤٥ آ ، الكواكب السائرة ، ١٩ آ ؛ أحمــد شلبى ، ٦ ب ؛ الإسحاقى ، ١٣٧ .

(٢) انظر : التحفة البهية ، ٤٣ آ ، الكواكب السائرة ، ١٧ب — ١٨آ ، المنح الرحمانية ، ٤٧ آ — ٤٧ ب ، النزهة الزهية ، ٢٤ب .

(٣) انظر حول تأليف محمد بن أبى السرور البكرى الصديق كتبه التاريخية : التحفة البهية ، ٤٠آ ، الكواكب السائرة ، ١٥آ ، النزهة الزهية ، ٢١ب .

وحدث فى مصر عام ١٥٨٤ ، قبيل ثورة العساكر السباهية بحوالى خمس سنوات ، أن انخفضت قيمة البارة الفضية ، المعروفة محليا بنصف فضـــة ، وذلك بمقدار النصف . وقد تم هـــذا فى نفس الوقت الذى انخفضت فيـــه قيمة الأفحة الفضية العثمانية بالمقدار ذاته ، بالنسبة لقيمة النقد الذهبى الأجنبى المتوفر محليا والنقـــد الذهبى العثمانى المعروف بالشريفى ، وارتفعت نتيجة ذلك تكاليف المعيشة وحدثت ثورات بين الجند أصحاب الرواتب حتى فى قلب العاصمة إستانبول (١) .

فى حين أن عساكر اليمن انهارت قوتهم إثر انهيار مرتباتهم ولجئوا إلى الأمير مطهر الزيدى ، نجـــد أن العساكر السباهية فى مصر استغلوا قوتهم العسكريـــة فعمدوا إلى فرض الطلبة وابتزاز الأموال ، واستفحلت شرورهم خلال سنوات قليلة من انهيار قيمة البارة المصرية مما أدى إلى ازدياد تذمر السكان ، وحاولت الدولة التدخل بشكل جدى على يد أويس باشا فثاروا ضده .

أما السؤال الآخر : لماذا أثار العساكر السباهية دون غيرهم ، فيمكن الإجابة عنه بالتعرف على الأسباب الخاصة بمصر التى أدت إلى إعطاء هؤلاء الجنود السباهية وغيرهم من العساكر ورجال الإدارة المرتبات لقاء أعمالهم ، عوضا عن الإقطاعات ، ذات القيمة الاقتصادية الأكثر استقرارا . ثم التعرف على قيمة مرتبات هؤلاء العساكر السباهية :

كانت ولاية مصر ، أشبه بولاية اليمن ، من نوع ساليانلى . ولعـــل أحسن تفسير لعدم تطبيق العثمانيين نظام الإقطاع فى أراضى مصر هو رغبتهم

(١) انظر : Gibb and Bowen, I. ii. 51-52

فى الحيلولة دون استغلال المماليك منحهم الإقطاعات مجدداً لتوطيد نفوذهم[1] فى ولاية غنية وبعيدة نسبيا عن متناول السلطة المركزية كولاية مصر ، فأبقتهم أصحاب مرتبات يعتمدون ، مع غيرهم من الموظفين ، على خزينة الدولة ، وما يرتبط بذلك من خضوع مباشر لها . ولكن أصحاب المرتبات هؤلاء لم يعدموا الوسيلة للكسب ولفرض نفوذهم ، مستفيدين من ضعف السلطة العثمانية :

وكان أفراد الطوائف السباهية الثلاث ، منذ الأيام الأولى للحكم العثمانى فى مصر ، أقل الطوائف العسكرية راتباً وأكثرها استعداداً للثورة[2] . فلا عجب إذاً أن يستغل هؤلاء العساكر قوتهم وسلطتهم فى الريف ، حيث رقابة الباشا العثمانى — فى فترة ضعف الدولة — شبه منعدمة أو نائبة فى أحسن الظن ، لاستثمار الفلاحين ، وأن يثوروا عندما وجدوا الفوائد التى بدأوا يجنونها مهددة بالزوال :

ولم يكن انهيار حال العساكر فى اليمن وثورة السباهية فى مصر حادثين منعزلين بل شكلا جزءاً من ظاهرة عامة فى التمرد العسكرى . ولم تكن بلاد الشام بأحسن حظاً إذ روع المتسلطون من الانكشارية أصحاب المرتبات مناطقها الريفية الغنية . ويذكرلنا المؤرخ الدمشقى المعاصر شرف الدين موسى الأنصارى ارتفاع أسعار المواد الغذائية فى دمشق على الرغم من استيراد القمح

(١) انظر ايضا : Stanford J. Shaw,' Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt', in, P. M. Holt, (ed.) *Political and Social Change in Modern Egypt*, London, 1968, P. 92; Stanford J. Shaw,' The Land law of Ottoman Egypt (960/1553) : a contribution to the study of landholding in the early years of Ottoman rule in Egypt', *Der Islam*, Band 38/1-2, 1962, PP. 111-112.

(٢) انظر : و . Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, PP. 196 f. *Ottoman Egypt*, 89 (76)

وتوفره فى الأسواق، وذلك بسبب انهيار قيمة النقد، إلى جانب عوامل طبيعية أخرى[1]. وقد استغل انكشارية دمشــق، منذ أواخر القرن السادس عشر، هــذا الوضع فتعاطوا التجارة والربا، ومدوا نفوذهم إلى ولاية حلب الغنيــة حيث كانت تذهب طائفة منهم كل ســنة للخدمة وأحيانا لفرض خدمتها، فى تحصيل أموال الميرى من قرى الولاية. واستغل أيضا انشكارية دمشــق دعوة الدولة لهم لقتــال الأمراء الثائرين شمالى حلب، فى هــذه الفترة لتوطيد نفوذهم هناك. ومارسوا كثيراً من الظلم وابتزاز المــال من الولايــة بالقــوة[2].

وبالرغم من انتشار التمرد العسكرى فى عدد من الولايات العربية، فقد تميزت ثورات العساكر السباهية فى ولاية مصر، دون غيرها، بغلبة العنصر المملوكى فيها. فما هو مغزى ذلك بالنسبة للصراع على النفوذ بينهم وبين أولاد العرب :

* * *

(٣) المغــزى :

يتضح مغزى ثورات العساكر فى مصر لدى تعرفنا على العناصر المتميزة بين المحكومين وعلاقتها بعضها مع بعض : وكان هؤلاء يتألفون السكان المحليين (أولاد العــرب)، بما فى ذلك البدو (العــرب، العربان، أو الأعراب)، ومن المماليك الذين كانوا يكنون العداء للحاكمين العثمانيين

---

(١) شرف الدين موسى الأنصارى، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، مخطوط فى الظاهرية، برقم ٧٨١٤، الأوراق، ٣٣٥أ – ٣٥:ب، ٣٣٨آ، ٣٣٩آ، ٣٤٠آ، ٣٤١آ – ٣٤١ب، ٣٨٥ب، ٣٨٨ب.

(٢) انظر حول ذلك كتابنا : بلاد الشام ومصر، ص ١٥٤، ١٨٦ – ١٨٩.

ولأولاد العــرب على حد سواء ، وبالمقارنة مع بلاد الشام مثلا نجــد أن الصورة هناك أقل تعقيدا لأن المحكومين اقتصروا على عنصر متجانس نوعاً ما من الســكان المحليين ، ولم توجد طائفــة قوية ذات مصالح تدافع عنهــا مثل المماليك . وإذا كانت بعض الأسر المملوكية قد بقيت فى الشام ، فى غزة مثلا ، إثر انهيار السلطنة المملوكية ، فقد تلاشى نفوذها تدريجيا بعد ذلك ، واندمجت مــع السكان المحليين . وغنى عن القول أن معظم المماليك فى الشام قد انسحبوا إثر الفتح العثمانى ، إلى مصر ، مركز قوتهم الرئيسى ، حيث بقوا يرفدون بمماليك جدد طيلة العهد العثمانى مما أبقاهم طائفة متميزة ، ومن هنا تعقد الصراع السياسى فى مصر .

إن هــذه الصور العامة من الصراع على النفوذ بين فئات القوة فى مصر تشكل خلفية أساسية لمحاولتنا فهم مغزى ثورات العساكر . وتلفت النظر فى هذه الثورات ظاهرتان :

الأولى : بروز العنصر المملوكى فيها وصراعه مع الحاكمين العثمانيين ،

والثانية : معاداة الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم فى دخول الجيش العثمانى واستخدام المماليك البيض .

ولم تكن ثورات العساكر هــذه أول محاولة يقوم بها العنصر المملوكى للتعبير عن نفوذه ومطامعه فقد قام المماليك بأكثر من ثورة فى أعقاب الفتح العثمانى ، ولكن ثورتهم الآن كانت أول تمرد مملوكى على نطاق واسع يحدث بعــد أكثر من نصف قرن من الهدوء إثر صدور القانون نامه فى ٩٣١ / ١٥٢٤ — ١٥٢٥ .

وإذا ما استعرضنا النفوذ المملوكى منــذ الفتح العثمانى وجدنا أن ذلك تعاظم ، أو بالأحرى استمر ، فى ولاية خاير بك على مصر . وعاد المماليك ، فى عهده ، إلى الخدمة العسكرية ، وأنفقت عليهم الجاماكية . وبلغ الأمر أن

استخدموا فى قمع بعض الانكشارية الذين تمـــردوا على أوامر السلطان سليم الأول.[1] وسمح لكبار الموظفين المماليك بالاستمرار فى وظائفهم فى الكشوفيات وإمارة الحج[2] وغير ذلك من الوظائف الهامة . وإذا بدا أن قسماً كبيراً من المماليك قد أيد العثمانيين ، أو استمر فى الوظائف الإدارية والعسكرية فى عهدهم ، فإن قسما آخر منهم ، ضم بعض هؤلاء المؤيدين فى الظاهر ، كان يبطن الحقد على العثمانيين وينتهز الفرصة للثورة عليهم :

وقد قامت أولى الثورات المملوكية على العثمانيين فى مصر عام ١٥٢٢ ، إثر وفاة خاير بك . وكانت الثورة بزعامة اثنين من كبار الموظفين المماليك : إينال السيفى كاشف الغربية وجانم السيفى كاشف البهنسا والفيوم وأمير الحاج. وكانت صيحة الثائرين مملوكية تقليدية : « لن نترك المملكة لهؤلاء الترك الذين لايعرفون ملاقاة الفرسان[3] ». وفى هـــذا تعبير واضح عن كراهية ، بل احتقار المماليك الفرسان للعثمانيين حمـــلة البنادق . وقد قضى العثمانيون على الثورة ، وقتل أو هرب زعماؤها . ولكن العثمانيين لم يغتنموا الفرصة لإبادة المماليك . واستمر كثيرون منهم يتمتعون بنفوذ كبير فى مصر ، وخاصة فى الجيش والإدارة .

وفى أواخر عام ١٥٢٣ حانت فرصة أخرى استغلها المماليك الناقمون للتعبير عن سخطهم على العثمانيين . فقد تمرد حاكم مصر العثمانى أحمـــد باشا (ومن هنا لقب فيما بعـــد بالخائن) ، على السلطة المركزية فى إستانبول بسبب طموحه ، وأيضا بسبب تآمر الدولة عليه ، وأعلن نفسه سلطانا. وكان

---

(١) انظر محمـــد بن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ — ٥ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٦٠ — ١٩٦٣ ، الجزء ٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق جزء ٥ ، ٢٩٥ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ .

(٣) انظر حول هـــذه الثورة كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

فى طليعة مؤيديه المماليك . ولكن الدولة العثمانية سرعان ماقضت على ثورته [١] . وأدخلت عقب ذلك تنظيمات إدارية وعسكرية هامة ، بموجب القانون نامه ودفتر التربيع الذى نظم الاستفادة من الرزق ، فتوطدت السلطة العثمانية وحيل - لفترة - دون استغلال المماليك للأنظمة القديمة التى بقى كثير منها سائداً منذ الفتح العثمانى .

وبلغت السلطة العثمانية شأواً كبيراً من القوة ، فى عهد السلطان سليمان القانونى وانعكست هذه السلطة على الإدارة العثمانية فى الولايات ، فسيطرت عليها بالقوة والإرهاب وبما طبقته من قوانين .

واستمرت هيبة الدولة قائمة فى مصر إلى مابعد وفاة السلطان سليمان القانونى بقليل . وبدأت إذ ذاك عوامل الضعف العسكرى والاقتصادى تعمل عملها ، فقامت الثورات ، ومن جملتها ثورات العساكر السباهية فى مصر . وعاد المماليك ، من جديد ، للظهور كعنصر ثائر . ولاأدل على طموح هؤلاء الثائرين وعمق تحديهم للعثمانيين من إعلانهم سلطانا من بينهم ، وتسميتهم الوزراء ، واقتسامهم حارات القاهرة للسيطرة عليها . وتشبه حركة التحدى هذه ماسبق أن قام به أحمد باشا الخائن ، ومن قبله جان بردى الغزالى والى دمشق الذى استغل فرصة وفاة السلطان سليم الأول فى ١٥٢٠ ليعلن انفصاله عن العثمانيين وارتداده إلى المملوكية ، وسمى نفسه سلطانا ، ثم قتل [٢] . وقد تمكنت السلطة العثمانية ، بعد أن استنفرت جميع قواتها ، من القضاء على العساكر الثائرين فى عام ١٦٠٩ . ومرة اخرى لم يقض العثمانيون

---

(١) المصدر السابق ، ١٤٠ - ١٤٣ .

(٢) انظر تفاصيل هذه الثورة وانعكاساتها على مماليك مصر فى المصدر السابق ، ص ١٢٠ - ١٢٤ ، ١٢٨ - ١٣٠ ، ١٣٧ - ١٣٨ .

على وجود المماليك ولم يمنعوا استيرداهم إلى مصر . واذا كان قد قضى الآن على تمرد الطائفة المملوكية السباهية ، فإن الموظفين الإداريين من المماليك ظلوا يتمتعون بسلطة كبيرة فى إمارة الحاج والكشوفيات والدفتر دارية وغيرها .

وما لبث المماليك أن عادوا ، بعد ذلك ، إلى الاشتهار السياسى والعسكرى ، من خلال رتبة الصنجقية ، وبرز بينهم زعيم طائفة الفقارية رضوان باك الفقارى الذى أمر ، فى حوالى ١٦٣٠ ، بوضع نسب له (قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش)[١] يتفق مع مركزه كأمير للحاج المصرى ، ومع ازدياد النفوذ الذى بلغه المماليك . وبالرغم من الضربة التى وجهت للطائفة الفقارية ، وبالتالى للمماليك ورتبة الصنجقية ، فى عام ١٦٦٠ من قبل السلطة العثمانية[٢] ، فقد استمر نفوذ المماليك يتزايد ببطء إلى أن بلغ الذروة فى عهد على باك بلوط قبان (Bulut Kapen) ، أى قابض الغمام[٣] . ولم يقض على نفوذ المماليك نهائيا حتى ظهور محمد على باشا الألبانى ، فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وذلك بعد أن أضعفتهم الحملة الفرنسية . ولم يستفد الجناح الآخر من المحكومين ، أى أولاد العرب ، من زوال منافسيهم المماليك فى الوصول إلى السلطة السياسية ، إذ حل الألبانيون محل المماليك وتمتعوا بقوة منظمة وبسلطة أكبر .

والظاهرة الثانية التى تسترعى الاهتمام فى ثورات العساكر السباهية هى معاداة الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم فى دخول الجيش العثمانى

---

(١) انظر الدراسة التالية الهامة لهذا النسب : P. M. Holt,' The Exalted lineage of Ridwan Bey', *BSOAS*, X X I I. 2 (1959), PP. 221-230.

(٢) انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٢٦٧ — ٢٧٩ .

(٣) المصدر السابق . ص ٤٠١ — ٤٠٩ .

واستخدام المماليك البيض. وهــذا يعنى أن أولاد العرب قد بدأوا يتسربون إلى الطوائف العسكرية العثمانية ويتمتعون بامتيازاتها ، مما أثار حقد العساكر ، وخاصة المماليك الذين ازداد عداؤهم لأولاد العرب نظراً لاستخدام هؤلاء المماليك البيض. ولتبيان الدور الذى بدأ يلعبه أولاد العرب إلى الحد الذى أثارحقد الثائرين ، ولتوضيح أصول العداء بين المماليك وأولاد العرب يحسن بنا استعراض العلاقة بين هذين الفريقين منذ الفتح العثمانى :

لم يتبدل وضع أولاد العرب ، من الناحية السياسية ، إثر الفتح العثمانى ، إذ حل حاكم غير عربى مكان حاكم آخر غيرعربى. واستغل البدو تبدل السلطة فحاولوا التمرد على التنظيمات المملوكية السابقة ، وعلى محاولات العثمانيين فرض سيطرتهم عليهم : ولعبوا دوراً هاماً فى دعم ، أو التخلى عن دعم ، الثائرين الأوائل على العثمانيين : إينال السيفى وجانم السيفى ، وأحمــد باشا الخائن . واعترف العثمانيون بإمرة بدو هوارة الأشداء فى الصعيد ،واستمر الأمر كذلك حتى الربــع الأخير من القرن السادس عشر حين عين حاكم عثمانى للصعيد، مركزه جرجا . أما بالنسبة للقبائل الأخرى فى أقاليم الشرقية والغربية والبحيرة ، فقد عمد العثمانيون إلى فرض سيطرتهم عليهم بضرب قبيلة بأخرى، أو زعيم بآخر ضمن القبيلة الواحدة ، وبإجراءات تنظيمية أخرى (١).

وأصبح وضــع أولاد العرب ، بصورة عامة ، أكثر تعقيدا ، عقب الفتح العثمانى ؛ لأنهم دخلوا فى صراع مــع طائفة المماليك التى سعت لاسترداد سلطتها من العثمانيين وإبقاء أولاد العرب أدنى مرتبة منها ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية . وهكــذا حاول المماليك ، بدافع من سيطرتهم

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٣ — ١٣٨ .

السابقة واستمرار نفوذهم العسكرى والإدارى فى العهد العثمانى ، أن تكـــون لهم اليد العليا محلياً كخطوة أولى فى توطيد سلطتهم ، ومن هنا كانت شدة عدائهم لازدياد نفوذ أولاد العرب .

ونلحظ هــذا العداء فى العلاقة بين جناحى المحكومين منذ أن حاول المماليك استعادة نفوذهم عقب الاحتلال العثمانى . ونرى فى ولاية خاير باك المملوكى كيف قتل إينـــال السيفى وجانم السيفى اثنين من مشايخ بدو الغربية من آل مرعى ، ثأرا لتسليمهما السلطان المملوكى طومان باى إلى العثمانيين[1] . ونرى أيضا كيف عمد خاير باك ، أثناء ولايته ، فى عام ٩٢٥ / ١٥١٩ ، إلى تعيين أمير الحاج من المماليك بعد أن شغل هــذا المنصب فى السنتين السابقتين موظفون محليون[2] . واستمر تعيين المماليك أمراء للحاج بعد ذلك . ويدل هــذا الأمر على عودة المماليك لأشغال الوظائف الهامة وإبعاد السكان المحليين عنها .

وقد رضخ المحكومون ، من مماليك وأولاد عرب ، فى ولاية مصر ، كما فى غيرها من الولايات العربية فى عهد السلطان سليمان القانونى ، لقوة العثمانيين التى تجلت محلياً وخارجياً . وتوالى على ولاية مصر فى فترة القوة هــذه ولاة مشهورون ، مثل سليمان باشـــا الخادم الذى اشتهر بحملاته فى المحيط الهندى ، وسنان باشـــا صاحب الحملات الناجحة فى اليمن . وكانت انتصارات الجيوش العثمانية فى العراق واليمن وسواحل أفريقية الشرقية ، فى سواكن ومصوع ، وفى البلقان بصورة خاصة ، وما تلا ذلك من إقامة الزينة ،

---

(١) انظر : ابن إياس ، جزء ٥ ، ٢٩٥ — ٢٩٦ ؛ أحمــد بن زنبل الرمال ، مخطوط عن مصر ، نسخة المكتبة الوطنية فى ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 الورقــة ١٣٧ ب .

(٢) انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

بهـذه المناسبات ، فى الولايات تذكيرا ماديا بقوة الدولـة وجبروتها وعاملا على زرع الخوف منها وتقديم الطاعة لها :

وحين بدأ الضعف يستفحل فى الدولـة العثمانية ، بعد عهد السلطان سليمان القانونى ، استغل ذلك أولاد العـرب فى ولاية مصر ، وحاولوا كما حاول اسمياؤهم فى الشام ، الانتساب إلى الطوائف العسكرية ، بعد أن اختلت أنظمتها للاستفادة من امتيازاتها. وتلا ذلك صراع على النفوذ بين المماليك وأولاد العرب :

ولتوضيح الصعاب التى وضعها المماليك أمام أولاد العرب فى مصر ليحولوا دون ازدياد نفوذهم ، يمكننا أن نقوم بمقارنة مع ماحدث فى ولاية الشام ، فى هـذه الأثناء ، من انتساب أولاد العرب إلى الطائفة الانكشارية : ففى عام ١٥٧٧ وجه السلطان العثمانى فرماناً إلى والى الشام يأمره فيه بأن يعين فى الوظائف التى تشغر بين الانكشارية أفرادا من أصل رومى وليس من المحليين أو الغرباء . ولكن دخول غير الأروام طائفة الانكشارية لم يتوقف بصدور هـذا الفرمان ، بل ازداد شدة ، وسرعان ماسيطر أولاد العرب فى ولاية الشام على طائفة الإنكشارية حتى أصبحت تعرف ، تبعاً لذلك ، فى حوالى منتصف القرن السابـع عشر ، باسم الانكشارية اليرلية (أى المحلية) نسبة لهم : واضطر السلطان أن يرسل طائفة أخرى من الانكشارية ، عرفت بالقابى قول ، لدعم نفوذه[1] : وفى ولاية حلب حيث امتنعت الطائفة الانكشارية على السكان المحليين ، نظرا لقوة النفوذ العثمانى ووقوع حلب على طريق الجيوش العثمانية المتجهة إلى الجبهة الفارسية ، عبر السكان المحليون عن ازدياد نفوذهم بانتسابهم إلى طائفة الأشراف : ومن هنا كثر عدد الأشراف فى حلب (مما اقتضى تزويرهم الأنساب) ، وصراعهم المستمر مـع الانكشارية[2] :

(١) انظر كتابنا : *The Province of Damascus*, 27-33

(٢) انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ٨٦ — ٨٧ .

وحين حاول أولاد العرب في مصر الانتساب إلى الطوائف العسكرية، كمتنفس لقوتهم ولحماية مصالحهم في الوقت نفسه، وقف المماليك حجر عثرة في سبيلهم، وحالوا دون ازدياد نفوذهم عسكرياً. ويذكر في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر كيف تكتل العساكر السباهية (الذين ازدادت سيطرة المماليك عليهم) مع أقوى طائفتين عسكريتين: الانكشارية والعرب، في محاولة لإخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية. وحدثت نتيجة لذلك، فتنة كبيرة في الطوائف العسكرية السبع من عزل وتولية ونفي وغير ذلك[(١)]. ونستدل من هذا على استمرار أولاد العرب في محاولاتهم الانتساب إلى الطوائف العسكرية وعلى اشتداد معارضة المماليك واتساعها ضدهم.

وفي أعقاب القضاء على نفوذ الطائفة الفقارية في مصر عام ١٦٦٠ وانتعاش السلطة العثمانية في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، شدد العثمانيون من قبضتهم ضد ازدياد النفوذ المحلي[(٢)]، وأرسلوا أمراً إلى مصر في شوال ١٠٧١ / حزيران ١٦٦١ بإخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية[(٣)].

وبانتهاء هذه الطفرة من القوة العثمانية في عهد آل كوبريلي، في أواخر

(١) مخطوط باريس، رقم Arabe 1855 ٥١ آ؛ وانظر ايضا: زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر، ٩ ب.

(٢) قضوا في أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر على ثورة حسن باشا في حلب وعلى تمرد زعماء الانكشارية في دمشق، انظر كتابنا: بلاد الشام ومصر، ١٩٢ – ١٩٣.

(٣) مخطوط باريس، رقم Arabe 1855 ، ٥١ ب؛ أحمد شلبي، ٢١ آ.

القرن السابـــع عشر ، اشتد الانحطاط فى السلطة العثمانية ، واستغل ذلك المماليك الذين اشتهروا كثيرا فى مصر فى القرن الثامن عشر وأصبحوا حكامها الفعليين ، وطغوا على نفوذ أولاد العرب :

وبزوال سلطة المماليك فى الربـــع الأول من القرن التاســـع عشر لم يستفد أولاد العـــرب سياسياً من القضـــاء على منافسيهم التقليد بين ، رغم ما أبرزوه من قوة وما قاموا به من ثورات شـــعبية ضـــد الفرنسيين لأن أسرة محمد على الألبانى حلت محل المماليك ومحل العثمانيين عمليا . وقد استخدم الحكام الألبانيون أولاد العرب فى الجيش ، ولكن حيل بينهم وبين الوصول إلى أعلى الرتب العسكرية . وأدى ذلك إلى مقاومة العساكر من أولاد العرب ، بقيادة الضابط أحمـــد عرابى المصرى ، السيطرة التركية — الشركسية على الجيش . وكممثل لأولاد العرب فى صراعهم الطويل ضد المتسلطين الأغراب أبرز أحمـــد عرابى هويته العربية — المصرية فى اسمه [١] :

---

(١) انظر : J. M. Ahmad, *The Intellectual origins of Egyptian nationalism*, London, 1960, P. 25.

مسلك القاهرة

عثمان الكعاك

مسالك القاهرة

عثمان الكعاك

الباب الأول : —

أسباب ونتائج

أطرح قضية ولا أحلها . ، والقضية فى الحقيقة قضيتان ، أوهى قضية واحدة، ولكنها ذات زمنين :

الزمن الأول : يعنى ما سبق يوم الارتحال إلى القاهرة من إعدادات .

١ — إعدادات للتوثق من سلامة المغرب من الثورات البربرية أو غيرها، وتأمين البلاد السوداء ومحاولة فتح الأندلس أوعلى الأقل عزلها، ومن التأكد من سيادة البحر المتوسط فى حوضيه الشرقى والغربى، بالاستيلاء على جزيرة قريطش (كريت أوكريد) واستيساق الأمن بسردانيا وكرسيكا وصقلية وقلورية (كالابريا — جنوب إيطاليا) واستتباب الأمن بالأربطة الموجودة بجنوب فرنسا ؛

٢ — إعدادات عسكرية ، وذلك بحشد جنود البربر من القبائل، سواء شرقى وادى شلف — قبائل صنهاجة وكتامة، أو غربى وادى شلف — قبائل مصمودة وزناتة ، أو جنوبى وادى شلف — كقبائل جدالة وأوروبة .

٣ — إعدادات مالية، وذلك بجمع الاعتمادات اللازمة لنفقات الجيش والرحلة، وما يتبع ذلك وينجم عنه :

٤ — إعدادات الاستخلاف وبيان السلوك وضبط السياسة التى سيتبعها من سيخلف الخليفة الفاطمى بالمغرب، ويضطلع بمسؤولياته فيه، وتحقق السياسة التى سينتهجها يوم تنتقل الخلافة إلى القاهرة، وتريد أن تتفرغ إلى واجبات أخرى فى الشرق الاوسط وتجاه بيزنطة،وما يتبع الفتح من توغل فى المنطقة .

٥ — نشر العقائدية الفاطمية فى الضفة الشمالية من البحر المتوسط فى فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا وبلغاريا، تمهيداً لفتح هذه الجهات يوما ما، كخطوة أولى لفتح بيزنطة والأندلس ، أو كنتيجة حتمية لفتحهما :

٦ — إعداد الرحلة نفسها ببناء المراكز التى ستمر بها القافلة مرحلة بعد مرحلة، واتخاذ العدة اللازمة من طرف وكالة الشؤون للتوثق من تموين الجيش والمدنيين والحيوان وضمان السبيل والمبيت والنقلة والأكل والشرب، ومبلغ أدنى من المرافق :

الزمن الثانى :

انتقال القافلة الميمونة من مدينة المنصورية قرب القيروان إلى الإسكندرية أولا ، ثم إلى القاهرة فى النهاية . وبيان المراحل التى مرت بها ، وضبط مواقيتها وما كان عليه الجو الأدبى المحيط بها خلال المرور :

قد قلت إنى أضع قضية ، وذلك لأن هـذه القضية لم توضع فى جملتها ، ولا فى تفاصيلها على مابلغ اليه علمنا على الأقل، ولأننا بدون وضعها أو محاولة حلها لانفهم من نتائج—بعد استقرار الفاطميين بالقاهرة—الا قليلا، ويفوتنا كثير :
أما أننا لاندعي حلها فلأسباب ثلاثة ؛

السبب الأول : هو أن الموضوع متسع الأطراف جداً لا يمكن أمام توافر المواضيع فى هـذا المؤتمر الألفى الإشارة إليـه تاميلا ، إلا أن يتولاه من هذا الشباب العـربى الناهض من يضبط إطاره ، ويدقق جزئياته ، ويجمع وثائقـه الكتابية والأثرية وحتى الفولكلورية :

السبب الثانى : هو أن معلومتنا عن هذه الرحلة تعتمد على أصول ثلاثة :

الأصل الأول : المصادر الكتابية ، ومنها ماهو مطبوع ، ومنها ماهو مخطوط ، ومنها ما هو مفقود ، فيجب أن نتربص قليلا حتى يطبع المخطوط ، كالمجالس والمسايرات للقاضى النعمان بن حيون ، أو نعثر على المفقود كأخبار الدولة لأحمد بن الجزار الطبيب القيروانى ، وتاريخ إفريقية والمغـرب لابراهيم الرقيق القـيروانى :

الأصل الثانى — المصادر الأثرية ، وذلك أن الطريق من المنصورية إلى مسراطة فيما بعد مدينة طرابلس تتوالى فيه مراكز العمران : وقد وصفه لنا عبد الله التيجانى فى رحلته فلا احتياج إلى بناء استراحات وقصور ، ومخيمات للجيش ، والقافلة الكسروانية . وإنما المشكلة فى مقطوع الطريق بين مسراطة وإجدابية ، وبصورة أقل حدة بين إجدابية والإسكندرية :

ونحن نعلم أن تميم بن المعز الفـاطمى تولى إنشاء هـذه المراكز ، فيجب البحث عنها ، واجراء حفريات بها ، ونشر الاحجار التذكارية التى رسمها تميم ، والتى يوجد البعض منها فى متاحف ليبيا . ولا سيما فى متحف الشحات قرب مدينة البيضاء :

وقد بنى تميم قصراً لأبيه فى كل مركز هام ، من ذلك قصر إجدابية الذى وقع العثور عليه خلال الحرب العالمية الثانية ، فأين هى بقية القصور ، وأية حفريات أجريت للعثور عليها ؟ :

الأصل الثالث — إذا فاتنا أن نجد نصاً مكتوباً أو أثراً مدروساً، فنحن نلتجئ إلى العلوم الملحقة بالعلوم التاريخية كالنقادة (ستانلى لين بول : علم النقود)، فنحن نعرف رحلة الفاطميين من سجلماسة فى أقصى المغرب إلى القيروان من خلال ماضربوه من النقود على التوالى مرحلة بعد مرحلة، مع ضبط دار الضرب واسم المرحلة وتاريخها ، وليس لنا إلى الآن مايشبه ذلك فى القصر الليبى، لأنه لم يعثر على المقدار الكافى من النقود، أو لأنه لم تضرب نقود باسم المراحل — من يدرى ؟ — فنحن ننتظر أن يقع العثور على شئ من ذلك ، عندما يبــدأ اخواننا الليبيون فى نشر النقود الأثرية فى مجموعات :

أو كالنقاشة (إيبيغرافيا — علم فتح المغلق من النصوص المنقوشة على الحجر أو الخشب أو المعدن) :

وإذا كانت النقاشة البونيقية أو الأطينية الموجودة بليبيا قــد نشرت ، فإن النقاشة العربية لم تنشر ، ولا سيما ما يخص أفاريز القصر الفاطمى بأجدابية ، الذى نشر عنه بعض الشئ بمجلة مديرية الاثار الليبية (١٩٦٦) ، والألواح التذكارية التى رسمها تميم ، والموجودة بمتاحف برقة على الخصوص :

وقد انبعث من الشباب الليبى بفضل رسالة الجامعة الليبية واهتمام الحكومة الوطنية نخبة نعول عليهم كثيراً فى الاضطلاع بهذا الموضوع الهام . فلننتظر قليلا ، ولنتح فرصة أخرى لهــذا الشباب أن يعمل عملا صالحاً لاثارة هذا الموضوع الهام :

أو كالفولكلور فإنه يحفظ تقاليد وعادات وعقائديات ، وصوراً موروثة قد نستفيد منها فى دراسة موضوعنا ، ونحن نعلم أن الكثير من الدول التى استقلت بأوروبا فى القرن الماضى أو بعد الحرب العالمية الأولى ، كشفت جوانب كثيرة من تاريخها بدراسة فولكلورها :

فمـــا هو المتبقى فى الطبقات الشعبية فى المغـــرب من التقاليد والعادات الفاطمية، وما يجرى على الألسن، ولو بدون تعليل من العقائد ؟

لكن انتظار إماطة اللثام عن هذه الكنوز لايقعد بنا عن الاستفادة من القليل الموجود ، فما لايدرك كله لايترك قله : ونحن أصحاب هـــذا القل . إن شاء الله تعـــالى .

فذلكة تاريخية

ما هى الأسباب التى دعت الفاطميين إلى الانتقال إلى القـ اهرة ؟ هل هى راجعة إلى سياسة فشلت ، أو إلى إخفاق نظام قائم ، أو أزمة مذهبيـــة ، أو ضائقة مالية ، أو حب توسع ؟

وهل هـــذا الانتقال كان مقصوداً بالذات ومبيتا من قبل ؟ . فمـــا أفريقية والمغرب إلا مرحلة انتشاء للدولة الفـــاطمية ومخبر تجارب لسياستها وحريتها ونظامهـــا الحكمى والعسكرى والحضرى والتعليمى، وإرادة قضاء أزمة النشوء فى غير مسقط رأس الفواطم بسوريا وهل هو عزم ثابت على تأمين المغرب وأفريقيا السوداء ، والبلاد الواقعة بالحوض الغربى من البحر المتوسط ، تمهيدا للرجوع مع اكتساب وسائل وإمكانيات أوفر وأعظم كماً وكيفاً ونوعاً ؟

لنفهم هذا ونتبين الحقيقة، يجب أن نعرف ماهى الفاطمية :

الفاطمية مذهب دينى ، ونظام خلافة عقائدية ، يصح أن تكون عالمية :

أ — المذهب الدينى : وهو المذهب الشيعى، جاء إلى المغرب وقضى على دول الأغالبة والرستميين والأدارسة : ووجد أمامه المذهب المـــالكى والمذهب الحنفى وهومذهب العباسين السائد ببلاط الأغالبة، والعائلات الحكومية بأفريقية ، والمذهب الأباضى السائد ببلاط الرستميين، وجنوب تونس، والجزائر، وشمالى ليبيا بجبل نفوسة، ومدينة زوارة .

فاصطدم الشيعة الفاطميون بالمالكية من رجال مدرسة القيروان اصطداماً عنيفاً بالمناقشة أولا ، مثل مناقشات ابن الحداد القيروانى (انظر معالم الأيمان لابن ناجى فى ترجمة ابن الحداد نفسه) او بالاستشهاد مثل استشهاد محمد بن خيرون (انظر ترجمته فى معالم الإيمان)، أو بالانتقاضات من طرف الرباطين . وفى سواحل المغرب والجزائر وتونس وليبيا الف رباط على الساحل، فيها رجال من المدرسة المالكية السحنونية القيروانية، عاهدوا الله على أن يدافعوا عن الثغور من هجوم الخارج والداخل :

والحوادث الرباطية كثيرة ، أورد جانباً منها ابن ناجى أيضاً فى غضون كتابه القيم :

فرجال المالكية والمرابطون بالربطة والقرى الرباطية بالسواحل المغربية ضد الفواطم بشكل عنيف :

وكان الاصطدام مع الحنفية قليلا، لأن الدولة الأغلبية التى هى دولة حنفية قد انتقلت إلى المشرق ؛ وانتقل أنصارها ورجال الحنفية إلى صقلية ، فلم تبق هناك مقاومة :

وكان الاصطدام مع الإباضية عنيفاً ومسلحاً، سواء مع رجال الدولة الرستمية بتيهرت وما إليها ، أو مع ثورة الزعيم البربرى أبى يزيد مخلد بن النكارى كيداد، فقدكادت تقضى على الدولة الفاطمية بالتمام والكمال :

وهذا ما دعا المعز إلى التوثق من البربر على اختلاف قبائلهم ، ومن تأمين المنطقة الحساسة البربرية بالمغرب التى هى منطقة وادى شلف، على مقربة من من تيهرت عاصمة الرستميين أنفسهم (انظر عن الرستميين — ابن الصغير ، وابن عذارى، وغيرهما من المصادر) :

على أن البربر هادنوا المعز بعد انكسار ابن يزيد، وذهاب الدويلات الصغيرة التى كانت ضاربة بالمغرب :

وإذن فقضية الخلاف المذهبى كانت فقط عاملا مرجحاً ، لاسبباً أصلياً فى انتقال الفاطمين إلى القاهرة :

قلنا إن الفاطمية مذهب دينى ، ورأينا أن هـذا المذهب الدينى لم يكن بالإضافة إلى النقلة إلا عاملا مرجحاً ليس إلا :

وقلنا إن الفاطمية خلافة، والخلافة فى الإسلام لايمكن أن تتعدد، ومع ذلك فهناك فى عصر المعـز لدين الله الفاطمى المنتقل إلى القاهرة ثلاث خلافات : الخلافة العباسية ببغـداد ، ثم الخلافة الأموية المجـددة بالأندلس، ثم الخلافة الفاطمية بالمهدية والمغـرب . ومن واجب كل خلافة أن تقضى على الخلافتين الأخرين ، تلك كانت سـياسة الدولة العباسية التى أنشات دولة الأغالبـة ، للقضاء على الأدارسة والأمويين بالأندلس، وتلك كانت سياسة الخلافة الأموية التى كانت تنوى الاعتماد على البربر الإباضية للقضاء على الفواطم بالمغرب ، وعندما ذهب ابى ابن يزيد مخلد بن كيداد لطلب النجدة ، وتدبير الخطة مع البلاط الأموى بقرطبة :

وإذن فالفاطميون كانوا ينوون القضاء على خلافتين إسلاميتين، إذ لايمكن أن تقوم إلا خلافة واحدة، فأرادوها لأنفسهم، إذ رأوا أنفسهم الأحق بها :

فقيام الفـواطم كخلافة بين خلافتين يجب أن تضمحلا لفائدتها ، وأن تزولا من مسرح التاريخ لتنفرد بالملك هو سبب جوهوى فى الانتقال، بل هو سبب عقائدى وتأسيسى . وسنرى أن الفاطمين أرسلوا جوهر القائد قصد الاستيلاء على سبتة تمهيداً لفتح الأندلس ، فلم يفلح ، فأرجئ الأمر إلى غد، ولم يبق الا الابتداء بالدولة العباسية ، ثم يسهل الله أمر الأندلس فيما بعد :

بل رأينا جوهر الصقلى يتحول بعـد فشله أمام سبتة إلى المغرب والبلاد السوداء تأنيبا للرجال وجمعا للأموال . ويبـدو أنه إذا وجد آذاناً صاغية ، وقلوباً واعيـة فى الدعوة إلى المشرق ، فإنه لم يفلح فى الدعوة إلى الاندلس ، وكان فيما بعد من المرابطين والموحدين ، لم يحن وقته بعد فى زمن جوهر الصقلى ، فأرجئ الأمر ، ولم يقطع الرجاء منه إلى حين .

وإذاً فالنظام الخـلافى هو السبب الأصـيل ، أوأحد الأسباب الأصلية فى انتقال الفاطميين .

رأينا أن اصطدام الفاطمية كمذهب مع بقيـة المذاهب القائمة بالمغرب ، لم يكن إلا عاملا مرجحاً فى الانتقال .

ورأينا أن الفـاطمية كخلافة إسلامية وجدت نفسها بين خلافتين : العباسية فى الشرق ، والأموية المجددة فى الأندلس — مع وجوب وحدة الخلافة — قد كان عاملا أصيلا فى الانتقال ، وقلنا إن الفاطمية هى أيضاً عقائدية نزوعة إلى الانتشار العالمى . وهى تستمد عناصر فلسفية إيرانية وهندية . نجدها قد انتشرت بجنوب أوربا من فرنسا إلى بلغاريا ، وقد كانت جماعة من المسلمين بالمناطق التى احتلها الفاطميون من فرنسا ، سواء بالساحل أو على ضفتى نهر الرون ، كما نجـد مسلمين فواطم بيوغوسلافيا وبلغاريا قبـل الفتح العثمانى . (انظر مادة « بلغار » فى دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى) .

وتسمى هـذه النزعة نزعة الكاتار ، ولا تزال موجودة بالجنوب الغـربى من فرنسا تحت التقية ، وأحياناً تبرز جهرة — وهـذا موضوع واسع وطريف يحتاج إلى تحقيق ، فهذه النزعة التوسعية العقائدية الفاطمية كانت من أسباب الفتوحات التى جرت بالسواحل الأوربية من حوض البحر المتوسط ، وانتشار العقائدية بواسطة الدعاة هو إيجاد للأنصار . وفتح رومة المؤقت هو تمهيـد

لفتح بيزنطة ، إذ أن الفاطميين لم يحاولوا القضاء على العباسية والأموية من حيث أنهما خلافتان إسلاميتان . لكنهم كانوا ينوون القضاء على رومة وبيزنطة ، لتتم السيادة النهائية فى البحر المتوسط شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً . وفكرة الاستيلاء على رومة وعلى بيزنطة كانت فى برنامج الأغالبة أنفسهم ، إما لحسابهم الخاص ، أو لحساب العباسيين الذين زرعوهم بإفريقية ، لخطة سياسية تحديدية من ناحية ، لتوقيف تيار الأدارسة والأمويين ، وتوسعية فيما بعد لتوحيد المغرب مع الاندلس ، والاستيلاء على رومة وبيزنطة . على أن هذه السياسة التوسعية تكاد تكون قاعدة قارة لدى جميع الشعوب التى كانت لها — عبر التاريخ — صولة بالبحر المتوسط :

الفينيقيون ، ثم الرومان ، ثم البيزنطيون فى العصور القديمة ، والفرنسيون والإيطاليون والأسبانيون فى العهد الاستعمارى المنصرم .

غير أن دوافع الفاطميين ليست توسعية فحسب ، بل دينية وعقائدية ، واستراتيجية دفاعية وهجومية فى الآن الواحد : فامتلاك الجزر المتحكمة فى مضايق البحر المتوسط ، والتحكم فى مصائر هذه البواغيز نفسها جبل طارق ، وسردانيا ، وصقلية ، وقريطش ، وأهم الموانى فى هذا البحر كوهران ، وتونس ، وبجاية ، وبنزرت ، والمهدية ، وطرابلس ، وبنغازى ، وبالرم ، والاسكندرية وبنزرت هى ضرورية بدون خلاف :

ونحن لنا أمثلة من هذه النظرية « الوقائية » فى عامة العصور التاريخية بالبحر المتوسط :

ومن اليوم الذى تحول فيه الفاطميون من القيروان البرية إلى المهدية البحرية التى هى شبه جزيرة تحاكى بارجة كبرى مدرعة متجهة نحو صميم البحر المتوسط ، لم يبق هناك من شك فى أن هذه السيادة البحرية تتطلب امتلاك الجزر والنقط الحساسة .

وبقى أن نتساءل بعد هـــذا هل هناك أسباب اقتصادية ؟ :

والأسباب الاقتصادية تكون :

أولا — سلبية — بمعنى أن البلاد الموجودة فيها هذه الأسباب السلبية غير قائمة بنفسها ، ولا متوفرة بها أسباب المعاش إلا من طريق التوريد، أو من طريق التوســع الخارجى ، فجبل لبنان فى عهد الفينقيين وحتى بعده لايكفى لمعاش أهل لبنان فتوسعوا فى البحر المتوسط بالملاحة وفى القارة الأفريقية بالقوافل وعاشوا من التجارة والملاحة . وايطاليا لاتضمن معاش الرومان ولا تكفل لهم قمح الاختباز ، ولازيت التأدم ، ولاخمرة النشوة ، ولا ثمار التنقل ، فاحتاجوا إلى التوسع فى المغرب وغيره ، حتى كان المغرب «هرى رومة وظميرها » :

وليس هـــذا شان المغرب الفاطمى ، فهو أغنى تربة ، وأجدى زراعة ، وأعظم إغلالا ، وأوفر صناعة ، وأعم تجارة فى جميع عصوره المزدهرة :

وقد وصف لنا أبوعبيد البكرى المغرب الفاطمى فى كتابه «المسالك والممالك» اعتماداً على موسوعة محمـــد بن يوسف الوراق التى وصف فيها ديار المغرب بلداً بلداً . فإذا به أغنى مايكون ، وإذا بالزياتين تمتد غير منقطعة من قابس إلى طنجة ، وإذا بجدران المنازل تتواصل من القيروان إلى المهدية : وإذا بأنهار تكرور تفيض تبراً على المغرب كما قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : (وأنهار تكرور هى وادى الذهب والسينغال والنيجر) :

وإذا كانت خـــلافة من الخلافات الثـــلاث مزدهرة اقتصادياً حقاً ، فهى الخلافة الفـــاطمية لها وحدها صناعة الحرير ، والزجاج ، والقاشانى ، والكاغد فى البحر المتوســط ولها غابات الأخشاب الصالحة بصناعة السفن ، أواتخاذ الأثاث : ولهافضةسردانيا ، وكبريت صقليـــة ، وزئبقها ، ونفطها ، ولها مرجان طبرقة ، وحديد المغرب ، ونحاس موريطانيا ، إلى غير ذلك :

وليس الأمر كذلك، بالإضافة إلى الخلافة الأموية بالأندلس : فالأندلس شبه جزيرة ودارحرب، وثغر ملتهب النيران على الدوام، والأمر كذلك أيضاً بالإضافة إلى الخلافة العباسية التى أوهنتها الشعوبية الانفصالية، والفتن المستمرة وأخطار الإيرانيين والأتراك :

ومع أن الأندلس والإمبراطورية العباسية كانتا فى أوج الحضارة فى هذا القرن الرابع ، فإن المغرب كان أكثر ازدهاراً من الناحية الاقتصادية على الأقل .

فليس انتقـــال الفاطمين إلى الشرق من باب التوسع الاقتصادى السلبى ، على ماذكرنا من وجوه .

ثانيا — الأسباب الاقتصادية الإيجابية ، وتعنى ازدياد الإنتاج على الاستهلاك المحلى ، والاحتياج إلى التصدير ، فالتضخم الاقتصادى الزائد على الاكتفاء الذاتى يتطلب أسواقاً وتسويقها، والأسواق تتطلب تأسيس مراكز تجارية ، ومناطق نفوذ أو إنتاج اقتصادى، وكلاهما يتطلب اسطولا حربياً، وأسطولا تجارياً .

والازدهار الاقتصادى يتسبب فى وفرة النسل، وارتفاع الدرجة الديموغرافية، وإيجاد رصيد بشرى طافح مشاغب :

وهذا ماكان عليه واقع الفاطميين بالمغرب . والأمثلة على ذلك فى التاريخ المعاصر كثيرة قائمـــة لاتدحض . فالسبب الاقتصادى هو سبب زيادة لاسبب نقصان ، ودافع تصدير لاتوريد :

ويتضح من كل ما سبق أن الفاطميين كانوا ينوون منـــذ الأول الانتقال إلى المشرق بعد تأمين المغرب، والحصول على نتائج تجاربهم المغربية .

وأن الأسباب الداعية إلى هـــذا التوسع هى أسباب دينية (توحيد الخلافة) وعقائدية (نشر النظام الفلسفى الفاطمى) والتوسع الاقتصادى :

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر وهو أن المغرب الفاطمى فى هـذا القرن الرابع كان يزخربالنفوس، ويزخر بالإطارات على اختلافها، ويزخر بالمحصولات الزراعية والصناعية .

فازدياد النفوس تلك يؤلف مشاكل لابد من حلها ، وأفضل الحلول هو التوسع الخارجى ، أعنى الاغتراب : ماذا صنع الفينيقيون أمام نفس المشكل ؟ اغتربوا . ماذا صنع اللبنانيون فى القرن الماضى حينما اغتربوا ؟ والمغرب الفاطمى كان محتاجاً إلى الاغتراب أيضاً .

ثم إن ازياذ النفوس يقتضى الاستخدام الشامل . وقد استوعبت الفلاحة والصناعة والتجارة والملاحة والمهن الحرة ما استوعبت . واستوعب التجنيد العام للجيوش الترابية والجيوش البحرية ما استوعب . لكن الفاطميين ، ولا سيما المعز لدين الله وجد نفسه أمام أسطول حربى عظيم بعدد قطعه، وعظيم بتجهيزه ، وعظيم برجال قيادته . ووجد نفسه أمام جيش عربى بربرى لايحصى عدداً وعدة، له إطار ممتاز جداً . فماذا يصنع بأسطول مرابط بثغوره، وبجيش مرابط فى ثكناته، ينفق عليهما النفقات الموجعة، وهما لا يتحركان ؟

لقد علم القرطاجنيون بنتيجة ذلك فى حرب المرتزقة ، وعرفها أهل الاندلس فى ابتكار الجيوش المرابطة فى الحواضر والبوادى، وقيام دول الطوائف ، واندلاع نيران فتن وحروب طاحنة . والأمثلة كثيرة .

وإذن فلم يكن للمعز بد من استخدام الجيوش فى بعثة عسكرية طويلة النفس، واسعة النطاق .

وهكذا نرى المعز الذى اتخذ الجيش لتدويخ المغرب وفتح الاندلس ، واتخذ الأسطول لتركيز الأمن فى أهم جزر البحر المتوسط التى هى مفاتيحه، ومضائق هـذا البحر وثغوره ، نراه قد وجد نفسه أمام مشكلة جديدة ، بعد أن

فشل فى بعض أهدافه تلك، ونجح فى البقية، وعلى كل، فقد انتهت مهمة الجيش والأسطول فى المغرب . فماذا يصنع ؟ يجب ولا شك أن يعطى للجيش والأسطول أهدافاً جديدة :

على أن المعز كان ينوى منذ الأول حشد جيش جرار وأسطول جبار، قصد فتح المشرق ، لكن الحركة العسكرية التى قام بها جوهر فى ربوع المغرب والسوادين ، وتجنيد القبائل على اختلافها ، وتحولها من التطاحن بين بعضها إلى التضافر، وزوال الدويلات الصغيرة التى كانت مصدر شغب قد ضخمت الجيش والأسطول إلى أبعـد حد . فبقاؤه عاطلا بالمغرب ينتظر الطوارئ خطر شديد ، فلابد حينئذ من تحويله من الأهداف المغربية إلى الأهداف المشرقية، ولابد من تحويل الأسطول من ثغور الحوض الغربى للبحر المتوسط إلى ثغور الحوض الشرقى . فالمعز وقع فى نفس شبكته .

وكانت مراكز التعليم بالمغرب كونت إطارات عليـا ممتازة، سواء فى بيت الحكمة بالقيروان ، حيث ترجمت الكتب البونيقيـة، واللاطينية، والبربرية، وحيث أخرج إطار من المهندسين والأطباء والفلكيين ، أو بجامع القيروان ، وجامع القرويين بفاس، وجامع المهـدية ، وجامع بجاية، وجامع بالرم، حيث أخرجت إطارات من رجال الدين والأدب والفلسفة .

وهنا وجبت أيضاً قضية تصدير الأدفعة ، فإذا تكونت فى البلاد طبقة من الشغالين الفكريين العاطلين عن العمل، كانت مصدر شغب كبير .

ولا حل لذلك إلا بالتشغيل الشامل فى الداخل، فإذا بقيت بعد ذلك بقية وجب تصديرها، وهذا هو المشكل الذى وجد الفاطميون أنفسهم أمامه .

فكانت القيروان تصـدر العلماء إلى صقلية ، وإيطاليا . فحققت هدفين : الأول تشغيل المفكرين العاطلين : والهدف الثانى تحقيق الاشعاع الثقافى والعلمى

الفاطمى : وهكذا اسست الجامعات بايطاليا ولا سيما جامعة سالرن قرب نابلى وأسست مدرسة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وترأسها أحد أبناء القيروان الذى ضاع عنا اسمه العربى وبقى اسمه اللاطينى نعنى بهقسطنطين الافريقى وهكذا آلت حركة تصدير الأدمغة إلى أوروبا إلى حركة نقل علوم واشعاع ثقافة فى هذا العصر الفاطمى انبنى عليها فيما بعد انبعاث نهضة أوروبية فى العلوم والآداب والفلسفة : وحتى فى المعمار .

فتكون فى صقلية وايطاليا فن مدجن شبيه بالفن المعمارى المدجن الذى وجد بالأندلس وذلك أن التقنيين المسلمين كانوا كثرة والتقنيين الأوروبيين كانوا قلة فاحتاجوا إلى جلب التقنيين المسلمين الذين بنوا لهم كنائسهم وأديرتهم ومدارسهم وقصورهم حسب الطراز الإسلامى الغربى مع تعديلات اقتضتها النصرانية . فهذا هو الفن المدجن .

واتجه تصدير الأدمغة بعد اكتفاء أوروبا إلى البلاد السوداء بواسطة الأربطة الصحراوية التى انتهت إلى قيام دولة المرابطين وكثير من زعماء رجالها من القيروان .

كما أن البعثة إلى الشقيقة مصر اعتمدت أساساً على مشروع ثقافى هو بناء الجامع الأزهر أو الجامعة الأزهرية : وكانت على رأسها نخبة من رجال العلم والأدب والمعمار . على أن التبادل الثقافى وأحيانا التعاون الثقافى والحضرى بين تونس والشقيقة مصر قديم ومتواصل . فكانت الحضارة القرطاجنية متأثرة بالحضارة المصرية الفرعونية إلى أبعد حد ، وكان الطلبة التونسيون فى عهد الولاة الأول يذهبون فى طلب العلم إلى الفسطاط : وعندما انحط العلم بتونس فى العهد العثمانى الأول كان الطلبة التونسيون يذهبون إلى الأزهر نفسه :

وكان كثيرمن علماء تونس بالأزهر يدرسون بالأزهر . ولاسيما ابناء الجريد ممن يسمون بالقسطلانى نسبة الى قسطيلية وهى بلاد الجـــريد فى الجنوب الغربى التونسى . وسيصير الأزهر بمكتبته الفاطمية الأولى وبنمط معماره وبحلقات تدريسه وبمن كان به من طلبة وأساتذة مصدر إشعاع معمارى وعلمى ودينى وأدبى على ربوع الشرق الأوسط والديار الإفريقية والمغربية على وجه الدهـــر فهـــذه هى — على وجه العموم — الأسباب التى دعت الفاطميين المغاربة إلى الإنتقال إلى الشرق وتحويل مركز الخلافة من المهدية إلى القاهـــرة ، ومركز الثقل الحضرى من افريقيا إلى مصر ، ومركز الاشعاع الكبير من جامـــع المهدية إلى الأزهر .

فاضطرت صقلية إلى أن تعمل وحدها كمركز إشعاع ثقافى عربى وإسلامى بأوربا ، فساعد ذلك على انتعاش الحضارة الافريقية وانتشار حضارة العرب بالزيادة لاسيما فى عهد الملوك النورمانديين حينما ظهر امثال الجغرافى الموسوعى الشريف الإدريسى والفيلسوف عبد الحق بن سبعين واللغوى ابن القطاع السعدى والشاعر ابن حمديس وجمهرة من المعماريين قـــد أغلقت أسماؤهم وطويت تراجمهم :

وجاء هـــذا العصر الصنهاجى الذى هـــو عصر بطولات وملاحم ومعارك ختامية قليل نصيبها من التوفيق .

اكتشف الصنهاجيون بارود المدافع وصنعوا المدافع بدار الكيمياء بالمهدية فاكتسبوا بهمعركة واحدة ضد النور مانديين فى وقعة رأس الديماس قرب المهدية .

واستولى بنوهلال وبنو سليم على البوادى فانقسمت افريقية إلى ملوك طوائف ولم يبق الاانتاع الأدب والفنون والمعمار ، فتذهب حضارة وتأتى حضارة

ولم تنجح التجربة البربرية التى جربها المعـز وقد كان يعلم بذلك الا أنه أراد اكتساب الوقت كما قال .

الباب الثانى

اعـداد الرحلة إلى القاهـرة

الزمن الأول

والرحلة فى الحقيقة رحلتان

فالأولى هى ارسالية القـائد جوهر بعد وفاة آخر امراء الإخشيدية وذلك لبسط النفوذ الفـاطمى على مصر ، وبناء مدينة القاهـرة والجامـع الازهر ، واعداد انتقال الفـاطميين من المهدية التى هى عاصمتهم المغربية إلى القاهـرة التى ستكون عاصمتهم بالشرق الأوسط وبها دار الخلافة :

وهـذا يقتضى إعداد العدة . فالفسطاط كانت قاعدة ولاية ، والعسـكر والقطائـع كانتا قاعدتى إمارة . أما القاهـرة فستكون عاصمة خلافـة : من حيث تخطـيطها وتحصينها ومؤسـساتها العلمية والاجتماعية والدينيـة والاقتصادية ، ومن حيث دواوينها الحكومية وتأسيساتها العسكرية والحربية وديارهـا وقصورها ومرافقها ، هى من حيث كل ذلك دار خلافة وعاصمة « قاهـرة » كسروانية لاقاعدة ولاية أو امارة :

فوجب على القائد جوهر أن يكون فى الآن الواحـد قائد جيش وأمير أسطـول مصر عاصمة الخـلافة ، ومدبر مملكة كسروانية ، ومنظم رحلـة المعز . كل ذلك فى أرفع مستوى وهو مستوى الخلافة التى يجب أن تكون أعلى مرتبة من خلافة العباسيين فى الشرق والأمويين فى الاندلس :

فاذا تم كل ذلك واستطاع جوهر الصقلى أن يضطلع بمسؤولياته فى هذه المجموعة العملاقية من المهمات انتقل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة : وانتقلت بانتقاله الخلافة الفاطمية إلى مصر وتحولت مصر من مستوى امارة إلى مستوى خلافة :

ـ فالرحلة الثانية هى رحلة المعز نفسه مع عائلته ورجال دولته وانصاره ومن أراد من السكان وهذه هى التى نعنيها :

وهذه الرحلة فى ذاتها تحتاج هى أيضا إلى إعدادات مختلفة نبينها كما يلى :

(١) الإعداد العسكرى : وهو يعنى —

(ا) محاولة الاستيلاء على الأندلس :

(ب) تدويخ المغرب .

(ج) تدويخ البلاد السوداء :

(د) التوثق من جزر البحر المتوسط الغربية (سردانيا وصقلية وقرشقة — ماعدا الجزر الشرقيات من ميورقة ومنيورقة ويابستة التى كانت بأيدى الأمويين الأندلسيين ، وتأمين سواحل فرنسا وإيطاليا لعزل الأندلس والحد من حركات الأسطول الأندلسى وحرمانه من حرية الجولان فضلا عن المبادرة بسواحل المغرب أو البلاد السودانية أو فرنسا أو ايطاليا .

(ه) الأستلاء على ماتيسر من جزر الأرخبيل اليونانى ولاسيما جزيرقريطش (كريت—كريد) التى تؤلف مع مدينة سوسة (أو أبو لونيا) قرب البيضاء فى برقة بوغاز لابد من اكتسابه لتأمين حركات الاسطول الفاطمى نحو مصر .

واليك البيان —

قال ابن العذارى ص ٣١٦

وفى ٢٩سنة ٣٤٦ولى مدينة سبتة وال من قبل عبد الرحمن الناصر وأمره بتحصينها وبناء سورها . فبناه بالكذان :

وفى سنة ٣٤٧دخل جوهر قائد ابى تعيم إلى الغرب واستولى على مدينة فاس ثم توجه إلى تطوان ووصل إلى مضيق سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها .

ثم قال — وفى سنة ٣٤٨ وصل كتاب صاحب سبتة إلى امير الاندلس عبد الرحمن الناصر يعرفه بما فتح عليه فى عسكر جوهر :

فلما عجز القائد جوهر عن فتح سبتة،وبالتالى عن فتح الأندلس والقضاء على الدولــةالأموية هناك توجه إلى جنوب المغرب من بلاد سوس الأقصى . قال ابن عذارى عطفا على تراجع جوهر عن سبته — وقصد بعساكره إلى سجلماسة . ففر امامه صاحبهامحمــد بن الأمين الفتح ، وتحصن فى حصن على مسافة ١٢ ميلا من سجلماسة بأهله وماله وبعض أصحابه ...واستولى جوهر على سجلماسة فملكها .

واذن فقد استولى جوهر على كامل بلاد المغرب إلى مدينة تطوانشمالا بدخول الغاية . وبقى خارجا عنه الوجه التجريبى المقابل للأندلس الذى يمكن فتحها منه :

واذ فاته أن يفتح الأندلس فلم يفته أن يؤمن المغرب وأن يحشد منه جنود مصمودة وكتامة وزناتة وصنهاجة وأن يجئ أموال هــذه الدنيا المترامية الأطراف وأن يجمع ذهب بلاد تكرور التى هى بلاد السودان وقد أصاب بذلك ثلاثة اهـــداف :

الهدف الأول — تأمين المغرب وتحامى الانتقاضات والانتفضات به .

الهدف الثانى — التجنيد العام المغربى :

الهدف الثالث— جمع المال اللازم لأية حملة عسكرية يقررها المعز بعد أن ثبت لديه أن فتح الأندلس متعذر إلى حين على الأقل .

وأراد الفاطميون أن يأمنوا على الحوض الغربى من البحر المتوسط وما فيه من جزر مثل سردانيا واقريطش وصقلية وارقلورية وجنوب فرنسا مثل سان تروبيز ولوفر يجوس وسهول وادى الرون إلى حدود سويسرة .

قال عبد الرحمن بن خلدون فى حديثه عن الاسطول :

« ... وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (الأبيض المتوسط) من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه ، وامتطوا للفتح سائر ايامهم (يعنى المسلمين) فكانت لهم المقامـــات المعلومـــات من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة (هذه كانت عند الأمويين ثم عند مجاهد العامرى) = انظر اطروحة السيدة كاليليا سرنا للى (بالعربية) عن غزو سردانية قدمتها للجامعة المصرية = وسردانيا وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم . وكان أبو القاسم الشيعى وابناؤه يغزون بأساطيلهم من المهدية على مدينة جنوة مرات فتنقلب بالظفر والغنيمة» .

إلى أن قال : « والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الأكثر من لجة هـــذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل (ويقصد بها أوروبا) لها من العـــدوة الشمالية توقع بملوك الفرنج وتثخن فى ممالكهم كما وقع فى ايام بنى

أبي الحسن ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين (الفاطمين . نسبة إلى عبد الله المهدى مؤسس الدولة ، وعاصمتها المهدية) . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لايعدونها .

واساطيل المسلمين قد ضرت عليهم ضراء الأسد بفريسته .

ونستطيع أن نتتبع مع ابن خلدون حوادث هـذه الجزر وقلورية وغيرها فى هذه المدة فهى تعنينا ، واليك البيان .

أ) — على عهد أبى القاسم بن عبيد الله الشيعى ثانى الخلفاء الفاطميين بالمغرب .

قال ابن خلدون : « ثم جهـز أبو القاسم بن عبيد الله الشيعى أسـطولا ضخما لغزو ساحل افرنجة وعقد عليه ليعقوب بن اسحاق . فأثخن فى بلاد الافرنجة وسبى ونزل بلد جنوة وافتتحها وعظم صنع الله فى شأنها . ومروا بسردانية من جزر الفرنج فاثخنوا فيها »

ب) على عهد المنصور الفاطمى ابن أبى القاسم ثالث الخلفاء الفاطميين

قال ابن خلدون : « ثم عقد المنصور سنة ٣٣٣ هـ للحسن بن على أبى الحسين الكلبى على صقلية واعمالها . . . وبلغ المنصور أن ملك الفرنج يريد غزو المسلمين . فأخرج أسطوله وشحنه بالعساكر لنظر مولاه فرج الصقلى (أو الصقلبى على اختلاف المخطوطات) وأمر الحسن بن على صاحب صقلية بالخروج معـه . فجاوزا البحر إلى عدوة الافرنجة ، ونزلـوا قلورية (كالابريا = جنوب ايطاليا شرق صقلية وبينهما بوغاز مسينة .) لقيهم رجار وهو (وحده إذ أن الرومان لم يصلوا بعدصقلية)ملك الافرنج فهزموه . وكان فتحا لا كفاء له . وذلك سنة ٣٤٠ » .

ج) — سنة ٣٤٤ — على عهد المعز لدين الله الفاطمى الخليفة الرابع :

قال ابن خلدون : « وبعث (المعز بن المنصور بن القائم بأمر الله) إلى الحسن ابن على (الكلبى) عامل صقلية سنة٣٤٤ أن يخرج بأسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس ، فعاث فية وغنم وسبى » .

— قال ابن خلدون :

« . . . وافتتح صاحب صقلية سنة ٣٤١قلعة طبرمين(سمى الآن تاورمينه) من حصون صقلية بعد حصار طويل أجهدهم . فنزلوا على حكم صاحب صقلية بعـــد تسعة اشهر ونصف للحصار . وأسكن المسلمين بالقلعة وسماها « المعزية » نسبة إلى المعز صاحب افريقية . »

« . . . . وقعة المجاز لسنة ٣٥٤ .

— ثم سيّر صاحب صقلية بعدها — وهو أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسين — مدده إلى مدينة مسينة وساروا بجموعهم إلى رمطة . وزحف إلى عسكر الروم مستميتا . فقاتلهم أمير الروم بجماعة من البطارقة ، وهزموا اقبح هزيمة (أى الروم) واعترضهم خندق ، فسقطوا فيه . واثخن المسلمون فيهم ، وغنموا عسكرهم . واشتد الحصار على أهل رمطة ، وعدموا الأقوات ففتحها المسلمون عنوة ، وركب كل الروم البحر يطلبون النجاة ، فاتبعهم الأمير أحمـــد بن الحسن فى أسطوله . فأدركهم وسبح بعض المسلمين فى المـــاء وحرق مراكبهم وانهزموا .

وبث أحمد سرايا المسلمين فى مدائن الروم فغنموا منها . . . وكانت الوقعة سنة ٣٥٤ وتسمى وقعة المجاز .

هـــذه ماروواه ابن خلدون مسلسلا تسلسلا تاريخيا ثم عطف فزاد الموضوع بسطة . وأورد ابن الاثير الخبر على نفس النسق مع بعض الزيادات :

ومن كل هذا يظهر جليا أن المعز أسس دولة أميرية بصقلية مستقلة عن الصنهاجيين وجرب هـذه الدولة فى الحروب وتدبير الملك فأقامت الدليل القاطع على اضطلاعها بالأمور فكان تدبيره لذلك موفقا .

ـ قال ابن الأثير : « . . سنة ٣٦١ . . . وفى هـذه السنة سار المعز لدين الله العلـوى من افريقيا يريد الديار المصرية . وكان أول مسـيرة أواخر شوال وكان أول رحيله من المنصورية وأقام بسردانيا وهى قرية قريبة من القيروان. . .واستعمل على بلاد افريقية يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الحميرى .

إلا أنه لم يجعل له حكما على جزيرة صقلية ، ولا على مدينة طرابلس الغرب ولا على اجرابية وسرت وجعل على صقلية الحسن بن على بن أبى الحسين (الكلبى) على ماقدمنا ، وجعل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى، وكان أثيرا عنده . »

ويتبين من هـذا أن المعز أراد أن يقصى بلكين بن زيرى عن حكم صقلية ـ من ناحية ، وعن حكم صقلية وبرقة من ناحية اخرى . فاسند حكم صقلية إلى أسرة عربية قحة تتولى الإمارة هناك أبا عن جد . ولعل السبب الذى دعا المعز إلى ابعاد بلكين عن صقلية هو ألا تكون بيـده البواغيز وطريق اوروبا ، اما السبب فى اقصائه عن طرابلس وبرقة فهو الايكون بيده طريق مصر والمشرق ، وأن يقصر عمله على المغرب حتى يصرف الهمة فقط فى تأكيد الأمن بالديار المغربية، واذا تيسر فى فتح الأندلس أو جوانب منها ، وفى الاستيلاء على مايتيسر من البلاد السوداء. ولو نظرنا إلى السياسة الصنهاجية لوجدناها اتبعت هـذه الخطة بدقة ، لكن هـذا خارج عن موضوعنا .

ويبدو من هــذا ايضا أن المعز أراد ان يؤلف وحدة بحرية قاعدتها الاسكندرية وجناحاها السواحل الليبية غربا والسواحل الشمالية شرقا ومراكزها البحرية جزر صقلية وسردانيا ومالطة وقريطش وقوصرة . وبذلك يكون التهديد لرومية والقسطنطينية أوفر والخطة للاستيلاء أحكم . وأقل ما يقال أن المعز ضمن لنفسه وللخلافة وللفاطمية بوجه عام حرية المناورة البحرية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط .

فبحرب شلف قضى المعز على زناتة عدوة صنهاجة وضمن لنفسه السيادة على القسم الغربى من الجزائر . وبالعدول عن استخلاف جعفر بن على بن حمدون الأندلسى زعيم زناتة وصاحب الإمارة بالمسيلة واحالة الاستخلاف إلى بلكين ابن زيرى زعيم صنهاجة قضى على مزاعم زناتة ورد الأمر إلى عدوتها ومزاحمتها صنهاجة . وارتاح من حروب وادى شلف التى لم تنته طوال القرون الا فى هذه الآونة وبفتحة لجنوب المغرب

تم حكمه على السوس الاقصى وموريطانيا وجهات من السوادين . وبانتصار الاسطول الصقلى على الاسطول الاندلسى فى وقعة المرية ، عزل الاسطول الأندلسى وتمت السيادة للأسطول الصقلى الفاطمى فى الحوض الغربى من البحر المتوسط وبانتصاره فى وقعة المجاز تم له الحكم على صقلية وجنوب ايطاليا وبالاستيلاء على سان تروبيز ولوفريجوس وجنوة تم التحكم فى سواحل جنوب فرنسا فأسست بها الرباطات الفاطمية : كما اســست رباطات أخرى على طول ساحل نابلى .

وهكذا تم على احسن حال الإمداد العسكرى .

٢ اعداد الأستخلاف .

لم يشأ المعز لدين الله أن يترك شيئا للصدفة ولاأن يبقى بابا من أبواب المفاجآة الطارئة ، لذلك أعــد استخلافه بغايه الدقة ، وفكر فى موجباته

المعنوية العامــة واختيار الخلف الأوفق ، والتوثــق من الشعب المغربى والوصى عليه ، وقام بذلك فى دفعتين :

الدفعــة الاولى : الوصية العامــة

الدفعــة الثانيــة : اختيار الوصى

١ ـ الوصية العامــة ـ أورد قصتها المقريزى

(أ) فى « اتعاظ الحنفاء » ج ٢ ص ١٣٦

(٢) فى « خطط القاهــرة » ج٢ ص ١٦٤ مع اختلاف يسير فى الالفاظ كما قال الدكتور جمال الدين الشيال ،

قال المقريزى (اتعاظ الحنفا) :

« واستدعى المعز ـ وهو بالمنصورية فى يوم شات ، بارد الريح عدة شيوخ من شيوخ كتامه ، وامر بإدخالهم اليه من غير الباب الذى جرى الرسم به ، فاذا هــو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليــه جبة ، وحوالية ابواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب ، وبين يديه مرفع ودواة ؛ وكتب حواليه ، فقال « ،،، ياالخواننا : اصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ـ وانها الآن بحيث تسمع كلامى : اترى اخواننا يظنون انا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والغناء كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن انفذ إليكم فاحضركم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم وانى لاافضلكم فى احوالكم الا فيما لابد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من امامتكم ، وانى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب ، اجيب عنها بخطى ، وانى لا اشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الابما صان ارواحكم ، وعمر بلادكم ، واذل اعداءكم ، وقمع اضدادكم ،

فافعلوا ياشيوخ فى خلوتكم مثلما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها إلى غيركم ، ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير وينتشر العدل .

واقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثير منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم وتضعف غرائزكم ، فحسب الرجل الواحدة ، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بابدانكم وعقولكم ، واعلموا انكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم — انهضوا ، رحمكم الله ونصركم ، »

(ب) اختيار الوصى : المشكلة الكبرى هى الوقوع على الشخص الافضل الذى سيخلف الفاطميين بالمغرب ويجرى السياسة التى يريدونها ويبقى الشعب معه على ولائه للفاطميين وقد جرى الامر كما يلى :

(١) اختيار أبى أحمد جعفر بن على أمير المسيلة بالشرق الجزائرى ، وهو ينتسب إلى عائلة اندلسيه قدمت من اسبانيا واسست المسيلة واقامت امارة وحسن ولاؤها للفاطميين . (اتعاظ) ١٤٢ قال المقريزى : « ولما عزم « المعز » على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب ، فوقع اختياره على ابى أحمد جعفر بن على الامير ، فاستدعاه وأسر اليه انه يريد استخلافه بالمغرب ؛ — فقال : « تترك معى أحد أولادك أو اخوتك جالسا فى القصر ، وانا أدبر ، ولاتسألنى عن شيء من الأموال ، لان ماأجبيه يكون بازاء ماأنفقه ، — واذا أردت أمرا فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه لبعد مابين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسى » —

— وهكذا نرى جعفر يريد الاستقلال بشؤون المغرب السياسية والادارية والمالية والقضائية ، وليس ابن الخليفة الفاطمى أو أخوه الا مجرد صورة حدود محصورة . فالملك يهيمن ولا يدبر والتدبير بيد جعفر

— لذلك أجابه المعز بما رواه المقريزى هكذا :

« فغضب المعز وقال :

« ياجعفر عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى شريكا فى أمرى ، واستبددت بالأعمال والأموال دونى : قم فقد اخطأت حظك ، وما أصبت رشدك » ،،، فخرج

(ب) اختيار يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى .

قال المقــريزى (اتعاظ ١٤٢) :

« ،،، واستدعى المعز يوسف بن زيرى الصنهاجى وقال له :

« تأهب لخلافة المغــرب »

فاكبر ذلك وقال :

« يامولانا : انت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صفا لكم المغرب ، فكيف يصفولى وانا صنهاجى بربرى ، ؟ ، ، قتلتنى يامولانا بلاسيف ولارمح »

— فلم يزل به حتى أجاب — وقال :

« يامولانا ، بشريطة أن تولى القضاء والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر لمن تشــق به ، وتجعلنى أنا قائما بين أيديهم ، فمن استعصى عليهم امرونى به حتى أعمل فيه مايجب ، ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك ». فحسن هــذا من

المعز ، ، ، (وزاد المقريزى فى الخطط ٢ / ١٦٦) (وشكره — فلما انصرف قال له عم ابيه أبو طالب أحمـــد بن المهدى عبيد الله :

— « يامولانا : وثثق بهذا القول من يوسف أنه يفى بما ذكره ؟ »

— فقال المعـــز :

« ياعمنا ، : كم بين قول يوسف وقول جعفر ، واعلم ياعم أن الامر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر مايصير اليه أمر يوسف ، فاذا تطاولت المـــدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا :

أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل ، وهو نهاية مايفعلة من ترك دياره »

ويوسف هـــذا هو : أبو الفتوح يوسف المشتهر ببلكين (بالكاف الفارسية المعقودة) بن زيرى بن مناد الصنهاجى :

وذكر ابن عذارى (البيان المغرب ٣٢٦/١) « لمـــا خرج ابو تميم (المعز لدين الله) من افريقية إلى المشرق استخلف (أبا الفتوح يوسف — كما مر) وامر الكتاب أن يكتبوا إلى العمال وولاة الاشغال بالسمع والطاعة لابى الفتوح يوسف ، وبقى أبو الفتوح أميرا على افريقية والمغرب كله » :

(٣) الاعداد الديماغوجى : اكتساب عواطف الشعب المغربى بأعمال ظاهرة تذيع الصيت وتمتلك النفوس وتغرس الود وتطاق الألسنة بالحمد .

ولم ير المعز لذلك أفضل من اعـــذار عام لجميع اطفال المغرب فالاعذار ويسمى عندنا الطهور هو من أفضل الشعائر عنـــد المغاربة يحتفلون به كل الاحتفال ويولمون له ويتكلفون من أجله النفقة الموجعة .

— قال المقريزى (اتعاظ ١٣٥)

«، ، ، وفى سنة ٣٥١ كان اعـــذار المعز لدين الله الأمراء بلية : عبد الله ، ونزار ، وعقيل ، فحين عزم على طهورهم كاتب عماله وولاته من لدن

برقة إلى أقصى سجلماسة ، ومابين ذلك ، وما حوته ممـــالكته إلى جزيرة صقلية وما والاها ، فى حضر وبدو ،وبحر وبر ، وسهل وجبل ، بطهور من وجد من أولاد سائر الخلق ـ حرهم وعبدهم وأبيضهم وأسودهم ، ودنيئهم وشريفهم ، ومليهم وذميهم ، الذين حوتهم مملكته لمدة شهر ، وتوعد على ترك ذلك :

وأمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسواتهم وما يصلح أحوالهم من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغيره بمقدار رتبهم وأحوالهم :

فكان من جملة المنفق فى ذلك مما حمل إلى جزيرة صقلية وحدها من المـــال ـ سوى الخلع والثياب ـ خمسون حملا من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف دينار ، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على أهـــل عمله :

وابتدئ بالختان فى مستهل ربيع الاول منها ٣٥١ هـ ، فكان المعز يطهر فى اليوم من أيام الشهر بحضرته إثنـــا عشر الف صبى وفوقها ودونها ، وختن من أهل صقلية وحدها خمسة عشر الف صبى ـ

ـ وكان وزن خـــرق الاكياس المفرغة مما انفق فى هذا الاعذار مائة وسبعين قنطارا بالبغدادى:

٥ ـ الأعداد الخـــارجي ـ استكمل المعـــز الاستعدادات الداخلية ـ كما رأينا ـ ولكن بقى بعد ذلك الأستعداد الخارجى ، ونعنى به :

(١) بعثة جوهر إلى مصر ٣٥٧ ـ ٣٥٩ ـ

قال المقريزى : « كانت جملة المال ٢٤,٠٠٠,٠٠٠دينارا (ذهبا) ، فانفقها أجمع على العساكر التى سيرها إلى مصر فى سنتى ٣٥٨ و٣٥٩هـ مع القائد جوهر ،

وكان رحيله فى ١٤ ربيع الأول منها ، ومعه ألف جمل مال ، ومن السلاح والخيل والعدد مالا يوصف ، فقدم جوهر إلى مصر :

ووصلت البشارة بفتحها فى نصف رمضان سنة ٣٥٨ هـ فسر المعز سرورا كبيرا وقال ابن عبد الظاهر ، فيما نقله عنه المقريزى فى « اتعاظ الحنفا » ص ١٦١ :

« لما تحقق المعز وفاة كافور الاخشيدى جهز جوهر وصحبته العساكر ، ثم برز بموضع يعرف برقادة (٧ كم جنوب القيروان = انظر عنـه ياقوت والبكرى وجورج مرسى فى كتابه « الفن الإسلامى » الترجمة العربية) وخرج فى أكثر من مائة الف فارس ، وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال ، وكان المعز يخرج إلى جوهر فى كل يوم ويخلو به ، وأمره أن يأخذ من بيوت الأموال مايريد زيادة على ماأعطاه :

وركب اليه المعز يوما فجلس وقام جوهر بين يديه ، فالتفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم معه وقال : « والله لوخرج جوهر هـذا وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهـرة تقهر الدنيا » (اتعاظ ص ١٦١)

— وأراد جوهر أن يؤثر على الناس نفسيا ويبين لهم أن الأمر جد ، قال ابن عبد الظاهر « ونزل جوهر مناخة موضع القاهرة الآن يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، واختط القصر ، وبات الناس فلما أصبحوا حضروا للهناء فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل »

ثم أراد أن يمتلك نفوس الشعب بالأحسان إلية قال ابن عبد الظاهر : ولما أصبح جوهر انفذ على ابن الوليد القاضى لعسكره ، وبين أحمال مال ومناد ينادى :

« من أراد الصدقة فليصر إلى دار ابى جعفر » فاجتمع خلق من المستورين والفقراء فصاروا بهم إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص بالفسطاط) ففرق فيهم »

ثم أنه ــ اتباعا لهذه السياسة ــ أكثر من الخطب التى فيها بيان سياسة المعز وهى كلها تأمين وتطمين جاء فى خطبة : « ،،، فقد امتعض (المعز) لدينك ولمــا انتهك من حرمتك، ودرس من الجهاد فى سبيلك وانقطع من الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ، فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبته فصير الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال فى طاعتك ، وبذل المجهود فى رضاك فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل » ،
ولم يقنع جوهر بذلك بل كتب لهم عهدا فى تأمينهم ،

قال المقريزى (ص ١٤٧)

« ،،، فلما قربت العساكر من الاسكندريه جمع أبو الفضل جعفر بن الفرات الناس وشاورهم ، فاتفقوا على مراسلة جوهر ، وأن يشترطوا عليه شروطا ، وأنهم يسمعون له ويطيعونه ــ ثم اجتمعوا على محاربته، ثم انحل ذلك ، وعادوا إلى المراسلة بالصلح » عندما وصل جوهر الجيزة ؛

« ،،، ثم اتفقوا على خــروج (الشريف) ابى جعفر مسلم الحسينى وأبى اسماعيل الرسى ومعهما القاضى أبو طاهر وجماعة ، فبرزوا إلى الجيزة لاثنتى عشرة بقيت من رجب ؛

« ولم يتأخر عن تشييعهم قائد ولاكاتب ولاعالم ولاشاهد ولاتاجر ، وساروا فلقوا جوهر بتروجــة ووافقوه واشترطوا عليه فاجابهم إلى ماالتمسوه وكتب لهم (عهدا) » ،،

ــ ولنفاسة هــذا العهد الذى هو وثيقة فريدة تميط لنا اللثام عن الجو المعنوى الذى أراد أن يخلقــه المعز لانخشى أن ننشره رغم الاطالــة ؛

« ... بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من جوهر الكاتب — عبد امير المؤمنين المعز لدين الله — صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ومن غيرهم :

إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى وهم : أبو جعفر مسلم الشريف ، أطال الله بقاءه ، وأبو اسماعيل الرسى — أيده الله — وأبو الطيب الهاشمى — أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر — أعزه الله — والقاضى — أعزه الله :

— وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم :

— فعرفتهم ماتقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ماأولاكم ، وتشكروه على ماحماكم وتسارعوا إلى طاعته ، العاصمة لكم والعائدة بالسلامة لكم وبالسعادة عليكم» :

« وهو أنه — صلوات الله عليه — لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب مافعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق :

وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا امير المؤمنين — صلوات الله عليه — باخراج العساكر المنصورة وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم الخزى ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكى عينه مانالهم ،

وأسهرها ماحل بهم : وهو : مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله الله عليه —

فرجا — بفضل الله ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأجراه عليه استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر اقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، واذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، واذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ماجرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها : ليتطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات إذ كان قد انتهى إليه — صلوات الله عليه — انقطاع طرقاتها لخوف مادتها ، اذ لا زاجر للمعتمدين ولا دافع للظالمين :

ثم تجديد السكة وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها اذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين إلا إصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها :

— وما اوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — إلى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقاد الأحوال وحياطة أهل البلد ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم إلا على مالم شعثهم ، وأقام أودهم ، وأصلح بالهم ، وجمع قلوبهم ، وألف كلمتهم على طاعة وليه ومولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائره التى لا يرتضى — صلوات الله عليه — باثباتها عليكم :

وأن أجريكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وأضع ماكان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال :

وأن أتقدم فى رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال ، لاباحالة على من يقبض منهم .

« وغير ماذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — مما ضمنه كتابه هذا ماذكره من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من إنكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم — والا فلم يكن لذكرها معنى ولافى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ماكنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ماكان عليه سلف الامة من الصحابة — رضى الله عنهم — والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه (صلاة التراويح التى لم يكن الشيعة يرونها) والزكاة والحج والجهاد على أمر الله وكتابه ، ومانصه نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى سنته واجراء أهل الذمة على ماكانوا عليه — » .

« ولكم على امان الله التام العام ، الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم :

وعلى أن لايعترض عليكم معترض ، ولايتجنى عليكم متجن ، ولايتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم فلا يتعرض إلى أذاكم ، ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولافى الاستطالة على قويكم — فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — .

ولكم على الوفاء بمــا التزمته ، وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين — قدس الله أرواحهم — . وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله — صلوات الله عليــه — فتصرحون بها ، وتعلنون بالانصراف إليها ، وتخرجون إلى وتسلمون على ، وتكونون بين يدى إلى أن أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك (مكان القاهرة المعــزية) وتحافظون — من بعد — على الطاعة وتثابرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا أمير المؤمنين — صلوات الله عليــه — وتلزمون ما أمرتم به .

وفقكم الله وأرشدكم أجمعين .

وكتب جوهر القائد الأمان بخطه فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ .

وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار ، وتم الأمر ، وأكلت الجماعة معه وودعوه وانصرفوا .

ثم انتقض الجماعة فى خبر طويل وقالوا : « مابيننا وبين جوهر إلا السيف » واستعدوا للحرب ، ووقع القتال بينهم وبين جعفر بن فلاح القائد الثانى لجيش المعز فتغلب عليهم ، قال المقريزى (ص١٥٦) وأصبح الناس على خطة عظيمة ، فبكروا فى يوم الاثنين إلى دار الشريف مسلم يسألــونه الكتاب إلى جوهر فى اعادة امانهم .

فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الامان ، وجلس الناس عنده ، وقد طاف على بن الحسين بن لؤلؤ — صاحب الشرطة السفلى — ومعه رسول جوهر ، وبند عليه اسم المعز لدين الله وبين أيديهما الأجراس بأن لامؤونة ، ولاكلفة وأمن الناس ، وفرقت البنود ، فانشر كل من عنده بند بنده فى درب حارته :

— وجاء الجواب إلى الشريف وقت العصر ، ونسخة بعد البسملة :

« ... وصل كتاب الشريف الجليل — أطال الله بقـاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه — وهو المهنأ بما هنأ به من الفتح الميمون : فوقفت على ماسأل من إعادة الأمان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف أعزه الله أن يؤمن كيف رأى ، وكيف أحب ، ويزيد على ماكتبته كيف يشاء ، فهوأمانى ، وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا امير المؤمنين — صلوات الله عليه .

وقد كتبت إلى الوزير — أيده الله — بالاحتياط على دور الهاربين ، إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ... الخ .. » ، فاستبشرت الجماعة وابتهجوا ، وعملوا على المسير فى الغـد إلى الجيزة ، للقاء جوهر مع الشريف مسلم ، وبات الناس على هدوء وطمأنينة » :

وهكذا انتهت القضية وتم الصلح واستوسق الأمر للفاطميين مع تفاصيل وزيادات أوردها المقريزى وغيره ، وليس من موضوعنا استعراضها هاهنا ، ومن يراجع المقريزى فى الاتعاظ والخطط ، أو ابن تغرى فى النجوم الزاهرة يجد بغيته وزيادة .

(ب) بيعة الحرمين الشريفين ، لاشك أن بيعة الحرمين الشريفين — هى من ناحية الديبلوماسية الإسلامية قوة صارمة تمتلك بهـا القلوب وتجمع بها الكلمة ويتوحد بها الإسلام وتنتصر بها الخلافة ، فاذا نجح الفاطميون فى اكتساب هذه الجولة ، فقد ربحوا قضيتهم ديبلوماسيا فى أوسع نطاق :

وقد افتتح ذلك المنصور نفسه والد المعز عقب انتصاره على أبي يزيد مخلد ابن كيدان النكارى الخارجى ، وإليك تسلسل الاحداث :

(١) ٣٣٩ هـ — إرجاع الحجر الأسود إلى الكعبة ، وهـذه قضية أقلقت بال المسلمين مشرقاً ومغرباً قرابة ربع قرن ، وذلك أن سليمان بن الحسن القرمطى اقتلعه سنة ٣١٧ هـ فى أيام المقتـدر العباسى ، فعجز العباسيون عن إرجاعه إلى مكانه ، فلما مضت دولة المقتدر ، ومضت خمسة أعوام على دولة المطيع أرجعه المنصور الفاطمى إلى مكانه سنة ٣٣٩هـ .

قال ابن عذارى فى « البيان المغرب » ص ٣١٣ :

« ... وفى سنة ٣٣٩هـ تحرك ابو الطاهر المنصور إلى بلاد المشرق ، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام ، وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المطيع (الخليفة العباسى) ، وكان الذى اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطى فى سنة ٣١٧ هـ فى أيام المقتدر العباسى ، والذى تولى قلعـه بيده بأمر القرمطى جعفر بن أبى علاج ، ولمـا مات القرمطى وجّه إخوته الحجر ، فرد إلى موضعه فى هـذه السنة ، ووضعه بيـده حسين بن المروذى الكنانى ، وكانت غيبة الحجر من يوم قلعه إلى يوم رده اثنتين وعشرين سنة أو نحوها » ، اهـ أول فقرة حج الناس ٢٢ حجة وليس فى الكعبة الحجر الأسود ، فعظم ذلك على المسلمين فلما أرجعه المنصور الفاطمى بعد أن عجز عنه عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالاندلس ، والمطيع من خلفاء بنى العباس كانت موجة تفريح فى العالم الإسلامى ورنة استحسان وإكبار لهذا النجاح الفاطمى عند عامة المسلمين .

وهكذا لعبت الديبلوماسية الفاطمية دوراً أساسياً وعظيما بقـدر ما كان موفقا وناجحا مائة بالمائة .

(٢) ٣٤٨ هـ — التدخل بالمساعى الحميدة بين أشراف مكة .

وذلك أن الخلاف قد استفحل بين بنى حسن وبنى جعفر بن أبى طالب بالحجاز وآل إلى مشادة مسلحة مات فيها الكثير من الجانبين ، وعلم بذلك المعز فأرسل رسله بالتوجيهات والمال لإصلاح ذات البين بين الطرفين فنجحوا فى هذه المهمة الدقيقة أيما نجاح .

قال المقريزى (اتعاظ ١٤٥) :

« وبلغ المعز ، وهو بالمغرب — أمر الحرب بين بنى حسن وبنى جعفر بن أبى طالب (بالحجاز) وأنه قتل من بنى حسن أكثر مما قتل من بنى جعفر ، فأنفذ مالا ورجالا سراً سعوا بين الطائفتين حتى اصطلحتا :

وتحملوا الحمالات عنهما :

وكان فاضل القتلى من بنى حسن عن بنى جعفر سبعين قتيلا :

فادى القدوم ذلك اليهم :

وعقدوا بينهم فى المسجد الحرام صلحاً :

وتحملوا دياتهم من مال المعز ، وذلك فى سنة ٣٤٨ ﻫ :

فصار ذلك جميلا عند بنى حسن للمعز .

(٣) ٣٥٨ ﻫ واعترف بنوحسن بهذا الجميل الذى أسداه المعز : فلما دخل جوهر مصر ، بادر حسن بن جعفر الحسنى ، فملك مكة ودعا للمعز ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وعطف المقريزى قائلا :

« ، فلما دخل جوهر مصر بادر حسن بن جعفر الحسينى ، فملك مكة ودعا للمعز ، فبعث بالخبر إلى المعز ، فأنفذه من المعز إليه بتقليده الحرم وأعماله »

وقال ابن عذارى :

« ودعى للمعز بمكة فى موسم هذه السنة (٣٥٨) »

« ... ودعا أبو مسلم العلوى بالمدينة للمعز » وأراد المعز أن يكمل الإحسان فأرسل أحمالا بمال ، وأخرى بمتاع للحرمين فى نفس السنة ، قال المقريزى (ص ١٧٢) :

« ... وأنفذ المعز عسكرا (٣٥٨) وأحمال مال عدتها عشرون حملا للحرمين الشريفين وعدة أحمال متاع ، »

وإذن فقد نجح المعز فى توحيد الحكم بالحرمين وتأمين طريق الحج بالعساكر وإعانة أهل الحجاز والحجيج بالمال والمتاع .

ولا ننسى أن الحج هو مؤتمر اسلامى ، أى مصدر من مصادر الدعاية الكبرى النافذة فى كل قطر من أقطار الاسلام ، فإذا قامت الدبلوماسية الفاطمية بأعمال كبرى عجز غيرها من الخلافتين العباسية والاموية فقد كسب المعز المعركة الديبلوماسية والإعلامية فى أوسع مدى ، هذا زيادة عن انضمام الجزيرة العربية إلى الخلافة الفاطمية ، فصارت لها حدود مشتركة مع الفاطميين وصار أمر الحج من مناسك وزيارة وعمرة وتقديس بأيدى الفاطميين ، دون العباسيين أو الأمويين .

وصارت ضفتا بحر القلزم (البحر الاحمر) بأيدى الفاطميين ، وامتلكوا بوغاز باب المندب وكان هذا فاتحة لدخول المذهب الشيعى إلى اليمن والخليج العربى ، وانتشار الدعوة فيه ، اعداداً لانتشاره بالهند فى جولة ثانية قريبة جداً ان شاء الله .

ولو رسمنا خريطة بهذه التوسعات لتبين لنا أنها تطويق للعباسيين من الغرب والجنوب ، وأن الخلافة العباسية قد صارت مقصورة على العراق ، بعد أن خرجت الشام وضمت إلى الفاطميين فى نفس الوقت .

وقد كانت الخلافة العباسية قبل ذلك تشمل برقة ومصروجزيرة العرب والشام فزال عنها قرابة خمسة ملايين من الكيلوميترات المربعة وبقى لديها نصف مليون فعلا باعتبار أن الشعوبية حققت فعلا إنقسام الجهات الشرقية الهندية والتركية والإيرانية إلى دويلات مستقلة عمليا — فخرجت عن حكم العباسيين وبقيت صلة إسمية — وأحيانا لم تبق تتزايد أو تنقص بحسب الأيام والظروف والأحوال : على حين أن حكم الخلافة الفاطمية ازداد ٥٠٠٠ كم طولا من القيروان إلى الشرق ولم يكن إلا ٢٥٠٠ كم من فاس إلى المهدية ، فتضاعف ثلاثة أضعاف كما على الأقل — أما كيفا فأكثر وصارت بأيدى الفاطميين عامة البحار القديمة والبواغيز ، من المحيط أو بحر الظلمات أو المحيط الاطلسى ، والبحر الأبيض المتوسط والبحر الاحمر وبحر عمان والضفة الغربية من الخليج العربى.

ج) — إنضمام الشام — الشام يشمل فلسطين (الرملة) وسوريا (دمشق وحلب وأنطاكية) ولبنان (صور وصيدا وبيروت وطرابلس الشام) والأردن.

وقد تم انضمامه حسب التسلسل الآتى :

١) — الاستيلاء على الرملة .

٣٥٨ فى رواية ٣٥٩ فى اخرى :

قال ابن عذارى (٣١١/١)

« حوادث ٣٥٨ » — ، سارجعفر بن فلاح إلى الشام وقبض على الحسين ابن عبد الله (بن طغج) ، وأنفذه إلى جوهر ، فأنفذ جوهر الحسين المذكور مع جماعة من الإخشيدية مع هدية إلى المعز ، فوصلت إلى افريقية مع ولده جعفر فى رجب من سنة ٣٥٩ ه »

لكن المقريزى أرخ الحادث بسنة ٣٥٩ ه ، قال (اتعاظ ١٦٨) :

« ، ،ولاثنتى عشرة بقيت منه(المحرم) سار جعفر بن فلاح بن أبى مرزوق إلى الشام، وقاتل القرامطة بالرملة وهزمهم، وأسر الحسين بن عبيد الله بن طغج وجماعة ، وبعثهم فى القيود إلى جوهر » :

ثم استانف الموضوع ص ١٧٢ وزاده بسطة فقال :

« وورد الخبر بفتح جعفر بن فلاح دمشق ودخولها .

وكان من خبر جعفر بن فلاح أنه لمـــا سار من القاهرة فى عسكره كان على الرملة ودمشق الحسن بن عبيد الله بن طغج ، فلما بلغه دخول جوهر القائد إلى مصر بعساكر المعز سار عن دمشق فى شهر رمضان ، واستخلف عليها شمول الإخشيدى ، وكان شمول يحقد فى نفسه منه ، ويكاتب جوهر القائد ،فنزل ابن طغج الرملة ، ، ،

- إلى أن قال : « وقرب منه جعفر بن فلاح ، وقد انتشرت كتبه إلى ولاة الأعمال يعدهم الإحسان ويدعوهم إلى طاعة المعز ، فالتقى بابن طغج وحاربه فانهزم منه ،واحتوى على عساكره ،فقتل كثيرا من أصحابه وأخذه أسيرا فى النصف من رجب سنة تسع (٣٥٩هـ) فأقام بالرملة يتبع من كان لابن طغج وأصحابه » :

٢) الإستيلاء على دمشق :

قال المقريزى ص١٧٢ : « وورد الخبر بفتح جعفر بن فلاح دمشق »

- وفصل الخبر ص ١٧٤ :

٣) الاستيلاء على طبرية ص ١٧٣ :

« وسار (ابن فلاح) إلى طبرية فبنى قصرا عند الجسر ليحارب فاتك غلام ملهم – وكان عليها من قبل كافور الاخشيدى ، فلم يعرض له ملهم وملك جعفر طبرية » :

٤) الإستيلاء على أنطاكية :

قال المقريزى ص١٧٧ :

« فلما كان فى ربيع الاول سنة ٣٦٠ ﻫ أنفذ جعفر غلامه فتوح على عسكر إلى أنطاكية ، وكان لها فى أيدى الروم نحو من ثلاث سنين الخ ، » ،

ثم حاول جعفر بن فلاح الإستيلاء على إسكندرونة فلم يفلح ،

٥) الإستيلاء على حلب (٣٠٠) وانتهاء دولة الحمدانيين :

قال المقريزى : (١٧٩) :

« وفيها اصطلح قرعونة – مولى سيف الدولة بن حمدان – متولى حلب – وابو المعالى شريف بن سيف الدولة فخطب له قرعونة بحلب – وخطبا جميعا فى معاملتها للامام المعز بحلب وحمص » :

وهكذا انضم الشام وجزء من الأناضول إلى المعز قبل أن يأتى مصر بعامين كما انضمت الجزيره العربية قبل أن يصل مصر بأربع سنوات فلم تبق امامه إلا العراق بالإضافة إلى الخلافة العباسية وقد طوقها بهلال محكم الحلقات .

أو بيزنطة وقد وضع قدما أولى بالاناضول لكن إمبراطورية بيزنطة سوف لاتسقط إلا بأيدى الترك العثمانيين فى عهد محمد الفاتح :

وهكذا تمت خطة الإعداد الخارجى على أكمل وجه، وإذا بقيت هنالك فتن هنا وهناك مع القرامطة فهذا مدخول عليه ولايزيد من أمر الدويلات

البربرية الزناتية أو انتفاضات صقلية المحلية التى لم تقاق راحة الدولـة الفاطمية ولاهى بلغت مبلغا يمكن أن توءخذ له العدة ويفزع منـه :

قال ابن عذارى :

« ولمـا وصلت البشارة من الشام بكسر عساكر أبى عبد الله الحسن القرمطى (ابن طغج) المعروف بالأعصم ، انشد ابن هانى قصيدة منها :

ماشئت لاما شـاءت الأقـدار

فأحكم فأنت الواحـد القهـار

الاعداد المالى :

قال المقريزى فى كتابه ((اتعاظ الحنفا)) ص ١٣٨ :

((: : واستدعى المعز يوما أبا جعفر بن حسين بن مهذب — صاحب بيت المال . وهـو بالمغرب — فوجده فى وسط القصر جالسا على صندوق وبين يديه الوف صناديق مبددة فى صحن القصر ، فقال له المعز : ((هذه صناديق مال وقد شذ عنى ترتيبها .«فانظرها ورتبها» قال أبو جعفر بن حسين : ((فأخذت أجمعها إلى أن صارت مرتبة. وبين يدى جماعة من خدام بيت المال والفراشين : وأنفذت إليه أعلمه فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها وأن يعاق عليها ونختم بختاتمه — وقال : « قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك)) وكانت جملتها ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار — وذلك فى سنة ٣٥٧ » :

وليس هـذا المال إلا بعض ماخصص من إعتمادات . قال المقريزى (ص ١٦١) قال ابن عبد الظاهر فى كتابه « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » :

((فلما تحقق المعز وفاة كافور (الاخشيدى) جهز جوهرا وصحبته العسـاكر — ثم برز بموضع يعرف برقادة . وخرج فى أكثر من مائة ألف

فارس ، وبين يديه أكثر من الف صندوق من المـــال — وكان المعز يخرج إلى جوهر فى كل يوم ويخلو به :

وأمره أن يأخذ من بيوت الأموال ما يريد زيادة على ما أعطاه :

وهـــذه الاعتمادات — زيادة عن الفيض على السكان والسخرة إنما هى لجيش جوهر فقط : ولسنا نعلم مبلغ الإعتمادات اللازمة :

١) لبناء محلات الطريق وقصورها والإنفاق على كل محطة ومرحلة :

٢) لنفقات إعداد الرحيل وما يحتاج إليه السفر :

البـــاب الثالث

الرحلة الميمونة

رأينا فى الباب الأول ماهى الأسباب التى من أجلها نقل المعز لدين الله الفاطمى الخلافة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة المعزية :

وبينا المصادر التى يمكن الاعتماد عليها حاليا . وما يمكن الاعتماد عليه منها فى القريب العاجل — إن شاء الله تعالى .

ورأينا فى الباب الثـــانى الاعدادات اللازمة على اختلافها من عسكرية وسياسية وديبلوماسية ومالية وغيرها . وليس ماذكرناه منها تحديديا ولا بد : بل إن المقام لايقتضى التوســـع فأهملنا الكثير وفاتنا الأكثر . وليس الأمر الا المـــاءا ، ولا مزيد :

ووصلنا الباب الثالث والأخير وهو الرحلة نفسها .

فنقول قال المقريزى فى كتابه ((اتعاظ الحنفاء)) ص ١٣٨ .

(وفى سنة ٣٥٥ هـ أمر المعز بحفر الآبار فى طريق مصر ، وأن يبنى له فى كل منزلة قصر ففعل ذلك ،) .

هـذا كلام مقتضب جدا . فلم يذكر المقـريزى ما هى المنـازل أى المراحل التى بنيت فيها القصور ولا من تولى بناءها :

على أن المسافة بين المنصورية التى خرج منها المعـز لدين الله بقافلتـة فى٢٢شوال ٣٦١هـ — ٧ أغسطس م ٩٧٢، والإسكندرية التى وصلها يوم الجمعة ٢٤ شعبان ٣٦٧ هـ — ٩٧٣ م (أو ٢٥ منه) هذه المسافة هى ٢٦٠٠ كم .

وقد مر المعز باجدابية فى مشارف برقة يوم ١٤ جمادى الأولى ٣٦٢ هـ . فيكون قضى من المنصورية إلى اجدابية فى برقة ٢٠٢ يوما منها ثمانية أيام باقية من شهر شوال ٣٦١ هـ وأشهر كاملة : ذوالقعدة وذو الحجة من سنة ٣٦١هـ ، ومحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثانى من سنة ٣٦٢ هـ و١٤ يوما من جمادى الاولى سنة ٣٦٢ هـ ، والمسافة بين المنصورية واجدابية هى ٢٠٠٠كم فيكون معدل مسير القافلة ١٠ كم فى اليوم : ولا شك أن السرعة كانت أكثر من ذلك باعتبار طول الإقامة وقصرها حسب أهمية المنزلة المقام بها .

أما المسافة بين اجدابية والأسكندرية فهى ٦٠٠ كم تقريبا :

وقد طواها المعز بين ١٤ جمادى الأولى ٣٦٢هـ و٢٤ شعبان ٣٦٢ فى مدة ١٠٠ يوم ولاتستغربن هذا الابطاءفإن المسالك فى الجبل الأخضر الذى هو كله جبال عالية مشرفة على البحر وغابات كثيفة ثم صحراء مريقـة ، ولا شك أن المعز قضى مدة استراحة واستجمام بالقصر السلطانى الرائع الذى بناه له ولده تميم بمدينة اجدابية التى كانت يومئذ عاصمة برقة. وقد انتهى من المفازة الصحراوية الكبرى التى طولها ١٠٠٠ كم بخليج سرت الكبير بين مصراتة واجدابية : ودخل منطقة الزياتين والغابات : فاحتاج إلى أن يستريح قليلا :

واجدابية عاصمة علم وأدب وادارة : وبها جامع سحنون بن سعيد التنوخى الذى درس به طوال ست سنوات : وهى مركز المدرسة البرقاوية المالكية. ومنها العلامة

اللغـوى ابراهيم الاجدابى صاحب كفاية المتحفظ ونهـاية المتلفظ وهو عالم ظهر بعد هذا التاريخ بقرن ونيف وتدل مرتبته العلمية وتصانيفه على المستوى الثقافى الذى بلغته اجدابية يومئـذ :

ولايزال قصر المعـز الذى بناه له ولده تمـيم موجودا فى حالة خراب : وقد درس دراسة سطحية نشرت فى المجلة الاثرية الليبية لسنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ، ونقلت زخارفه الرائعة إلى متحف الشحات قرب البيضاء : وهو لايزال يحتاج إلى تنقيب متواصل . ونجد فى المجلة المذكورة صور الاسود المنحوتة التى كانت تزخرف أروقة هذا القصر :

كما لانزال نرى باجدابية جامع سحنون بن سعيد التنوخى زعيم المدرسة المـالكية بالمغرب فلايزال محرابه قائمـا وأعمدته وبيت صلاته وصحنه : وأما زخارفه المنقوشة فى الجص أوفى الحجر والتى فيها كتابات كوفية بخط الطومار لى أكبر خط عربى وعلمى (٣٣سم) فانها نقلت إلى متحف الشحات : ولم ينشر عنها شئ إلى الآن :

وقد زرت مدينة اجدابية فى شهر أكتوبر ١٩٦٦ واطلعت على القصر وعلى جامع سحنون وذهبت إلى متحف الشحات سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٨ وطالعت الخـطوط الكوفية التى هناك ، وشاهدت مرة أخرى الزخارف المذكورة . ولم يكن لى من الوقت يومئذ مايسمح لى بدراسـة الموضوع مع أن السيد مدير المتحف أبدى رغبته الطيبة ، بارك الله فيه — فى أن تسـند إلى تلك المهمة . ورغبتى أنا هى أن يتـولى ذلك أحد ابناء ليبيا المتخرجين من الجامعة الليبية وهم قادرون على ذلك وزيادة :

إن الجملة التى أوردناها أعلاه لثمينة جدا مع أنها مقتضبة :
فهى لم تذكر لنا من هى الشخصية اللازمعة التى كلفها المعز بالاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة والشاقة ؟ :

النصوص التى بين أيدينا صامتة عن ذلك ، وتأتى الآثار فتخبرنا بوضوح وبما لايحتمل شكا أنها شخصية تميم بن المعز الشاعر :

فقد نقش اسمه بجلاء فوق الأحجار التأسيسية التى عثر عليها وحفظت بمتاحف ليبيا ولا سيما المرج ومتحف الشحات : فقد ورد فيها باتفاق شامل : ((مما أمر بعمله الامير تميم بن المعز . . .)) :

فتميم هوصاحب الاشغال والمكلف بهذه التأسيسات التى تبلغ العشرات ومع ذلك فالنصوص تصوره لنـــا شاعرا خليعا مخلدا للذات ليس الا حتى اضطر المعز إلى إبعاده عن الخلافة وتولية أخيه :

من الذى كتب هـــذه النصوص ؟

ولمـــاذا أهملوا هذا الحادث والحوا على حوادث أخرى ثانوية الأهمية ؟

ولمـــاذا وصلنا ديوان تميم فى القسم المصرى والمشرقى وضاع القسمان التونسى ، ولا سيما الليبى الذى قد يفيدنا عن أعمال تميم بالقطر الليبى الشقيق وحياته العملية الشغيلة هناك المليئة بالاحداث والتشييد والانجاز : أليس كل ذلك إلا من أجل مكيدة ((تآمر الصمت)) التى نسجت احبولتها لتميم والتى كان أكبر ناسجيها الأستاذ جوذر ؟

لكن التاريخ لايظـــلم احدا . وطال الزمان أم قصر فإن الحقيقة سوف تظهر ويتبين الغث من السمين والصحيح من المبهرج المزيف :

واذا كنا قد عرفنا بعد مضى عشرة قرون من تآمر الصمت من هـــو الذى قام بهذه الاعمـــال الهرقلية فقد بقى علينا أن نبحث فى حفريات عن هـــذه اللوحات وأن نجمعها ، وأن نحفظها وأن ننشرها فى دراسة منهاجية ؟. ويجب الإبتداء بنشر ماهو موجود منها :

أما الآن فقد آن الأوان لاستعراض مانعرفه من المراحل التى مرت بها القــافلة :

(١) ممن ومما ذا كانت تتركب القافلة الميمونة ؟

نعلم بعض ذلك مما أورده المقريزى ص ١٨٦ :

((... ودخل معه جميع من كان وفد اليه ، وجميع أولاده وإخوته وعمومته وسائر ولد المهدى وأدخل معه توابيت آبائه المهدى والقائم والمنصور))

وهــذا كلام مقتضب نستطيع أن نشرحه بعض الشرح مما أورده المقريزى فى ((اتعاظ الحنفاء)) :

(١) اخوته (اتعاظ ١٣٢) حيدرة مات بمصر فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٢ ﻫ وصلى عليه العزيز بالله ، هاشم : مات بمصر فى ربيع الأول سنة ٣٦٨ﻫ وصلى عليه العزيز بالله :

وأما اللذان ماتا قبل الرحلة فهما : طاهر : مات فى المحرم سنة ٣٥٩ ﻫ بالمهدية . والحسين مات بالمغرب :

(٢) أخواته وهن خمس : ثلاث ، وهن هبة وأسماء وأروى ، متن بمصر أيام المعز لدين الله . وأم سلمة ماتت بمصر أيام العزيز بالله فهن قد شاركن فى القافلة : وأما أخته منصوره فقد ماتت بالمغرب :

(٣) عمومتــه ابناء القائم بن عبيد الله .

ـــ أبو عبد الله جعفر ومات فى أيام المعز بمصر على مايظهر : وحمزه وعدنان وأبو كنانة قبضوا بالمغرب : ويوسف مات اثنـــاء الرحلة ببرقة سنة ٣٦٢ ﻫ ، وعبد الجبار توفى بمصر سنة ٣٣٧ ﻫ قبل الرحلة الميمونة :

وترك القائم أربع بنات لانعـــلم على وجه التحقيق من ماتت منهن بمصر ومن ماتت بالمغرب : اما الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا المعز على العرش الفاطمى بالمهدية فقد نقلوا فى توابيت إلى القاهـــرة فى صحبة القافلة :

وكذلك انتقل الهيكل الحكومى بأسرة مثل وزير المـــال (صاحب بيت المـــال) محمد بن الحسين بن المهذب (اتعاظ ص ١٩٦) النعمان واولاده :

وانتقلت القبائل البربرية من كتامة ومصمودة، وجاءت نخبة من الشعراء والفقهاء والعلماء والمطربين والمهندسين ورجال السياسية الخ : :

(٢) القافلة — قال المقريزى : ص ١٤٤ :

((: : ولمـــا عزم على الرحيل إلى مصر اتاه بلكين بن زيرى بالفى جمل من ابل زنانة وحمل له بالقصور من الذخائر وسبك الدنانير على شكل الطواحين (الطواجن ؟) جعل على كل جمل قطعتين فى وسط كل قطعة ثقبـــا تجمع به القطعة إلى الأخرى :

فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصار يقفون فى الطرق لرؤية بيت المـــال المحمول : : :))

الفان من الإبل لحمل المـــال : فكم من ابل وخيل وبغال وحمير لحمل الرجال والمتاع ؟ وكم من قباب محمولة للوقاية من الحر والقر لحمل النساء؟ لاشك أن هذه القافلة التى خرجت من المنصورية إلى سرد انيا كانت تمتد من المنصورية إلى طريق السبيكة ، وأن أهل القيروان ، التى لم تكن تبعد عن المنصورية الا ٨٠٠ م فى الشمال كانوا ينظرون القافلة من المنائر والسطوح وأعالى الأسوار وأبراج باب سلم ومقبرة قريس المشرفة على المنصورية :

(٣) تاريخ الخروج — قال المقريزى : ص ١٤٤ :

((: : وخرج المعز من المغرب يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة ٣٦١هـ)

وهو يوافق يوم ٧ أغسطس ٩٧٢ م أى أننا فى صميم الصيف القيروانى الحـــار .

وفى ابران السمائم المسماة بتونس (أوسو) وهى اربعون ، يوما (نصفها صيف ونصفها خريف ويبـــدأ النصف الثانى الذى هو الخريف التونسى الجميل يوم ١٥ أغسطس ويدوم إلى أوائل الرمان أى إلى نوفمبر بدخول الغاية وإذن فقد اختار المعز الوقت المناسب :

— ثم قال المقريزى :

((. . . وخرج من المنصورية — ومعه بلكين — إلى سردانيا)) .

والمنصورية معروفة منتزه ملوكى بنـــاه الخليفة المنصور إثر انتصاره على أبى يزيد وجعله لايبعد إلا ٨٠٠ م عن القيروان فى الجنوب منها — ويسمى الآن صبرة .

وسردانيا معروفة : وهى ليست الجزيرة الايطالية الواقعة شمال صقلية وجنوب كرسكة وإنما سميت باسم الجزيرة ذكرى لفتحها . وهى قصور أنيقة وحدائق غناء بين جبال عالية تمر منها حنية تجلب الماء من الشريشيرة إلى القيروان على بعد ٤٠ كم . وهى غرب القيروان فى طريق سبيطلة على الشمال منه .

والمعز الذى كان (يقول بالفال) قصد المنصورية ثم سردانيا لأن الأولى تذكره بالانتصار والثانية بالفتح . ولأنه أراد أن يستريح ويشم نسيم سردانيا العليل المعطر بعبير الفل والياسمين والورد والقرنفل والعطر ومن يدرى ؟ لعله أراد أن تبقى له آخر ذكرى جميلة من هـــذه المشاهد الافريقية الرائعة .

والطريق من المنصورية إلى سردانيا غربا يمر بين مقبرة قريس فى الشمال وسور القيروان وباب سلم : فتبدو القيروان ولا سيما منارة جامع عقبة والأسوار المصنوعة من الآجر والمزخرفة بشكل جميل . ثم يمر الطريق بين الحدائق والبساتين ومغارس النارز والليمون والبرقوق والخوخ والتين ومعرشات العنب . إلى أن يلاقى جبال الظهرية التونسية فى الشمال ، وفى حضن تلك الجبال قد قبعت سردانيا تحت قنتها الرائعة : قال المقريزى :

سلّم ((المعز)) إليه (بلكين بن زيرى ابى الفتوح يوسف) افريقية والمغرب يوم الأربعاء لتسع بقين من ذى الحجة وأمر سائر الناس له بالسمع والطاعة : وفوض إليه أمور البلاد ، ما خلا جزيرة صقلية ، فانه ترك أمرها لحسن ابن على بن أبى الحسين وطرابلس وأعمالها » :

وقد رأينا ذلك فيما سبق وبينا أسبابه ، فيما سلف .

ثم إن المعز أوصى بلكين بما يلى :

قال المقريزى : ((إن نسيت ماوصيناك به فلاتنس ثلاثة أشياء ، إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ولاترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوتك وبنى عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك . وافعل مع أهل الحاضرة خيرا)) :

واذا أمعنا النظر فى تاريخ خروج المعز من المنصورية — ٢٢ شوال ، وتاريخ خروجه من سردانيا — ٢١ ذى الحجة — نجده قضى هناك شهرين — من ٧ أغسطس إلى أوائل أكتوبر يقضى محارق (أوسو) وينتظر أمطار الخريف لتوفير الماء والعشب وتبريد الجو :

وتوجه المعز فى الطريق السلطانى فمر بصفاقس وسكت المؤرخون — فيما نعلم — عن وصوله ومقامه بعاصمة الجنوب التونسى لكننا نجد نصا عن وصوله ومقامه بقابس .

(٤) مرحلة قابس (٤٠٤ كم) عن تونس فى الجنوب على خليج قابس وسط واحة من النخيل وبها الأمراء من بنى ميمون ولهم قصور قرب مقام الصاحب أبى لبابة رضى الله عنه وبها مناذه منها ساحة عنبروعين سلام. فيحسن المقام بها.

قال المقريزى (ص ١٨٤) .

(وفى شهر ربيع الآخــر ٣٦٢ ﻫ تواترت الأخبار بمسير المعــز إلى مصر . وورد كتابة من قابس : فتأهب جوهر لذلك : واخذ فى عمارة القصر والزيادة فيــه) :

واذا اعتبرنا هــذا التاريخ — الخروج ٢١ ذوالحجة — وصول الخبر من قابس ربيع الآخر فقد انقضت مدة أربعة اشهر . ولنحذف منها مدة شهرين لابد منها لوصول البريد من قابس فيكون قضى المعز بين سردانيا وصفافس وقابس رحلة وإقامة شهرين كاملين فدخل طرابلس فى صميم الشتاء (ديسمبر) وهذا لايهم لأن شتاء طرابلس وطريق سرت لطيف دافئ جميل :

ويبدوأن المعز لم يطل المقام بطرابلس ولا بالطريق إلى سرت وإجدابية :

ولا نعرف شيئا عن مقامه بطرابلس — فيما نذكر وبلغ علمنا على الأقل . ولا نعــرف كثيرا عن مقامه بمدينة الخمس قرب لبــدة المدينة الرومانية الخالدة :

ولكنه قطع هــذه المسافة من مسراطة إلى اجدابية — وهى صحراء — فى مثل السهم :

(٥) مقامه باجدابية — فقد بلغ إجدابية حتى تحدثنا عنها يوم الاثنين ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٦٢ ﻫ ، ونزل بقصره خارج برقة .

فقد مضت ثلاثة أشهر من خروجه من قابس لأن خبر إقامته بقابس وصل القاهـــرة فى ربيع الآخر والوصول كان فى جمادى الأولى . وقد قضى البريد شهرين فى الطريق ويضاف اليها شهر ربيع فتكون جملتها ثلاثة أشهر .

واستراح المعز بقصرإجدابية الكسروانى الذى بناه تميم وزخرفه بالنقوش والأسود المنحوتة وخطوط الطومار مما نقلت آثاره إلى متحف الشحات . ولا يزال القصر موجودا يشهد بعظمة الفاطميين .

ووجب أن يستريح المعز بعد اجتياز مايقرب من ٨٠٠ كم من الصحراء.

ثم انتقل إلى برنيق وسط غابات الزيتون والتين ومزارع الحبوب ومراعى الغنم التى اشتهرت بها برقة .

وبرنيق مدينة مشهرة هى مدينة بنغازى اليوم تقع بين بحيرة وبحر وسط واحة من البساتين والنخيل وهى تبعد ١٧٠ كم فى الشمال الشرقى من إجدابية .

وليست لنا وثائق عن إقامة المعز ببرنيق التى كانت عاصمة .

(٦) برقة — ومنها انتقـــل إلى المـــرج أو مدينة برقة فى الجبل الأخضر . قال المقريزى (ص ١٨٤) .

(وفى أول رجب ٣٦٢ ه كدّ جوهر الناس للقاء المعز . فتأهبوا لذلك . وخرج أبوطاهر القاضى . وسائرالشهود والفقهاء ووجوه التجار إلى الجيزة مبرزين للقاء المعز . فأقاموا بها أربعين يوما حتى ورد الكتاب بوصول المعز إلى برقة)) .

ومر المعز بالبيضاء والشحات وسوسة ودرنة وطبرق . وهو يواصل السير حتى اجتاز الحدود الليبيـــة المصرية .

(٨) الوصول إلى الإسكندرية :

قال المقريزى : ((ولخمس بقين من شعبان ٣٦٢ه ورد الخبر بوصول المعز إلى الإسكندرية ولقيه أبوطاهرالقاضىومن معه . فخاطبهم بخطاب طويل،

وأخبرهم أنه لم يسر لازدياد فى ملك ولا رجال ولا سار إلا رغبة فى الجهاد ، ونصرة للمسلمين وخلع على القاضى وأجازه وحمله :

ولقية أبوجعفر مسلم فى جماعة الأشراف ومعهم وجوه البلد بنواحى محلة حفص : وترجلوا له كلهم : وكان سائراً فوقف :

وتقدم اليـــه أولا أبو جعفر مسلم ، ثم الناس على طبقاتهم ، وقبلوا له الأرض وهو واقف : حتى فرغ الناس من السلام عليه :

ثم سار وسايره أبوجعفرمسلم — وهو يحـــادثه — وسأل عن الأشراف . فتقدم اليـــه أكابرهم :::: ، ثم عزم على الشريف مسلم وامره بركوب قبة لان الحر كان شديدا وكان الصوم فقدمت اليه قبة محلاة على ناقة ، وعادله غلام له :))

(٩)» الوصول إلى الجيزة . تم قال المقريزى: « ونزل المعز إلى الجيزة » وقال ص ١٨٦ ونزل المعز إلى الجيزة فخرج إليه جماعة من بقى : وعقد جوهر جسر الجيزة وعقد جسرا آخر عند المختار بالجزيرة حتى سار عليه إلى الفسطاط ثم إلى القاهرة : وزينت له الفسطاط فلم يشقها :

(١٠) الوصول إلى القـــاهرة : وصل القاهرة الثلاثاء لبع خاون من شهر رمضان ٣٦٢ هـ — ودخل القصر الذى أعده له جوهر فى نفس اليوم :
قال ابن زولاق :

ولمـــا وصل المعز الى قصره خرّ ساجدا ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معـــه واستقر فى قصره بأولاده وحشمة وخواص عبيده : والقصر يومئذ مشتمل علي مافيه منعين وورق وجوهر وحلي وفرش وأوان وثياب

وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم ، وبيت المال بحاله بما فيه. وفيه جميع ما يكون للملوك» إلى هنا بلغنا خاتمة المطاف تاركين لحضرات الباحثين المجال فسيحا ليدرسوا ما نتج عن الرحلة الميمونة من نتـــائج سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية فقد كانت قافلة المعز تشمل العلماء كما تشمل الجنود وتشمل الشعراء كما تشمل الأمراء وتشمل المعماريين كما تشمل القضاة والمفكرين ، وتشمل الفنانين كما تشمل التقنيين فالبحث عن وجوه هذه البعث فسيح المجال وفيما أوردناه كفاية القنوع واستحقاق للولوع وفوق كل ذى علم عليم .

جمال الدين الأفغاني في القاهرة

للأستاذ الدكتور عثمان أمين

جمال الدين الافغانى فى القاهرة

للأستاذ الدكتور عثمان أمين

رائد التحرير :

جمال الدين الافغانى شخصية من ألمع الشخصيات الشرقية ، فهو علم من أعلام النهضة الفكرية الحديثة ، وزعيم روحى شرقى ، ومصلح إجتماعى عصرى وداعية سياسى ثورى :

اجتمعت له مواهب عقلية نادرة وصفات أخلاقية عالية جعلت لشخصيته مغناطيسية تجذب النفوس : فهو باعتراف الجميع كاتب مبدع وخطيب بليغ ومجادل مقنع ومتحدث بارع . وهو أيضا كما وصفه تلميذه الأمام محمد عبده : سليم القلب ، حاذ المزاج ، شديد العزم ، شجاع مقدام ، كثير البذل ، قوى الاعتماد على الله لا يبالى بصروف الزمان ، قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بمتاعها وزخرفها راغب عن المادة متعفف عن لذات الحس ، مؤثر لمتع الروح كلف لمباهج المعرفة لم يتزوج وأبى أن يعلق قلبة بالمال أو البنين أو الرتب والمناصب وإنما أراد أن يقضى حياته حراً طليقا كالهواء أو كالطير على الغصون أو كالليث لايعدم فريسة أينما ذهب « كما وصف هو نفسه » : ولد السيد جمال الدين الإفغانى فى قرية « أسعد أباد » من قرى كنر» من أعمال

كابول فى أفغانستان وأبوه « صفتر » من سادات الأفغانيين ينتسب إلى السيد على الترميذى المحدث الذى يرقى نسبه إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب وقد كانت أسرة جمال الدين ذات بأس وقوة ومكانة فى أفغانستان .

وقد تنافس كتاب الشرقين فى نسبة جمال الدين إلى بلادهم فذهب بعض الإيرانيين إلى أنه إيرانى ولد فى « أسعد أباد » بإيران وحاول بعض الأتراك أن يثبتــوا أنه من أصل تركى وأنه ولد فى أزربيجان كما ذهب بعض الهنود إلى أنه نشأ فى قرية « شيرون » فى بلاد الهند فترجمت إلى « أسعد أباد » لأسباب دبلوماسية .

ويحلو لنا بصدد إختلاف الأقوال فى نسبة جمال الدين إلى الأفغان أن تقول ماقاله « دالا ميــير » بصدد نزاع من هــذا القبيل : أن الرجال الممتازين ينتسبون فى الحقيقة إلى القرية وإلى الأمة التى تفاخر بهــم : أنهم قليل عددهم وقد ألقتهم المقادير على سطح الارض. فليسوا زينة ولاقنية لأحد بل هم أفذاذ من النوع الإنسانى الذى لاسبيل إلى تعريفه » .

والحق أنه لم يكن لجمال الدين وطن يستقر به ، وأنما عاش منذ طفولته سائحا جوابا ، فكان وطنه الشرق كله : أقام بالأفغان وفارس والهند والعراق وزار بلاد العرب وتركيا وسافر إلى كثير من عواصم أوروبا وقيل أيضا أنه زار « أمريكا » وكتب فى الصحف الشرقية والعربية وخطب فى المحـــافل والمجامع العربية والأوربية ، وخالط رجال العلم والدين والادب والسياسة ، فى الشرق والمغرب ....

ولقد ترك الزعيم الأفغانى فى نفس المفكر الفرنسى رينان انطباعاً قويا أشار اليه « رينان » فى مايوسنة ١٨٨٣ بقوله : «كنت أتحدث اليه (أى إلى الأفغانى)

فكان يخيل إلى من حرية فكره ونبالة طبعه وإخلاص قلبه انى أرى وجها لوجه أحد معارفى القدماء وأنى أشهد أبن سينا أو ابن رشد أو أحدا من أولئك الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الانسانى .«ذلك جمال الدين الأفغانى فى رأى « رينان » :

ولايتسع المقام لاستيفاء تاريخ ذلك النابغة الأفغانى الذى أختلفت فيه الأقوال وحارت فى فهمه العقول.حتى قال فيه الكاتب الفرنسى « روشفور » : السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبى ويكاد هو نفسه أن يكون نبيـــا : فبينما يراه رنان فيلسوفا كبيرا ومفكرا دينيا متحررا يراه روشفورمن كبار دعاة الأديان وقريبا من طبقة الأنبياء :

كان هــذ االرجل ذوالعبقرية القذة رائد الحرية الدينية والسياسية فى نظر الشعوب الشرقية كما قال ولفرد بلنت فقد جذبت اليه قوة شخصيته وسحرها فى القاهرة وفى استانبول قبلها جماعه من الشباب المتحمسين كان فى وسعه أن يذيع بينهم فى غير ماتحفظ ذخيرة معارفه المتنوعه ويوليهم قبسا من روحه النافذة ، ويبث فيهم شيئا من شجاعته النادرة . والواقع أنه كان لابد للانسان فى ذلك العصر من أن يكون ذا حظ عظيم من الشجاعة حتى يعبر عن آرائه فى حرية : فلم يكن الخــديو أسماعيل يطيق أى معارضة وكانت السلطات الدينية العليا — التى لاذت بالصمت أزاء المظالم عهدا طويلا — قداستكانت إلى تلك الحال وأيدتها بالسمع والطاعة ؛

فى تلك الظلمه الحالكه التى أطبقت على الحياة الأخلاقية والعقلية فى القاهرة فى ذلك الحين انبثت تعاليم جمال الدين الجريئة كبريق يأخذ بالأبصار ؛

الأفغانى وتلاميذه فى القاهرة :

التف حول جمال الدين صفوة القوم فى القاهرة، ونشط الأفغــانى لبث تعاليمه الحرة التى لم يكن للناس عهد بها من قبل ، وأخذ يقرأ لتلاميذه طائفة من الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة فى الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع ، فكان ذلك فتحا فى موضوعات التعلــيم — ومن المحــقق أن جمال الدين كان يفيض قوة ذاتية وسحرا فطريا . فاستطاع أن ينفخ من روحه فى تلاميذه كما قال جرجى زيدان : « ففتحوا أعينهم وإذا هم فى ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه ، فضلا منه ، العلم والفلسفة ، روحانيه أرتهم حالهم كما هى ، إذ تمزقت فى عقولهم حجب الأوهام فنشطوا للعمل فى الكتابة وأنشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية :

قدم السيد الأفغانى إلى القاهرة للمرة الأولى سنة ١٨٦٩ وكانت شهرته قد سبقته إلى هــذه البلاد . ولمــا سمع الشيخ محمد بمقدم ذلك النابغة الكبير ذهب لزيارته فى صــحبة الشيخ حسن الطــويل الذى كان أستاذا للمنطق فى الأزهر : وتحدث السيد جمال الدين الأفغانى إلى زائريه أحاديث طلية طريفة فى تفسير القرآن وفى التصوف الإسلامى فكانت شخصيته تخلب الباب سامعيه : ولمــا عاد جمال الدين إلى القاهــرة للمرة الثانية سنة ١٨٧١ بادر محمد عبده إلى لقائه وتتلمذ له وأصبح يلازمه كظله ووجد الشاب المصرى عند السيد الأفغانى روحا جديدة غير مألوفة لدى شيوخ الأزهر : وجد عنده مذهبا فلسفيا واحداً ونظرة إلى الحياة عميقة وصورة عن الكون منظمة ، وبالإجمال وجد عنده تلك الفلسفة المنسقة الشاملة التى تتناول مجالى النظر والعمل وتشمل الله والعالم والإنسان : وكان طبيعيا — وقد اتصل الشاب الأزهرى بتلك الشخصية الجذابة القوية — أن يفتن بها وأن ينساق إلى الطريق التى رسمتها له : فلا بدع

إذن أن ترى محمد عبده الذى كان يناصر فى كتاب العقيدة المحمدية « آراء السنيين والأشاعرة — وهم يمثلون حزب المحافظين فى الإسلام — لايتردد الآن فى التحول عن تلك الطريق وإذا به فى كتاب « الحاشية على شرح العقائد النسفية » ينقلب مناصرا للمعتزلة والعقليين وجميع النظار من الأحرار والمتسامحين : ولا بدع أيضا أن ينصرف الشاب الصوفى عن ممارسة الزهد واعتزل الناس وأن يأخذ فى تذوق الحياة العاملة مقتديا بأستاذه جمال الدين وأن يقبل على دراسة العلوم المختلفة التى خلت منها مناهج التدريس فى الأزهر كالفلسفة ، وعلم الكلام ، والرياضيات ، والاخلاق ، والسياسة : وقضى محمدعبدة فى صحبة جمال الدين شهورا يحيا حياة الفكر والروح وهو مبتهج متحمس نشوان متعطش إلى ارتشاف المعرفة من يد ينابيعها الصافية متشوق إلى شهود العهد الميمون الذى تتحقق فية مثل الحق والخير والجمال : ولم يفته أن يسجل فى نغمة صوفية سارة اعجابه بأستاذه وحماستة له : فمن ذلك ماكتبه فى نسخة نقلها بخطه من كتاب قديم حيث قال فى خاتمتها : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق وقائد الخلق إلى جانب الحق خلاصة من تجلس بالحكمة ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والعمه محى الحق والدين استاذنا السيد جمال الدين » ثم هو لايتردد فى اعلان حماستة تلك لأستاذه فى باكورة مصنفاته : نجده يتحدث عن الأفغانى سنة ١٨٧٤ فى بداية « رسالة الواردات » فيصفه بصفتى « الحكيم الكامل والحق القائم » :

الأفغانى والمحفل الماسونى فى القاهرة :

لما كان جمال الدين ميالاً بفطرته إلى السياسة عالما فى دقائقها ، فقد نظر فى حال مصر نظر المدقق الحكيم ورأى ما آلت إليه من تدخل الأجنبى وتفاقم أمره يوما فيوم فعلم أنه لابد من تغيير أحوالها وكان قد انتظم فى سلك الجمعية الماسونية :

وكان المحفل الماسونى — فى ذلك الوقت يحبذ تبادل الأفكار بين الرجال الواقفين على دخائل السياسة وينشئ بينهم رابطة من التضامن والتعاون .

وأول نقد وجهه جمال الدين إلى المحفل الماسونى بالقاهرة ردّه على قول أحد الأعضاء بأن الماسونية لادخل لها فى السياسة ، وأنه يخشى على المحفل من بأس الحكومة وبطشها ، ونهض جمال الدين : وقال : ......

كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ماكنت لأتخيل أن الجبن يمكن يدخل بين اسطوانتى المحافل الماسونية . إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لاتستعمل لهدم الفاسد ولتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة ولدك صروح الظلم والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة . ثم قال : « أول ما شوقنى لأنضمامى إلى البنائين الأحرار شعا كبير خطير يدعو إلى الحرية ، المساواة ، الأخاء ، ويعمل على تقدير كرامة وأقامة ميزان العدل » فارتسم فى ذهنى معنى للماسونية هو همة للعمل وعزة نفس وشمم وبذل الحياة فى سبيل مثل أعلى هو نصرة المظلوم ومقاومة الظالم ولكن مع الأسف أرى أن جرائم الأثرة والأنانية وحب الرياسة وانسياق الجماعات إلى العمل إرضاء لشهواتها وجنيا للمنافع الخاصة وغير ذلك من الأمور التى قامت الماسونية الحرة للقضاء عليها مازالت متفشية بين أعضائها .

ثم قال فى ذلك المحفل أيضا ردا على خطاب لأحدهم : « أنتم اليوم بين رئيس ومرؤس ، تابع ومتبوع ، مال يجمع ، وجزية للشرق تؤدى ، وليس من عمل يدل على أدنى أثر من الحياة الماسونية فى الشرق . »

ولما يئس جمال الدين من المحفل الماسونى الإسكتلندى أنشأ محفلا وطنياً جديدا قسمه شعبا ، شعبة مهمتها مراقبة الشئون العسكرية لمطالبة « ناظر

الجهادية » بإنصاف الضباط الوطنيين الذين تجاوزوا فى الخدمة بالسودان الحد الذى تستوجبه القوانين ، وشعبة ثانية للحقانية ، وثالثة للمالية وأخرى للأشغال :

وبقية الوزرات والمصالح الحكومية مهمتها المحافظة على حقوق المواطنين الوطنيين ومساواتهم بغــير المصرين ممن كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة . وهال الأمر الخديوى توفيق ، فطلب مقابلة جمال الدين ، فذهب إليه بعد مماطلة أيام . وقال الخديوى لجمال الدين : « إننى أحب كل خير للمصرين ويسرنى أن أراهم فى أعلى درجات الرقى ولكن أكثر الشعب خامل جاهل لايصلح أن يلقى عليه ماتلقونه من الدروس والأحوال المثيرة للنفوس فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة : فأجابه جمــال الدين « ليسمح لى سمو الخديو أن أقول فى حرية وإخلاص أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه ليس محروما من وجود العالم والعاقل . فالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به إلى سموكم . فان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد حكماً صورياً ، وأمرتم بإجراء انتخاب نواب من الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وإرادتكم كان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » وبالطبع غضب الخديوى أشد الغضب على السيد جمال الدين ولكنه لم يظهر له شيئا ، وأسرها فى نفسه :

الأفغانى المصلح الدينى والسياسى :

كان جمال الدين رائداً لحركة تحرير دينى وسياسى ، كان يرى أن أساس حركة الإصلاح الدينى هى الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العــوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينيــة ، والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى مثل حملهم القضاء والقــدر على معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب مجــد ، ولا لتخلص من ذل ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على

فساد آخر الزمان فيما حملهم على عدم السعى وراء الإصلاح والنجاح فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين أفراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح ، لكى تقودهم لمـا فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة .

ولذلك دعا جمال الدين المستنيرين من المسلمين إلى النظر فى حالهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نموا طبيعيا وأن يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية .

وما من قطر من أقطار الشرق إلا أثر فيه جمال الدين مثل تأثيره فى مصر : فهو من أول العاملين على تطور الروح الوطنى فى هـذه البلاد وقد نسب اليه — بحـق الدور التاريخى — « أبو القومية » وقد استطاع الرجل بخطبه الملتهبة أن يبث فى النفوس نزوعا إلى الحرية ، ورغبة فى العدالة ، خطب مرة قبل خلع الخديوى اسماعيل فقال : أنت أيهـا الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ماتسد به الرمق وتقوم بأود العيال . فلماذا لاتشق قلب ظالمك ؟ لمـاذا لاتشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم وكان لكلامه أثر عميق فى إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين : فاتجه الناس إلى نقد تصرفات أصحاب السلطان وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق فى التصرف فى شئون الرعية ، وكذلك بذل جمال الدين جهداً كبيراً فى تنبيه المصريين إلى مضار الاستكانة لتدخل الأجانب فى شئونهم وطفق يخاطبهم مستثيراً فيهم معانى العـزة القومية ، ومما قاله مرة فى خطاب له : « لو كان فى عروقكم دم ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر ، فتثير الشعور والحمية ، لمـا رضيتم بهذا الذل ، ولمـا قعدتم على القضاء وأنتم تضحكون . تناوبتكم أيدى الغزاة من كل جنس ، وأنتم كقطع الصخر الملقاة فى الفلاة ، لاصوت لهم ولا حس ،

وعلى أثر ذلك أخذت الحركة الفكرية الوطنية فى الظهور وأخذ الوطنيون يطالبون الخديوى بإنشاء مجلس نيابى وبدأ الخديوى وكأنه مرحب بهذه المطالب فانبرى جمال الدين محـذرا الوطنيين من الإستنامه للوعود المعسوله وقال : « أيها الاخوان : أن القـوة الوطنية لأى أمة لايمكن أن تحوز معناها الحقيقى إلا إذا كانت نابعـة من نفس الأمة . وأى مجلس نيـابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لهما فثقوا أن حياة تلك القوة النيابية موقوفة على إرادة من أحدثها : : : : فأى مجلس نيابى يقوم على إرادة خارجة عن ارادة الامة — مثل هـذا المجلس لاقيمة له ولن يعيش طويلا ولاترجى منه للأمة فائدة ».

ثم قال ضاحكا ضحكة متألم : « سترون أن الذى سيكون نائبا عن شعب قد سلبت حريته وابتلى بما ابتلى به هو ذلك الذى كان آلة حماد بيد القوة التى عملت على وصول وطنه ومواطنيه إلى ماوصلوا الية من بؤس وهو أن نائبكم سيكون . : : هو ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه وذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ذلك الرجل الذى لايستطيع مواجهة الحاكم الظـالم بأى حجة ولو كانت من الحجج الساطعة ، وذلك الرجل الذى يرى فى إرادة القوة الجائرة كل خير وحكمة ويرى فى كل دفاع عن وطنه وفى كل محاولة لرد الاعتداء قلة أدب وسوء تدبير ».

وما لبث الوطنيون أن تأثروا بأفكار جمال الدين وما يبثه فيهم من النفور من السياسة البريطانية فى مصر وقد ترجمت أقوال السيد وأرسلت إلى جرائد انجلترا . وبلغ من أهتمامهم بها هناك أن تولى « جلاد ستون » رئيس الوزراة البريطانية أمر مناقشتها . وداخل الخوف مستر « فافيانى » قنصل انجلترا اذ ذاك فجمع عن طريق من بثـه من الرقباء والجواسيس ما أرهب به الخديوى الذى

كانت فى نفسه أشياء من جمال الدين اذ لم ينس ماسمعه منه شخصيا فى المقابلة التى أشرنا اليها فأصــدر أمره باخراج السيد جمال الدين من مصر فغادرها سنة١٨٧٩ :

معارضة جمال الدين والطعن فيه :

كان طبيعيا أن يثير موقف جمال الدين معارضة له وسخطا عليه من كل صوب : من رجال الدين المحافظين الذين أخذوا يتقولون عليــه ويرتابون فى تعاليمه بدعوى أنها خطر على العقيدة ، وكذلك من أحكام المستبدين ومن الأجانب الطامعين: وكانت أحوال مصر السياسية والمــالية قد ساءت مما أدى إلى التدخل الاوربى فى شئونها بحجة « المراقبة الثنائية » من انجــلترا وفرنسا ثم إلى عزل الخديو أسماعيل نتيجة بذخه وطغيانه . وكان توفيق قبل ارتقائه إلى العرش قد عاهد جمال الدين الأفغانى وأصحابه الأحرار على تأييدهم فى مطالبهم الإصلاحية . ولكن سرعان ماتنكر لهم حين آل الحكم إليه وانتهى به الأمر إلى أبعاد السيد جمال الدين عن مصر ، كما سبق أن بينا — ارضاء لنصيحة من الانجليز والفرنسيين الذين كانوا يخشون أقامة حكم نيابى فى البلاد :

كثرت الاقاويل والمفتريات التى روجها المغرضون بقصد أن يحجبوا أنظار الجمهور عن الشخصية الحقيقية للسيد جمال الدين ، شخصية المفكر المصلح الذى لم يكن يبغى من دعوته إلا استنهاض العالم الاسلامى الذى قضى عليه بالعجز والعقم نتيجة تخبط المحترفين من رجال الدين والحكام السياسيين :

ومن قبل المفتريات البذيئة التى وجهت للطعن فى شخصية جمال الدين وريقات نشرت فى القاهرة بعنوان : « تحذير الأمم من كتب العجم » كلها تجريح وقح، وتهجم رخيص لالشئ إلا أنه اعتنق قضية الفكر الحر والثورة على الفساد أيا كان وحيثما كان : حتى قيل فيه أنه كان يتناول السوط بيمناه ويوزع الثورة بيسراه :

أشرنا فيما سبق إلى أثر جمال الدين فى الاصلاح السياسى ، وليس هنالك شك فى أن لجمال الدين يدا فى الحركة العرابية . ومن المحقق أن المبدأ الوطنى الذى سيطر على تلك الحركة من غرسه كماقال شكيب ارسلان: « وأن كان هب على ذلك الزرع من شموم الجهل ، ونقصان التربية السياسية ، ولفحة الدسائس السياسية ، ماصوح نضرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث فى الشرق ، أو حركة أصلاح تشفق من وراءها الدول أن تتمــزق حجب الغباوة التى هى أصدق أعوان الاستعمار : »

على أن جمال الدين قد عرف بالدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » التى ترمى إلى اتحاد جميع الشعوب التى تعيش فى كنف الإسلام لكى يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبى . وقدكان السيد يقول فى هذا الصدد : أن الدول الغربية تنتحل الأعذار فى هجومها وعدوانها على البلادالإسلامية وإذ لالها وإكراهها بقولها : « أن الممالك الاسلامية هــذه ، إنما هى من الانحطاط والهــوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوّامة على شئون نفسها بنفسها فى حين أن تلك الدول عينها لاتكف عن التذرع بألوف الذرائع حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على حركة النهضة والإصلاح فى البلاد الاسلامية . ومن ثم يجب على العالم الإسلامى أن يتحد فى حلق دفاعى كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفنــاء » .

غير أن جمال الدين لم يكن يعنى بالجامعة الإسلامية إحلال قومية الدين محل قومية القطر ، وإنما كان يرغب فى أن تتحد جميع الاقطار الاسلامية مع استقلال كل منها عن الآخر إلى هدف واحد هو التحرير السياسى .ومن أجل النهوض بالوطن الافغانى أو المصرى أو التركى أو الفارسى . كان يعمل على نهضة الإسلام الذي يتغلغل فى الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار

الإسلامية المختلفة. على أن عبء النهوض بمهمة الإصلاح الديني سيقع في صميمه على عاتق تلميذه الغيور محمد عبده الذي سيكون « لوثر » الشرق حقـا .

ولكننا نعتقد أن الجامعة الاسـلامية التي اشتهر جمال الدين بالدعوة إليها لم تكن إلا تمهيدا لتحقيق جامعة أوسع هي ما يمكن أن نسمية « بالجامعة الشرقية» فهو قد رأى في الشرق تخلفا ناشئا عن ضعف الإرادة وانحلال القومية وتفرق الكلمة والاستسلام والتخاذل ، ورأى في الغرب تقدما ماديا عقليا وروح تعصب على الشرق وعدوانا على بلاده وسعيا إلى شعوبه بحجة ضعف الشرق عن أن يكون قواما على شئون نفسه : فسعى سعيا حثيثا لجمع شتات أهل الشرق وتوحيد كلمتهم وإيقاظ هممهم للذود عن كيانهم والخلاص من الخطر المحدق بهم: ورأى أن السبيل إلى ذلك أن يسعى كل ملك أو أمير في الشرق إلى ترقية شعبه وتحصينه بالحكم الدستوري ووقفه على التقدم الغربي وتقويته للتحالف على الإتحاد مع الأمم الشرقية الأخرى لتلتقي جهود الجميع عند الغرض المشترك وهو التحرر السياسي :

وقد كان الشرق هو الهم الأكبر لجمال الدين الأفغاني يهتف باسمه ولا ينقطع عن ذكره ليله ونهاره :

روى المخزومي باشا أن الأفغاني كثيرا ما كان يقول : « الشرق الشرق لقد أمضيت فكري لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت اقتل أدوائه وما يعترض سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء أنقسام أهليه وتشتيت ارائهم وإختلافهم على الأتحاد و أتحادهم على الاختلاف . فقد أتفقوا على ألا يتفقوا ولاتقوم على هـذا لقوم قائمة :

والحق أن قدوم السيد جمال الدين إلى مصر كان مبدأ النهضة الفكرية والسياسية التي نشهدها الآن في البلاذ والتي نراها في رؤسـاء البلاد الافريقية

الآسيوية رامية إلى اكتناه أسرارالقوة الغربية وإعادة الشرق سيرته الأولى من العلم والمدنية .

وما أحسب الجامعة الشرقية التى دعا اليها جمال الدين إلا جامعة المستقبل ، وما أحسب إلا أننا سائرون فى طريقها لأنها مناط أمل الشرق فى دفع مطامع الغـــرب :

ونعتقد أن خير مايصــور شخصية الأفغانى فى طموحه وأبائه وحقيقة الرسالة التى اضطلع بعبئها طول حياته والتى أراد أن يترسمها تلاميذه من بعده هو ذلك المعنى الذى عبر عنه الشاعر حين قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

عرض من الأسس الاجتماعية والإقتصادية

التي قامت عليها جماعة العلماء في القرن الثامن عشر

دكتورة

عفاف لطفي السيد

ملخص

عرض من الأسس الاجتماعية والاقتصادية

التي قامت عليها جماعة العلماء في القرن الثامن عشر

دكتورة

عفاف لطفي السيد

ملخص

أن جماعة العلماء باعتبارها عنصراً هاماً في السياق الإجتماعي والإقتصادي للحياة فى القرن الثامن عشر ، أنما تستحق أن تفرد لها دراسة مهتديه بهذا الضوء ، ولسوف تكشف هـذه الدراسة عن جوانب ذات قيمـة كبيرة فى مجالات المعاملات الاقتصادية والمـالية فى ذلك العصر : ولهـذا فان مصدر الدخل لجماعة العلماء واستثماراتهم ، لهـو أمر يعد مجالا شيقا من مجالات الدراسة التى لا يستطيع المرء ايفاءها حقها فى هذا البحث .

ويمدنا عبد الرحمن الجبرتى بتفصيلات لمصادر الدخل لدى كثير من كبار علماء عصره ، ولقد ركزت الضوء فى هذا البحث على أربعة من أبرزهم ، هم الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر والشيخ المهدى والشيخ السادات والشيخ البكرى .

وقد عرفنا من الجبرتى ومن غيره من المصادر أن كبار العلماء الذين لم يكونوا يتلقون أى رواتب لقاء مايقومون به من تدريس ، كانوا مع ذلك يحصلون على مرتبات من مصادر رسمية ، كبيت المـال أو الأموال الموقوفة على المدن المقدسة ، وإن كانوا قد اعتمدوا بصفة عامة على الأوقاف باعتبارها المصدر

الرئيسى للدخل . وكان هذان الموردان بطبيعة الامر يتركزان فى أيدى المماليك مثلما كان الوضع بالنسبة لمنح أحقيات الإلتزام : ولذلك فإن المــرء يستطيع فى نهاية الأمر أن يقول إن العلماء كانوا معتمدين على ولاية المماليك ورعايتهم : ومن ناحية أخرى كان المماليك يعتمدون على العلماء باعتبارهم حلقة الوصل بينهم وبين مجموع السكان : ومــع اطراد ضعف سلطان المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر ، وازدياد حاجتهم للتأييد الشعبى ، نجد أنهم ضاعفوا ما كانوا يغدقونه من أموال على « العلماء » :

ونستطيع أن نرى صورة أشد دقة لمختلف الدخول المــالية حين نبحث الوقفيات التى حددها العلماء ، مثــل تلك التى أعدها محمد البكرى فى عام ١٧٧٩ م (١١٩٣هـ) : وتحدد هــذه الوقفية ممتلكاته ، وتطلعنا على تفاصيل رواتبة ومصادرها :

ونحن نلحظ فى الختام أن كبار « العلماء » — شأنهم شأن أغلب القاهريين قد استثمروا أموالهم فى الضياع الزراعية أول الأمر ، ثم امتد نشاطهم إلى الحوانيت والوكالات والحمامات الخ ، وانعطفوا أخيرا إلى ميدان التجارة : أما من كانوا يتمتعون بحيثية كبيرة أو كانوا ذوى أصول ريفية فقد حصلوا على التزامات ، وأن كانت الإستثمارات فى مجال الأراضى فى القرن الثامن عشر تعد من قبيل المجازفة إلا لمن كان ذا سلطان : واستمر هذا الوضع القلق بضع سنين فى القرن التاسع عشر إلى أن أقر سعيد بالملكية الخاصة للأراضى :

قاهرة الناصر خسرو

فرانشسكو جابرييللي

ملخص

قاهرة الناصر خسرو

فرانشسكو جابرييلي

ملخص

إن نشر « السفرنامه » وترجمتها الفرنسية بقلم « شارل شيفر » — على الرغم من عيوبهما — قد قربا إلى الاذهان ، منذ نهاية القرن الماضى ، ذلك السفر الفريد الصادر فى منتصف القرن الحادى عشر (القرن الخامس للهجرة) والذى يرسم صورة حية لجزء مترامى الأطراف من العالم الاسلامى فى ذلك العهد .
والذى يهمنا الآن من كتاب رحلة الناصر خسرو هو وصفه للقاهرة التى أقام فيها مدة سنة ، فقدم لنا عنها صوراً رائعة وتفاصيل طريفة ، فى مذكرات بنت الساعة ، كتبت باسلوب عتيق خشن يتجاهل قواعد اللغة .

ونرى فى هذا الوصف — وهو من أقدم ما لدينا عن هذه الحاضرة الإسلامية — مدينتى « مصر » (فسطاط عمرو القديمة مع ما أضافه اليها العباسيون والطولونيون) ، والقاهرة مقر الفاطميين الجديد ، مستقلة كل منها عن الأخرى ، وكل منهما موضع ملاحظات مختلفة كل الاختلاف : يبدأ المؤلف بوصف عاصمة الخلافة الجديدة ، بدور أمرائها ، وقصور الخليفة القائمة فى أماكن منعزلة فى حماية الحرس الإمبراطورى ، والمبانى الأخرى المخصصة للسراة ، كل مبنى بعيد عن الآخر ومحاط بحدائق ، والمساجد الرئيسية الأربعة (وفى طليعتها

الأزهر) ، ومجموعة الدكاكين المملوكة للحاكم والمؤجرة لذوى الحرف . ويلى ذلك صفحات معروفة عن الخليج ، والاحتفال بوفاء النيل وما يصحبه من استعراض للجيش فى حضور الخليفة الشاب المستنصر وهو حليق الرأس ، مرتديا ملابس عادية ، رغم الأبهة المتجلية فى موكبه :

وتعالج فقرة أخرى من الكتاب وصف المدينة القديمة ، مدينة مصر قبل الفاطميين بجوامعها السبعة ، التى إذا ما أضيفت إلى جوامع القاهـرة الأربعة ، جعلت للمدينتين خمسة عشر جامعاً — على حد قول الناصر الذى يهزأ بقواعد الجمع — وأولها جامع ابن طولون محاطا بأسواره الجبارة ، ثم جامع عمرو بجدرانه المكسوة بالرخام الفاخر وشمعدانه الفضى العملاق بمصابيحه السبعمائة ، وهو يعج بالأساتذة والطلبة والمقرئين والكتبة الذين يحررون الحجج والعقود ، وبالقرب من جامع عمرو يقع سوق القناديل المتخم بالسلع والمنتجات النادرة النفيسة التى يستعرضها المؤلف ويعددها بما طبع عليه من حب الاستطلاع ، فيبدى إعجابه بمـا تحويه أسواق القاهـرة من مختلف الأعشاب والفواكه ، ويشـير إعجابه أيضا المبانى الشاهقة ذات الطوابق الأربعة أو السبعة أو حتى الأربعة عشر على حد قوله — وهى بمثابة ناطحات سحاب القرون الوسطى — بما فيها من ورش لاتبطل حركتها ، وحشود المارة فى الشوارع — وكثير منهم ممتطون الدواب — وشبكات الأزقة فى الأحياء الكبرى المكتظة بالسكان كما هى قائمـة حتى الآن فى المراكز التاريخية القديمة فى الشرق والغرب ، والحوارى التى تحجب عنها نور الشمس المبانى المرتفعة المتلاصقة حتى تحيط بها ، فتدعو الحال إلى إنارتها بالمصابيح :

ثم ينتقل الوصف من القاهرة القديمة إلى قصور الخليفة التى زارها الناصر بفضل موظف من أصدقائه ، فيشيد بكنوزها — كنوز الفاطميين — ومطابخها العامرة وما تقدمه للمرضى والمساكين ، إذ أن ما استرعى نظر هـذا الرحالة ،

وكان يردده باستمرار فى فصول كتابه الخاصة بمصر والقاهــرة ، هو العدالة والإنسانية والرعاية التى كانت هــذه الامبراطورية الشيعية تحيط بها الشعب ، والعطف الذى كان يبديه الخليفة نحو رعاياه واهتمامه البالغ بشئونهم ، إلى حد أنه كان يردعهم عن أداء فريضة الحج فى سنوات الفاقة فى الحجاز ، ويرفض المال الذى قدمه أقارب ثرى من اليهود بعد اغتياله ليشتروا به سلامتهم. ويروى المؤلف أن ذميا آخر كان من المسيحيين دعاه الوزير بكل كياسة ، من قبل الخليفة ، لمساعده السكان الجائعين بما لدية من مخزونات القمح ، سواء على سبيل الاعارة أو البيع ويقرر المسيحى بأنه سعيد بوضع أمواله تحت تصرف الحكومة . وهكذا نرى تعاطفا قلبيا بين الأديان سائدا فى وادى النيل أيام المستنصر ، تحت شعار المحبة للجنس البشرى ، الأمر الذى حظى دون شك بموافقة قلبية من حكيم المعرة الضرير الذى زاره الناصر فى نفس هــذه الرحلة . أما نحن فلنا أن نكون أقل تفاؤلاً بالنسبة لهذه النقطة لمعرفتنا الاوفى بتاريخ مصر الفاطمية وبتاريخ الإنسانية أيضا ولكن الأمر الذى لانزاع فيه هو أن القاهرة فى عهد المستنصر تركت فى نفس الرحالة إنطباعا بما كانت عليه من رفاهية وثراء وأمن اجتماعى ، فكان دائما يردد هذه النغمة :

وهناك مسألة كــبرى مازالت تفتقر إلى الحل منــذ عرفت بقية مؤلفات الناصر ودوره كتابع من أتباع الإسماعيلية ومروج لها فى بلاده : وإيمانه الراسخ العميق بالدعوة الفاطمية التى نادى بها حتى مماته فى جبال « بامير » الشامخة الواعرة ، فللمرء أن يتساءل لماذا لاتوجد كلمة واحدة فى « السفرنامة » ،وفى الفصل المتعلق بمصر بالذات ، عن عقيدة الفاطميين ومذهبهم وتنظيمهم ؟ و « السفرنامه » ، كما وصل إلى أيدينا على الأقل ، هو كتاب مشرب بالروح السنية ، كان لأى مسلم بعيد عن بدعة الشيعة أن يكتبه ، لأنه يشجب التعصب الشيعي فى « طبرية » الذى يحول دون زيارة المسافرين لقبر « أبي هريرة » ،

وهو إذ يتكلم عن « قرمط » البحرين ، مبديا إعجابه بتنظيمهم الإقتصادى والإجتماعى ، يصفهم بأنهم منشقون خارجون على الإسلام . ومع ذلك يرى بعض العلماء العصريين مثل « إيفانو » و « برتلز » أن اعتناق الناصر لمذهب الاسماعيلية سابق لقدومه إلى مصر الذى ثبتها فى عقيدته فحسب . وحتى لو أنه جاء إلى وادى النيل وهو سنى ، كما ظن البعض فى البداية ، وشاهد مصر الفاطمية برخائها وحسن تنظيمها مما حمله على اعتناق الإنشقاق أو سهله له ، فكيف لم يذكر كلمة واحدة عن تحوله هذا فى سرد رحلته ، وكيف تعمد أن يتجاهل مالهذه الدولة وملوكها من طابع الإنشقاق ، فتكلم عن المستنصر — وقد اقتبس اسمه فيما بعد حتى فى أشعاره الدعائية فتسمى بالمستنصر — باعتباره مجرد «سلطان» البلاد كأى عاهل آخر فى العالم الإسلامى والمعروف أن هذه المشكلة حملت أحد الباحثين على انكار تطابق شخصية مؤلف «السفرنامه» وشخصية داعية المذهب الإسماعيلى ، وأول مسئول عن ظاهرة إنقسام الشخصية هذه هو الناصر خسرو ذاته فيما كتب :

وقد حاولت فى مقال كتبته فى شبابى تعليل خلو « السفرنامه » من كل إعتراف وكل إشارة مذهبية ، بذلك الإتجاه الخاص الذى تتميز به كتب «الرحلات» من أنها لاتحتوى عموما على مناقشات عقائدية ويكتفى مؤلفوها بوصف موضوعى لما رأوه فى أسفارهم . ولست أجهل ، عند العودة إلى نفس الموضوع بعد ثلاثين عاما ، أن هناك ميلا إلى اعتبار « السفرنامة » المتاح لنا الآن ، مختصرا من المؤلف الأصلى ، حرره وهذبه أحد السنيين : هـذا افتراض كنت قد حاولت أن أفنده فى مقالى على اعتبار أن لاداعى له ، ولكن يجب الآن إعادة النظر فيه بسبب ظهور آثار مرجحة لنص آخر غير مهذب من «السفرنامه» نقلت الينا عن مؤلف فارسى عصرى ، يحتوى على تفاصيل هامة عن إقامة الناصر فى مصر (ومن ضمنها مقابلاته مع المستنصر) ، ومن المستبعد أن تكون مزيفه : وعليه

فإن احتمال أن يكون المؤلف برمته، وخاصة الفصل الخاص بمصر، قد اختصر وحذفت منه تفاصيل جارحة عن المذهب القويم، (وأن يعثر فى الشرق يوما ما على نص أكمل)، هذا الاحتمال ليس مما يجب استبعاده. ومع ذلك فإن بعض الشك قائم ويحيط بهذا المؤلف الغريب مما يثير فضولنا ولا يشبعه، فكيف نفسر أن المنقح الذى أبقى على لقب أمير المؤمنين الذى أطلقه الناصر ليس فقط على الحسين بن على جد الفاطميين، بل مرتين أيضا على خليفة القاهرة الذى دعى دائما بالسلطان؟ ومن وجهة أخرى لو أن الأمر كذلك، لسرعان ما حذف بعض الفقرات عن العلاقات بين الناصر والخليفة، وهذا لا يكفى ليعلل تماما تلك اللهجة الموضوعية الحيادية السائدة فى الكتاب كله، فيما يتعلق بالمسائل العقيدية والدينية عامة. وإنى أرى تعليلا أفضل لها فى رغبة الكاتب فى التزام قواعد المصنفات الأدبية التى تأبى عليه أن يقحم فى مشاهداته خلال رحلته، شيئا من اختباراته الشخصية كمعتنق لمذهب جديد.

وعلى أيه حال، فهذه المشكلة المتعلقة بتلك الشخصية الغامضة التى ألفت الكتاب، وبمنطق تطورها النفسى الذى يصعب تتبعه، لا تعنينا كثيرا، أن مايعنينا ليس ماتوارى عنا من طيات كتابه، أو ما لم يكن له أى وجـــود فيه، بل ما وصل إلينا منه: وهو لقاؤه بعاصمة النيل، التى تجلت فيها المدينه الإسلامية فى مصر بأبهى معانيها. أن الناصر خسرو شاهد وبسط أمام أعيننا تلك المدينة — أو بالأحرى المدينتين — اللتين سرعان ما كونتا مدينة واحدة، مثالا رائعا لحاضرة فى القرون الوسطى، زاخرة بالسكان، يعلوفيها ضجيج التجار وأرباب الحرف، مرصعة بقصور بهيجة وحدائق غناء، حيث كانت تقام احتفالات البلاط الفاطمى التى حدثنا عنها كتّاب آخرون معاصرون. ويبدو أن الناصر لم يعر الحياة الفكرية التفاتا فى العاصمة حتى بلغت أوج ازدهارها فى عهد الفاطميين: ومن الجائز أنه عالج هذه الناحية فيما حذف من اجزاء

كتابه ، إن كان هناك حذف : ولكن الأمر الذى ركز عليه والذى يسجل بالفخر للأسرة العبيدية ، دون إن ينال منه أية كراهية دينية، هو ماكانت تشعه حولها من شعور بالأمان والعدالة : إن العدالة والأمان الإجتماعى طالما راودا أحلام الإنسان ولاسيما فى البلاد المفتقرة إليها ، وكان يظن فى البلاد الإسلامية أن تحقيقها لن يكون إلا على يد رجل مختار أو مهدى مرسل من السماء ، ولكنهما مع ذلك تجسدا فى حقيقتها التاريخية ، على ضفاف النيل ، فى عهد أسرة منحدرة من مهدى منتظر « يملأ بالعدالة الأرض المليئة بالظلم » فهل من التجاوز أن نقرر بأن هذا التوفيق بين حلم لايستطيع تحقيقه إلا مهدى مرسل من السماء والواقع الذى تجلى فى المدينة التى كان يجلس على العرش فيها أحفاد المهدى الفاطمى ، هذا التوافق هو خير ثناء قدمه الناصر خسرو فى كتاب رحلته إلى خلفاء مصر الخوارج، وقد أصبح لهم فيما بعد فى وطنه داعيا ومبشرا لايعرف الكلال .

تشييد مدينة القاهرة

ك. كريزويل

ملخص

تشييد مدينة القاهرة

ك. بـ. كريزويل

ملخص

لم يأت فتح الفاطميين لمصر مصادفة بل نتج بناء على سياسة مرسومة ومدروسه من مدة طويلة ، اذ كان الفاطميون وحتى قبل تشييد مدينتهم المهدية فى تونس (فى ذى القعدة عام ٣٠٤ ه) قد احتلوا الأسكندرية لمدة ستة أشهر ، ولم تفشل حملتهم الثانية على مصر (فى عام ٣٠٦ه) إلا بفضل إمدادات عسكرية جئ بها من بغداد . كما أن الحاكم الفاطمى المعز لدين الله منذ توليه الحكم فى شوال ٣٤١ه ، كرس نفسه لاعداد حملته على مصر واهتم حتى بحفر الآبار وأقامة الاستراحات على طول الطريق الصحراوى المؤدى إلى الاسكندرية .

واذا كان تحديد عام ٣٥٨ الهجرى (الموافق ٩٦٩ الميلادى) لقيام المعز بحملته على مصر قد تم متأثراً نوعاً بتنبوءات عن قيام امبراطورية فاطمية مقبلة ، إلا أن المعز قد انحاز أساسا لرأى يعقوب بن كلس ، أحد المنشقين من القيادة المصرية — وكان منحرفا بعض الشئ — الذى كان قد فر هاربا عام ٣٥٦ه إلى المهدية وأخذ يحث المعز على انتهاز ضعف مركز مصر السياسى والاقتصادى فى ذلك الحين ، فأرسل جوهر القائد على رأس جيش قوامه ١٠٠,٠٠٠ جندى

وبعد هزيمة القوات المصرية هزيمة حاسمة فى ١٧ شعبان ٣٥٨هـ استقرت القوات الفاطمية فى منطقة تقع شمالى الفسطاط . وشرع جوهر القائد فى المساء ذاته فى وضع الأساس لقصر المعز ، إذ كانت العادات المأثورة حينذاك تحتم إقامته بعيدا عن المناطق الآهله بالمدنيين :

وكان ذلك الموقع يسمى باسم المنصورية ، وكان هذا بدون شك تشبها بعاصمة الفاطميين السابقة صبرة المنصورية خارج القيروان . أما مايروى من أن إطلاق إسم القاهرة عليها قد نتج عن تصادف مرور كوكب (قاهر الفلك) فى سماء هذه البقعة عندما نعق غراب معطياً بذلك إشاره البدء فى الحفر لإرساء الأساسات ، فهو أمر يكاد يكون أسطورة خرافية . ويرجح أن يكون إسم القاهـــرة قد أطلق على المنصورية عند قدوم المعز فى موكب النصر ودخوله المدينة بعد ذلك بحوالى أربعة أعوام . وكانت الأسوار الأصلية للمدينة —وقد أختفت هـــذه الأسوار تماما عندما تولى بدر الجمالى ثم صلاح الدين إعادة تحصين المدينة — مبنية بقوالب لفت كبر حجمها نظر المشاهدين . ويمكن اقتفاء أثر هـــذه الأسوار الأصلية وبالتفصيل بفضل شرح المقريزى لها فى كتابه «الخطط» :

ويبدوا أن قصر الخليفة — الذى كان داخل الأسوار وله عشرة أبواب واثنا عشر جناحا (قصرا) فيما يقال — قد بنى جزء منه على الأقل بالحجر . إلا أن مسجد الجامع الأزهر وهو المبنى الوحيد الباقى من العهد الفاطمى المتقدم داخل الأسوار قد بنى من الطوب المحروق . وقد بدأ فى بنائه فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ .

وقد تم الإعتراف بهذا المسجد رسمياً فى عام ٣٧٨هـ ، واحتفظ له بطابعه الأصلى باعتباره مؤســسة تعليمية ، فلم يطرأ على بنيانه أى تعديل معمارى : ويبدو من تصميمه أنه كان المثال الذى كان اتخذه الحاكم فى بناء مسجده ، رغم أنه مازال من غير الواضح تماما ما إذا كان قد اشتمل فى الأصل على بوائك فى ثلاثة من جوانب الصحن ، كما هو الحال فى المبنى القائم حالياً :

عمارة الأضرحة فى داخل مدينة القاهرة

كريستل كيسلر

ملخص



عمارة الأضرحة فى داخل مدينة القاهرة

كريستل كيسلر

ملخص

رغم مانص عليه الإسلام من منع إقامة عمائر الأضرحه ، الإ أن هـــذه العمائر قد تمت وانتشرت ، وأخذت تؤدى دوراً هاماً فى داخل مدينـــة القاهـــرة : فقد بدأت فى الظهور حين شرعت الطبقات الحاكمة فى إعداد الأضرحة لأفرادها ، أو لأسرهم ، تحت إشرافها مباشرة . وكانت تأصلت فى سوريا فى ظل حكم الأيوبيين لها ، وانتقلت إلى العاصمة فى أواخر عهدهم (انظر ضريح السلطان الصالح نجم الدين أيوب ١٢٥٠م) .

وكان الضريح يقـــام دائما فى الشارع الأساسى الذى يربط مجموعة من الأبنية بعضها ببعض ، ذلك أن الضريح كان يعد بمثابة رمزله مكانته ، ويستلزم من ثم مكاناً بارزاً . وكان الوضع الأمثل للضريح فى داخل المدينة هو أن يقام فى الجانب المواجه للكعبة . ونادراً ماكان يحدث ذلك بسبب صعوبة إيجـــاد قطعة أرض مناسبة للبناء داخل المدينة تتوفرلها – مثلما تتوفرللشارع فى نفس الوقت – مزية مواجهة الكعبة . ولابد أن الإهتمام بتحقيق مثل هذا الوضع المثالى قد أدى بالسلاطين إلى تشييد مبانيهم على الجانب الغربى من القصبة (قلاون والناصر محمد وبرقوق والمؤيد وبرسباى) .

وكان الضريح فى العادة يتجه ناحية الكعبة ، فكان يخضع من ثم إلى نفس الإجراءات المعمارية التى استهدفت تكييف الأبنية الأصيلة فى المدينة لاعتبارات تخطيط الشوارع وقد تمت بنجاح عملية معالجة التنافر الغريب فى مجال تخطيط العمائر الدينية والدنيوية ، وذلك خلال حكم المماليك الجراكسة (انظر إبن تغرى بردى ١٤٤٠ م وقيجماس ١٤٨٠ م ، وخايربك ١٥٠٢م) .

على أن الاهتمام بالجوانب الدينية كان يضعف بين الحين والحين ، وذلك لتزايد العناية بأمور تخطيط المدينة ، وبالتالى لم يتحقق للضريح توجيهه الملائم ناحية الكعبة ، مما جعله متسق مع وضع المكان المخصص للصلاة فى المسجد (انظر مجمع بيماس ١٣٣٠ م وايدو مر البهلوان قبل ١٤٦٣م وسودون القصراوى ١٤٦٨ م) : وقد جرت العادة على الاهتمام بالجوانب الملاينة الدنيوية على حساب غيرها من الجوانب ، كلما نشأ صراع أو خلاف .

تجار القاهرة الأجانب
في عهد الفاطميين والأيوبيين

كلود كاهن

ملخص



تجار القاهرة الأجانب
فى عهد الفاطميين والأيوبيين

كلود كاهن

ملخص

من المعروف جيداً أن التجار الغربيين فى القرون الأخيرة من الأجيال الوسطى كثيراً ما ترددوا على مصر ، وكانت الإسكندرية طبعا محط رحالهم ، وسرعان ما حصل معظمهم فيها على امتيازات مختلفة ، وحق الإقامة فى فنادق خاصة لكل أمة ، وكان للقاهرة أيضا مع ذلك أن تجذبهم باعتبارها مقر الحكومة والبلاط ، وأكبر مدينة فى البلاد ، إلا أن أحوالهم فيها كانت متقلبة ، فكان من حقهم دائما — إلا فى زمن الحرب — أن يأتوا إليها بصفة مؤقتة ، ولكن لم يكن لهم فى عهد الأيوبيين والمماليك أى مقر ثابت شبيه بفنادق الإسكندرية ، وعلى النقيض من ذلك فإن مراجع كثيرة ، لم يعرف أغلبها إلا أخيرا ، مثل « الجنيزة » اليهودية العربية بالقاهرة ، والمعاهدة الضريبية للمخزومى ، وحتى يوميات يحيى الأنطاكى ، تشير إلى أن الغربيين كانوا يترددون بكثرة على مصر فى عهد الفاطميين كله — أى قبل الحروب الصليبية — وأن المعاملة التى كانوا يعاملون بها ، حتى بعد الحرب الصليبية الأولى ، كانت تتسم ، ولا سيما فى القاهرة ، بتسامح لم يشاهد فيما بعد ، ومعظم الإيطاليين الذين ترددوا على مصر والقاهرة فى القرن الفاطمى الأول ،

كانوا على ما يظهر من مدينة « أمالفى » ، وكان مائتان منهم على وجه التقريب فى العاصمة المصرية فى صيف السنوات الأخيرة من القرن الرابع (الهجرى) العاشر (الميلادى) ، واحتل إيطاليو الشمال تدريجيا فيما بعد المكان الأول ، ولدينا فيما يتعلق بتجار مدينة « بيزا » وثائق مستخرجة من المحفوظات الفاطمية

ففى البداية كان الروم كافة مجموعين فى مبنى خاص أطلق عليـــه ، كما فى الاسكندرية اسم غامض هو « دار المناخ » . ثم بدأ اتجاه فى القرن السادس (الهجرى) الثانى عشر (الميلادى) نحو السماح بفنادق خاصة لكل أمة ، وعندما استقر الفرنجة فى سوريا وفلسطين ، أصبح من المتعذر التمييز بين التجار الغربيين الجديرين بالتشجيع ، والأعداء الواجب محاربتهم ، وكانت الصفتان تجتمعان أحياناً وحسب الظروف فى نفس الأشخاص :

وعندما اشتدت الحرب بين الفرنجة ومصر ، وتولى الأمور فيها صلاح الدين ، الذى كان يميل أكثر من أسلافه إلى الحرب المقدسة ، اتخذت تدابير لتقييـــد حرية تنقل التجار فى داخل البلاد ، وعليه فإن العهد الفاطمى كان من هـــذه الناحية ، ومن نواح كثـــيرة غيرها ، عصراً متسما بقسط وافر من التفتح والليبراليـــة .

زيارة الرحالة العربي الأندلسي
"الشهاب احمد الحجري" لمدينة القاهرة في القرن السابع عشر

كليليا سارتللي تشيركوا

ملخص



زيارة الرحالة العربى الأندلسى
"الشهاب أحمد الحجرى" لمدينة القاهرة فى القرن السابع عشر

كليليا سارنللى تشيركوا

ملخص

خلال إقامتى الأخيرة بالقاهرة فى أكتوبر ١٩٦٤ ، وجدت فى دار الكتب مخطوطا جذب انتباهى ، وهو كتاب « ناصر الدين ، على القوم الكافرين ، وهو السيف الأشهر على كل من كفر » ومؤلفه الشيخ الشهاب أحمد بن قاسم الحجرى الأندلسى ، ولهذا المخطوط أهمية كبرى ، فهو عمل من أعمال السير الذاتية ، مع ملاحظات للدفاع عن الإسلام إذا قورن بالمسيحية وهو لمؤلف عربى أندلسى أقام فى المغرب ثم بعثه السلطان مولاى زيدان فى مهمة إلى فرنسا وهولندا ، وبعد ذلك زار مصر وتونس .

وهذا المخطوط الموجود فى دار الكتب ، والذى يعتبر النسخة الوحيدة الكاملة المعروفة ، قد كتبه المؤلف بنفسه بخط مغربى ، وهو مفهرس تحت رقم ط ١٦٣٤ ، ويحتوى على ١٣١ ورقة (٢١ سم ١٤) وكل ورقة تحتوى على ١٧ سطراً ، وقد تم تحريره فى شهر رجب سنة ١٥١ هـ — ١٦٤١ م :

وبعد أن وجدت هذا الكتاب الذى كان يعتبر مفقوداً ، وبعد أن قمت ببعض أبحاث عن المؤلف ، استطعت إضافة بعض التفاصيل إلى ما كنا نعرفه

عنه من قبل ، فبالنسبة لمؤلفاته نجـد أن أقدمها هو « رحلة الشهاب إلى لقـاء الأحباب » ، وقد كتبه فى القاهرة ، ولم نحصل من هذه الرحلة المفقوده إلا على بعض أجزاء منها وبطريقة غير مباشرة ، أما الكتاب الثانى ويسمى « كتاب ناصر الدين » فقد نشر منه حتى اليوم أربعة فصول .

وبمناسبة ندوة تاريخ القاهرة ، فإن فى نيتى عرض انطباعات الحجرى عن هذه المدينة ، ونقل ما يقوله فى مؤلفه «كتاب ناصر الدين » عن الأشخاص الذين التقى بهم فيها .

ويقول كاتبنا معجباً بعظمة القاهرة « وتقـول النصارى إن أعظم مدن الدنيا القسطنطينية ثم هذه المدينة يريش (هكذا) ثم مدينة إشبونة ببـلاد الأندلس وكان من حقهم أن يذكروا مصر ، إلا أنهم يقولون لهـا القاهرة الكبيرة ، وإذا جمعنا مع مصر مصر العتيق (هكذا) وبولاق وقاية باى(هكذا) لم ندر من هى (هكذا) أعظم بريش أو مصر بما ذكرنا » .

ويقول فى جزء آخر من الكتاب :

« ... فأما مصر المحروسة بالله فهى من أعظم مدن الدنيا ، هى مثـل بريش بفرنصة إذا أضفنا إليها مصر العتيق (هكذا) وبولق (هكذا) ، وهى تحتوى على اثنى عشرة ألف قرية . »

ومن رواية الحجرى نعرف أيضا أنه قد أتيحت له الفرصة فى القاهرة لمعرفة علماء الأزهر ، وإقامة علاقات مع الرهبان المسيحيين ، وهذا يعـد دليلا آخر على اهتمامه الشديد بالعلاقات القائمة بين الإسلام والديانات الأخرى وهذا الإهتمام يعود إلى أصله المراكشى ، وبالذات إلى هذا الاتجاه الموجود عند المراكشيين الذى يدفعهم إلى إقامة جسر بين الإسلام والمسيحية . ...

مصر في "يوميات" مارين سانودو

ماريا ناللينو

ملخص



مصر فى "يوميات" مارين سانودو

ماريا نالينو

ملخص

فى نهاية القرن الخامس عشر، وبالذات، ابتداء من أول يناير ١٤٩٦ م بدأ نبيل من نبلاء فينيسيا، هو مارين سانودو (١٤٦٦ – ١٥٣٦ م) فى تدوين جميع الأحداث التى كانت تقع فى مدينته يوما بيوم، على قطع كبيرة من الورق. وكان سانودو – بصفته عضوا فى مجلس المدينة ثم عضوا فى مجلس شيوخ الجمهورية – لايتابع أحداث مدينته متابعة مباشرة فحسب بل يتابع الأحداث فى جميع دول أوربا وآسيا وأفريقيا، التى كانت ترتبط بها فينيسيا بعلاقات سياسية أو تجارية. أن مجرد كتابة « يوميات »، وتسجيل أحداث العالم بما كان فى ذلك الوقت بدعة منتشرة بين نبلاء فينيسيا وصحيح أنه قد عثر على يوميات مشابهة عن هذه الفترة، ولكن لاتوجد يوميات تمتاز بدقة يوميات سانودو واتساع مجال معلوماتها. أن مؤلفنا يضيف إلى البيانات التى يقدمها عن الأحداث السياسية كل أنواع المعلومات عن الحياة الاجتماعية، والحياة الثقافية، والتجارية والعادات : وهذه المعلومات تمتاز بالدقة الفائقة، لأنه لم يكن يكتفى – فى سبيل الاحتفاظ بمرجع دقيق وأمين عما كان يحدث فى أنحاء العالم فى هذه الفترة – بأن يروى الوقائع بأسلوبه هو،

بل كان يقوم بنسخ المستندات الرسمية ، والمخطوطات والروايات التى كان يرسلها سفراء فينيسيا وقناصلها لحكومة الجمهورية ، بل ينقل بخطه خطابات التجار أو الاشخاص الذين كانوا يزورون البلاد الأخرى لأى سبب من الأسباب ، ويرسلون تقارير إلى حكومتهم. ولقد استمر سانودو فى القيام بعمله هذا حتى سبتمبر ١٥٣٣م . وبعد أن قضى نحبة فى ١٥٣٦م ، أصبحت « يومياته » (وهذا هو الاسم الذى أطلق على هذا المؤلف باللغة الايطالية (ملكا للجمهورية) : والمؤلف يتكون من ٥٨ مجلداً كبيرا (٤٠,٠٠٠ صفحة مكتوبة بخط جميل واضح) تعتبر مصدراً ممتازاً قيما لدراسة تاريخ هذه الحقبة . وهذه المجلدات محفوظة فى الوقت الحاضر فى المكتبة الرسمية بفينيسيا . ولاتحتاج أهمية هذه المخطوطات إلى تأكيد. ففى بداية القرن التاسع عشر ، أثناء حروب نابليون أرسلت الحكومة النمسوية النسخة الأصلية من هذه « اليوميات » إلى مدينة فيينيسيا ، ولم تعد إلى مكتبة فينسيا إلا بعد حرب ١٨٦٦ : ومع ذلك فقد قام أحد سكان فينسيا بكتابة نسخة من « اليوميات » فى عام ١٧٨٤ م ، أحتفظ بها فى فينسيا أثناء غياب النسخة الاصلية : وطبعت « اليوميات » فى فينسيا فى الفترة ما بين عام ١٨٧٩ ، ١٩٠٣ م ، فى ٥٨ مجلدا ضخما على عامودين : ونفدت هذه الطبعة ، مما جعل حكومة فينسيا تفكر فى طبع نسخة مصورة منها ؛

وفيما يتعلق بتاريخ مصر فى نهاية عهد المماليك وبداية العهد العثمانى ، فإن « يوميات » سانودو تعتبر مصدراً من الدرجة الأولى : فاليوميات تبدأ كما سبق أن ذكرت فى أول يناير ١٤٩٦ ، أى قبل أشهر قليلة من وفاة السلطان قايتباى (٧ أغسطس ١٤٩٦) . وبالفعل ، فقد أورد مؤلفنا ، فى شهر أغسطس من هذا العام ، خطابا كتبه قنصل فينسيا فى الإسكندرية فى ٢٦ مايو : وفى هذا الخطاب نرى القنصل يحيط حكومته علما بمرض السلطان وبعزمه على أن

بجعل الرعية تعترف بابنـه الشاب محمـد خليفة له : وتستمر « اليوميات » فى وصف أخبار موت قايتباى ، وتقدم معلومات مفصلة ودقيقة جدا عن الفترة الصاخبة التى تمتد من تاريخ موت قايتباى حتى ارتقاء قنصوه الغورى عرش السلطنة فى ابريل ١٥٠١ ، تلك الفترة التى توالى فيها على عرش السلطنة أربعة من السلاطين . أما الحديث عن السنوات الخمس عشرة التى استغرقها حكم قنصوه الغورى ، وهى فترة هامة بالذات فيما يتعلق بعلاقات فينسيا ، فان سانودو يقدم عنها معلومات مفصلة ، كما يقدم معلومات مماثلة بشأن الفترة التى استغرقها حكم السلطان طومان باى . كما يذكر الكثير عن الغزو التركى (١٥١٧م) ، وعن السنوات الأولى من الحكم العثمانى :

إن فى نيتى أن أعنى عناية فائقة بالجزء الذى خصصه سانودو فى « يومياته» لتاريخ مصر ، وأن أقوم بمقارنة ما كتبه المؤرخ الفينيسى النبيل مع مادونه المؤرخون العرب ، ولاسيما ابن أياس ومحمد بن طولون، عن نفس هـذه الفترة . ولقـد نشرت مقالة أولى عن الفترة التى تمتـد من موت السلطان قايتباى حتى ارتقاء قنصوه الغورى عرش السلطنة فى عام ١٥٠١م.وظهرت هذه المقالة فى عام ١٩٦٥ فى « تحقيقات » اكاديمية دبى لينشيى ، بروما :

دلائل على وجود علاقات بين المغول والمماليك

مايكل روجرز

ملخص

دلائل على وجود علاقات بين المغول والمماليك

(١٢٦٠ – ١٣٦٠)

مايكل روجرز

ملخص

منذ قبيل معركة عين جالوت (١٢٥٩) حتى انصرام وقت طويل بعد هدنة حلب (١٣٢٢) ، كانت العلاقات السياسية والدبلوماسية بين المماليك والمغول فى أشد حالات توترها . فقد كانت هناك فترة من الحروب استمرت زهاء ستين عاما ، تلتها فترة أخرى كان الطرفان فيها يحتملان بعضهما بعضاً على كره منهما . وفى نفس هذا الوقت ظهر بين المماليك البحرية فى مصر وسوريا ميل إلى الفن المغولى ، وعلى الأخص إلى الفن ذى الطابع الصينى (بعد عام ١٣٢٧) : وقد كان لهذا الميل غلبة كبيرة ، وهو أمر يبعث على الدهشة ، خصوصا إذا علمنا أن المعايير الفنية الإيرانية فى مجال الزخارف المعمارية قد أهملت . وتتضح هذه الصلة إذا تدبرنا بإمعان أربعة أعمال فنية هى مصحف أو لجايتو (مصر حول ١٣٢٦)، ومحراب مدرسة الناصر محمد بالقاهرة (تم فى ١٣٠٣)، وحوض فاسلوا (مصر أوسوريا ١٢٩٠ – ١٣١٠)، والصورة التى تتصدر مخطوط مقامات الحريرى فى ڤينا (ربما نقشت بمصر،

١٣٣٤) ، فضلا عما نتوصل إليه من دلائل إذا تأملنا التحف الخزفية التى ظهرت فى العصر المملوكى .

وتدل الأسانيد الأدبية والأثرية معاً على أنه من غير المحتمل أن يكون ميل المماليك إلى الفن المغولى قد استلهم كلية مما كان يرد من بلاد الصين إبان حكم أسرة يوان، ذلك أن حجم البلاد الصينية كان محدوداً، ولا يمكن أن يفسر محاكاة المماليك للتحف المغولية غير المطبوعة بالطابع الصينى ، وخصوصا للقطع الخزفية التى ظهرت فى سلطان أباد . والرأى السائد أن غالبية النماذج الفنية ذات الطابع المغولى (بل والنماذج الصينية أيضا فيما يحتمل) وقد وصلت إلى مصر عن طريق التجمعات القبلية وموانى منطقة القرم المتصلة بها. ولكن هذه الموانى كانت بمثابة منافذ للعبور ، تمر فيها تجارة أوربا مع إيران . أما واردات المماليك من هذه المنطقة فقد اقتصرت على المواد الخام والأطعمة والفراء والعبيد ، ولم تكن إيران مصدراً لأى من هذه السلع .ويميل أسهل الفروض إلى الإيحاء بوجود طريق مباشر للتجارة بين إيران ومصر ، حيث أن الطريق البرى الذى يمر من العراق إلى سوريا قد ظل مفتوحا طوال فترة الحرب بين الدولتين . غير أنه كان يمكن سواء للاجئين أو الهدايا الشخصية أن تؤدى دوراً كبيراً فى عملية النقل؛ ولا يهمنا من ثم إلا القول بأن التجار المصريين الذين كانوا من وجهة نظر المغول يتمتعون بمنزلة السفراء ، قد أفادوا أكبر الفائدة من مركزهم الممتاز فى إطار المناطق الواقعة تحت حكم المغول . وليس من المدهش — كما قد يبدو لأول وهلة — أن يحدث هذا التطور فى ظل المنافسة السياسية والدينية العنيفة : بل إن هذا التطور يعتبر فى واقع الأمر جزءاً من النهضة الثقافية فى مصر إبان القرن الرابع عشر ، تلك النهضة التى يعتبر من معالمها نمو علمى الجغرافيا ومسح الأراضى ، كعلمين تجريبيين . وينعكس هذا الأمر ضمن ما ينعكس ،على تزايد الوعى بالفن والعمارة خارج نطاق الأراضى الخاضعة لسيطرة المماليك ، وتلك ظاهرة تعتبر من نواح عدة شيئا فريداً فى تاريخ الإسلام .

إسهام الفاطميين في الفلسفة الإسلامية

محجوب بن ميلاد

إسهام الفاطميين في الفلسفة الإسلامية

د. محجوب بن ميلاد

ليس من الهين — على الباحث المعاصر — أن يتجرد — فى هذا الزمن المضطرب الصاخب العنيف — للحديث عن حقيقة الإسهام الذى كان إسهام الفاطميين فى آفاق الفلسفة الإسلامية ، فالفلسفة الدينيـــة الباطنية التى كانت عماد حركتهم أثناء دعوتهم السرية ، وعماد دولتهم أثناء اضطلاعهم بأعباء الحكم وشؤون السياسة ، أثارت من أصداء الجـــدل المحتدم ، وسط عالم إسلامى ، تصدعت أركانه ، وتبعثرت أوصاله ، وتشتتت أحلامه ، وتعـــددت نزعاته وتباينت فرقه :

وليس يمكن لهذا الباحث المعاصر أن يحرر فى شأن تلك الفلسفة الدينية الباطنية من دون أن يجد نفسه مضطر اضطراراً إلى أن يثير أهم القضايا التى هى قضايا الدين وقضايا الفلسفة ، فيما للدين وفيما للفلسفة من طابع الطرافة فى العناية بتخصيص « منزلة الإنسان » فى هذا الوجود ، وبتقنين شروط نجاحه وإخفاقه ، وخذلانه ، ونجاته وخسرانه ، سواء كان ذلك فى صعيد الأفراد ، أو فى صعيد الجماعات :

لا ولا يمكن — كذلك — للباحث المعاصر أن يطمع فى إنصاف الفاطميين وفى إنصاف محاولتهم الدينية الفلسفية ، فى نطاق الأجواء الإسلامية ما لم يعتبر

– جملة قبل التفصيل – جنس « المغامرة » التي كانت مغامرة العقول الاسلامية أثناء معالجتها قضايا التنزيل، وقضايا الفكر، وقضايا المصير الإنساني في كنف اطراد «المجهود الحضاري الاسلامي» عن طريق شتى المحاولات ، وشتى التحسسات ، وبالرغم مما كان لاينفك يهزه من المحن والرزايا والانقلابات :

إن « الرصيد المعنوي » العتيد الذي كهرب الطبيعة العربية فهزها ، وحرك أشواقها وألهب عزمها، وفجر ينابيع صدقها، ودعاها إلى الخروج من فوضى المشاعر الجاهلية وضعه أهدافها، وفسولة اضطرابها إلى سعة آفاق الحق ، وباندفاعات الضمير الحي في سبيل الخير ، وسحر جمال الوجود في إعجاز توليده إنما هو« نورالتنزيل » في اشعاعه من خلال آي القرآن الكريم أولا ، ومن خلال أحاديث النبي العربي ثانياً ، ومن خلال البطولة المعجزة التي صرفت شؤون الدعوة حتى جاء نصرالله ، فتم توحيد الصفوف العربية الإسلامية ، وتم تأسيس المجتمع الإسلامي الجديد على دعامة « عزم التقوى » :

إلا أن العقول الإسلامية سرعان ما نبهتها « الفتنة الكبرى – تنبيه الصدمة العنيفه – إلا أن إخلاصها لأنوار التـنزيل ، لايمكن أن يكون الإخلاص الحي البصـير ، إلا إذا ما وفقت إلى أن « تهضم » أسرار قيمـه ، وأصوله ، وغاياته القصـوى » .

وللحادث التاريخي الحاسم الذي زادها شعورا بضرورة ذلك « الهضم » إنما كان اكتشاف المسلمين الفاتحين لمنطق يونان ، ولفلسفة يونان ، ولأعلام الفكر ببلاد اليونان :

وإن أنت أجلت نظرك اليقظان ، في النشاط العقلي المـدهش الذي حرك الأجواء الإسلامية – وتشارك فيه – العرب والعجم جميعهم – مابين عهد الفتوحات الإسلامية والقرن الرابع الهجري قبيل ظهور الدولة الفاطمية على

مسرح السياسة الإسلامية أدركت أن كل التيارات العقلية التى تمخض عنها ذلك النشاط العقلى الخصيب، إنما كانت ترمى – على تفاوتها فى الحظوظ ، وتنوعها فى المقاصد والأغراض – إلى هدف واحد : التعمق أكثر فى فهم أسرار التنزيل، حتى يتيسر على العقول الإسلامية أن تهضم قيمه، وأصوله، وغاياته القصوى هضما أزكى فأزكى، وأشمل فأشمل . . :

وهل يخفى على اللبيب أن اللغويين فى تدوينهم اللغة ،وأن النحاة فى تقنينهم قوانين النحو والصرف، وأن المتكلمين فى ضروب كلامهم، وأن الفقهاء فى تحريرهم المذاهب، وأن الأصوليين فى تأصيلهم أصول الفقه، وأن المحدثين فى جمعهم الأحاديث ، وأن المؤرخين فى اقتفائهم آثار السيرة والغزوات النبوية، وأن الزهاد فى زهدهم ، وأن المتصوفين فى خوضهم تجارب تصوفهم، وأن الفلاسفة فى نشاطهم الخلاق ماكانوا إلا يمدوا العقول الاسلامية بالآلات الضرورية التى تصقل معادنها ، وتشحذ قرائحها ، وتلطف حاساتها ، وتوسع آفاقها ، فيتسنى لها – بفضل ذلك – أن تصبح « مخابر عقلية »تنعكس فيها – باتم معنى الكلمة – أسرار التنزيل فتهتدى بهديه – وتهدى – على بصيرة .

وبالرغم مما تشعر به تلك التيارات العقلية على اختلافها من شعارات الكلام أو التصوف أو التفلسف، وبالرغم من تداخلها بعضها فى بعض ، وحتى تأثرها بعضها ببعض، ومن تجارب بعضهامع بعض، فهى جميعها تطالب – فى صدق لاشك فيه ذو صدق – بكونها تخلص دون سواها لعين المبادئ . ولعين المصادر الروحية فى جلبة مجهود واحد :

ولست أعنى من وراء هذا أن الباحث المعاصر مطالب بأن يصدق دعاوى أصحاب تلك التيارات العقلية على اختلافها فى سبيل الاجتهاد، وعلى تباينها فى فهم التنزيل وأسراره ؛

وإنما أعنى أنه مطالب بألا يصدر حكمه لها أو عليها إلا بالاعتماد على البحث النزية الذى يرمى — عرض الحائط — ما ألصقه بعضهم ببعض من شتى التهم، مالم يظهر من وراء التحقيق النزيه صحة التهم المحررة :

وليس من شك عندى فى أن الباحث المعاصر الذى يشرف على قمـة لهذه القمة أحرى بأن يشعر — شعور الصـدق اللاهب — بخطورة الإسهام الذى كان إسهام الفاطميين فى أجواء الفلسفة الإسلامية :

هو — على أى حال — حرى بأن يؤكد أن الفاطميين الذين يعرضون على محك نقـده النزيه « رسائل اخوان الجامعة » أو كتاب « راحة العقل للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى » أوكتابى « دعائم الإسلام » و«أساس التأويل للقاضى النعمان القيروانى » لايقلون جهـداً، وإخلاصاً، وزكاة انفاس عن المعـتزلة الذين يعرضون عليـه كتاب « المغنى فى أبواب التوحيد والعـدل » للقاضى أبى الحسن عبد الجبار أو عن السينين الذين يعرضون عليه كتاب « احياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى :

فهذه الكتب جميعها حرية بأن تعرض فى « حلبة رهان الفكر الإسلامى » الشغوف باقتناص أسرار التنزيل، الميال إلى التحديق فى حقيقة أبعاده، الغيور على مصير المجتمع الإسلامى فى سـلامة أركانه، ونور قيمـه، ويمن نظامه فى كنف أشواق الضمير، الذى لاتأخذه فى الحق لومة لائم، مثلما كانت الدولة الأموية، والدولة العباسية، والدولة الفاطمية، حرية بأن تتنافس فى حلبة التاريخ، بما حققته فى صعيد المجهود الحضارى الإسلامى :

ولئن كان حق الباحث المعاصر الذى عرضت على محك نقده النزيه تلك الكتب أن يبدى فى شأنها ما شاء إخلاصه أن يبـديه من ضروب الاحتراز — فأى مجهود بشرى ليس عرضة إلى النقد من بعض جوانبه؟ — فما عليه الا أن

يبذل مابذله أصحاب تلك الكتب من صنوف الجهـد ، والصبر على البحث والانقطاع لأعباء مسوءليات الفكر ، فى كنف ماكان لهم من أصالة الثقافة الدينية ، والفلسفية ، والعلمية فى آن واحد .

وإنى إذ أقول إنما أعنى من ورائه أنه لم يعد فى إمكاننا أن نحصر الحديث عن الفلسفة الباطنية ؛ وعن جنس الأسهام الذى كان إسهام الفاطميين فى أجواء الفلسفة الأسلامية فيما ورثناه عن خصوم الفاطميين من شتى التهم ، وصنوف التحامل ، لاو لايمكن لنا أن نقنع بماتقنع به بعض العقول من أنماط الحمل المقتضبة ، والأحكام المتسرعة أو المغرضة التى يراد بها — بداهة — التشنيع أو التبديع ببعض مبادئ الباطنية ، كالقول بعصمة الإمام ، أو القول بالباطن والإغراق فى القول بالباطن . فبعضهم قد ينهى به الأمر إلى درجة أن يختلق التهم اختلاقا على نحو ما كان من البغدادى الذى أكد فى كتاب « الفرق » أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التى يتأولون عليهـا القرآن والسنة . وهو لايكتفى بهذا بل يزيد : « أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم من مضرة الدهرية وأصناف الكفرة عليهـم » .

فما تم نشره — فى العقود الأخيرة — من الآثار الباطنية التى كانت مخفية فلا يطلع عليها الا اهلها — يمكننا من الجزم بان الفلسفة الباطنية فى حقيقتها غير التى يندر بها البغدادى بهذا العنف ويتحامل عليها هذا التحامل الفاحش الغريب الذى يفسد العقول

هى فلسفة جاهزة تتطلب مستوى عقليا رفيعا غير مستوى العصبية التى لايعرف لحرج الضمير رسما ولا للحق ظلا ،

ولما كان يستحيل علي — في هذا الحديث — أن استعرض — من خلال تلك الكتب — اجزاء ذلك الجهاز الفلسفي الدقيق التركيب ، المحكم السباك والبناء من الناحية الفلسفية الفنية الصرف ، المتعدد الجوانب والمستويات أجد نفسي مضطراً إضطراراً إلى أن أكتفي ببعض الاعتبارات العامة حتى نبين بعض الملامح الحقيقية التي هي ملامح الباطنية الفاطمية . وعسى أن تعيننا تلك الإعتبارات على إنقاذ تلك الفلسفة الباطنية وأصحابها من الأجواء المتعفنة التي إرادتها لها ولهم عصبية البغدادي وأمثاله ممن ترى « التقوى » لديهم تتخذ من الغيرة على الدين ذريعة لترويج شتى الأنظار القاصرة أو المغرضة فترتكب بذلك — عن علم أو عن غير علم صنوفا من الإثم والعدوان وتخلق ألوانا من الأفاك والبهتان وتعتبر كل ذلك احتسابا .

إن الباحث في شؤون الباطنية ، المحلل لحقيقة أمرها ، الراغب في أمانة التخصيص ونزاهة الحكم مضطر اضطرارا إلى أن يفصل بين وجوه ثلاثة تطالعنا بها :

فهي تبدو — أولا — كحركة سياسية ثورية ،

وهي تبدو — ثانيا — كحركة دينية فلسفية ،

وهي تبدو — ثالثا — كنظرة تربوية شاملة .

أما من حيث هي حركة سياسية فيجب اعتبار الباطنية الفاطمية حركة ثورية محكمة التنظيم ، تعتمد أسرار النشاط السري وتلجأ إلى جميع وسائله . وتمتد شبكات دعايتها بمختلف الممالك الاسلامية شرقا وغربا ، وتبلغ الحيوية والجرأة وسعة النطاق مالم يعهده الشيعة من قبل .

وهي حركة تصدت بعزم للقضاء على النظام العباسي المتصدع الأركان لبناء نظام جديد يخلفه . وليكن من المستبعد أن تعتبر أن زعماء الحركة كانوا

يحلمون بتوحيد صفوف العالم الاسلامى كله تحت راية أهل البيت وفى كنف الإخلاص لأهل البيت :

وهى حركة نزعتها المثالية اللاهية لامراء فيها ولاجدال .

ومما يزيد هذه النزعة المثالية لهبا أن كان قادة الحركة يعتبرون الدولة العباسية « دولة الشر » ويعتبرون الدولة التى ينشدونها «دولة الخير » .

وانك لتشعر — عنيف الشعور — بكل ذلك عندما تطالع الكتب التى اعتمدتها الحركة من الناحية المذهبية .

جاء فى رسائل اخوان الصفاء تبشيرا بتقلص دولة الشر وبشروق شمس دولة الخير :

« واعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدئ . ولها غاية اليها ترتقى ، وحد اليه تنتهى واذا بلغت إلى أقصى مدى غايتها ومنتهى نهايتها ، أخذت فى الإنحطاط والنقصان وبدأ فى أهلها الشؤم والخذلان وفى الاخرى القوة والنشاط والظهور والانبساط . .

فهكذا حكم أهل الزمان فى دولة الخير ودولة الشر : . .

واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون فى بلد ويتفقون على رأى ودين واحد ومذهب واحد . ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدابيرهم وفيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة ، لا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضا [1] .

(١) راجع : رسائل إخوان الصفا ، الجزء ١١ ص ١٨٦ ، مطبعة دار صادر — دار بيروت .

وأن أنت أردت الأعراب عن كل هـذا بالمصطلح السياسى اليونانى قلت انهم ينشدون بناء « المدينة الفاضلة » أو المجتمع الفاضل :

وأنى — شخصيا — لأرى أن الطف إشارة إلى هذا المعنى إنما هى فيما كان من أمر الداعى الفاطمى أحمد حميد الدين الكرمانى اذ جعل كتابه «راحة العقل» لامبوبا بابا بابا ولا مفصلا فصلا فصلا على عادة الكتب فى التبويب والتفصيل بل جعله ذا أسوار وذا مشارع فإنه أراد أن يكون كتابه المشتمل على زبدة عقيدته الدينية الفلسفية « رمزا » للمدينة الفاضلة التى يغازلها : منيعة بعزة أسوارها ، حية خصيبة بحيوية مشارعها وخصبها :

وعزتها وحيويتها وخصبها فى عزة مثلها العليا وفى حيوتها وخصبها .

وأن كنت لاتكتفى بالإشارة الرمزية اللطيفة فاردت العبارة الصريحة أحلتك على « الرسالة الجامعة » من رسائل اخوان الصفاء . جاء فيها .« ذكرنا أنا نبنى مدينة روحانية فاضلة شريفة ويكون بناء هذه المدنية فى مملكة صاحب الناموس الأكبر الذى يملك النفوس والاجساد (١) :

ولكن ماهذه المدينة الفاضلة ومن صاحب الناموس الأكبر الذى سيملك الاجساد والنفوس ؟

وهذا يسلمنا إلى الوجه الثانى الذى تطالعنا به الباطنية الفاطمية باعتبارها حركة فلسفية دينية .

وليس من شك فى أن القضية لمن أخطر القضايا ناهيك أنها قضية الفكر فى الوجود وقضية المكانة الحيوية التى هى مكانة الفكر فى الوجود : : :

(١) راجع : الرسائل الجامعة ، الجزء الثانى ، ص ٣٧٢ ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

فما النظرة الفكرية التى ستحيي النفوس فتلهب العزائم وتفجر طاقات الصدق والأخلاق فى الأفراد والجماعات ؟ كيف توحيد الصفوف فى كنف المجتمع وكيف رفع الهمم فيه إلى مستوى الضمائر التى لا تأخذها فى الله لومة لائم ؟

اين سبل العزم الخلاق ؟

وانه يمكن لك أن تخصص الباطنية الفاطمية من حيث هى حركة فلسفية دينية ويمكن أن تخصص الأجوبة القصوى التى حظيت بها لدى أصحابها مثل هـذة الاسئلة المرهقة عن طريقين اثنين : أحدهما سلبي والآخر ايجابى .

اما من الناحية السلبية فانه يمكن لك أن تجزم بأن الباطنية الفاطمية تفجرت عن ازورار عميق من اصحاب الكلام والجدل والمناظرات ومن زخارف الفاظهم التى لاتعقل المعانىالصحيحة لاعتمادها فى تفكيرها على منطق صورى ادبر الواقع وتجنب سبكة . . .

فالحروب الكلامية والجدالية التى كانت لاتنفك تجرى بين النحل الإسلامية على اختلافها المدهش فى الأصول وفى الفروع لم تكن عندهم الحركة المحبية ولا كان هدفها الأقصى الكشف عن الحق الموحد بل كان يراد منها حب الظهور وطلب الرئاسة والقضاء على الخصوم مهما كانوا . . . ولذلك كان زعماء الباطنية يعتبرون أهل الكلام والجدل والمناظرات « جهالا » «علماء» . بل هم يذهبون إلى أبعد من هذا فيعتبرونهم أصحاب « فتنة العقول» لا أصحاب تأليف القلوب وأنه ليطول بنا الحديث لوأردنا أن نستعرض لك اقوالهم فى هذا الصعيد .

جاء فى كتاب « دعائم الإسلام » لأبى حنيفة النعمان بن حيون القيروانى عمدة الباطنية فى الفقه — هذه الشكوى المرة : « لمـــا كثرت الدعاوى والآراء واختلفت المذاهب والأهواء ، واخترعت الأقاويل اختراعا ، وصارت الأمة فرقاً وأشياعاً ، ودثر أكثر السنن فانقطع ، ونجم حادث البدع وارتفــع ، واتخذت كل فرقة من فرق الضلال رئيساً لها من الجهال ، فاستحلت بقـــوله الحرام ، وحرمت به الحلال تقليداً له ، واتباعاً لأمره ، بغير برهان من كتاب ولا سنة ، ولا بإجماع جاء من الأئمة ، والأمة تذكرنا عند ذلك قول رسول الله « لتسلكن سبل الأمم ممن كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »(١) :

ونذكر هذه الشكوى المرة التى رفعها القاضى النعمان القيروانى فتتردد فى أذهاننا أصداء هجمات إخوان الصفاء على أصحاب الجدل ، وبالمناظرات بألفاظ مماثلة نظراً إلى أنهم « أوقعوا الخلاف والمنازعة فى الأمة ، فتفــرقت وتحزبت ، ووقعت بينها العداوة والبغضاء أبداً ، وصاروا إلى الفتن والحروب واستحل بعضهم دماء بعض »(٢) :

ولنلاحظ أن النصر الذى أبطله الباطنية هو هذه الثرثرة الجـــدلية التى لا تقتنص الحقائق لا النصر مطلقاً ، ولنلاحظ كذلك أن الغزالى ســـيعرب فيما بعد عن عين الشكوى المرة بألفاظ متشابهة ، وسينظم على المتكلمين هجمات أعنف وأشد وأوسع نطاقاً : : أليس هو القائل فى كتاب « إحيـــاء علوم الدين » : « استغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظـــه

(١) راجع : القاضى النعمان القيروانى ، دعائم الإسلام . الجزء الأول ، ص ١ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥١ .

(٢) راجع : رسائل إخوان الصفاء ج ٧ ص ١٥٣ — دار صادر — دار بيروت .

مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلى فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغاه ، أو جدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام » .

هذا فيما يخص الباطنية الفاطمية من الناحية السلبية .

أما إذا ما رمت أن تخصها إيجاباً فإنه يمكن لك أن تجزم بأنها محاولة فريدة فى تاريخ التفكير الإسلامى ، ، باعتبار أنها أرادت أن تذيب فى « بوتقـة واحدة » ما أفادته .

أولا : من التأمل فى آى القرآن الكريم ، وما غاصت عليه من أسراره ، مع ما أفادته :

ثانياً : من التأمل فى الإنتاج الفلسفى ، سواء أكان إنتـاجاً يونانيا ، أو إنتاجاً إسلاميا مع ما أفادته :

ثالثا : من التأمل فى الوجود وفى الموجودات ، وفى التجربة الإنسانية ، حتى تكون لنا « نظرة شاملة » :

وبالرغم من أن هنالك — من الناحية الفلسفية — بعض التباين بين أسلوب القاضى النعمان القيروانى وأسلوب إخوان الصفاء فى رسائلهم ، وأسـلوب الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى فى كتابه « راحة العقل » فالهدف يبقى واحدا ، وأنه ليجد أشمل عبارته وأبينها وأروعها من الناحية الفنية الصرف فى كتاب « راحة العقل » . ولم يخطئ الباطنية إذ اعتبروا هذا الكتاب أسمى قمه بلغها إنتاجهم الدينى الفلسفى :

أما ذلك الهدف إناك تعرب عنه دقيق الإعراب عندما تؤكـد أنهم يريدون الإنتهاء إلى تخصيص « المنزلة الإنسانية » أشمل من وراء الحقائق التى أثبتها الحكمة اليونانية والحكمة القرآنية ، مادامت الحكمة اليونانية والحكمة القرآنية تتعلقان. كلتاهما بتبليغ الإنسان كما له فى الحقيقة حتى تكون حيـاته حياة الفوز الأكبر ، لا الخسران المبين .

ولـمـا كان الفلاسفة القدامى يعتبرون الإنسان « مختصراً » للعالم ، فكان الإنسان عالمـا صغيراً ، والعـالم إنساناً كبيرا رأيت الباطنية يعربون عن الحقائق التى ينتهون إليهامن وراء تأملاتهم وعن طريق تجربة هى أقرب إلى التجربة الصوفية منها إلى النظر الصرف بثلاث عبارات متوازية أو بثلاث ترجمات : أولاهما قرآنية وثانيتها فلسفية وثالثها حقيقية كونية .

وهذا يستند — طبعا — إلى نظرية تسمى إصطلاحا : « نظرية المثـل والممثول » .

وهل أنا فى حاجة إلى أن أشير إلى أنهم لا ينتهون إلى ذلك إلا عن طريق أسلوبهم فى « التأويل » ، أو عن طريق فهمهم الباطن والظاهر .

وليس من شك فى أن لفظ « التأويل » من أهم إصطلاحات الفلسـفة الباطنية ، بل قل إنه« مفتاح » هذه الفلسفة ، بل قل إنه « المحرك » الذى يرجع إليه « حيوية » نشاطهم العقلى ، فيه يتجاوزون الظاهر فينفذون إلى البـاطن ، هو بالضبط « أداة الكشف » عن أسرار الأمور سواء أكنا فى صعيد آى القرآن الكريم ، أو فى صعيد الوجود والموجودات .

وليس من شك — كذلك — فى أن أعنف الهجمات التى منوا بها من قبل خصومهم أتتهم من هذه الناحية .

وبدهى أن هذا الحديث لا يمكن أن يتسع لتحليل مذهب الباطنية فى التأويل التحليلى الفنى الشامل الدقيق ، فقضية التأويل عند الباطنية حرية بأن تفرد بدراسة ضافية مستقلة :

إلا أنه من الضرورى أن نشير — مجرد الإشارة — إلى بعض خصائص « التأويل الباطنى » .

وأولا فيجب علينا — فللحق أوامره — أن نؤكد أن محاولتهم من أجرأ المحاولات التى حاولها المفكرون الإسلاميون فى ميدان الغوص على أسرار التنزيل، وبها كان نظرهم — كما أسلفنا — إلى التجربة الصوفية أقرب منه إلى النظر الصرف ، وهى محاولة ما كان لأصحابها أن يضطلعوا بها ، لو لم ينتفعوا بكل البحوث التى تقدمتهم ،سواء أكان ذلك فى ميدان الكلام ، أو فى ميدان الفلسفة ، أو فى ميدان التصوف ، أو فى ميدان التفسير ، وسواء أكانت تلك البحوث السابقة إنتهت إلى نتائج إيجابية ، أو إلى مآزق :

هى على أى حال محاولة تخطو بالبحوث فى شأن أسرار التنزيل خطوة جديدة حاسمة ، ناهيك أنها تعدل عن أسلوب التفسير الذى يكتفى بالإعتماد على شرح الألفاظ شرحاً لغوياً ،أو بإعراب الألفاظ والآيات من دون محاولة الغوص على « المعنى الكلى »، ولئن كانت هذه الطريقة التى يعتمدها المفسرون لها فوائدها التى لاتنكر وفيها الكفاية، أو ما يشبه الكفاية فيما يخص المحكم من القرآن ، فما أبعدها عن إشباع حاجة العقول فيما يخص المتشابه ، هى على أى حال لا تفى بإرضاء الأشواق الفلسفية الأصيلة ، وليس فى إمكان الفيلسوف أن يقف من المتشابه موقفاً إلا انكفانا معتصما بقول بعضهم : « المتشابة هو ما استأثر الله بعلمه » ، فما دام الكتاب العزيز كتاب هدى ورحمة ، فحرى بذوى القلوب الواعية الطامحة ألا تدخروسعاً أو جهداً فى سبيل تصيد أسرار التنزيل فى محكمه وفى متشابهه :

وللفن الباطنى الفاطمى الذى هو حرى بأن يفتح آفاقاً جديدة لفهمنا أسرار التنزيل — وقد يكون للصوفية وللتجربة الصوفية يد ، أى يد فى هذا الفتح — إنما هو فى إنتباه الباطنية إلى أن « متشابه القرآن هو — بالضبط — معجز التخصيص لمتشابه الوجود والموجودات فى تصورها الساحر :

لذلك ترى الباطنية يستعملون لفظ « التأويل » فى معناه الأصلى ، أعنى العاقبة ، وإن دل اللفظ على العاقبة دل على« الحركة » أو على التصور من عاجل إلى آجل ، ومن بداية إلى نهاية ، ومن ظاهر إلى باطن ، ودل على الناموس الذى يربط بين تلك الحقائق فى إنفعالها بعضها عن بعض وفى إتصالها بعضها ببعض فى كنف معجز التشابه :

ولئن أمكن للباطنية أن يمدونا بفلسفة — عن طريق هذا التأويل — تشير إلى « التجربة الإنسانية » فى أخص خصائص تطوراتها ، فتكشف عن ناموس أضدادها وناموس تأرجحها بين الخير والشر ، والقوة والضعف ، والوحدة والإنقسام ، والإنحطاط والرقى ، أليس حرياً بها أن تشيد « مدينة فاضلة » دستورها دستور « الناموس » الذى هو دستور« الحلم المجنح » الذى لا ينفك يلهب الواقع ، ويرفعه إلى المنازل العلوية :

هى البطولة الروحية تنشر لواءها على أساس البصر بالواقع وبتطوراته :

وليس من شك فى أن مثلا أعلى كهذا ليفرض على أصحابه الشعور العنيف بأن تحقيقه ليس بالأمر الهين ، فما عسى أن تكون الآلة التى سيستعملونها فى سبيل هذا التحقيق ؟ :

وهذا يسلمنا إلى الوجه الأخير الذى تطالعنا به الباطنية من حيث هى نظرة تربوية شاملة أساسها البصر الدقيق بأصول التربية وبأسرارها ، وتحسن إستقلالها لغرس « القيم الجديدة » التى هى قيمها فى المجتمع الإسلامى الجديد : فالباطنية

من هذه الناحية تريد أن تضطلع بالضبط بعين المهمة التى تصدى لهـا أهل السنة، وانتهوا إلى الاضطلاع بها على أساس النظرة الشاملة التى سبكها أبو حامد الغزالى من خلال صفحات إحياء علوم الدين .

وبدهى أن هذا الحديث ليس يمكن أن يتسع لتحليل مفصل لأنظارهم التربوية ، ولخبرتهم الجلية بأسرارها .

إلا أنه يجب علينا أن ننـــوه بالمجهودات الجبارة التى بذلوها فى ميدان الدعاية السرية أولا ، وفى الميـــدان الجامعى ثانيا، وفى تنظيم دور الحكمـــة وتجهيزها بالمكتبات الضخمة ثالثا .

وإن الناظر فى تدريجهـــم درجات رعايتهم وتبويبهم رسائلهـــم تبويبا يتدرج بالعقول من الرسائل التعليمية إلى الرسائل الجسمانية الطبيعية إلى الرسائل النفسانية العقلية إلى الرسائل النا موسية الإلهية لينتبه إلى أنهم لم يراعوا ذلك التدريج لامتحان المستجيبين وصيانة أسرارهم فحسب، بل أيضا بالخصوص لشعورهم العنيف بأسرار نضج العقول ، فكانوا يعرجون بها شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ كمال اقتدارها على تصريف ألوان نشاطها وصنوف ملكاتها : واعية ، مميزة، رشيدة وتجمع بين عزة العلم ، وعزة الضمير ، وعزة العمل فى كنف أشمل نظرة .

وقد تكون أبلغ عبارة عن جنس البشرية التى يطمحون إلى تحقيقها هذه النصيحة التى جاءت ببعض رسائل إخوان الصفا .

« ينبغى لإخواننا ، أيدهم الله تعالى ، أن لا يعادوا علما من العـــلوم ، أو يهجروا كتاباً من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن

رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها ، وذلك أنه النظر فى جميع الموجودات بأسرها الجسمية والعقلية من أولها إلى آخرها ، ظاهرها وباطنها ، جليها وخفيها بعين الحقيقة من حيث هى كلها من مبدأ واحد ، وعلة واحدة ، وعالم واحد ، ونفس واحدة ، محيطة جواهرها المختلفة ، واجناسها المتباينة ، وأنواعها المفننة ، وجزئياتها المتغايرة .

مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية

محمد أبو الفرج العش

مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية

محمد أبو الفرج العش

تقـــــديم

يطيب لى أن أسهم بهذا البحث بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على إنشاء مدينة القاهرة التى غدت حاضرة من أكبر حواضر العالم العربى الإسلامى، وما زالت – بحمد الله – تتمتع بأكبر مركز مرموق فى الشرق عامة والوطن العربى خاصة ، وهى أمل الجماهير المخلصة فى التصميم على الصمود ، وتجميع القوى ، وتوحيد العرب .

اخترت النقود سبيلى إلى البحث فى تطور هذه المدينة ، لأنها أضمن الوثائق الثابتة وأصدقها ، بصرف النظر عن بعض الخطيئات البسيطة التى قد تعتورها لسبب من الأسباب، ولا أظن أن أى باحث أثرى أو تاريخى يستطيع أن يستكمل بحثه وتحرياته دون أن يلجأ إلى دراسة النقود حسب الأسلوب، المعروف فى علم النميات Numismaties .

لمحـــة تاريخيـــة

بنيت (المعزية — القاهرة) إلى جوار المدن العربية التى سبقتها : الفسطاط والعسكر والقطائع[1] ، ومع ذلك فإن كلمة (مصر) ومعناها (الحـــاضرة الكبيرة) كانت تطغى على الأسماء الأخرى ، وكانت تعنى الحاضرة الكبرى ، وهو الأمر نفسه فى كلمة (الشام) فهى تعنى (سورية) كلها وتعنى عاصمتها (دمشق) ، ولكن مع ذلك فإن (دمشق) وردت على النقود منذ صدور النقد العربى المضروب حسب النمط البيزنطى قبل إصلاح عبد الملك وبعد الإصلاح ، ولم ترد مصر .

النقود العربية القديمة المضروبة فى مصر : أقدم[2] نقد وردت عليـــه كلمة (مصر) هو فلس ضربه الخليفة عبد الملك بن مروان مصروهو من مجموعة المتحف البريطانى بلندن، وفلس ضربه والى مصر (عبد الله بن) عبد الملك (ابن مروان) (٨٤ — ٩٠ هـ) وهو يحمل مكان الضرب (مصر) بمجموعة الأستاذ سمير شحا بجدة بالسعودية، وفلس من عهد مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين ، ضرب على يد والى مصر عبد الملك بن مروان اللخمى ١٣٢ هـ[3] :

---

(١) ورد عـــلى درهم مضروب سنة ٢٠٥ هـ اسم (مصر الطاهـــرة) = راجع الرقم ١٦٨ — ١ الذى سيرد فى التصنيف ·

(٢) لدينا فى متحف دمشق فلس عربى طريف على النمط البيزنطى مضروب فى (طبرية). وضع فى أسفل الحرف M كلمة (مصرى)،وهى واضحة تماما .عجباً أسك الفلس فى مصر . لصالح طبرية ، أم ســـك فى طبرية لصـــالح مصر ؟ هـــل كانت طبرية تابعة مـــع فلسطين لولاية مصر ؟

(٣) هذه هى الفلوس التى تحمل كلمـــة مصر(ولكن توجد فلوس صاحب خراج مصر القاسم بن عبد الله كما يوجد عدد ١١٦ — ١٢٤ هـ (٧٣٤ = ٧٤١ م) .

وقد وردت (مصر) على أنها القطر المصرى كله مع أسماء المـــدن التى ضربت فيها الفلوس : الإسكندرية ، الفيوم ، أتريب ، ووردت مع اسم الحاضرة (الفسطاط) [1] . وردت (مصر) لوحدها على أنها حاضرة القطـــر المصرى فى أول العهـــد العباسى سنة ١٣٣ ﻫ على الفلس [2] الذى أمـــر بضربه عبد الملك بن يزيد والى مصر بين سنتى ١٣٣ — ١٣٦ ﻫ ، ثم ظهر اسمهـــا (مصر) على فلس عباسى ضرب سنة ١٦٧ [3] ﻫ على يد (إبراهيم) بن صالح والى مصر (١٦٥ — ١٦٧ ﻫ) ؛ وضربت فلوس عباسية فى مصر تحمـــل أسماء ولاة عباسيين ، لكنها لا تحمل كلمة (مصر) ، ويوجد أيضا سنجات زجاجية تحمل أسماء ولاة وأصحاب خراج فى مصر ، وهى تدل على أن النقود كانت تسك فى مصر فى العهد العباسى الأول :

بدا إسمها (مصر) لأول مرة على درهم عباسى ضرب سنة ١٨٠ ﻫ [4] ؛ ثم استمر إصدار الدراهم المصرية بشكل متقطع — كما سنرى بعد قليل ؟

ظهر اسم (فسطاط مصر) على درهم عباسى سنة ٢٠٤ ﻫ [5] ، وظهر إسم (مصر الظاهرية) على درهم مضروب سنة ٢٠٥ ﻫ [6] ، ثم ظهر اسم (مصر) بعد تمهيد (سنشير إليه) على الدنانير لأول مرة سنة ١٩٩ ﻫ [7] ، واستمر على النقود العباســـية ثم الطولونية ثم العباسية ، ثم الأخشيدية ، ثم العباســـية ؛ ثم الفاطميـــة .

(١) وجدت حتى الآن ١٢ فلسا مضروبا فى الفسطاط نشرت فى المراجع سنذكرها فيما بعد .
(٢) يوجد حتى الآن من هذا الاصدار ١٧ فلسا ، نشر منها ١٦ ، والأخير محفوظ فى متحف دمشـــق .
(٣) نشر حتى الآن — فى حد علمى — فلس واحد محفوظ فى دار الكتب المصرية .
(٤) نشرته السيدة وداد القزاز (سومر سنة ١٩٦٥ ، ص ٢٠٦) .
Lane-Poole: Khed. Nº 863
(٥) Berlin, Nº 1385
(٦) Lane-poole: Jonstonscabinet (N. C. 1892, p. 160)
(٧) نشر حتى الآن — فى حد علمى — سبعة دنانير من ذلك الإصدار ، والثامن محفوظ فى متحف دمشق .

ظهرت كلمة (المضرب) فى أسفل الكتابة الوسطى من الوجه على الدينار العباسى المضروب فى (مصر) ، وذلك فى السنتين ٢٠٣ و ٢٠٤ هـ ، وإنا نفهم من كلام المسعودى[(١)] أن مصر كانت تعد من المغرب إذ ذاك :

* * *

النقود الطولونية : أنشئت مدينة القطائع فى عهد أحمد بن طولون ، وضرب إبن طولون النقود ، ووضع عليها (مصر)[(٢)] ، ولم تذكر (القطائع) على النقود أبـــداً :

* * *

النقود الفاطمية : أنشئت (القاهرة) منذ سنة ٣٥٨ هـ على يد القائـــد جوهر الصقلى ، ومع ذلك لم يظهر اسمها على النقود ، وظلت (مصر) تبدو على النقود حتى ظهرت لمرة واحدة (القاهرة المحروسة)[(٣)] سنة ٣٩٤ هـ ثم ظهر اسم (المعزية) على النقود المؤرخة فى السنوات[(٤)] ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٥٣٢[(٥)] ، ٥٥٣[(٥)] ، ٥٦٤ هـ كما ظهر اسمها على درهم وحيد سنة ٤٧٠ هـ[(٦)] : وظهر اسم (المعزية) القاهرة (على الدنانير المؤرخة فى[(٧)] : ٥٠٨ ، ٥١٨ — ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ — ٥٦٦ هـ[(٨)] .

* * *

(١) مروج الذهب ج٢ ، ص٢٥٦ — ٢٥٨ .

(٢) أقدم دينـــار طولونى ظهـــر حتى الآن مؤرخ من ســـنة ٢٦٠ هـ نشر فى المرجعين : النقشبندى سومر ٣/٢ سنة ١٤٩٧ . ص٢٧٥ و Lavoix, III, N° 4 .

(٣) Lane-Poole, BM. IX, P. 319, N° 761

(٤) ذكـــره الـــدكتور مـــايلز

Miles : Fatimid Coins (NNM, N° 121, 1951), P. 50

(٥) هـــذا الدرهم يحمل تاريخا قبل انشاء القاهرة ، سنبحث فيه بعد قليل .

Ibid, P. 51 (Thorburn Coll.)

Zambaur : Münzprägungen des Islams, P. 189

(٦) Miles, Op, cit., N° 387

(٧) Zambaur : Op. cit. P. 189

(٨) كـــل الـــدنانير مـــذكورة فى : Miles : Op. cit., P, 51

وقفة تأمل فى النقود الفاطمية : قبل أن ننتقل إلى نقود العهد الأيوبى يحسن بنا أن نناقش بعض الأمور الغريبة التى بدت على النقود الفاطمية، وننظر فى تعدد أسماء القاهرة :

١ — توجد ثلاثة دنانير فاطمية تحمل مكان الضرب (مصر) ، ذكرها الدكتور مايلز[(١)] مؤرخة من السنوات : ٣٤١[(٢)] ، ٣٤٣[(٣)] ، ٣٥٣[(٤)] هـ ، ويوجد درهم يحمل (المعزية) وهو مؤرخ من سنة ٣٥٦[(٥)] هـ ، أى أن هذه النقود سكت قبل دخول الفاطميين مصر ، وقبل إنشاء القاهرة :

هذه النقود تبعث على الدهشة لذا سألت الأستاذ الدكتور مايلز عن صحة دراسة هذه النقود : فأجابنى بأنه واثق من أن دارسى هذه النقود متمكنون من قدرتهم على قراءة النقود، لذا يستبعد أن يكون أحدهم قد أخطأ، وبخاصة فإن المرحوم لين بول أشار فى الحاشية إلى أنه متأكد من قراءة التاريخ ٣٤١ هـ على الدينار المضروب حسب النمط الفاطمى المعروف فى المنصورية والمهدية، وقال ربما كان القصد من إصدار هذه النقود الدعاية الفاطمية .

أقول : إذا كانت هذه النقود الأربعة سكت صحيحة وتحمل هذه التواريخ ، فإن هذا يدل على تخطيط[(٦)] الخليفة الفاطمى لاحتلال مصر قبل

(١) Miles: Op. cit., P. 51

(٢) دار الكتب المصرية Lane-Poole: Khed. Lib. No 956

(٣) مجموعة الأميرة أسماعيل Casanova: No 1273

(٤) Dacunha, II, P. 18, No 1424

(٥) من مجموعة المرحوم فيليب ثوربورن ، الهاوى وعالم النميات وصاحب مجموعة النقود الكبيرة التى تفرقت بين متاحف العالم والمجموعات الخاصة .

(٦) جاء فى الخطط والآثار للمقريزى ج ١ ص ٣٥٢ أن المعز جمع عدة شيوخ من كتامة ، وذكر لهم اشتغاله بمصلحة الرعية وجدّه فى خدمة الشعب ، وطلب إليهم أن يكونوا رؤوفين بالشعب كما هو رؤوف بهم ، وبين لهم ضرر الإكثار من النساء ، وحثهم أن يقتصروا على امرأة واحدة ... وقال فى آخر كلامه : « واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا — رحمكم الله — ونصركم » .
ثم ورد فى المرجع نفسه أن الاموال التى جمعها المعز من أجل فتح المشرق بلغت أربعة وعشرين الف الف دينار ، وذلك فى سنة ٣٥٧ هـ ، أنفقها جميعا على العساكر التى سيرها الى مصر .

أن يحتملها بوقت طويل ولابد من أن يكون — إذا كان هذا قصده — قد ضرب عدداً كبيراً من هذه الدنانير، وأرسلها بواسطة دعاته إلى الأشخاص الذين يتوسم فيهم الإستجابة إلى دعوته ، لتوزيعها على الأنصار ، وفى هذه الحالة كان يجب أن يوجد من هذه الدنانير أمثلة متعددة ، إلا إذا كان حكام مصر الأخشيديون وضعوا أيديهم عليها أو على بعض منها وأعادوا سكها . ولكن لو حصل أمر هام كهذا فى فترة طويلة من الزمن، لكان أحد المؤرخين أشار إليه ، وأبان مهارة الفاطميين فى الدعاية ، وحذر الأخشيديين من مقاومتها :

لو قبلنا أن هذه الدنانير التى تحمل (مصر) سكت صحيحة لغرض الدعاية ، فكيف نقبل الدرهم المضروب سنة ٣٥٦ ﻫ وهو يحمل (المعزّية) . تذكر المصادر — كما سيأتى بعد قليل — أن جوهراً الصقلى عندما بنى المدينة الجديدة إلى جوار الفسطاط والقطائع أطلق عليها (المنصورية) ، ثم عندما وصل المعزّ سنة ٣٦٢ ﻫ غير اسمها ، وأطلق عليها (المعزّية) . فلو كان الأمر مخططاً له ، فهل كان يغيب عن جوهر الصقلى الاسم المنسوب إلى الخليفة المنشئ ؟ :

إذاً هناك احتمال أن يكون السكاك المصرى فى العهد الفاطمى أخطأ فى كتابة التاريخ [1] ، وهناك احتمال ضعيف جداً أن يكون قارئ هذه النقود قد التبس عليه أمر فى قراءة هذه النقود . ومع ذلك فنحن مضطرون إلى تصنيف هذه النقود مع النقود الفاطمية .

* * *

(١) هناك أمثلة عديدة فى النقود كتب التاريخ عليها خطأ ، ولازال العلماء يعتقدون أنه خطأ ، مثل الدرهم العربى الخاص الذى يحمل سنة ٤٠ ﻫ Lavoix, I, N° 158 ، وغيره من الدراهم .

٢ ـ لماذا ذكرت (مصر) على النقود الفاطمية ، ولم تذكر الأسماء الأخرى (القاهرة المحروسة ، المعزّية ، المعزّية القاهرة) إلا نادراً أو قليلا ؟

للجواب على هذا التساؤل أقول إن هناك احتمالين :

الاحتمال الأول : كلمة (مصر) هي الطاغية في الإستعمال ولم يدرج الإسم الجديد ، وإن هذا الأمر لا يزال حاصلا إلى الآن ، تستعمل كلمة (مصر) عوضا عن (القاهرة) :

مع أن هذا الاحتمال جائز ، لكني تحريت هذا الأمر في المراجع فوجدت نصوصاً عديدة تدل على أن التمييز بين (القاهرة) و (مصر) واضح ، وإليكم بعضاً منها :

المقدسي : (توفي سنة ٣٨١ هـ) : أحسن التقاسيم ... طبعة ليدن ١٩٠٦ :

خصص بحثاً لفسطاط مصر ، وبحثاً لوصف (القاهرة) ص٢٠٠ :

ناصرخسرو : (رحلته بين سنتي ٤٢٧ ـ ٤٤٤ هـ) سفرنامة (تحقيق الدكتور يحيي الخشاب ١٩٤٥) :

ص ٥٠ : ... ويبتدئ « فم الخليج » من مدينة مصر ، ويمرّ بالقاهرة ....

ص ٥١ : ... وبين مدينتي مصر والقاهرة أقلّ من ميل ....

ابن الأثير : (توفي سنة ٦٣٠ هـ) ... الطبعة المصرية سنة ١٣٠٣ هـ :

ج ٨ ، ص ٢٠٥ : ... وسار (المعز) فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وأنزل عساكره مصر والقاهرة في الديار ، وبقي كثير منهم في الخيام :

ج ١١ ، ص ١٢٦ (سنة ٥٦٤ هـ) : ... وأمر شاور (عند مهاجمة الصليبيين للقاهرة (بإحراق مدينة مصر تاسع صفر ، وأمر أهلها بالإنتقال منها إلى القاهرة :

المقريزى : (توفى سنة ٨٤٥ هـ) الخطط والآثار : طبعة بولاق :

ج ١ ، ص ٣٤٢ : ذكر اختصاص كل من الفسطاط والقاهرة :

لذا فإنى أستبعد هذا الاحتمال ، وأميل إلى الأخذ بالإحتمال الثانى .

* * *

الإحتمال الثانى : دار السكة كانت فى مصر القديمة وظلت فيها ، ولم تنتقل إلى المدينة الجديدة (المعزّية القاهرة) إلا فى وقت متأخر . ولكن كيف نعلل ظهور (المعزّية) على دينار سنة ٣٦٢ هـ ، وظهور (القاهرة المحروسة) على دينار سنة ٣٩٤ هـ ؟ .

أعتقد أن السكاك ظل يضع (مصر) لأن دار السكة الرئيسية ظلت فى مصر القديمة ، وأن ظهور عدد قليل من الدنانير يدل على إحداث دار جديدة للسك فيما بعد فى القاهرة .

مما يؤيد ما ذهبت إليه بعض النصوص التى أوردها فيما يلى :

المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٨) :

ص ١٦٤ — ١٦٥ : « ... وأمر جوهر بفتح دار الضرب ، وضرب السكة الحمراء ... » .

يلاحظ هنا أنه أمر بفتح دار الضرب ، أى أن دار الضرب كانت موجودة ، وهى حتما موجودة قبل الفتح الفاطمى ، ويجب أن تكون فى مدينة (مصر) القديمة .

المقريزى : الخطط .

ج ١ ، ص ٤٠٦ : « دار الضرب : هذا المكان الذى هو الآن (أى فى عهد المقريزى فى القرن التاسع الهجرى) دار الضرب من

بعض القصر ، فكان خزانة بجوار الإيوان الكبير ، سجن بهـا الخليفة الحافظ لدين الله ... » .

يعنى هذا بأن دار الضرب نقلت إلى هذا المكان من القاهرة فى وقت متأخر ، ربما كان فى العهد الأيوبى حيث ذكرت (القاهرة) على النقود .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، طبعة ١٩٣٣ :

ج ٤ ، ص ٥٣ : « دار الضرب بنيت فى أيام الوزير المأمون ابن البطائحى المقدّم ذكره (فى أيام الآمر لأحكام الله) ، وهى بالقشاشين قبالة البيمارستان المنصورى (صحّحه المحقق بالبيمارستان الفاطمى » .

يعنى هذا أن دار الضرب فى العهد الفاطمى أنشئت فى القاهرة بين سنتى ٥١٥ — ٥١٩ هـ . ولكن النقود التى تحمل (المعزّيّة القاهرة) ضربت منذ سنة ٥٠٨ هـ (١) — كما سـنرى — .

المقريزى : الخطط :

ج ١ ، ص ٣٤٨ : « ... فبنى (جوهر) القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى المدينة ، وصارت القاهرة دار خلافة ، ينزلها الخليفـة بحرمه وخواصه إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية ... » ، وقد ذكر المقريزى نصاً آخر ص ٣٦٣ لايخرج عن المعنى نفسه .

يفهم من هذا النص أن القاهرة اقتصرت فى أول أمرها على أنها دار الحكم وسكن الحريم والخواص فقط ، لذا فإن إنشاء دار الضرب فى هذه المدينة الجديدة قـد يشوّهها ، ويحدث فيها ضجة

(١) لاعبرة لنقد واحد يحمل هذا التاريخ . أخشى أن يكون دراسته مغلوطة .

ووساخة ، يضاف إلى ذلك أن دخول الصناع والعمال إلى القاهرة يومياً من أجل العمل يُذهب من هيبة دار الحكم ، ويحدث شذوذاً فى قصر المدينة الجديدة على الخواص .

* * *

٣ — تحقيق اسم المدينة الجديدة عند بنائها فى العهد الفاطمى : المنصوريّة ، المعزّية ، المعزّية القاهرة ، القاهرة المعزّية ، القاهرة ، القاهرة المحروسة .

إن المؤرخين والجغرافيين قد نقل بعضهم عن بعض ، وذكروا هـذه الأسماء الذى نوّهنا بها . إن النقود التى وجدت حتى الآن لاتمدّنا فى تحقيـق هذه القضية بمعلومات جازمة ، وذلك لأن دار الضرب — كما رجحنا سابقاً — كانت فى مصر القديمة وحملت النقود على الأغلب اسم (مصر) . فلنستعرض النصوص التى ذكرت هذه الأسماء :

المنصورية : أول من ذكر أن جوهر الصقلى أطلق اسم (المنصورية) على المدينة الجديدة هو المقريزى (الخطط — ج ١ ، ص ٣٧٧) و (اتعـاظ الحنفا ... شيال ص ١٥٨) قال : « ... ذلك أنه (جوهر) لمـا سار إلى الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعساكره ، وقصد إلى مُناخه الذى رسمه له مولاه المعزّ لدين الله أبو تميم معدّ ، واستقرت به الدار ، اختط القصر ، وأصبح المسلّمون يهنّونه (كذا) ، فوجدوه قد حفر الأساس فى الليل ، فأدار السور اللبن ، وأسماها (المنصورية) ، إلى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى مصر ، ونزل بها ، فسماها (القاهرة) ... » .

نقل ابن ظهيرة (الفضائل الباهرة ... تحقيق السقا والمهندس ١٩٦٩ ، ص ١٨٠) وابن تغرى بردى (النجوم ... ج ٤ ، ص ٤١) عن المقريزى

وذكرا (المنصورية) . ومما يلاحظ أن الكتّاب السابقين للمقريزى لم يذكروا هذا الاسم :

إن النقود الفاطمية المضروبة فى المنصورية(قرب القيروان) منذ سنة ٣٣٨ هـ ظلت تصدر باستمرار ، ولا نستطيع أن نعرف أن الدنانير التى تحمل التواريخ ٣٥٨ — ٣٦٢ هـ مضروبة فيها أو فى غيرها :(١)

المعزّيّة : وردت (المعزّيّة) لوحدها قليلا فى كلام الكتاب : فقد قال ناصرى خسرو (سفرنامة ص ٤٦) « .. وتسمى القاهرة « المعزية »، ويقال للعسكر « الفسطاط » ، لكن الكلمة وردت على النقود مستقلة ، ولكن على مقياس ضيق :

* * *

المعزّيّة القاهرة أو القاهرة المعزّيّة : ترد (القاهرة) وصفا للمعزّيّة ، وتأتى بعدها ؛ وهذا — فى رأيى — هو الصحيح ، ثم نابت الصفة عن الموصوف ، وعلى هذا الشكل ظهرت على النقود ؛ ولكن حصل التباس على الكتّاب ، فمرة كانوا يقدمون القاهرة ، ومرة يقدمون المعزّيّة :

ابن خلكان : (توفى سنة ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان (تحقيق محى الدين عبد الحميد — القاهرة ١٩٤٩) :

ج ٤ ، ص ٣١٥ (ترجمة المعزّ) : « وهذا المعزّ هو الذى تنسب إليه القاهرة ، فيقال : القاهرة المعزّيّة » :

المقريزى : (الخطط) أوردها فى الكثير الأغلب (المعزّيّة القاهرة) ، لكنه مع ذلك ذكرها (القاهرة المعزيّة) :

ج١ ، ص٣٤٨ : « أعلم أن القاهرة المعزّيّة . . . »

(١) Miles: op. cit., P. 51

ج ١ ، ص ٣٥٤ : « . . . واليه تنسب القاهرة المعزّية . . . »

ج ٢ ، ص١٠٨ : « اعلم أن القاهــرة المعزّية . . . . ؟ »

القلقشندى : (صبح الأعشى . . . القاهــرة ١٣٣٢هـ ــ ١٩١٤م) .

ج ٣ ، ص٣٤٨ : « القاهرة ويقال فيها القاهرة المعزّية نسبة إلى المعز الفــاطمى الذى بنيت له : وربما قيل المعزّية القاهرة ، سميت ذلك تفاؤلا » .

* * *

القاهرة : وردت لوحدها فى الكثير الغالب لأنها صفة نابت عن الموصوف ، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا ، لكنها لم ترد مستقلة على أى نقد فاطمى ، بل وردت على النقود الزنكية ثم الأيوبية ثم المملوكية .

ذكرها على هذا النحو ابن الأثير (ج٨ ، ص١٩٤ وص٢٠٥) والمقدسى (ص ٢٠٠) وناصرى خسرو (ص٤٦ ــ ٥٧) وابن حوقل (صورة بلاد عراق العجم من كتاب المسالك والممالك ــ الطبعة الأجنبية ســنة ١٨٢٢م ، ص ١٠) والمقريزى (اتعاظ الحنفا . . ص ١٦٢) ، وابن جبير (توفى سنة ٥٧٨هـ) (تحقيق الدكتور حسين نصار) وغيرهم . . . ومن العجيب أن الإدريسى (توفى سنة ٥٦٠هـ) فى نزهة المشتاق ذكر الفسطاط ومصر ولم يذكر القاهرة .

القاهــرة المحروســة : لم ترد على هــذا الشكل فى أى مرجع قديم ، لكن ستانلى لين بول ذكرها فى كتابه The Story of Cairo, PP. 123 and 127 اعتمادا على النقد المؤرخ من سنة ٣٩٤ هـ الذى نشره سابقا فى BM. IX, p. : 319, N° 76f وقد وردت بهذه الصفة فيما بعد على النقود المملوكية بكثرة .

* * *

(٤) ماذا كان يقصد من وصف المعزّية بالقاهرة ؟

يبدو أن الكتّاب القدامى تنبهوا إلى معنى الكلمة ، فالتمس بعضهم تبريراً لتسميتها وعرّض بعضهم بسبب التسمية تلميحا . نذكر طرفا من ذلك :

المقدسى (ص ٢٠٠) : « القاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمى لما فتح مصر ، وقهر من فيها . . . »

ناصرى خسرو (ص ٤٧) : « . . . وقد سمى (المعزّ) العسكر بالقاهرة ، لأن ذلك الجيش كان قاهرا . »

المقريزى (اتعاظ الحنفا ... ص١٦٢) قال على لسان المعزّ عندما جمع المشايخ ، وأثنى على جوهر لشجاعته وإخلاصه وذكر لهم عن عزمه على فتح مصر ... « وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا . . . »

المقريزى (الخطط ج١ ، ص٣٦٦) : قال ابن سعيد فى كتابه (المعرب فى حلى المغرب عن البيهقى . . .) « وسميت القاهرة ، لأنها تقهر من شذّ عنها ، ورام مخالفة أميرها ، وقدّروا أن منها يملكون الأرض ، ويستولون على قهر الأمم . . . »

المقريزى (الخطط ج١ ، ص٣٧٧) و(اتعاظ الحنفا ص ١٥٩ — ١٦٠) ثم نقل عنه ابن ظهيرة (الفضائل ص ١٨١) ذكر قصة أسطورية كانت قيلت فى بناء الإسكندرية وفى بناء القسطنطينية . خلاصتها : أن المنجمين أرادوا أن تبنى القاهرة فى طالع حسن حتى لا تخرج عن ذرّيّة الفاطميين ، فوضعوا فى الأسس قوائم خشبية ، ربطوا بينها حبالا علّق بها أجراس ، وقالوا للعمال لا ترموا الحجارة فى الأسس إلا إذا سمعتم الأجراس ، وأخذوا يرصدون الطالع . ثم اتفق أن وقف غراب على حبل ، فتحركت الأجراس ، فرمى العمال الأحجار .

عندئذ صاح المنجمون : القاهــرة فى الطالع . وأتم المقريزى الرواية : « ويقال إن المــريخ كان فى الطالع عنــد ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك . فسموها القاهرة واقتضى نظرهم أنهـــا لاتزال تحت القهر . . . »

لايفهم من كلام المقريزى تشاؤم واضح ، لكن ابن ظهيرة يبدى تشاؤما ويجعل الرواية تتنبأ بخروج القاهــرة من أيدى الفاطميين .

هذا النوع من الروايات ذكر كثيرا فى كتب التاريخ والرحلات ، وهى تعتبر ملحا يتجمّل بها الكتّاب . ولكن لو أردنا أن نجد تبريرا لهذه التسمية ، فإن انتصار الفاطميين وفوزهم بالوصول الى المشرق ، جعلهــم يتيمّنون ، ويفاخرون بقهــر العباسيين ، بل بقهر مذهب السنة بعد جهاد طويل . وكانوا يرجون من وراء ذلك أن يستتب لهم الأمر ، ويوحدوا العالم الإسلامى تحت زعامتهم ومذهبهم بعد أن دبّ الضعف فى الخلافة العباسية .

* * *

النقود الزنكية :

دبّ الضعف والوهن فى الدولة الفاطمية فى القــرن السادس الهجرى ، وكثرت المؤامرات وتدخــل حريم القصر بالإدارة لأن الخلفاء يتسلّمون الحكم وهم أطفال . تماسكت الدولة شيئاً ما فى عهد الوزير الصالح طلائع بن رزّيك ؛ لكن عمة الخليفة العاضد — كان طفلا — دبرت مؤامرة فقتلت الوزير ، ثم استولى على الوزارة ابنه العادل رزّيك بن طلائع ، ثم قتل الآخر بمؤامرة ثانية ، واستولى على الحكم شاور .

وقد استطاع طامع آخر — واسمه ضرغام — أن يصل إلى الحكم ، ففرّ شاور لاجئا فى سنة ٥٥٨ ه إلى نور الدين محمود بن زنكى فى دمشق . إستقبل نور الدين شاور إستقبالا حسنا ، فطلب هـذا مساعدته ، على أن يؤدى إلى نور الدين ثلث واردات مصر . أرسـل نور الدين أسد الدين شيركوه مع شاور سنة ٥٥٩ه ، واستطاع شيركوه إعادة شاور إلى مركزه : لكن شاور ما إن تمكن حتى نكل بعهده ، وطلب من شيركوه الخروج من مصر ، واستنجد بالفرنجة الصليبيين ضده :

كان موقف شيركوه حرجا عندما حوصر فى بلبيس ، واضطر إلى الخروج من مصر بعد أن تعاهد مع الصليبيين على أن تخرج القوتان معا من مصر :

ظل أسد الدين يحلم بالعودة إلى مصر ، ولما كانت سنة ٥٦٢ ه أقنع نور الدين بضرورة الإستيلاء على مصر لئلا تقع بيد الفرنجة ، وذهب بألفى فارس مصطحبا ابن أخية صلاح الدين يوسف بن أيوب عبر النيل إلى الجهة الغربية واستولى على واردات المنطقة . استنجد شاور بالصليبيين ، فأتت قواتهم مسرعة وتساندت مع قوات شاور ، ، ولاحقو أسد الدين إلى الصعيد.

إستطاع شيركوه ببسالته وحيلته العسكرية أن ينتصر على الجيشين الفاطمى والصليبى ، واستولى على كل المنطقة الغربية حتى الإسكندرية . لكن قوات كبيرة من الصليبيين أتت فحاصرت الإسكندرية وكان عليها صلاح الدين ، فاضطر أسد الدين أن يعسكر فى بلبيس وأن يصمد هو وصلاح الدين لهم ، كلٌ فى مكانه . ضغط نور الدين على الصليبيين فى الشام ، فاضطر الفرنجة إلى مهادنة أسد الدين وإعطائه ٥٠ ألف دينار عدا ماجباه من مصر : وتعاهد الطرفان على الانسحاب . فانسحب أسد الدين :

أراد شاور أن يأمن على نفسه ، فطلب من الصليبيين أن يكون لهم شحنة فى القاهـــرة وفرسانا يحمون أبواب القاهرة مقابل ١٠٠,٠٠٠ دينار سنويا ، كثر عـــدد الصليبين فى مصر ، وطلب الفرسان الصليبين من ملك الفرنج «مرّى» أن يستولى على مصر . فاستولى الصليبيون على بلبيس وحاصروا القاهرة ، واشتد الحال على المصرين . إستنجد الخليفة العاضد بنور الدين سنة ٥٦٤هـ، فأرسل إليه للمرة الثالثة أسد الدين ومعه صلاح الدين بقوة حسنة . إستطاع شيركوه أن ينتصر على الفرنجة ويطردهم من مصر ، ودخل القاهرة . وكان شاور يدبر أمراً للقضاء على شيركوه ، أحسّ به صلاح الدين ، فقبض على شاور ، ثم قتله بعد الإستئذان من أسد الدين .

عندئذ ولّى الخليفة أســد الدين الوزراة ، لكنه لم يعش بعد ذلك أكثر من شهرين وبضعة أيام ، وتولى صلاح الدين الأمر بعده وتلقّب بالملك الناصر . واستطاع بلباقته واستقامته أن يقضى على كثير من الفساد ، وظل يوازن بين الوفاء للخليفة العاضد الذى أسلم إليه الأمر كله ، وبين الخضوع للعادل نور الدين الذى بدأ يشك بموالاة صلاح الدين ، عندما تباطأ بخلع العاضد والدعوة إلى الخليفة العباسى .

أخيرا ألحّ نور الدين بخلع العاضد سنة ٥٦٧ هـ ، فأعلن صلاح الدين إلحاق مصر بالخلافة العباسية ، وكان العاضد إذ ذاك قد مرض مرضاً شديدا ، ثم توفى دون أن يعلم بالأمر .

سكّ صلاح الدين فى سنة ٥٦٧ هـ النقود الزنكية على غرار النقود الفاطمية (١)، لكنه جعل اسم الخليفة العباسى (المستضئ) فى وجه واسم العادل (محمود ابن زنكى) فى وجه آخر . وذكر مكان الضرب (القاهرة)، واستمرت النقود

(١) Lane-Poole : BM, III,Nos. 596-7

الزنكية حتى سنة ٥٦٩ھ[١] . (يقول المقريزى[٢] « . . . فلما زالت الدولة الفاطمية بدخول الغُزّ من الشام إلى مصر على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة سبع وستين وخمسمائة ، قررت السكة بالقاهرة باسم (المستضئ بأمر الله) وباسم السلطان الملك العادل محمود بن زنكى صاحب بلاد الشام ، فنقش إسم كل منهما فى وجه ... »

ظلّ صلاح الدين يدارى نور الدين ، ويهدئ من روعه لإزالة الشكوك من نفسه .ولكن مع ذلك كان نور الدين فى آخر حياته يريد الذهاب إلى مصر ، ليأخذ الأمر بيده . توفى نور الدين سنة ٥٦٩ھ ، وظل صلاح الدين مخلصاً فى الظاهر لابنه الطفل الصالح إسمعيل . يقول ابن الأثير (ج ١١ ص ١٥٢) ، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزّيه ويهنئه بالملك ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه[٣] (اسم الملك الصالح) ، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه » .

وبالرغم مما أبداه صلاح الدين من الطاعة للأسرة الزنكية ، فإن الأمراء الزنكيين خافوا مجئ صلاح الدين إلى دمشق ، فأخذوا الصالح إلى حلب . أتى صلاح الدين إلى دمشق مع ٧٠٠ فارس ، واستطاع أن يدخل دمشق ويطمئن أهلها ، لكن قلعة دمشق امتنعت عليه ، فتوسط القاضى كمال الدين الشهرزوى يقول له[٤] : « أنا ممـلوك الملك الصالح ، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه ، وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه — وكان يخطب له فى بلاده

(١) يوجد دينار مودع فى جمعية النميات الأمريكية فى نيويورك ANS سنذكره فى حينه .
(٢) المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود—نشر MAYER سنة ١٩٣٣ ، ص ١٢ .
(٣) لم يعثر حتى الآن على دينار فى مصر باسم الملك الصالح إسمعيل .
(٤) ابن الأثير (ج ١١ ، ص ١٥٦) .

كلها — :فصعد كمال الدين إلى ريحان (متسلّم القلعة) ولم يزل معه حتى سلّم القلعة ، فصعد صلاح الدين إليها ، وأخذ مافيها من الأموال ، وأخرجها واتسع بهـا ، وثبّت قدمه ، وقويت نفسه ، وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح، ويخاطبه بالمملوك (كذا والصحيح بالمُلك) والخطبة والسكة باسمه .»

إستولى صلاح الدين على حمص وحماة ، وأراد الدخول إلى حلب معلنا أنه يعدّ نفسه مملوكا للصالح . ومع ذلك أغلقت أبواب حلب بوجهه ، حتى أن الأمراء الزنكيين استنجدوا بالصليبيين ضد صلاح الدين، وحاول الباطنيون قتل صلاح الدين . إستطاع صلاح الدين أن ينجو ويزيل خطر الصليبيين ، وعاد محاصراً حلب بعد أن اتضحت خيانة الملتفين حول الصالح : عندئذ قطع الخطبة للملك الصالح وأزال اسمه عن السكة[1] فى بلاده فى سنة ٥٧٠هـ[2] :

النقود الأيوبية :

صارت السلطة بيد صلاح الدين واستطاع أن يوحّد مصر وبلاد الشام والجزيرة، وترك حلب بيد الملك الصالح حتى توفى سنة ٥٧٧ هـ فاستولى عليها : ناجز صلاح الدين الأعداء فى الداخل ، وأخـذ يضغط على الصليبيين فى كل مكان ، وبدا منه لباقة وحنكة وحسن تدبير ، وقدر أن يعلو على الصليبيين فى كل معركة وانتصر انتصاراً مؤزرا فى حطين ، واستعاد القدس الشريف ، واستولى على عكا وكثير من القلاع الهامة :

ضرب صلاح الدين السكة باسمـه واسم الخليفة العباسى فى مصر وبلاد الشام ، وظهرت (القـاهرة) باستمرار على النقـود، ولم نلحظ شذوذاً إلا فى سنتى ٦٢٣[3] و ٦٢٤[4] هـ حيث ظهرت كلمة (مصر) على الدنانير مرة أخرى :

(١) ابن الأثير (ج ١١ ، ص ١٥٩) .

(٢) يوجد فى متحف دمشق فلس على نسق فلوس نور الدين محمود كتب فى الوجه (الملك الناصر يوسف) وفى الظهر (الملك الصالح إسمعيل) ضرب بدمشق . هل يمكن أن نستنتج أنه ضرب قبل إزالة اسمه عن السكة ؟

(٣) يوجد ديناران فى متحف دمشق ، وذكر الثالث زمباور (المرجع المذكور آنفا) .

(٤) يوجد منه ستة دنانير ، ثلاثة منها محفوظة فى متحف دمشق .

أما الدينار الذى أثبته الدكتور عبد الرحمن فهمى فى سنة غير محددة(؟ ٦٢٠هـ)[1] فإنه يجب أن يردّ إلى إحدى هاتين السنتين .

إن استمرار (القاهرة) على النقود يدلّ على أن دار الضرب غدت فى القاهرة — كما نوهنا سابقا — ، وفتحت القاهرة لسكن الشعب ، بعد أن كانت قاصرة على سكن الخليفة والخواص . وقد نوّه المقريزى[2] فى عدة مواضع : بانفتاح القاهرة على الشعب ، واتصلت بمصر القديمة ، وبدأ صلاح يحيط المدينة المتصلة كلها بسور لم ينهه فى حياته .

النقود المملوكية :

حملت نقـود المماليك البحرية (القـاهرة المحروسة) و (القاهرة) دون أى شذوذ ، وكذلك ظهرت (القاهرة) على نقود المماليك البرجية .

النقود العثمانية :

عادت كلمة (مصر) من جديد على النقود حتى نهاية حكم الدولة .

* * *

تصنيف النقود المضروبة فى (مصر) و (القاهرة)

النقود الأموية المضروبة فى مصر :

من العجيب حقاً أن (مصر) لم تظهر على النقود العربية فى العهد الأموى إلا على الفلس الذى أشرنا إليه سابقاً ، وحددنا تاريخه سنة ١٣٢ هـ .

الدينار الأموى لم يحمل اسم مدينة الضرب فى المشرق العربى ، ونظن أن الخليفة أراد أن يكون سكّه تحت إشرافه لئلا يتلاعب بعياره ووزنه ، لكنه

(١) ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية . . . (تحقيق د . فهمى – القاهر١٩٦٦ ، ص ١٢٦ الرقم ٥٢٤ .

(٢) المقريزي ؛ الخطط ج١ ؛ ص٣٤٨ و ٣٦٣ و ٣٦٤ .

مع ذلك يبدو أن الخليفة أباح سكه فيما بعد إلى والى أفريقية[١] ووالى الأندلس[٢] ، وكرم الحجاز بأن ضرب الخليفة الأموى ديناراً خاصاً سنة ١٠٥ هـ ذكر عليه معدن أمير المؤمنين فى الحجاز[٣] :

هذا ما نعرفه عن دراسة النقود ، لكن الدكتور عبد الرحمن فهمى[٤] ذكر عن الدكتور يوسف غنيمة[٥] نقلا عن المقريزى[٦] أن الخليفة عبد الملك بن مروان أمر والى مصر عبد العزيز بن مروان سنة ٧٧هـ أن يضرب الدنانير المنقوشة ::: إذا كان مفاد هذا النص صحيحاً ، فإن هذا يعنى أن بعض الدنانير كان يضرب بدمشق وبعضها بمصر ؛ وكلها لا تحمل مكان الضرب ؛ لكنه ذكر مكان الضرب على الدراهم والفلوس :

(١) أقدم دينار عربى يحمل (إفريقية) ضرب سنة ١٠٠هـ وهو من مجموعة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب فى تونس Walker, II, p. xlvii وسنة ١٠١هـ وهو غير منشور (من مجموعة السيد الياس يسترس فى بيروت) وقد سمح لى بنشره .

(٢) أقدم نقد عربى لاتينى ضرب سنة ٩٨ هـ Walker: II, P. 79 N° C, 17 .
اقدم نقد عربى عرف حتى الآن ضرب فى الأندلس سنة ١٠٢هـ Ibid, P. 101, NO. HSA-10.

(٣) Ibid, P. 103, N° ANS-16 a

(٤) د . عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية وعلم النميات — القاهرة ١٩٦٥ ص ٦١

(٥) د . يوسف غنيمة : النقود العباسية (سومر ٩ — ١ — ١٩٥٣) ص ١٠٤ .

(٦) المقريزى (الخطط ج١ ص٢١٠) . أشار إلى هذا الحادث الدكتور مايلز فى بحثه القيم : Miles: The Early Islamic Bronze Coinage of Egypr (Centennial» « Publication, ANS, 1958, P. 475
وظن أن المقريزى حدد ضرب الدنانير سنة ٧٧هـ؛ لكنه استبعد أن يكون الأمر تم فى تلك السنة .

وهنا يجدر بنا أن ننبه إلى أن هذا الحادث لم يكن بالضرورة واقعاً فى سنة ٧٧ هـ ؛ لأن المقريزى ذكر هذا التاريخ لتحديد زمن هدم مسجد الفسطاط فقال : « ... وهدم جامع الفسطاط كله ، وزاد فيه من جوانبه كلها فى سنة سبع وسبعين ، وأمر بضرب الدنانير المنقوشة » . لا يشترط أن يكون ضرب الدنانير حاصلا فى تلك السنة .

أما الدراهم الأموية فإنها جميعاً تحمل مكان الضرب ، ماعدا درهماً واحداً[١] فقد خلا من اسم المدينة . لماذا لم تذكر (مصر) أو مدن مصر بما فيها (الفسطاط) على الدرهم ، ومصر عريقة بضرب[٢] النقود قبل الإسلام ؟ ، فى الواقع أن هذا الأمر يدعو إلى الحيرة ، وهو يقوى وجهة نظر من يريد أن يستند على نص المقريزى فى أن بعض الدنانير كان يضرب فى مصر : وأظن أن هذه الحجة ستكون أقوى عندما نستعرض الدنانير المضروبة بين ١٧٠ — ١٩٩ هـ . (سيأتى ذكرها بعد قليل) .

أما الفلوس فإننا لا نعرف إلا الفلس الذى ضربه عبد الملك بن مروان ، ويحمل اسم مصر، وهو من مجموعة المتحف البريطانى ، والفلس المضروب سنة (×٨هـ) فى عهد عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٤ — ٩٠ هـ) ، والفلس المضروب فى آخر العهد الأموى سنة ١٣٢ هـ الذى أشرنا إليه سابقاً . ويجدر بنا أن نشير إلى الفلوس التى ضربها القاسم بن عبيد الله[٣] عامل الخراج فى مصر بين ١١٦ — ١٢٤ هـ، والتى لا تحمل كلمة (مصر) أو (الفسطاط)،

(١) Lane-Poole: Khed. Lib., P. 11, N° 66 (Walker, II, P. 104)

(٢) يذكر المقريزى (شذور العقود فى ذكر النقود=MAyER سنة ١٩٣٣) ص٩ حديثا عن الرسول (ص) يفهم منه عراقة مصر فى ضرب الدنانير قبل التعريب طبعاً .) وقد ذكره المقريزى فى (إغاثة الامة . . تحقيق زيادة والشيال ص ٦٢-٦٣) .

(٣) Walker, II, 925 a-d Miles: op. cit., p. 477

لكنا نعدّها مضروبة فى مصر ، وكذلك السنجات الزجاجية التى تحمل اسمه[١] وأسماء عدد من الولاه وأصحاب الخراج من العهد الأموى :

ولا بد لنا أيضاً من أن نشير إلى الحادث الذى ذكره المقريزى (الخطط ج ١ ، ص ١٠٨) وفحواه أن عامل الخراج على مصر أسامة بن زيد(٩٦– ٩٩ هـ) كتب إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك يستشيره فى صهر تمثال الإسكندرية (شُراحيل) المصنوع من النحاس من أجل سك المعدن فلوساً ؛ وكان ذلك بسبب قلة الفلوس فى مصر . وافق الخليفة بعد استشارة الخبراء ، ونفّذ الأمر. تلك الفلوس المصرية فى تلك الفترة هامة لو تعرّفنا إليها :

أما أختام الخراج المؤرخة من السنين : ٩٠ هـ[٢] و ٩٤ هـ[٣] و ٩٥ هـ[٤] ، فهى ليست بذات موضوع فى هذا البحث :

وهذا الفلس وحيد ، وهو من مجموعة السيد الأستاذ سمير شحا ، فله منا الشكر الجزيل للسماح بنشره .

إليكم الآن وصف الفلوس الأموية المضروبة فى مصر :

والفلس الأموى الذى ضربه والى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٤ — ٩٠ هـ) وهو يحمل (مصر) والتاريخ (X٨ هـ)

الظهر : الوسط ضمن دائرة مصر

المدار : الأمير (عبد الله بن ع)بد الملك

الوجه : والوسط : لاإله إلا الله وحده لاشريك له

(١) Lane-Poole: catalogue of Arabic Glass Weights, 1891, PP. 5-6
Miles: (NNM. III; PP. 83-88) (NNM. 120, PP. 9-12)
A. Launois: Catalogue d'Etalons Monétaires et autre Piéces Musulmanes en verre de la Collection de Jean Maspert (Pris, 1960)

(٢) د . فهمى : الموسوعة ص ٦٩ = ٧٠

(٣) Walker: II, P. 295, fig. 32

(٤) Ibid, fig. 33

المدار : (بسم الله) ضرب (هذا الفلس سنة ... وثمن)ـين

B.M. IX, p. 16, No 69

١ ـ الفلس الأموى الذى ضربه القاسم بن عبيد الله صاحب خواج مصر (١١٦ ـ ١٢٤ هـ) :

الظهر[1] : الوسط محمد رسول الله

الوجه : الوسط لا إله إلا الله وحده

المدار[2] : أمر القاسم بن عبيد الله

يلاحظ أن الفلس خال من التاريخ ومن مكان الضرب :

Lane-Poole: B M I. 164	(اعتبره عباسياً)
Lavoix, I, Nos. 1660-61	(اعتبره عباسياً)
Walker, II, Nos. 925 a-d	(صحح الغلط)

Miles: Early Islamic Bronze Coinage of Egypt, p. 477, No. 3

٢ ـ الفلس الأموى الذى ضربه عبد الملك بن مروان (البلخى) والى مصر سنة ١٣٢ هـ فى عهد مروان الثانى :

(١) يستغرب القارئ أن أبدأ بالظهر قبل الوجه . لكنى أحببت أن أحافظ على الترتيب الذى يتبعه علماء النمياء (وأكثرهم أجانب) تسهيلا لهم عند مطالعة بحث كتب باللغة العربية . وأحب أن ألفت النظر إلى أن الوجه هو الذى يتضمن مأثورة التوحيد . وليس من الضرورى بعد هذا التنبيه إلى أن أكرر كتابة (الظهر) و (الوجه) إلا إذا خشيت اللبس .

(٢) وجدت هذه الكلمة الواردة فى كلام المؤرخين العرب عند تحدثهم عن النقود وهى أوفق من كلمة (الطوق) التى استعملها المرحوم الأستاذ النقشبندى وغيره وأفضل استعمال كلمة (الطوق) للدلالة على الدائرة المؤلفة من حبيبات أو نقط .

الظهر : الوسط : (ضمن دائرة) الفسطاط   الوجه : الوسط : (ضمن دائرة) مصر

المـــدار : على يدى الأمير

عبد الملك بن مرون   أمر عبد الله مرون أمير المؤمنين

Lavoix, I, 1494-1495
Lane-Poole: Khed. Lib. Nos. 843-844
Walker, II, 909 (B M. I, 56) and 910 (B M. IX, 163 1)
Miles: op. cit. P. 478, No. 4

د : فهمى : الموسوعة (٩٨٨ — ٩٩٣) :

* * *

النقود العباسية المضروبة فى مصر وما تداخل بينها من النقود الطولونية والأخشيدية

الذهبية : كنا أشرنا سابقاً إلى أول دينار ظهرت عليه (مصر) مؤرخ من سنة ١٩٩ هـ ، ولكن ألم تضرب الدنانير العباسية فى مصر قبل هذا التاريخ دون أن تحمل اسم مصر؟ لو تحرينا الأسماء الواردة فى أسفل كتابة الوسـط من الدنانير العباسية المؤرخة بين سنتى ١٧٠ — ١٩٨ هـ لرأينا أن بعض هـذه الأسماء هى أسماء ولاة مصر وهم :

على (بن سليمان بن على العباسى) : ١٦٩ — ١٧١ هـ .

موسى (بن عيسى العباسى) : ١٧١ — ١٧٢ و ١٧٥ و ١٧٨ هـ :

عمر (بن غيلان) عامل خراج : ١٧٢ — ١٧٣ هـ :

عمر (بن مهران) : ١٧٥ هـ :

داود (بن يزيد بن حاتم المهلبى) : ١٧٤ — ١٧٥ هـ :

إبراهيم (بن صالح بن على العباسى) : ١٧٦ هـ .

جعفر (بن يحيى البرمكى) : ١٧٦ — ١٨٦ هـ .

عباد (بن محمد اللخمى) : ١٩٦ — ١٩٨ هـ .

المطلب (بن عبد الله الخزاعى) : ١٩٨ ﻫ عزل وسجن ثم ثار أهل مصر
وأعادوه أميراً سنة ١٩٩ ﻫ
وضرب الدينار الأول الذى يحمل
(مصر) :

نعطى إحصاء تقريبيا[1] للدنانير التى ضربها هؤلاء الولاة ، لتكمل الفائدة من هذا البحث :

٣ ـ الدينار ١٧٠ ﻫ ـــــ ـــــ[2] (اللوح ١)
على

الأمثلة المعروفة[3] : دار الكتب المصرية (لين بول) ، متحف دمشق مثالان (ع / ١٤٢٥٨ و ع / ١٤٢٧٤)، المتحف البريطانى (لين بول) ، متحف برلين (نوتزل) متحف استانبول (اسماعيل غالب) ، متحف[4] ANS.UM (مايلز) :

٤ ـ الدينار ١٧١ ﻫ ـــــ ـــــ
على

متحف الفن الإسلامى ـ متحف ANS (مايلز) :

٥ ـ الدينار ١٧١ ﻫ ـــــ ـــــ
موسى

(١) هذا ما استطعت أن ألتقطه من المراجع المتيسرة التى بين يدى . وأرجو أن أستطيع فى المستقبل أن أستكمله .

(٢) أعنى بهذا الترتيب المختصر أن (على) فى أسفل كتابة الوسط من الظهر ، وليس من شئ تحت كتابة وسط الوجه ، ولا أرى داعياً أن أذكر المأثورات فهى نفسها المعروفة على النقود العباسية .

(٣) سأذكر هذه المصادر مختصرة ، وسأعطى فى النهاية ثبتا بهذه المختصرات من أجل العودة إليها إذا التبس الأمر على غير المختص بالنميات .

(٤) هذه مجموعة متحف جامعة بنسلفانيا UM محفوظة فى متحف جمعية النميات الأمريكية ANS.

متحف الفن الإسلامى (٦ أمثلة — د : فهمى) ؛ متحف برلين (نوتزل) ؛ باريس (لافوا) ؛ المتحف البريطانى (لين بول) ؛ ANS - UM (مايلز) ؛ روجرز[1] :

٦ — الدينار ١٧٢ هـ ——— ——— ———

موسى

متحف الفن الإسلامى (د : فهمى) ؛ دار الكتب المصرية (لين بول) ؛ ANS - UM (مايلز) ، روجرز :

٧ — الدينار ١٧٢ هـ ——— ——— ———

عمـــر

دار الكتب المصرية (لين بول) ؛ روجرز :

٨ — الدينار ١٧٣ هـ ——— ——— ———

عمـــر

٩ — الدينار ١٧٤ هـ ——— ——— ———

عمـــر

المتحف العراقى (النقشبندى) ؛ ANS-UM (مايلز) ؛ RAS

١٠ — الدينار ١٧٤ هـ ——— ——— ———

داود

متحف الفن الإسلامى[2] ؛ دار الكتب المصرية ؛ باريس ؛ برلين ؛ استانبول ؛ ANS-UM ؛ روجرز :

---

(١) Rogers (E. T.) : Catalogue of the Cellection of Muhammadan Coins (NC, Vol. III, 1883)

(٢) لن أذكر اسم المؤلف فيما يلى اختصارا وأذكره إذا ورد لأول مرة .

١١ — الدينار ١٧٥ هـ ———— ————

عمـــر

روجـــرز ؛

١٢ — الدينار ١٧٥ هـ ———— ———— (اللوح ١)

موسى

متحف دمشق (ع / ١٤٢٩٥) ؛ برلين ؛ باريس ؛ المتحف البريطانى ؛ RAS[١] ; ANS-UM ؛

١٣ — الدينار ١٧٦ هـ ———— ————

ابراهيم

دار الكتب المصرية ؛ روجرز ؛

١٤ — الدينار ١٧٧ هـ ———— ———— (اللوح ١)

عمـــر

متحف دمشق (ع / ١٣٧٥٠) .

١٥ — الدينار ١٧٨ هـ ———— ————

موسى

باريس

ملاحظة : يرد أسماء الولاة على الدنانير التالية فى أسفل كتابة الوسط من الوجه ، ويحتل لقب واسم الخليفة أعلى وأسفل كتابة الوسط من الظهر :

الخليفة

١٦ — الدينار ١٩٦ هـ ———— ————

المأمون عبـــاد

دار الكتب المصرية ؛ ANS - UM ؛ روجرز ؛

(١) Royal Asiatic Society

الخليفة
١٧ — الدينار ١٩٧ هـ ـــــــ ـــــــ
المأمون عبـــاد

متحف دمشق (ع/ ١٣٠٨٦) برلين ؛ باريس ؛ ANS - UM ؛ استانبول ؛ روجرز :

الخليفة
١٨ — الدينار ١٩٨ هـ ـــــــ ـــــــ
المأمون عبـــاد

دار الكتب المصرية ؛ روجرز :

الامام
١٩ — الدينار ١٩٨ هـ ـــــــ ـــــــ (اللوح ١)
المأمون المطلب

المتحف العراقى ؛ متحف دمشق (ع/ ١٣٦٧٨) باريس ؛ RAS, ANS-UM ؛ روجرز :

ملاحظة هامة : لم أذكر الدنانير التى تحمل اسم (جعفر) لأنهـــا كثيرة جداً ، ولمـــا كانت سلطة جعفر البرمكي واسعة ، فإن ذكر اسمه على الدنانير لا يعنى بالضرورة أنها ضربت فى مصر :

* * *

إلى هنا لم تذكر (مصر) على الدنانير ، وقد بدأت تظهر منذ سنة ١٩٩ هـ على يد المطّلب بن عبد الله الخزاعى : ومع ذلك فإن للمطلب دينارا ضرب سنة ١٩٩ هـ ، ولم تذكر عليه (مصر) :

ذو الرياستين

٢٠ ــ الدينار ١٩٩ هـ ـــــــ ـــــــ

الفضل المطلب

متحف الفن الإسلامى ؛ المتحف العراقى ؛ ANS[1] ، يلاحـــظ أن المطلب لم يذكر (الإمام المأمون) ، كما فعل على الدينار المضروب سنة ١٩٨ هـ ، وهذا يفسر ثورته على المأمون الذى عزله وسجنه[2] ، وأن ذكر (ذو الرياستين الفضل) بفسر أيضاً محاولة المطلب التقرب من الفضل بن سهل صاحب الحل والعقد فى ذلك الوقت :

ذوالرياستين

الدينار ــ مصر ــ ١٩٩ هـ ـــــــ ـــــــ (اللوح ١)

الفضل المطلب

متحف الفن الإسلامى ؛ متحف دمشق (ع/ ٩٤٣) ؛ دارالكتب المصرية ؛ المتحف العراقى ؛ باريس ؛ المتحف البريطانى ؛ ANS-UM ؛ روجرز ؛

* * *

ينبغى أن ننتبه إلى أن (مصر) ظهرت على الدنانير منذ سنة ١٩٩ هـ ، لكن ظهورها لم يكن منتظما ، فقد وجدت دنانير بعد سنة ١٩٩ هـ تحمل أسماء ولاة مصر كالسرى بن الحكم وعبيد الله بن السرى ، لا تحمل كلمة (مصر) .

* * *

وبعد فإنه يجمل بنا أن نعطى فيما يلى إحصاءا سريعاً[3] للسنوات التى ضربت فيها الدنانير العباسية المصرية ، حسبما هو معروف حتى الآن .

(١) كتب التاريخ خطأ على دينارى المتحف العراقى و ANS (تسع وأربعين ومئــة) .

(٢) أخرجه الجنود من السجن عندما ثاروا على عبد الله (وكيل والده العباس بن موسى بن عيسى) الذى اشتد فى معاملة الجنود .

(٣) كنت أرغب فى أن أعطى وصفا سريعا لكل دينار ، وأذكر المتاحف التى تحفظ مثالا منه ، ومصادر النشر ، الا انى خشيت الإطالة والخروج عن القصد فى هذا البحث . عسى أن نشرأ كتابا فى هذا الموضوع ــ أن شاء الله ــ وسأقتصرفقط على ذكر النقود النادرة .

٢١ — ٢٦ : السنوات : ١٩٩ — ٢٠٤ هـ

٢٧ — ٢٨ : السنتان : ٢٠٩ — ٢١٠ هـ (اللوح ١ — الرقم ٢٨)

٢٩ — ٤٤ : السنوات : ٢١٤ — ٢٢٩ هـ

٤٥ — ٦٤ : السنوات : ٢٣١ — ٢٥٠ هـ

٦٥ — ٦٨ : السنوات : ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ (اللوح ١ — الرقم ٦٨)

٦٩ — ٧٣ : السنوات : ٢٥٧ — ٢٦١ هـ

٧٤ — ٧٥ : السنتان : ٢٦٣ و ٢٦٤ هـ

٧٦ — : السـنة : ٢٧٤ هـ : وقد نشره الدكتور عبد الرحمن فهمى في موسوعته تحت الرقم ٢٣٨٠ دون أن ينشر صورة الدينار :

لدى فحص هذا الدينار عياناً ، تبين أنه مؤرخ من سنة ٢٩٤ هـ ، وهو يدخل فى زمرة النقود العباسية بعد العهد الطولونى :

* * *

دنانير الدولة الطولونية : ولى أحمد بن طولون حكم مصر منذ سنة ٢٥٤ هـ ، ولكن الدنانير لم تظهر طولونية إلا فى سنة ٢٦٠ هـ على نطاق ضيق ، وهو الدينار الذى نشره (لافوا رقم ٤) والمرحوم الأستاذ النقشبندى (١) ؛ ولكن ما لبث أحمد بن طولون بعد أن وطّد نفوذه ، وأرضى الخليفة والحاشية أن استبد بالأمر وأصـدر باسمه أولا الفلوس (٢) ، ثم الدنانير ثم الدراهم حسب ماهو معروف من النقود : وإليكم إحصاءاً سريعاً بدنانير الدولة الطولونية :

(١) سومر ٣/٢ — ١٩٤٧ ص ٢٧٥ .

(٢) أول نقد طولونى هو الفلس المضروب سنة ٢٥٨ هـ ذكره الدكتور فهمى وروجرز ، سنشير فيما بعد .

Rogers: The Coins of the Tūlūnī Dynasty, Nos. 1 and 2

٧٧ — : السنة ٢٦٠ هـ

٧٨ — ١٠٤ : السنوات ٢٦٦ — ٢٩٢ هـ (اللوح ٢ — الرقم ٨٩ والرقم ١٠٣)

لقد أعطى الدكتور أوليغ غرابار[1] إحصاءاً عاماً للنقود الطولونية. أضيف هنا إلى ذلك الإحصاء الدينار المضروب سنة ٢٦٠ هـ الذى لم يذكره الدكتور غرابار ودنانير متحف دمشق التى يبلغ عددها ٢٥ ديناراً متنوعاً من سنة ٢٦٦ — ٢٩١ هـ ، ودنانير متحف الفن الإسلامى العديدة التى نشرها الدكتور فهمى بين الأرقام (٢٩٠٥ — ٢٩١٧ ، ٢٩٢٧ — ٢٩٥٧ ، ٢٩٧٦—٢٩٨٢ ، ٢٩٨٤ — ٣٠١٦) :

* * *

الدنانير العباسية للمرة الثانية : استعادت الدولة العباسية سيطرتها على مصر فى سنة ٢٩٢ هـ، وعادت نفوذها إلى الصدور بانتظام . ولكن مع ذلك ما زلنا نجد بعض الثغرات . إليكم إحصاءاً سريعاً بما هو معروف[2] حتى الآن :

١٠٥ — ١١٢ : السنوات ٢٩٢ — ٢٩٩ هـ

١١٣ — ١٢٦ : السنوات ٣٠١ — ٣١٤ هـ (اللوح ٢ — الرقم ١١٦ والرقم ١١٩)

١٢٧ — ١٣٠ : السنوات ٣١٧ — ٣٢٠ هـ

١٣١ — ١٣٢ : السنتان ٣٢٢ ، ٣٢٣ هـ

١٣٣ — ١٣٨ : السنوات ٣٢٥ — ٣٣٠ هـ

(١) Grapar: The Coinage of the Tulunid (ANS-NNM. 139), 1957

(٢) لابد من أنه صدر بعض المنشورات التى لم أطلع عليها ، فلأنت بعض الثغرات . أرجو أن استكمل النواقص من أجل المطول .

ويلاحظ هنـــا أن الدنانير العباسية ظلت تضرب فى مصر إلى سنة ٣٣٠ هـ مع أن بعض الدنانير الإخشيدية ظهرت إلى الوجود منذ سنة ٣٢٦ هـ .

* * *

الدنانير الإخشيدية : تولى محمد الإخشيد الحكم على مصر منذ سنة ٣٢٣ هـ، ولا نعرف حتى الآن ديناراً إخشيدياً ضرب قبل سنة ٣٢٦ هـ فى مصر .

لم يختلف الدينار الإخشيدى عن الدينار العباسى من حيث المـأثورات إلا بذكر اسم الحاكم الإخشيدى فى أسفل كتابة الوسط من الظهر حيناً ، وفى أسفل كتابة الوسط من الوجه أحياناً كثيرة .

قام الدكتور بول بالوغ (١) بإصدار بيان عام بالنقود الإخشيدية المعروفة ، إليكم إحصاء بالدنانير المنشورة المضروبة فى مصر ، يضاف إليها محفوظات متحف دمشق غير المنشورة ، وما نشره الدكتور فهمى فى موسوعته :

١٣٩ — ١٤٠ : السنتان ٣٢٦ و ٣٢٧ هـ

١٤١ — ١٥٧ : السنوات ٣٣٠ — ٣٤٦ هـ (اللوح ٢ — الرقم ١٤٣)

١٥٨ — ١٦٣ : السنوات ٣٥٠ — ٣٥٥ هـ

الفضـــية :

أول درهم عباسى ضرب فى مصر مؤرخ من سنة ١٨٠ هـ ، أى أن الدرهم المصرى سبق ظهور الدينار الذى بدت عليه كلمة (مصر) ، ومع ذلك تعتبر الدراهم المضروبة فى مصر نادرة . إليكم ثبتاً بما هو معروف حتى الآن .

١٦٤ — درهم هرون الرشيد المضروب فى مصر سنة ١٨٠ هـ .

نشرته الأستاذة وداد القزاز : سومر ٢١ — ١٩٦٥، ص ٢٠٦.

(١) Dr.P. Balog : Tables de références des monnaies Ikhchidites (RNB 103-1957)

١٦٥ — درهم الرشيد — مصر — سنة ١٨١ هـ Lavoix, I, No. 845

١٦٦—درهم الرشيد—مصر—سنة ١٨٢هـ Lane-Poole: BM. I, No. 227

١٦٧—درهم المأمون—مصر—سنة ١٩٩هـ Nützel : Berlin I, No. 1416

١٦٨ — درهم المأمون المضروب فى (فسطاط مصر) سنة ٢٠٤ هـ ،
وهو يحمل أسماء المأمون وطاهر بن الحسين والسرى بن الحكم :
Ibid, No, 1385

١٦٨ — ا : درهم المأمون المضروب فى (مصر الطاهرية) (١) سنة ٢٠٥ هـ

١٦٩ — درهم المأمون المضروب فى مصر سنة ٢١٠ هـ وعليه كلمة (المغرب) .

للخليفة

المأمون عبيد الله بن السرى

المغرب

عبيد الله بن السرى : والى مصر بين ٢٠٦ — ٢١١ هـ :
Miles : Rare Islamic Coins (ANS-NNM, No. 118) 1950

الدكتور عبد الرحمن فهمى : الموسوعة (١٩٩٨) :

١٧٠ — درهم المأمون — مصر — ٢١٢ هـ : د. فهمى (١٩٩٩)

١٧١ — درهم المأمون — مصر — ٢١٣ هـ : د. فهمى (٢٠٠٠)

١٧٢ — درهم المعتصم — مصر — ٢٢٣ هـ : Miles : op. cit., 266

١٧٣ — درهم الواثق — مصر — ٢٢٦ هـ : دار الكتب المصرية
Lone-Poole (292)

١٧٤ — درهم المتوكل — مصر — ٢٣٣ هـ : Lavoix I, 963

(١) Lane - Poole ; Johnston's cabinet (N. c., 1892, p. 160)

١٧٥ — درهم المتوكل — مصر — ٢٤٣ هـ : Miles: op. cit., 277-278

١٧٦ — درهم المتوكل — مصر — ٢٤٤ هـ : Ibid, 279

١٧٧ — درهم المتوكل — مصر — ٢٤٧ هـ : Ibid, 280

١٧٨ — درهم المستعين — مصر — ٢٤٩ هـ : Ibid, 281-282

١٧٩ — درهم المستعين — مصر — ٢٥٠ هـ : Ibid, 283-284

١٨٠ — درهم المعتز — مصر — ٢٥٢ هـ : Ibid, 286

١٨١ — درهم المعتمد — مصر — ٢٦٥ هـ : Ibid, 291

يقع هذا الدرهم الأخير فى العهد الطولونى ، لكنه عباسى :

الدراهم الطولونية : هى أيضاً نادرة كالدراهم العباسية : إليكم ثبتاً بما هو معروف منها :

١٨٢ —درهم أحمد بن طولون—مصر—٢٦٧هـ Rogers : Tuluni, No. 16

أشار غرابار إلى المرجعين المذكورين : Lavoix III. No. 13

١٨٣ — درهم خمارويه — مصر — ٢٧٤ هـ : متحف دمشق (ع / ١٣٥٦)
(اللوح ٣)

١٨٤ — درهم خمارويه — مصر — ٢٨٢ هـ : متحف دمشق (ع / ٥٢٣٨)
أشار غرابار إلى المرجعين :

Rogers : op. cit., No. 79; Lavoix, III, No. 36

١٨٥ — درهم هرون بن خمارويه — مصر — ٢٩١ هـ :

Grabar : The Coinage of the Tulunids, No. 95 (Lane-Poole, Johnston, P, 57)

* * *

الدراهم العباسية للمـــرة الثانية : ظلت الدراهم العباســية المضروبة فى الفترة ما بين الطولونيين والإخشيديين نادرة ومن الغريب أن نجد درهماً فى متحف دمشق مؤرخاً من ســنة ٢٨٥ ﻫ مضروبا بمصر ولا يحمـــل اسم الأمير الطولونى ، ولنبدأ به :

١٨٦ — درهم المعتضد—مصر— ٢٨٥ ﻫ : متحف دمشق (ع/١٠٧٠٢) — وحيد (اللوح ٣) .

١٨٧ — درهم المكتفى — مصر — ٢٩٣ ﻫ : متحف دمشق (ع/١٩٩١) — وحيد (اللوح ٣) :

١٨٨ — درهم الراضى— مصر— ٣٢٢ ﻫ (متحف دمشق (ع/١٠٨٧٩) — وحيد (اللوح ٣) :

١٨٩ — درهم الراضى — مصر— ٣٢٣ ﻫ : متحف دمشق(ع/١٠٨٨٢ و ع / ٥٢٧٤) (اللوح ٣) :

* * *

الدراهم الإخشيدية : الدراهـــم المضروبة فى مصر نادرة أيضاً . وقـــد ذكر الدكتور بالوغ[1] دراهم غير واضحة التاريخ ٣٢٨ ؟ و ٣٢٩ ؟ ودرهما مضروبا فى سنة ٣٢٩ ﻫ ، ولكن لايوجد مكان الضرب ، ذكره Lavoix III, 50 أما الدراهم الواضحة فإليكم بيانها :

١٩٠ درهم الإخشيد — مصر— ٣٣٢ ﻫ: متحف دمشق (ع/ ١٩٥٣) ؛
Balog : (RNB, 1957) = Ader, II, P. 143

١٩١ — درهم الإخشيد—مصر— ٣٣٣ ﻫ: متحف دمشق (ع/١٨١٦) .

١٩٢ — درهم الإخشيد—مصر— ٣٣٦ ﻫ : متحف دمشق (ع/٥٤٤٠).
صحح بالوغ ما قرأه تورنبرغ حمص بـ (مصر) :
Balog : op. cit., P. 117 (Torenberg : Symbolae, P. 58, Nos. 110-111)

(١) أشرنا إليه عند التحدث عن الدنانير الأخشيدية .

١٩٢ ــ ا : درهم الإخشيد (مصور)(١) : فىالوجه صورة شخص جالس على العرش يضع يده اليسرى على مسند العرش : فى الظــهر ، كتب فى الوســط محمد بن طغج ضمن دائرة وهو (محمــد ابن طغج) ؛ وفى المدار كتبت المأثورة غير واضحة ؛ يمكن أن نميز منها : « ضرب بم-[مصر] ::: » :

١٩٣ ــ درهم أبى القاسم بن الإخشيد ــ مصر ــ ٣٣٧ ﻫ

Balog (Miles : ANS)

١٩٤ ــ درهم على بن الإخشيد ــ مصر ــ ٨ (٤) ٣ ﻫ : متحف دمشق (ع /١٤٤٠٧) :

* * *

النحاســية : الفلوس العباسية المضروبة فى مصر أندر من الدراهم أيضاً ، أقدمها ضرب سنة ١٣٣ ﻫ ، إليكم بيانها :

١٩٥ ــ فلس عبد الملك بن يزيد (والى مصر ١٣٣ ــ ١٣٦ ﻫ) ــ مصر ــ ١٣٣ ﻫ :

لهذا الفلس أمثلة عديدة جداً فى متحف الفن الإســلامى بالقاهرة ، وفى متحف القدس (اكتشافات أريحا سنة ١٩٥١) التى درسها السيد الدكتور مايلز(٢) ، ومثال واحد فى متحف دمشق وثلاثة فى باريس ، واثنان فى المتحف البريطانى : جميع هــذه الأمثلة تعود إلى شكلين رئيسين : الأول مؤرخ ، والثانى مغفل من التاريخ ، وفى كل شكل أنواع تتميز بالإشارات الموضوعة فوق أو تحت الكتابة الوسطى :

(١) أطلعنى أحد الاصدقاء على هــذا الدرهم الوحيد فى العلم ، وقد وعدنى بإرسال صورته .

(٢) Miles : Catalogue of Islamic Coins (The Excavations at Herodian Jericho, 1951 = AASOR, XXXIII, 1951-4) No. 54

الشكل الأول : (ضمن دائرة) محمد (ضمن دائرة) بسم الله
رسول لا إله إلا ا
الله لله وحده
(المدار) ضرب هذا الفلس بمصر سنة مما أمر به عبد الملك بن يزيد
ثلث وثلاثين ومئة —

الشكل الثانى : (ضمن دائرة) عبد الملك (ضمن دائرة) لا إله إلا
بن يزيد ا الله محمد
صلحه الله رسول الله

١٩٥ — ا : فلس « محمد بن سعيد [بن عقبة] » صاحب الخراج فى مصر (١٥٧ — ١٥٩ هـ : ٧٧٣ — ٧٧٦ م) . لم تذكر عليه كلمة (مصر) ، لكنه من المؤكد ضرب فى مصر ، وفى الفسطاط بالذات :

Lavoix; I, Nos. 1663 - 4
Miles: E. I. B. C. of Egypt, p. 485, Nos. 15 (a - i)

١٩٥ — ب : فلس « مطر مولى أمير المؤمنين » (المنصور) : حجيم مصر بين ١٥٧[1] — ١٥٩ هـ : ٧٧٣ — ٧٧٦ م :

Miles : op. cit. pp. 486-8, Nos. 16 (a-i)

١٩٦ — فلس إبراهيم بن صالح والى مصر (١٦٥ — ١٦٧ هـ) ضرب مصر سنة ١٦٧ هـ هـذا الفلس وحـيد (فى حد علمى) وهو محفوظ فى دار الكتب المصرية (لين بول ٨٦٣) :

١٩٦ — ا : فلس « الأمير محفوظ [بن سليمان] وصلح » (١٨٦—١٨٧ هـ ٨٠٢ — ٨٠٣ م)

Miles : op. cit. pp. 488 - 492, Nos. 17 - 22

(١) زمباور « معجم الأنساب ... » ص ٣٩ حدد حكمه مصر بسنة ١٥٩ هـ فقط .

١٩٦ — ب : فلس « السرىّ بن الحكم وعبد العزيزبن الوزير الجروى » (٢٠٠ — ٢٠٣ هـ : ٨١٦ — ٨١٩ م) Ibid; No. 23.

١٩٦ — ج : فلس « السرىّ بن الحكم ومحمد بن السرىّ » (٢٠٣ — ٢٠٥ هـ : ٨١٩ — ٨٢٠ م) Ibid., No. 24

١٩٦ — د : فلس « السرىّ بن الحكم ونصر [بن محمد بن السرىّ] (٢٠٣ — ٢٠٥ هـ : ٨١٩ — ٨٢٠ م) Ibid., No. 25.

١٩٦ — هـ : فلس « السرىّ بن الحكم وصالح [بن الحكم] (٢٠٣ — ٢٠٥ هـ : ٨١٩ — ٨٢٠ م) Ibid., No. 26

١٩٦ — و : فلس « أبى أسحق بن الرشيد وعيسى بن منصور » (٢١٥ — ٢١٧ هـ : ٨٣١ — ٨٣٣ م) Ibid., No. 27

١٩٦ — ز : فلس « المتوكل على الله » — مصر — سنة ٢٤١ هـ :

Belrin, I : No. 2226; Miles : op. cii., No. 28

(ذكر الدكتور مايلز سهواً « المعتز » عوضا عن « المتوكل ») :

* * *

الفلوس الطولونية : الفلوس المضروبة فى مصر أيضاً نادرة بعضها يحمل أسماء الطولونيين وبعضها لا يحملها صراحة ، بل تميز بالعلامة الطولونية (١)

« ا ا ◇ ا » المثبتة غالباً فى أسفل كتابة الوسط من الظهر .

أقدم فلس موجود حتى الآن يعود إلى سنة ٢٥٨ هـ ، لكن السنجةالطولونية المؤرخة من سنة ٢٥٤ هـ تدعونا إلى الاعتقاد بوجود الفلس من تلك السنة (٢) . إليكم بياناً بالفلوس الطولونية :

(١) من أجل دراسة هذه العلاقة راجع ماكتبه الدكتور عبد الرحمن فهمى فى موسوعته ص ١٤٣ — ١٤٧ ، وإنى أجد نفسى من رأيه فيما ذهب إليه ، وألخص القول أنهما كتابة زخرفية هندسية بسيطة يقصد بها (أحمد) استعملت فى بادئ الأمر على هذا الشكل حتى لاتخلق مشكلة مع المركز العباسى ، ثم أصبحت شعارا للطولونيين استعملها أيضا من اتى بعده ، فإن فقهوا معناها فهى للذكرى ، وإن لم يفقهوا أمست شعارا .

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٤٣ .

١٩٧ — فلس أحمد بن طولون (دون ذكر اسمه) مصر — ٢٥٨ هـ :

متحف الفن الإسلامى (٢٩١٨ — ٢٩٢٢)

Grabar: Tulunids, No, 1 (Rogers, Nos. 1 add 2)
Lavoix, III, 14; Miles: op. cit, No-29

١٩٨ — فلس كالسابق — مصر — ٢٥٩ هـ : متحف الفن الإسلامى (٢٩٢٦) :

Miles : op. cit. Nos. (30-31)

ليست الآحاد فى التاريخ على فلس ANS مؤكدة

Miles (RIC) Nos. 392-393

١٩٩ — فلس يحمل اسمى (المعتمد وأحمد بن طولون) ، لكن كتابة المدارين ممحوة ، فلا يعرف مكان الضرب ولا التاريخ ، إلا أن الدكتور مايلز (١) قدر التاريخ بين ٢٦٤ — ٢٧٠ هـ حسب حكم الخليفة والأمير . يوجد منه خمسة أمثلة ، نرجح أنها مضروبة فى مصر :

الوسط : أحمد بن

طولون — المعتمد على الله

ا ا ◊ ا

المدار : .... المؤمنين ...... ؟

Miles: Tarsus... P. 301, No. 20

٢٠٠ — فلس يحمل اسم (الأمير محمد بن موسى) الطولونى عامل طرسوس سنة ٢٧٩ هـ لا يوجد تاريخ ولا مكان الضرب .

---

(١) Miles, Islamic Coins from the Tarsus Excavations of 1935-37
(The Aegean and the Near East studies Presented to Hetty Goldman)

مما أمر به	لا إله إلا
الأمير محمد	الله محمد
بن موسى	رسول الله
	فرد

(لافوا) اعتبره عباسيا : Lavoix, I, No. 1666

Grabar: Tulunids, 29 (Miles, ANS)

(سبعة وعشرون مثالا) Miles : Tarsus..., P. 302, No. 21

الفلوس العباسية للمرة الثانية : لا يوجد إلا فلس واحد ضرب فى مصر من هذه الفترة من سنة ٣٠٦ هـ ، ضرب خطأ أو تزييفاً بسكة الدينار ، نشره الدكتور عبد الرحمن فهمى (٢٨٥٤) : يحسن أن يقارن بالدينارين المحفوظين فى متحف الفن الإسلامى (٢٤٧٨ و ٢٤٧٩) المضروبين فى (مصر) والمؤرخين من سنة ٣٠٦ هـ ، فإن المأثورات واحدة ، عسى أن يكون الفلس ضرب بسكة أحد هذين الدينارين ، أو الدينار المحفوظ فى دار الكتب المصرية ، أو دينــار (كنز خضر إلياس)[1] أو دينار Rogers : سأذكر فيما بعد شيئاً عن تزييف الدنانــير .

* * *

الفلوس الإخشيدية : لا يوجد منها — فى حد علمنا — حتى الآن .

* * *

النقود الفاطمية : النقود الفاطمية المضروبة فى مصر أكثرها الغالب من الذهب ، الدراهم الفاطمية المصرية نادرة ، والفلوس أندر .

كان شكل ومأثورات النقــود الفاطمية المبكرة المضروبة فى القــيروان والمهدية ، قريباً من النقود العباسية بعض الشىء ، ثم أخذت بالتباعد عنهــا فى كل شىء ، حتى غدت ذات شكل مميز ، ومأثورات تتفق مع الاعتقادات الشيعية

(١) النقشبندى : سومر ١٠/٢ — ١٩٥٤ ، ص١٨٧ .

السبعية الباطنية ، أتت فى مدارين من المدارات الثلاثة من كل وجه : ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا — ص ١٦٥) و (كتاب النقود — ص ١٣) المأثورات الفاطمية على أول دينار ضرب فى (مصر) سنة ٣٥٨ هـ . تختلف هذه المأثورات اختلافاً بسيطاً عما هو مثبت على النقد فى الواقع :

تتميز النقود الفاطمية المبكرة المضروبة فى مصر أنها تحمل اسم الشـــهر فى تاريخ الضرب. بدأ إصدار النقود فى مصر منذ سنة ٣٥٨ هـ ، أى من تاريخ احتلال القطر المصرى ، وبالرغم من أن الفاطميين بنوا مدينتهم (القاهرة) أو (المعزّيّة القـــاهرة) أو (المعزية) ، فلم تذكر هـــذه الأسماء على النقود إلا نادراً ، وإنما ظهرت (مصر) فى الأغلب : ولكن مما يلفت النظر وجود ثلاثة دنانير فاطمية تحمـــل (مصر) والتواريخ ٣٤١ (١) ، ٣٤٣ (٢) ، ٣٥٣ (٣) هـ ، ودرهم يحمل (المعزّيّة) ضرب سنة ٣٥٦ هـ أشرنا إليه سابقاً ، ونرى أنفسنا مضطرين إلى تسجيلها مع النقود الفاطمية :

* * *

الذهبية : يوجد عدد كبير جداً من الدنانير الفاطمية المضروبة فى مصر محفوظة فى كثير من المتاحف الهامة : متحف الفن الإسلامى ، دار الكتب المصرية ، متحف دمشق ، المتحف العراقى ، متحف استانبول ، المكتبـــة الوطنية فى باريس ، المتحف البريطانى ، متحف أشموليان فى أكسفورد : متحف ANS فى نيويورك، متحف برلين، متحف كوبنهاغن ، .:. وغيرها كثير .:. نشرت النقود الفاطمية فى أمهات كتب النميات ، إلّا أن الدكتور (٤)

(١) دار الكتب المصرية Lane - Poole, No 956

(٢) مجموعة الأمير اسماعيل Casanova, No 1273

(٣) Dacunha, II. P. 18, No 1424

(٤) لاحظت أن النقود الفاطمية المودعة فى متاحف الدول العربية فى شمالى إفريقية مضروبة على الأكثر فى مدن تلك الأصقاع .

مايلز[1] أعطانا ســـنة ١٩٥١ إحصاء لمجموعة ومجموعة جامعة بنسلفانيا UM ، وأشار إلى المراجع الهامة للمقارنة ، ويا ليته أعطى إحصاء[2] لمــا هو موجود فى المتاحف العالمية فى كتاب شامل[3] :

إليكم احصاءاً سريعاً عن الدنانير الفاطمية المضروبة فى (مصر) ولأرباع الدنانير (مصر (ثم) المعزية القاهرة (ثم) المعزية (ثم) القاهرة المحروسة) ولأبدأ بالدنانير ، ثم بأرباع الدنانير :

٢٠٠ ا — ٢٠٠ ج السنوات : ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ه سكت هـــذه الدنانير قبل الفتح الفاطمى إذا كان نقشها صحيحاً وقراءتها صحيحة .

٢٠١ — ٢٣٩ : السنوات : ٣٥٨ — ٣٩٦[4] ه (اللوح ٤ — الرقم ٢٠٣ والرقم ٢٣١ والرقم ٢٣٩)

٢٤٠ — ٢٦٢ : السنوات : ٣٩٨ — ٤٢٠ ه (اللوح ٤ — الرقم ٢٥٥)

٢٦٣ — ٣٠٣ : السنوات : ٤٢٢ — ٤٦٢ ه (اللوح ٤—الرقم ٢٧١)

٣٠٤ — : الســـنة : ٤٦٤ ه

٣٠٥ — : الســـنة : ٤٦٦ ه

٣٠٦ — ٣٠٧ : السنتان : ٤٦٩ و ٤٨٠ ه

---

(١) Miles : Fatimid Coins (ANS. NNM No 121, New York 1951)

(٢) قمت بإحصاء تقريبى للنقود المضروبة فى ؟ ومسمياتها الأخرى حصلت عليه من المراجع الهامة من أجل كتابة هذا البحث ؛ ولكن يصعب نشره هنا لطوله ، وربما أكملت نواقصه لكتابة بحث موسع وبخاصة بعد الاطلاع على موجودات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة والجديد من مخطوطات دار الكتب المصرية .

(٣) على نحو ما فعل الدكتور بالوغ بالنقود المملوكية وما فعلته أنا بالنقود الأغلبية وقد قمت بهذا العمل بتوجيه وإرشاد الدكتور مايلز وستنشر الكتاب جمعية النميات الأمريكية ANS — بإذن الله — .

(٤) من العـــلوم أن السنة التى يموت فيها الخليفة ويتولى خليفة يوجد منها إصداران على الأغلب باسم كل منهما .

٣٠٨ ـ ٣١١ : السنوات : ٤٧٢ ـ ٤٧٥ هـ

٣١٢ ـ ٣٢٠ : السنوات : ٤٧٨ ـ ٤٨٦ هـ

٣٢١ ـ ٣٦٢ : السنوات : ٤٩١ ـ ٥٣٢ هـ (اللوح ٥ ـ الرقم ٣٢٤ والرقم ٣٣٠ والرقم ٣٥٠)

٣٦٣ ـ ٣٧١ : السنوات : ٥٣٤ ـ ٥٤٢ هـ

٣٧٢ ـ ٣٧٤ : السنوات : ٥٤٤ ـ ٥٤٦ هـ

٣٧٥ ـ ٣٧٦ : السنتان : ٥٤٨ و ٥٤٩ هـ

٣٧٧ ـ ٣٧٩ : السنوات : ٥٥١ ـ ٥٥٣ هـ

٣٨٠ ـ : السنة ٥٥٦ هـ — Miles:Fatimid, 526

٣٨١ ـ : السنة ٥٥٨ هـ — Lavoix, III, 449

٣٨٢ ـ : السنة : ٥٦٤ هـ (١) — Zambaur (M. I.) (4)

* * *

أرباع الدنانير الفاطمية المضروبة بمصر :

٣٨٣ ـ السنة ٤١١ هـ متحف دمشق (ع/ ١٥٢٤٨) ١٣ مم، ٩٢٥ر.غ

٣٨٤ ـ السنة ٤١٤ هـ ١٨ مم ، ١,٧٥٠ غ — Miles, Fatimid, 215
Ibid, 221

٣٨٥ ـ السنة ٤٢١ هـ ١٧,٥ مم ، ١,١١ غ — Lane-Poole, BM. IV, 117

٣٨٦ ـ السنة ٤٢٣ هـ دار الكتب المصرية : Idem, Khed. lib., 1087

٣٨٧ ـ السنة ٤٢٦ هـ ١٧,٥ مم ، ١,٠٦ غ — Miles : op. cit., 226

٣٨٨ ـ السنة ٤٤٤ هـ ١٧ مم ، ١,٠٥ غ — Ibid, 343

---

(١) دينار وحيد — Zambaur: Münzprägungen des Islam, P. 189

إنى مدين للدكتور مايلز الذى أرسل لى نسخة ضوئية عما يتعلق بالقاهرة من هذا الكتاب .

٣٨٩ — السنة ٥٣٦ هـ متحف دمشق (ع ٩٧٧٥) ١٨ مم ، ١,٠١ غ
١٧ مم ، ٠,٩٥ غ Miles, op. cit., 507

* * *

الدنانير الفاطمية المضروبة باسم (المعزّيّة القاهرة) :

٣٩٠ — السنة ٥٠٨ هـ Zambaur (M. I.)

٣٩١ — السنة ٥١٨ هـ : متحف دمشق (ع/١٥١٨ و ع/١٠٥٨٤).
(اللوح ٥).

دار الكتب المصرية : Lane-Poole, op. cit. 1258
Lavoix, III, 434-435
Miles : op. cit., 475
Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٢ — السنة ٥١٩ هـ Miles : op. cit., 476

٣٩٣ — السنة ٥٢٠ هـ دار الكتب المصرية Lane-Paole : op. cit., 1260
Miles : op. cit., 477
Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٤ — السنة ٥٢١ هـ : دار الكتب المصرية : Lane-Poole : op. cit., 1261
Miles : op. cit, 478
Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٥ — السنة ٥٢٣ هـ Miles : op. cit., 479

٣٩٦ — السنة ٥٢٥ هـ Zambaur (M. I.), P. 189

٣٩٧ — السنة ٥٥٥ هـ (المعزة — كذا) دار الكتب المصرية (الرقم 1283)

٣٩٨ — السنة ٥٦٤ هـ Miles : op. cit., P. 51

٣٩٩ — السنة ٥٦٥ هـ (المعزة — كذا) دار الكتب المصرية (الرقم 1284)
Miles: op. cit., 527
Zambaur (M. I.), P. 189

٤٠٠ — السنة ٥٦٦ هـ Miles : op. cit., 528

* * *

الدنانير الفاطمية المضروبة باسم المعزّيّة :

٤٠١ — السنة ٣٦٢ هـ Ibid, P. 51

٤٠٢ — السنة ٥٣٢ هـ متحف دمشق (ع/٧٦١٨)

٤٠٣ — السنة ٥٥٣ هـ Zambaur (M. I.), P. 189

٤٠٤ — السنة ٦٤(٥) هـ Lavoix, III, 450

* * *

الدينار الفاطمى المضروب فى (القاهرة المحروسة) :

٤٠٥ — السنة ٣٩٤ هـ Miles op. cit., P. 50
Zambaur (M. I.) P. 190, Note 7

* * *

الفضية : الدراهم الفضية المضروبة بمصر نادرة ، ولا يوجد دراهم مضروبة باسم (المعزّيّة القاهرة) حتى الآن ؛ ويوجد درهم وحيد ضرب فى (المعزّية) . أحدث الفاطميون فى آخر عهدهم الدراهم السوداء (عيارها ضعيف) — راجع ما كتبه المقريزى بشأنها (الخطط — ج ١ ، ص ٣٦٧) و (كتاب النقود ص ١٥) :

ورد إلىّ من السيد الدكتور هنرى أمين عوض (وهو صاحب مجموعة هامة من النقود فى القاهرة، وهاو سيصل إلى درجة العالم بالنميات) أنه عثر

على درهم فاطمى كتب فى الوجه (الإمام محمد المنتظر لأمر الله) وفى الظهر (الله الصمد) : سررت جداً لهذا النبأ، لأنى عثرت فى خطط المقريزى على النص التالى الذى يؤيده الدرهم المذكور :

ج ١ ، ص ٤٠٦ : بعد أن ذكر شغور العرش بعد موت الآمر بأحكام الله ، وقيام العادل برغش، وهزار الملوك بتنصيب الحافظ لدين الله ، قال فى حوادث سنة ٥٢٦ هـ :

« ... فلم ترض الأجناد به (بالحافظ) ، وثاروا بين القصرين، وكبيرهم رضوان بن ولخشى ، وقاموا بأبى على بن الأفضل فى سادس عشرة ، فكان أول ما بدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ وسجنه بالقاعة المذكورة ، وقيده وهمّ بخلعه ، فلم يتأت له ذلك ، فكان إماميا ، فأبطل ذكر الحافظ من الخطبة وصار يدعو للقائم المنتظر، ونقش على السكة (الله الصمد) ، (الإمام محمد) » سأصف هذا الدرهم تحت الرقم ٤١٠ :

أنصاف الدراهم الفاطمية المضروبة بمصر :

٤٠٦ — السنة ٣٦٤ هـ ١٨ مم ، ١٫٣٩٢ غ	Miles: op. cit., 69
٤٠٧ — السنة ٣٨١ هـ ١٩ مم ، ١٫٢٦ غ	Ibid:116
٤٠٨ — السنة ٤٠٦ هـ ١٩ مم ، ١٫٣٠٢ غ	Ibid, 176
دار الكتب المصرية (الوزن ١٫٤٠ غ)	Lane-Poole, 1071

* * *

الدراهم الفاطمية المضروبة بمصر (ومن ضمنها الدراهم السوداء) :

٤٠٩ — السنة ٤٧٠ هـ	Miles: op. cit., P. 51

٤١٠ — السنة ٥٢٦ هـ ؟ (باسم الإمام محمد المنتظر لأمر الله) = من مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض :

٤١١ — السنة ٥٤٠ هـ ٢٢ مم ، ٢,٧٩ غ Balog, No. 1 (1)

درهمان أسودان Idem : BIE, XXXIII, 1951

١٢ درهم أسود Idem : BIE, XXXV, 1952

٤١٢ — السنة ٥٤٨ هـ ٢٢ مم ، ٢,٢٥ غ Balog, No. 2

درهم أسود : Idem : BIE, XXXV, 1952

٤١٣ — السنة ٥٥٨ هـ ٢٢ مم ، ٢,٧٢ غ Balog, No. 3

٤١٤ — السنة ٥٥٩ هـ ٢٢ مم ، ٣,٢٥ غ Ibid, No. 4

٤١٥ — السنة ٥٦١ هـ — ٢,٦٩ غ Ibid, PP. 178-9 (Soret)

٤١٦ — السنة ٥٦٤ هـ ٢٢ مم ، ٣,٢٥ غ Ibid, No. 5

* * *

النقد الفضي الفاطمي المضروب باسم المعزّية :

٤١٦ ا — السنة ٣٥٦ هـ درهم من مجموعة ثور بورن (ضرب قبل الفتح إذا كانت دراسته صحيحة) . Miles, (Fatimid), P. 51

٤١٧ — السنة ٤٧٠ هـ ٢٠ مم ، ١,٤٦ غ (نصف درهم) .
Miles (RIC), 387

* * *

النحاسية : لم أعثر على أي فلس عباسي مضروب بمصر ، ولكن من حسن الحظ أن متحف دمشق يضم في مجموعاته فلساً مذهباً ، صنع بقصد تزييف الدينار ، وقد ضرب بسكة الدينار كما يبدو من مأثورة الضرب ، وإليكم وصفه : (اللوح ٤ — الرقم ٤١٨) :

(١) P. Balog: Notes on some Fatimid Round-Flan Dirhems (N.C. 7th series, Vol. I, 1961

٤١٨ — فلس مذهب — المستنصر — مصر — ٤٣٣ هـ : متحف دمشـــق (ع/٣٨٠٣) — وحيد :

معـــد	عـــلى
الإمام أبو	لا إله إلا الله
تميم المستنصر	وحده لا شريك له
بالله أمير المؤمنين	محمد رسول الله
	ولى الله

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر سنة ثلث وثلثين وأربعمائة — محمد رسول الله أرسله — المشركون

يبدو أن التزييف كان مقصوداً من قبل الخليفة الفاطمى ، عثرت على نص فى (ابن الأثير : ج ٨، ص ٢١١ سنة ٣٦٣ هـ) خلاصته أن المعز أغرى حسان بن الجراح بـ ١٠٠,٠٠٠ دينار إذا ترك وجماعته مساندة القرامطة بقيادة الحسن بن أحمـــد الذى هاجم مصر ، وحاصر العاصـــمة . ولمـــا وفى حسان بعهـــده ، وأراد الخليفة إرسال المـــال « .... فأحضروا المـــال ، فلمـــا رأوه استكثروه (الفاطميون) ، فضربوا أكثرها دنانير من صفر ، وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسافل الأكياس ... »

جرت هذه الحادثة سنة ٣٦٣ هـ ، ولم أعثر على ما يشبه هـــذا الحادث سنة ٤٣٣ هـ .

النقود الزنكية : أشرنا سابقاً إلى ضعف الخلفاء الفاطميين فى آخر العهد ، وكيف توطد الأمر إلى الغُزّ (التركمان) الذين أرسلهم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بقيادة أسد الدين . تسنّم هذا منصب الوزارة سنة ٥٦٤ هـ ، لكنه توفى بعد شهرين ، وخلفه صلاح الدين فى السنة نفسها . وأخيراً ألغيت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وعادت مصر ترتبط بالخلافة العباسية . عندئذ

أصدر صلاح الدين نقوداً جديدة باسم الخليفة العباسى والعادل نور الدين محمـــود :

٤٢٠ — دينار العادل محمود بن زنكى — القاهرة[1] — سنة ٥٦٧ ﻫ .

أشار إليه لين بول فى كتابه (دار الكتب المصرية — ص ٣٤٥)

Lane-Poole: BM, III, Nos. 596-597
Zambaur: (M.I.), P. 189

٤٢١ — دينار العادل محمود بن زنكى — القاهرة — سنة ٥٦٩ ﻫ[2] (٢٠مم ٤,١١ غ) . (اللوح ٥) .

أرى من المفيد إعطاء مأثوراته فيما يلى : ANS-UM

المدار الخارجى (١) محمد رسول الله ا سله (كذا) بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله	(١) بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بالقاهرة سنة تسع وستين وخمسمائة
المدار الأوسط (٢) محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله	(٢) لا إله إلا الله وحده لاشريك له أبو محمد .
المدار الداخلى (٣) وسلم تسليما الملك العـــادل عـــال محمـــود	(٣) المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين الإمام

(١) أشير بهـــذه المناسبة إلى الدينار المضروب فى (الاسكندرية ٥٦٧ﻫ) المحفوظ فى ANS قياســـه (٢٠,٥ مم ، ٤,٥١ غ) وقد ارسل إلى طبعته الأستاذ الدكتور مايلز.

(٢) أرسل إلى الأستاذ الدكتور مايلز مشكورا طبعة هذا الدينار المحفوظ فى ANS وهو من مجموعة جامعة بنسلفانيا سابقا .

الوسط

بن زنكي الحسن

غاية

* * *

النقود الأيوبية المضروبة فى القاهرة :

ظلّ يوسف بن أيوب وفياً إلى الملك العادل نور الدين محمود طوال حياته ؛ ورأى بعد موته ٥٦٩ ﻫ أن يأخذ الأمور بحزم ، فاستولى على الحكم فى مصر والشام سنة ٥٧٠ ﻫ [(١)] ، ووحّد القطرين العربيين الكبيرين ، وواجه الصليبيين بقوات منظمة ، وبروح عالية ؛

اتخذ لنفسه لقب الملك الناصر صلاح الدين ، وأصدر النقود باسم الخليفة العباسي وباسمه ، وقــد سكت النقود الأيوبية حسب النمط الفاطمى وظلت تبتعد قليلا قليلا ، حتى غدت فى عهد الملك الكامل محمد مختلفة تمام الاختلاف بشكلها ووزنها وخطّها ، إذ صارت تكتب بالخط النسخى .

الدنانير المضروبة فى القاهرة وافــرة ، والدراهم القاهرية نادرة ، أما الفلوس فإنى لم أجد حتى الآن فلساً أيوبياً واضحاً [(٢)] عليه (القاهرة) .

* * *

(١) ترك حلب إلى الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين محمود حتى توفى .

(٢) فى متحف دمشق كنز من الفلوس يحوى أكثر من ٧٠٠ قطعة من العهدين الأيوبى والمملوكى ، لم يتسن لى أن أدرســه لأنه بحاجة إلى تنظيف ، عسى أن أحصــل منه على معلومات جديدة فى هــذا الموضوع وفيه أيضا كنز كبير جدا من الفلوس يزن حوالى ٥٠ ك ٠ غ من ضمنه فلوس أيوبية . درست ألف نقد ونيفا ، فما وجدت ضمنها فلسا أيوبيا مضروبا بالقاهرة ، وإنما هى مضروبة بالمدن السورية . (راجع مقالى فى مجــلة الحوليات الأثرية السورية ، المجلدان ٨ — ٩ (١٩٥٨ — ١٩٥٩) ص ٢٥ — ٥٢) .

الذهبية : سكت الدنانير الأيوبية باسم (القاهرة) منـذ سنة ٥٧٠ هـ ولكن حصل شذوذ فى السنتين ٥٢٣ و ٥٢٤ هـ ، فصدرت باسم (مصر) ، ويوجد أيضاً من إصدار سنة ٥٢٤ ماهو مضروب بالقاهرة ، وإليكم إحصاءاً سريعاً للدنانير :

٤٢٢ — ٤٤١ دنانير الملك الناصر صلاح الدين — القاهرة — ٥٧٠—٥٨٩ هـ (اللوح ٦ — الرقم ٤٢٣) .

٤٤٢ — ٤٤٨ دنانير الملك العزيز عثمان — القاهرة — ٥٨٨[1] — ٥٩٤ هـ (اللوح ٦ — الرقم ٤٤٣) .

يلاحظ أن دنانير العزيز عثمان بدأت منذ حياة أبيه فى سنة ٥٨٨ هـ .

٤٤٩ — ٤٥٠ دنانير الملك المنصور محمد — القاهرة — ٥٩٥—٥٩٦ هـ (اللوح ٦ — الرقم ٤٤٩) .

٤٥١ — ٤٧٠ دنانير الملك العادل أبى بكر محمد الأول — القـاهرة — ٥٩٦ — ٦١٥ هـ (اللوح ٦ — الرقم ٤٦٨) .

٤٧١ — ٤٧٧ دنانير الملك الكامل محمد — القاهرة — ٦١٦ — ٦٢٢[2] هـ (اللوح ٦ — الرقم ٤٧١) .

---

(١) تولى العـزيز عثمان ٥٨٩ هـ بعـد وفاة أبيه صلاح الدين ، ولكن يوجد دينار مؤرخ من سـنة ٥٨٨ هـ نشره الدكتور فهمى (متحف الفن الإسلامى رقم ١١١ — ١١٣) . لم أعثر على نص فى المراجع يفيد أن صلاح الدين تنازل عن حق سك النقود إلى ابنه العزيز عثمان ، مع أنه عهد إليه إدارة مصر عندما كان مشغولا فى بلاد الشام .

(٢) من خلال هـذه السنوات يوجد الدينار المؤرخ فى سـنة ٦٢٠ هـ عنـد الدكتور عبد الرحمن فهمى (الرقم — ٤٨٣) ذكره فى مصنفه الأيوبى مع تحقيق ابن بعرة . وقد كتبت مأثوراته مع كثير من الخطأ المتأتى من النقش (كما أشار إلى ذلك الدكتور فهمى) لكن الدكتور فهمى قبل أن يكون الدينار مؤرخا من تلك السـنة مع أن مأثورة الدينار تشير إلى اسم الخليفة المستنصر . ومن المعلوم أن المستنصر بدأ حكمه فى سنة ٦٢٣ هـ . إذن لا يجوز أن نسلم بأن التاريخ (٦٢٠ هـ) .
زمباور ذكر مثالا من سنة ٦٢٠ هـ . Zambuar, (M. I.) P. 189

٤٧٨ — ٤٧٩ دنانير الملك الكامل محمد — مصر — ٦٢٣ — ٦٢٤ هـ
(اللوح ٦ — الرقم ٤٧٨) :
فى متحف دمشق مثالان من سنة ٦٢٣ هـ (ع / ٧٦٧٧
و ع / ٧٦١٥) الأول واضـح أنه مضروب فى مصر ،
الثانى (مكان الضرب غير واضح) (اللوح ٦ — الرقم
٤٧٨) :

زمباور ذكر مثالا من سنة ٦٢٣ هـ Zambaur (M. I.), P. 189

فى متحف دمشق مثال من سنة ٦٢٤ هـ (ع / ٧٦٧٣)
(اللوح ٦ — الرقم ٤٧٩) :

دار الكتب المصرية Lane-Pools, 1392

لا يوجد وصف لمعرفة اسم المدينة Zambaur (M. I,), P. 189

٤٨٠ — ٤٩١ دنانير الملك الكامل محمد — القاهرة — ٦٢٤—٦٣٥ هـ
(اللوح ٦ — الرقم ٤٩١) .

٤٩٢ — ٤٩٤ دنانير الملك العادل الثانى — القاهرة — ٦٣٥ — ٦٣٧ هـ
(اللوح ٦ — الرقم ٤٩٢) .

٤٩٥ — ٥٠٤ دنانير الملك الصالح أيوب — القاهرة — ٦٣٨ — ٦٤٧ هـ
(اللوح ٦ — الرقم ٤٩٦) .

٥٠٥ — دينار شجر الدر (١) — القاهرة — ٦٤٨ هـ Balog I; BM. IV, 469

٥٠٦ — ؟ ؟ السنة ٦٤٨ هـ : لم يعـط زمباور وصفاً للدينار
يجوز أن يكون لشجر الدر ، ويجوز أن يكون للأشرف
موسى ، أو أيبك . Zambaur (M. I.) P. 189

---

(١) P. Bolog: The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria (N. S. no 12) ANS, New York, 1964
يصنف بالوع نقود شجر الدر والأشرف موسى مع المماليك .

٥٠٧ — دينار الأشرف موسى الثاني — القاهرة — ٦٤٩ هـ . Balog, 3

٥٠٨ — دينار الأشرف موسى الثاني — القاهرة — ٦٥٠ هـ Ibid. 4

٥٠٩ — ؟ ؟ — لم يعط زمباور وصفا — ٦٥١هـ Zambaur (M. I.) P. 189

* * *

الدراهم الأيوبية المضروبة في القاهرة : هي نادرة كما ذكرت ، وهي موجودة على الأغلب في متحف دمشق .

٥١٠ — درهم صلاح الدين — القاهرة — ٥٨٦ : متحف دمشق (ع/٢٥٤٣) (اللوح ٩) .

٥١١ — درهم العادل أبي بكر الأول — القاهرة — ٦٠٠ هـ :
Lavoix, III, 608

٥١٢ — درهم العادل أبي بكر الأول — القاهرة — ٦٠٣ هـ : متحف دمشق (ع/ ٢٣٦٤) .

٥١٣ — درهم العادل أبي بكر الأول — القاهرة — ٦١٥ هـ : متحف دمشق (ع/ ٢٩٧٧) .

٥١٤ — درهم الصالح أيوب — القاهرة — ٣(٤) ٦ هـ : متحف دمشق (ع/١٢٠١٨) .

٥١٥ — درهم شجر الدر — القاهرة — ٦٤٨ هـ (سبعة أمثلة)
Balog. 2 +ANS+ BM

* * *

النقود المملوكية المضروبة بالقاهرة :

إن علماء النميات ، بعضهم مثل لافوا بجعل نقود شجر الدر[١] ٦٤٨ هـ مع المماليك ، ويضع الأشرف موسى مع الأيوبيين ، وبعضهم مثل بالوغ[٢] يضع نقود شجر الدر والأشرف موسى مع المماليك ، ذلك لأن شجر الدر أرملة الملك الصالح نجم الدين أيوب تزوجت أيبك ، وأن السلطة الفعلية وسدت إلى أيبك[٣] منذ سنة ٦٤٨ هـ ، أما سلطة الأشرف موسى الأيوبى فقد كانت إسمية[٤] ، لأنه صبى عمره عشر سنوات .

إن المماليك ، وهم يمارسون الحكم لأول مرة ، كانوا بحاجة إلى إسباغ الصفة الشرعية على حكمهم لذا فقد كانوا مفتقرين إلى سلطان أيوبى . ولما ولى الأشرف موسى خطب له على المنابر ، وصدرت النقود تحمل اسم الخليفة واسمه فقط[٥] ، ولم يصدر أيبك نقوداً إلا بعد خلع الأشرف موسى سنة ٦٥٢ هـ . ولما أصدر المعز أيبك نقوده سنة ٦٥٢ هـ جعلها باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب واسمه ، مع أن الملك الصالح متوفى من سنة ٦٤٨ هـ . لكل هذا فإنه يحسن بنا أن نضع نقود شجر الدر والأشرف موسى مع الأيوبيين ، ونصنف نقود أيبك مع المماليك .

---

(١) ورد اسمها كذلك على النقود ، إلا أن المؤرخين يذكرون اسمها (شجرة الدر) .

(٢) فى المرجع المشار اليه سابقا .

(٣) النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٣٨) ج ٧ ص ٤ : . . . فبايعوه (أى بايع المماليك البحرية أيبك) وسلطنوه وأجلسوه فى ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥ : « . . . وبعد خمسة أيام (٥ جمادى الأولى) ثارت المماليك البحرية الصالحية وقالوا لابد لنا من سلطان يكون من بنى أيوب ... واتفق كامل الامراء ... واختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بنى أيوب يكون له اسم السلطنة . . . فوقع الاتفاق على الملك الأشرف مظفر الدين موسى ... وتقدير عمره عشر سنوات . . . »

(٥) أما المراسيم والأوامر فكانت تصدر باسمه السلطانى الملكى واسم أيبك الملكى (النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦) .

إن النقود المملوكية المبكرة (من عهد المنصور نور الدين على وقطز) كانت تقريباً على نسق النقود الأيوبية بترتيبها وشكلها ومأثوراتها ، ثم أخذت منذ عهد الظاهر بيبرس الأول تتخذ شكلا جديداً وتحمل شعار الملك (كان شعار بيبرس سبع يتجه إلى اليسار) . أضاف بيبرس اسم الخليفة العباسى فى مصر على نقوده لإضفاء الشرعية على حكمه وتقوية نفوذه أمام زملائه المماليك :

يلاحظ أن النقود المملوكية ، وبخاصة الدراهم البرجية منها ، ليست منتظمة الضرب ، ولا تظهر عليها المأثورات كلها إلا نادراً ، ويعود هذا إلى ضرب قطع معدنية صغيرة فى سكة كبيرة ، أو إلى قرض أجزاء من النقد ، حتى أن كثيراً من أجزاء الدراهم هى بمثابة (قطع) مقروضة .

وزن الدينار المملوكى غير ثابت ، ولو أنه فى أكثر الأحيان يكون بين ٣ و ٣,٥٠ غ ، الشىء الجديد فى سك النقود المملوكية هو إصدار دنانير مضاعفة (مرتين وثلاث وأربع مرات) . يوجد دينار يصل وزنه إلى ١٦,٨٥
BM.IV, 643

الذهبية: سنعطى إحصاءاً سريعاً لدنانير المماليك البحرية والبرجية المضروبة فى القاهرة :

٥١٦ — ذكر زمباور (M. I.) ص ١٨٨ ديناراً من سنة ٦٥٢هـ دون أن يعطى وصفه :

٥١٧ — دينار المعز عز الدين أيبك (ذكر فيه الصالح أيوب واسمه) ٦٥٤ هـ .
Balog 6. (Thorburn Voll. = BM. IX, 470a); Zambaur (M. I.), P. 189

٥١٨ — دينار المنصور نور الدين على — (٥(؟)٦٥ هـ
Zambaur (M. I.) P. 189

٥١٩ — دينار المنصورنور الدين على ٦٥٧ هـ (مثالان) Balog, 18

٥٢٠ — دينار المظفر قطز — ٦٥٨ هـ (١٦ مثالا) Balog, 23, ANS

٥٢١ — ٥٢٩ دينار الظاهر بيبرس الأول — ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٦ — ٦٦٧ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٤ هـ :

٥٣٠ — دينار السعيد بركة فان — ٦٧٦ هـ Balog, 104

٥٣٢ — ذكر زمباور ديناراً من سنة ٦٧٨ هـ بدون وصف ، يجوز أن يكون إما لسلامش أو لقلاوون .

٥٣٣ — ٥٣٥ دنانير المنصور قلاوون — ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ هـ : (اللوح ٧ — صورة الدينار المؤرخ (؟) ٦٨ هـ من متحف دمشـــق) ؛

٥٣٦ — ٥٣٩ دنانير الأشرف خليل — ٦٨٩ — ٦٩٢ هـ (٦٩٠ هـ مضروب فى القاهرة المحروسة[1]) (اللوح ٧ — الرقم٥٣٦)

٥٤٠ — ٥٤٢ دنانير العادل كتبغا — ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ .

٥٤٣ — دينار المنصور لاجين — ٦٩٧ هـ (أربعة أمثلة) Balog, 162

٥٤٤ — الناصر محمد (حكمه الأول ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ) ، يظن أن ليس له فى هـــذه الفترة أى دينار ، وأن الدينار المؤرخ فى (؟)٦٩ هـ ربما كان يعود إلى حكمه الثانى
Balog, 167, ([BM. IX, 498k)

٥٤٥ — ٥٤٦ دنانير الناصر محمد (حكمه الثانى ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ) — ٧٠٢ هـ Zambau, ٧٠٧ هـ Balog 168

---

(١) ليس المقصود أن تعطى القاهرة أسما جديدا بهذا الوصف ، وإنما هـــو نعت استعمل للقاهرة ولدمشق على النقود المملوكية وخاصة الدراهم .

٥٤٧ ـ ٥٦٥ دنانير الناصر محمد (حكمه الثالث[1] ٧٠٩ – ٧٤١ ﻫ) –
٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٦ ، ٧٢٤ ، ٧٣٠ ، ٧٤١ ﻫ
ذكر هذا التسلسل زمباور M. I. من ضمنها ذكر بالوغ
٧٣٣ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ﻫ . (اللوح ٧ –
الرقم ٥٦٤) .

٥٦٦ ـ دينار المنصور أبي بكر – ٧٤٢ ﻫ وحيد Balog, 266

٥٦٧ ـ ٥٦٩ دينار الصالح اسمعيل[2] – ٧٤٣ – ٧٤٥ ﻫ .

٥٧٠ ـ ٥٧١ دينار الكامل شعبان الأول – ٧٤٦ – ٧٤٧ ﻫ .

٥٧٢ ـ دينار المظفر حاجي الأول (القاهرة المحروسة) ٧٤٧ ﻫ .

٥٧٣ ـ الدينار ٧٤٨ ﻫ الذي لم يذكره بالوغ ، وذكره زمبـاور
في تسلسله دون وصف ، لاندرى أهو يعود إلى المظفر
حاجي الأول أم إلى الناصر حسن ؟ – وحيد :

٥٧٤ ـ ٥٧٧ دنانير الناصر حسن (حكمه الأول) ٧٤٩ – ٧٥٢ ﻫ :

٥٧٨ ـ ٥٨١ دنانير الصالح صالح – ٧٥٢ – ٧٥٥ ﻫ (اللوح ٧ –
الرقم ٥٧٩) .

٥٨٢ ـ ٥٩٠ دنانير الناصر حسن (حكمه الثاني) ٧٥٦ – ٧٦٢ ﻫ .
(اللوح ٧ – الرقم ٥٨٣) :

٥٩١ ـ ٥٩٣ دنانير المنصور محمد – ٧٦٢ – ٧٦٤ ﻫ .

---

(١) حكم بين عهدى الناصر محمد الثاني والثالث المظفر ركن الدين بيبرس الثاني، وليس له دنانير معروفة حتى الآن .

(٢) قبل هذا الملك حكم الأشرف علاء الدين كجك (٧٤٢ ﻫ) والنـاصر شهاب الدين أحمد (٧٤٢ – ٧٤٣ ﻫ) وليس لهما دنانير حسبما هو متيسر لدينا من المعلومات .

٥٩٤ — ٦٠٨ دنانير الأشرف شعبان الثانى — ٧٦٤ — ٧٧٨ هـ (زمباور ذكر فى تسلسله الدينار ٧٧٠ هـ الذى ينقص من تسلسل بالوغ (اللوح ٧ — الرقم ٥٩٦) :

٦٠٩ — ٦١٣ دنانير المنصور على — ٧٧٨ — ٧٨٢ هـ (اللوح ٧ — الرقم ٦١٣) .

٦١٤ — دينار الصالح صلاح الدين حاجى الثانى (هذا لقبه فى حكمه الأول) ٧٨٣ هـ .

٦١٥ — دينار المنصور ناصر الدين حاجى الثانى (هذا لقبه فى حكمه الثانى) ٧٩١ هـ .

* * *

المماليك البرجية :

إن المماليك البرجية (وهم من الشركس) أخذوا يزاحمون المماليك البحرية (وهم من الأتراك) منذ زمن ، وقد استطاع الملك الظاهر برقوق أن يخلع الصالح حاجى الثانى سنة ٧٨٤ هـ ، ويحكم هو بنفسه بين ٧٨٤ — ٧٩١ هـ ، ولكن تمكن المماليك البحرية أن يستعيدوا شيئا من قوتهم ، ويخلعوا برقوق فى سنة ٧٩١ هـ ، وأعادوا حاجى الثانى بلقب جديد فيه نشوة النصر (المنصور ناصر الدين حاجى) . ما لبث برقوق أن استجمع قوته من البرجيين ، وأزاحوا حاجى الثانى ، وتملكوا نهائيا . وإليكم إحصاء بدنانير البرجيين :

٦١٦ — ٦٢١ دنانير الظاهر برقوق (حكمه الأول ٧٨٤ — ٧٩١ هـ) ، ٧٨٤ — ٧٨٩ هـ :

٦٢٢ — دينار الظاهر برقوق (حكمه الثانى ٧٩٢ — ٨٠١) ٧٩٢ هـ (وحيد)

Lavoix, III, 954

٦٢٣ — ٦٣٠ دنانير الظاهر برقوق — ٧٩٤ — ٨٠١ هـ ينقص تسلسل
بالوغ ٧٩٥ و ٧٩٦ هـ سدّ النقص الأول متحف دمشق
(ع / ١٨١٨) ولكن العشرات فى التاريخ غير مؤكدة
(٥ (٩ / ٨) ٧هـ) ، وسدّ النقص الثانى زمباور (M. I.)
اللوح ٨—الرقم٦٢٤)

٦٣١ — ٦٣٨ دنانير الناصر فرج (حكمه الأول ٨٠١ — ٨٠٨ هـ)
٨٠١ ، ٨٠٣ — ٨٠٨ هـ .

٦٣٩ — ٦٤٣ دنانير الناصر فرج (حكمه الثانى[1] ٨٠٩ — ٨١٥ هـ)
٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١٢ ، ٨١٣، ٨١٤ هـ ، (اللوح ٨ —
الرقم ٦٤٢) .
ذكر زمباور (M. I.) ٨١٥ هـ دون وصف. هل يجوز أن
يكون لفرج فى هذه الفترة ؟ .

٦٤٤ — دينار الخليفة العباسى فى مصر المستعين بالله أبو الفضل
عباس حكم فى سنة ٨١٥ هـ فى فترة اختلاف المماليك
على الحكم ، وأصدر ديناره المؤرخ فى ٨١٥ هـ بالقاهرة
ودمشق : فى متحف دمشق أربعة أمثلة منها واحد ضرب
فى القاهرة — (ع/٢٠٥٥) وهو نفسه الذى ذكره بالوغ
تحت الرقم القديم ٥٩٠٦) وزنه ٣٫٤٢ غ (اللوح ٨ —
الرقم ٦٤٤) ، وقد ذكر بالوغ مثالين آخرين
Nos. 671 - 671 a

٦٤٥ — ٦٤٨ دنانير المؤيد شيخ — ٨١٥ — ٨١٦، ٨٢١، ٨٢٣ هـ ،

(١) بين حكمى الناصر فرج حكم المنصور عبد العزيز (٨٠٨— ٨٠٩ هـ) وليس له دينار فى حد علمنا .

٦٤٩ — دينار المظفر أحمـد — ٨٢٤ ﻫ وهو دينار وحيد محفوظ في متحف دمشق (ع/٣٩٢٣)=وهو نفسه الذى ذكره بالوغ تحت الرقم القديم (١٠٨٥٧) : (اللوح ٨ — الرقم ٦٤٩) :

٦٤٩ — ا دينار الظاهر سيف الدين[(١)] ططر ينقصه التـاريخ ومكان الضرب يجب أن يكون مؤرخاً من سنة ٨٢٤ ﻫ :

٦٥٠ — ٦٦٢ دنانير الأشرف برسباى — ٨٢٧، ٨٢٩، ٨٣١، ٨٣٣— — ٨٣٨، ٨٤٠ — ٨٤١ ﻫ (اللوح ٨ — الرقم ٦٥٠)

٦٦٣ — دينار العزيز جمال الدين يوسف : بدأ حكم العزيز يوسف فى أواخر سنة ٨٤١ﻫ،وانتهى فى أوائل ٨٤٢ ﻫ . وذلك لمدة ثلاثة أشهر وخمسة أيام وكان له من العمر ١٤ عاماً ، وقد جعل جقمق مشرفاً على نظام المملكة ، لكن جقمق ما لبث أن خلع العزيز وتسلم الحكم بنفسه :

يوجد من دنانيره سبعة أمثلة (أحدها فى متحف دمشق) لم يظهر رقم الآحاد جلياً فى التاريخ ، لذا نكتب تاريخ هذا الإصدار (١) ٨٤ ﻫ أو (٢) ٨٤ ﻫ .

٦٦٤ — ٦٦٤ ا — دنانير الظاهر جقمق — ٨٤٢ — ٨٤٣، ٤(٥ / ٤)٨ﻫ (متحف دمشق ع/ ١٥٢٠٥) ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٥٤ ﻫ (اللوح ٨ — الدينار المؤرخ فى ٤(٥/٤)٨١ ﻫ).

٦٦٥ — دينار المنصور فخر الدين عثمان — ٨٥٧ ﻫ (حكم ٤٦ يوماً فقط) :

(١) من مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض . أشكره لاهتمامه بعلم النميات والعاملين فيه .

فى متحف دمشق مثالان ، التاريخ فى أحدهما (ع/١٢٧٥)[1] غير واضح (اللوح ٨) ، والثانى لا يظهر فيه مكان الضرب (ع/٩٧٢٦) يوجد مثال ثالث فىANS ورابع فى استانبول Balog, 756

٦٦٦ — دينار الأشرف إينال — ٨٥٧ هـ (لأول مرة يبدو التاريخ بالأرقام) Balog, 758-9 يوجد منــه أحد عشر مثالا ، خمسة منها واضحة ، والباقى ينقصه التاريخ الواضح ومكان الضـــرب :

٦٦٧ — ٦٦٨ دينار الأشرف إينال — ٨٦٣ — ٨٦٤ هـ (الدينار ٨٦٤هـ ذكره زمباور M. I.) ذكر زمباوربدون وصـــف (٨٦٥ هـ) ولا ندرى أيخص إينال أم المؤيد شهاب الدين أحمد أم خشقدم ؟ :

٦٦٩ — دينار المؤيد شهاب الدين أحمد — ٨٦٥ هـ[2] : ذكره لافوا مثالا واضحاً تحت الرقم (١٠٦٧) وذكر بالوغ مثالا آخر (779b) .

٦٧٠ — ٦٧٥ دنانير الظاهر خشقدم — ٨٦٥ — ٨٧٠ هـ . ذكر زمباور الثلاثة الأخيرة (٨٦٨—٨٧٠ هـ) زمباور بدون وصف: (اللوح ٨ — الرقم ٦٧٢) .

٦٧٦ — ذكر زمباور (M. I.) دينارا من ســـنة ٨٧٢ هـدون وصف فلاندرى أهو يعود إلى خشقدم ، أم إلى الظاهر بلباى ، أم إلى الظاهر تمربغا ؟ :

(١) هو نفسه الذى ذكره بالوغ تحت الرقم القديم (٤٢٥٦) وجاء فى كتابه تحت الرقم 755 .

(٢) حكم أربعة أشهر فقط .

٦٧٧ — دينار الظاهر سـيف الدين بلباى.(١) لا يظهر عليه مكان الضرب ولا التاريخ، يجب أن يكون من سـنة ٨٧٢ هـ.

٦٧٨ — ٦٨١ دنانير الأشرف قايتباى — ٨٧٩ هـ (ذكره زمبـاور) ٨٨٦، ٨٨٩، ٨٩٧ هـ.

٦٨٢ — ٦٨٢ أ : دنانير الناصر محمد الثانى — ٩٠٢ و ٩٠٤ هـ. الدينار المؤرخ من سنة ٩٠٢ هـ وحيد وهو من مجموعة متحف دمشق، كتب التاريخ (٩٥٢ كذا) = أى أن (الصفر) كان يكتب فى العهد المملوكى كالخمسة فى أيامنا هذه، أما (الخمسة) فقد كانت تكتب على النحو التالى

أو (اللوح ٨ — الرقم ٦٨٢) :

٦٨٣ — ٦٩١ دنانير الأشرف قانصوه الغورى(٢) — ٩١٢ — ٩٢٠ هـ.

٦٩٢ — دنانير الأشرف طومان باى — ٩٢٢ هـ :

* * *

الفضـية :

٦٩٣ — ٦٩٦ دراهم المعز عزّ الدين أيبك (درهمه باسم الملك الصالح أيوب واسمه) ٦٥٢ — ٦٥٥ هـ :

٦٩٧ — درهم المنصور نور الدين على ٦٥٤ هـ(٣)، متحف دمشق (ع/ ١٢٠٤٤) (اللوح ٩ — الرقم ٦٩٧).

---

(١) من مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض فى القاهرة.

(٢) حكم بين سنتى ٩٠٤ — ٩٠٦ هـ ثلاثة ملوك. وكان الحكم فى تلك الفترة غير مستتب.

(٣) لقد كان هذا الدرهم هو الوحيد فى العالم قبل أن نعلم بوجود تسعة دراهم مملوكية، أحدهما مثل درهمنا هذا. راجع :

Bacharach, Jere L.: Numismatic Literature, No. 81, December 1968, ANS, NEW YORK, P. 68, No. 372

هذا الدرهم مضروب بالقاهرة ، ومؤرخ بكل وضوح من هذه السنة ، وهو درهم هام جداً . فاذا كان الضرب صحيحاً من سنة ٦٥٤ ﻫ فهو يصحح ماجاء فى جميع الكتب التاريخية وكتب النميات ، فهى جميعاً تجعل بدء حكم المنصور على يبدأ من سنة ٦٥٥ ﻫ ، ولكن مع ذلك لا أستبعد أن يكون أيبك أراد قبل موته أن يضرب هذا الدرهم باسم ابنه تقوية لنفوذه عندما يصل إلى الحكم ، لأننا نعلم أن نقود أيبك نفسها كانت تحمل اسم الملك الصالح أيوب المتوفى ، فهو إجراء لاختبار رد الفعل عند المماليك والشعب .

٦٩٨ ـــ ٧٠٠ دراهم المنصور نور الدين على : ٦٥٥ ـــ ٦٥٧ ﻫ (اللوح ٩ ـــ الأرقام ٦٩٨ ـــ ٧٠٠) .

٧٠١ ـــ ٧٠٢ دراهم المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧ ـــ ٦٥٨ ﻫ :

٧٠٣ ـــ ٧٢١ دراهم الظاهر بيبرس الأول ٦٥٨ ـــ ٦٧٦ ﻫ (اللوح ٩ـــ الأرقام ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧١٣ ، ٧١٤) و (اللوح ١٠ ـــ الرقمان ٧١٧ ، ٧٢١) .

٧٢٢ ـــ ٧٢٤ دراهم السعيد بركة قان ٦٧٦ ـــ ٦٧٨ ﻫ .

٧٢٥ ـــ درهم العادل بدر الدين سلامش (٨)٦٧ ﻫ : متحف دمشق (ع/ ٧٥٠١) Balog 113-4 (اللوح ١٠ ـــ الرقم ٧٢٥) .

٧٢٦ ـــ ٧٣١ دراهم المنصور قلاون : ٦٧٨ ، ٦٧٩ (متحف دمشق) ، ٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ﻫ .

٧٣٢ — درهم الأشرف خليل (٦٨٩ / ٦٩٣ هـ) ذكر بالوغ ١٧ مثـالا ويوجد فى متحف دمشق (ع / ٧٥٢١) ومثـال آخر ليس بتاريخه وضوح :

٧٣٣ — ٧٣٤ دراهم العادل كتبغا ٦٩٤ — ٦٩٥ هـ :

٧٣٥ — دراهم المنصور لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨) ذكر بالوغ مثالين ويوجد ثالث فى متحف دمشق (ع / ٧٥٣١) ليس فيها وضوح التاريخ :

الناصر محمد (حكمه الأول ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ) لايوجد من هذه الفترة دراهم منشورة :

الناصر محمد (حكمه الثـانى — ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ) . يوجد عدد كبير من دراهمه فى متحف دمشق لكن لا يتضح مكان الضرب :

٧٣٦ — ٧٣٧ دراهم المنصور محمد (حكمه الثالث ٧٠٩ — ٧٤١ هـ) يوجد أيضاً فى متحف دمشق عدد كبير من الدراهم ، بعضها التاريخ عليه واضح ، لكن مكان الضرب غير واضح نذكر منها ٧٢٣ ، ٧٣٠ هـ (ع / ١٠٧١١ وع / ١٣٩٨٧) ذكر لين بول درهماً ضرب بالقاهرة لا يعرف من تاريخه إلا الآحاد (؟؟٤) هـ . BM. IV

٧٣٨ — درهم المنصور أبو بكر (٧٤١ — ٧٤٢ هـ) : فى متحف دمشق (ع / ١٣٩٨٩)

درهم ، التاريخ غير واضح عليه يجب أن يكون(١) ٧٤ هـ ، أو (٢) ٧٤ هـ .

٧٣٩ — ٧٤٠ درهم الناصر أحمد (٧٤٢–٧٤٣ ﻫ) : ذكر بالوغ درهماً ، التاريخ عليه غير واضح :
في متحف دمشق درهم مؤرخ من سـنة ٧٤٣ ﻫ مكان الضرب عليه غير واضح (ع/ ١٠٧٣٠) (اللوح ١٠– الرقم ٧٤٠) :

٧٤١ — ٧٤٢ دراهم الصالح اسمعيل (٧٤٣ – ٧٤٦ ﻫ) : ذكر بالوغ درهماً ، التاريخ عليه غير واضح : في متحف دمشق أربعة دراهم مؤرخة من سنة ٧٤٤ ﻫ ، ولكن مكان الضرب عليها غير واضح (ع/ ١٣٩٩٢) : (اللوح ١٠ – الرقم ٧٤٢) :

٧٤٣ — درهم الكامل شعبان الأول (٧٤٦– ٧٤٧ ﻫ) في متحف دمشق درهم مؤرخ ٤٦(٧) ﻫ ، لكن مكان الضرب غير واضح (ع/١٣٤٩٣) :
المظفر حاجي الأول (٧٤٧ – ٧٤٨ ﻫ) : ليس له دراهم يتضح عليها التاريخ ، ولا مكان الضرب .

٧٤٤ — ٧٤٥ درهم الناصر حسن (حكمه الأول ٧٤٨–٧٥٢ ﻫ) ٧٤٨ ﻫ BM. IV, 551 يوجد درهم آخر التاريخ عليه غير واضح .
الصالح صالح (٧٥٢ – ٧٥٥ ﻫ) : لا يوجد :

٧٤٦ — درهم الناصر حسن (حكمه الثاني ٧٥٥ – ٧٦٢ ﻫ) : درهم ، التاريخ عليه غير واضح : Balog, 363
المنصور محمد (٧٦٢ – ٧٦٤ ﻫ) : لايوجد دراهم من عهده حتى الآن :

٧٤٧ — ٧٤٨ دراهم الأشرف شعبان الثانى (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) يوجد دراهم من شكلين التاريخ عليها غير واضح .
Balog, 428 - 9

٧٤٩ — درهم المنصور علاء الدين على (٧٧٨ — ٧٨٣ هـ) درهم فى متحف دمشق (ع/ ١٥٢١) التاريخ عليه غير واضح .

٧٥٠ — درهم حاجى الثانى (حكمه الأول مع اللقب الصالح ٧٨٣ — ٧٨٤ هـ) .
درهم فى متحف دمشق (ع/ ١٠٧٥٤) التاريخ عليه غير واضح .

٧٥١ — درهم حاجى الثانى (حكمه الثانى مع اللقب المنصور ٧٩١ — ٧٩٢هـ) درهم فى متحف دمشق (ع/ ١٤٠٠٤) التاريخ عليه غير واضح .

* * *

دراهم المماليك البرجية :

٧٥٢ — درهم الظاهر برقوق (من حكمه الأول) ٧٨٩ هـ .
الناصر فرج (حكمه الأول ٨٠١ — ٨٠٨ هـ) لا يوجد .

٧٥٣ — الناصر فرج (حكمه الثانى[1] ٨٠٩ — ٨١٥ هـ) يوجد ثلاثة أشكال من الدراهم التاريخ عليها غير واضح ولا يعرف على الضبط من أية فترة من حكمه .

٧٥٤ — يوجد درهم مؤرخ ١٢(٨) هـ . مكان الضرب غير موجود :
متحف دمشق (ع ٧٢٢٧) (اللوح ١٠ — الرقم ٧٥٤)

(١) حكم بين الفترتين المنصور عبد العزيز (٨٠٨-٨٠٩هـ) وليس له نقود باسمه حتى الآن.

٧٥٥ — درهم الخليفة المستعين بالله (٨١٥ هـ) : ٨١٥ هـ يجب أن يكون مكان الضرب القاهرة Balog, 673-4

٧٥٦ — ٧٦١ دراهم المؤيد شيخ (٨١٥ — ٨٢٤ هـ) : ٨١٥ ، ٨١٧ — ٨٢١ هـ :

Balag, 686-9 and A-K

٧٦٢ — ٧٦٣ دراهم الأشرف برسباى(١) (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) ٢٥(٨) هـ متحف دمشق (ع/١١٤٧٧) (اللوح ١٠ — الرقم ٧٦٢) ٨٣٦ هـ متحف دمشق (ع/ ٢٥٢١) .

٧٦٤ — ٧٦٥ دراهم جقق(٢) (٨٤٢ — ٨٥٧) ٨٤٥ ؛ ٨٤٦ هـ :

٧٦٦ — ٧٦٩ دراهم الأشرف إينال (٨٥٧ — ٨٦٥ هـ) : ٨٦١، ٨٦٤هـ

٧٧٠ — ٧٧١ دراهم الظاهر خشقدم(٣) (٨٦٥ — ٨٧٢ هـ) : ٨٦٦، ٨٦٨هـ

٧٧٢ — ٧٧٤ دراهم الأشرف قايتباى(٤) (٨٧٣ — ٩٠١ هـ) : ٨٨٥ ؛ (مكان الضرب غير موجود — متحف دمشق) . ٨٨٦ ؛ ٨٨٧ هـ ، وقد ذكر بالوغ عدداً من الدراهم تواريخها غير واضحة .

٧٧٥ — درهم الناصر محمد الثانى (٩٠١ — ٩٠٤ هـ) : ٩٠٢ هـ(٥) Balog, 849 لا يوجد دراهم للملوك التالين .

* * *

(١) حكم قبله المظفر أحمد والظاهر ططر والصالح محمد وليس لهم دراهم حتى الآن .
(٢) حكم قبله العزيز يوسف ، وليس له درهم حتى الآن .
(٣) حكم قبله المؤيد أحمد ، وليس له دراهم حتى الآن .
(٤) حكم قبله الظاهر بلباى والظاهر تمربغا وليس لهما دراهم حتى الآن .
(٥) كتب التاريخ بالأرقام ٩٥٢ ، أى أنه كتب الصفر كالخمسة التى نستعملها الآن .

النحاسية : الفلوس المملوكية حالتها سيئة إجمالا والمعلومات عليها ناقصة ، لكن فيهـــا تنوعاً عظيما من حيث المأثورات والزخارف والشعارات وتوزيعها ضمن قطاعات ومناطق :

فلوس المماليك البحرية المضروبة فى القاهرة :

٧٧٦ — فلس المظفر قطز ٦٥٨ هـ .

٧٧٧ — فلس الظاهر بيبرس الأول : التاريخ ومكان الضرب غير واضحين (متحف دمشق) :

٧٧٨ — ٧٨٠ فلوس المنصور قلاوون (٩/٨) ٦٧ هـ : فى متحف دمشق فلس مؤرخ من سنة ٦٨٣ هـ (اللوح ١٠ — الرقم ٧٧٩) ، وآخر من ســـنة ٦٨٥ هـ ولكن مكان الضرب غير واضح عليهـــا :

٧٨١ — ٧٨٣ فلوس الناصر محمد : ٧١٠ ، ٧٢٠ — ٧٢١ هـ ويوجد عدد من الفلوس والتاريخ عليها غير واضح .

٧٨٣ — ا فلس مؤرخ من سنة ٣٧(٧) هـ ، مكان الضرب عليه غير واضح (متحف دمشق) (اللوح ١٠) .

٧٨٤ — ٧٨٥ فلوس الصالح اسمعيل : ٧٤٥ هـ (بالوغ ذكر ١٩٣ مثالا) ، ٧٤٦ هـ :

٧٨٦ — ٧٨٩ فلوس الناصر حسن : ٧٥٩ — ٧٦٢ هـ .

٧٩٠ — ٧٩٢ فلوس المنصور محمد : ٧٦٢ — ٧٦٤ هـ .

٧٩٣ — ٨٠٤ فلوس الأشرف شعبان الثانى : ٧٦٤ — ٧٧٠ ، ٧٧٣ ، ٧٧٥ — ٧٧٨ هـ (اللوح ١٠ — الرقم ٧٩٤) .

٨٠٥ — ٨٠٧ فلوس المنصور علاء الدين على : ٧٧٩ — ٧٨١—٧٨٢هـ؛

٨٠٨ — ٨٠٩ فلس الصالح حاجى الثانى : ٧٨٣ هـ . ذكر بالوغ أوقيات تحمل هذا التاريخ أيضا ٧٨٤ هـ : Balog, 518

٨١٠ — ٨١٩ فلوس الظاهر برقوق ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٩١ — ٧٩٦ ، ٧٩٨ — ٧٩٩ هـ :

٨٢٠ — فلس الأشرف برسباى : (؟) ٨٣ هـ : Balog, 730

٨٢١ — ٨٢٣ فلوس الأشرف إينال : (؟) ٨٥ ، ٨٦٣ — ٨٦٤ هـ :

٨٢٤ — فلس الظاهر خشقدم : فلس ، التاريخ غير واضح عليه : Balog, 797

٨٢٥ — فلس الناصر محمد الثانى : ٩٠٢ هـ : Balog, 859

٨٢٦ — فلوس الأشرف قانصوه الغورى : ؟ ٩٠٥ هـ (كتبت ٩٠ = Balog, 893) لكن قانصوه الغورى بدأ حكمه سنة ٩٠٦ هـ .

٨٢٧ — ٨٢٨ ٩١٧ — ٩١٨ هـ : Balog, 894-895

* * *

النقود العثمانية المضروبة بمصر : عادت (مصر) وحلت محل (القاهرة) على النقود العثمانية ، وليس هناك من مميزات هامة للنقود المضروبة فى مصر ، فهى تتبع تقريباً النمط العام . ولما طال البحث ، فإنى أترك إتمام هذه الناحية فى المطوّل — إن شاء الله — .

* * *

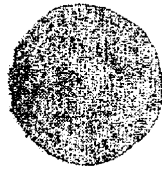
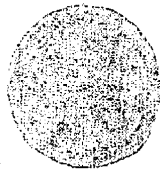
أرجو أن أكون قد وفقت فى إعطاء فكرة عن هذا الموضوع لغير المختصين ، كما أرجو أن يرضى المختصون عن طريقة معالجة الموضوع بهذا الشكل المختصر :

أتمنى من كل قلبي أن يكتب لهذه المدينة الازدهار والخلود على مر العصور ، وأن تظل القلب النابض للعروبة والإسلام :

المتحف الوطني بدمشق

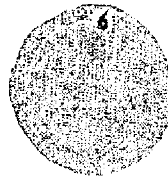
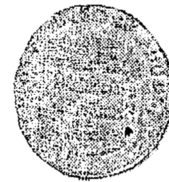
عباسي - ذهب

AV

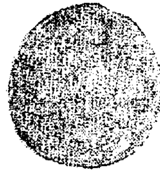
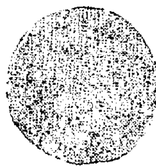
١٧٥ هـ

١٢

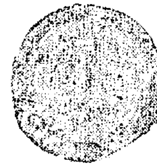
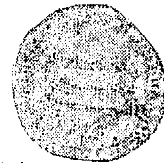
١٧٠ هـ

٣

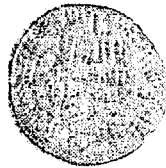
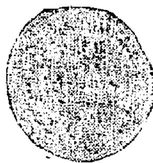
١٩٨ هـ

١٩

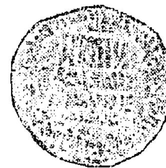
١٧٧ هـ

١٤

٢١٠ هـ

٢٨




١٩٩ هـ

٢١




٢٥٥ هـ

٦٨

اللوح - ١

المتحف الوطني بدمشق

طولوني - عباسي - اخشيدي

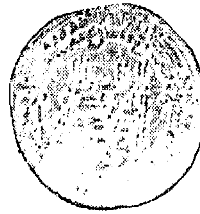
ذهب AV

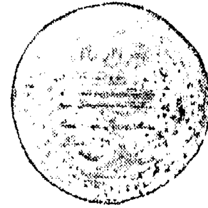


طولوني ٢٩١ هـ

١٠٣

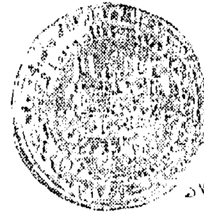






طولوني ٢٧٧ هـ

٨٩



عباسي ٧٠٤ هـ

١١١







عباسي ٣٠٧ هـ

١١٩





اخشيدي ٣٢٢ هـ

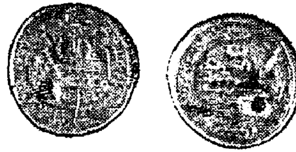
١٤٣

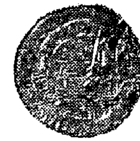
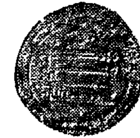
اللوح - ٢

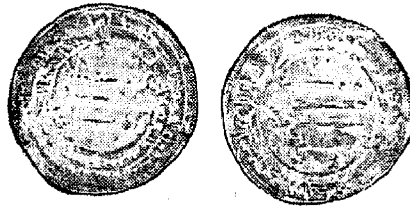


المتحف الوطني بدمشق
طولوني - عباسي - اخشيدي

فضة - AR

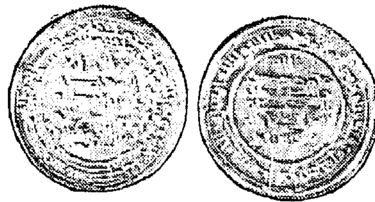

طولوني ٢٧٤ هـ
١٨٣

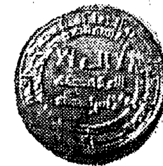

عباسي ٢٨٥ هـ
١٨٦



عباسي ٢٩٣ هـ
١٨٧

عباسي ٣٢٢ هـ

١٨٨


اخشيدي ٣٣٢ هـ
١٩٠

ن ٣٢٣ هـ

١٨٩

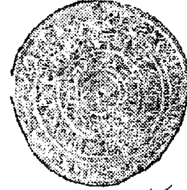
اللوح - ٣

٩٨١

المتحف الوطني بدمشق

فاطمي - ذهب

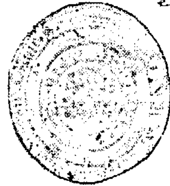
AV

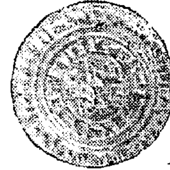



جمادى الآخرة (كذا)
٣٦٠ هـ
٢٠٣

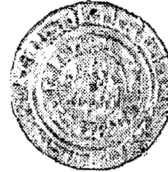


٣٨٨ هـ
٢٢١





٣٩٦ هـ
٢٣٩



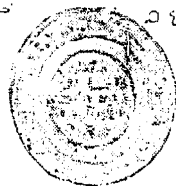



٤١٣ هـ
٢٥٥



خاصي مذهب
٤١٨

٤٣٣ هـ






٤٣٠ هـ

اللوح - ٤

المتحف الوطني بدمشق
فاطمي - زنكي - ذهب

AV



٤٩٤ هـ
٣٢٤






٥٠٠ هـ
٣٢٠



المعزية القاهرة
٥١٨ هـ
٣٩١






٥٢٠ هـ
٣٥٠

ANS




محمود بن زنكي
٥٦٩ هـ
٤٠١

اللوح - ٥

المتحف الوطني بدمشق

أيوبي - ذهب

AV

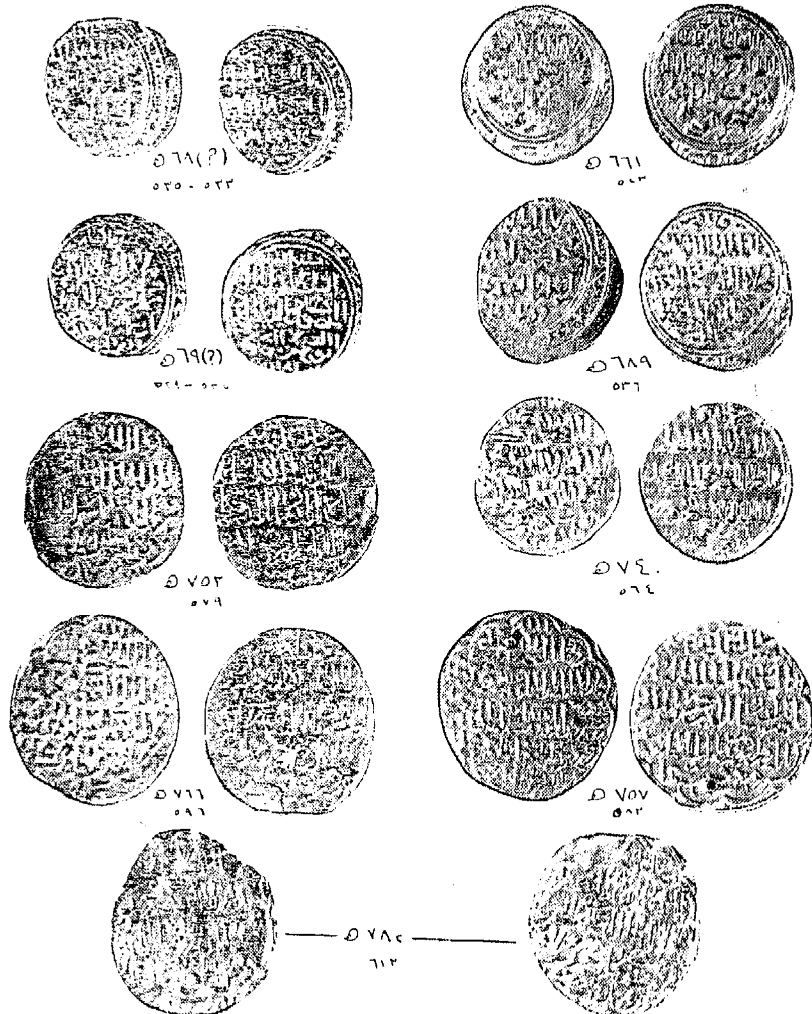


اللوح - ٦

المتحف الوطني بدمشق

مملوكي - بحري

ذهب - N

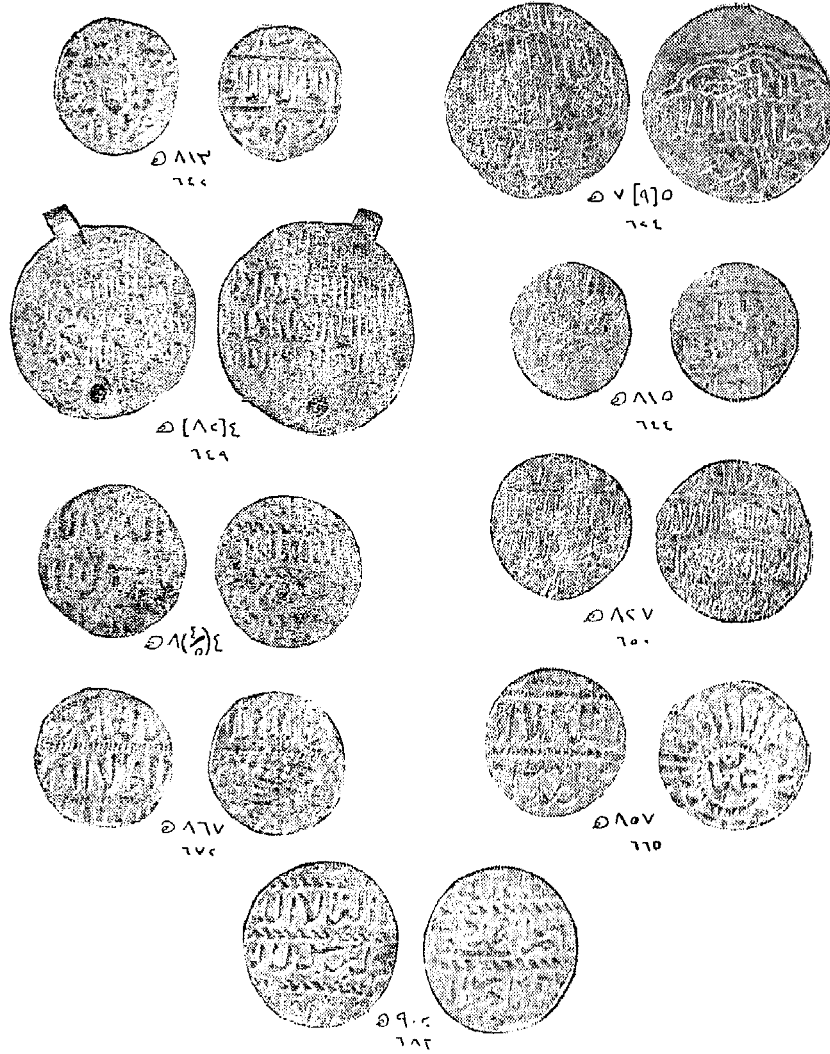


اللوح - ٧

المتحف الوطني بدمشق

مملوكي - برجي

ذهب AV



اللوح - ٨

المتحف الوطني بدمشق

أيوبي - مملوكي

فضة AR

صلاح الدين





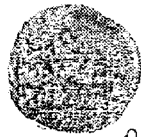
أيوبي

٥٨٦هـ
٥١٠

فضة AR

مملوكي

بحري



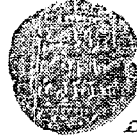


٦٥٥هـ
٦٩٨



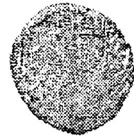


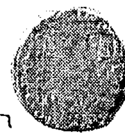
٦٥٤هـ
٦٩٧



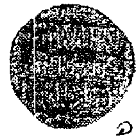


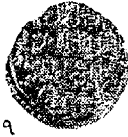
٦٥٧هـ
٧٠٠



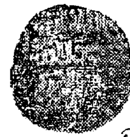


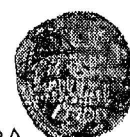
٦٥٦هـ
٦٩٩





٦٥٩هـ
٧٠٤٠



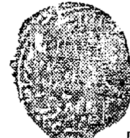


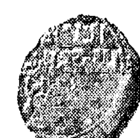
٦٥٨هـ
٧٠٣





[٦٦]٩هـ
٧١٤





[٦]٦٨هـ
٧١٣

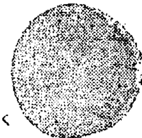
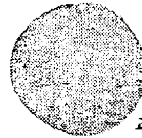
اللوح - ٩

المتحف الوطني بدمشق

مملوكي

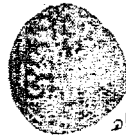
فضة AR

بحري

[٦]٧٢هـ

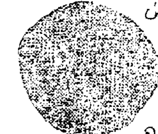
٧١٧

[٦]٧٦هـ

٧٢١

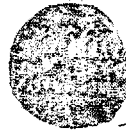
سلامش

٦٧[٨]هـ

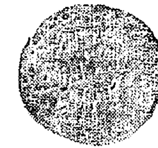
٧٢٥

أحمد

٧٤٣هـ

٧٤٠

٧٤٤هـ

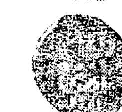
٧٤٥

برجي



٨١٢هـ

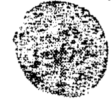
٧٥٩





[٨]٢٥هـ

٧٦٢



بحري : نحاس Æ



٦٨٣هـ

٧٧٩





[٧]٣٧هـ

٧٨٣ آ






٧٦٥هـ

٧٩٤

اللوح – ١٠

مُحتويات الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٢٠ لسنة ١٩٧١

(مطبعـة دار الكتب ١١/١٩٧١/٢٠٠٠)

